دكتور
جاد طه
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
ورئيس قسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة عين شمس

معالم
تاريخ مصر الحديث والمعاصر

الناشر
دار الفكر العربي

الفصل الأول

الحملة الفرنسية على مصر

مقـــدمة

فى السـنوات الاخيرة حاصرنى تاريخ مصر ، فبالاضافة الى عملى كأستاذ بالجامعة تم اختيارى كعضـــو فى لجنة التنسيق العليا للمتحف القومى للحضارة المصرية •وكان على أن أرأس مجموعة عمل تقوم بالمرور على كافة متاحف مصر الحديثة (المتحف الحربى ـ المتحف الزراعى ـ متحف السكة الحديد ـ متحف قناة السويس ـ متحف التعليم ـ متحف البريد ـ متحف الركايب ـ متحف الامير محمد على ـ متحف الجوهرة ومتحف الرى ••• الخ) وذلك تمهيدا لكتابة السيناريو الخاص بالحضـــارة المصرية الحديثة للمتحف القومى للحضارة ، والذى سيقام بأرض المعارض بالجزيرة

وبالاضـــافة الى اعمالى فى لجنة التنسيق العليا فى ذلك المتحف ، أصبحت عضوا بمجلس ادارة المتاحف التاريخية والاقليمية وهكذا أصبحت عاكفا على دراسة الحضارة المصرية الحديثة وبطريقة يومية •

وتلفت حولى فوجدت مؤلفات زملائى الاســاتذة عن تاريخ مصر الحديث والمعاصر تملأ الاسماع والابصار • ولكن كتاباتهم متخصصة جدا ككتاب عن أحد الزعماء أو عن أحد الاحزاب أو عن فترة قصيرة جـدا من تاريخ مصر السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى • وكذلك كانت كتبى أنا أيضـــا •

وهكذا برزت فى مخيلتى فكرة هذا الكتاب ••• معالم تاريخ مصر الحديث والمعاصر • وقد قسمت هذا الكتاب الى فصول ••• فى الفصل الاول تكلمت عن الحملة الفرنسية على مصر وكيف أن هذه الحملة كانت تمثل تقدم ثلاثة قرون عاشتها أوربا بعد عصر النهضة أمام تخلف ثلاثة قرون عاشتها مصر تحت الحكم العثمانى ، وكان اللقاء حافلا بطبيعة الحال مما أعـــد المصريين للتغيير •

وفى الفصـل الثانى عصر محمد على تكلمت عن مؤسس مصر الحديثة، والواقع أن الكتابة عن محمد على ليست أمرا سهلا لانه بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بدأ الكتاب يهاجمون مؤسس مصر الحديثة ، ولكن المؤرخ هـو كالقاضى من القضية لا يميل ولا ينحاز وهكذا كان لابد من اعادة النظر ، والكتابة كتابة موضوعية تعطى للرجل حقه وتحاسبه اذا كان قد اخطأ ٠ لقد شيد محمد على امبراطورية مصرية كبرى شملت الجزيرة العربيـة والسودان والشام وكانت مصر هى قلب هذه الامبراطورية ٠ وجند المصريين الذى حاربوا فى اليونان وقرب خط الاسـتواء وفى جبال اليمن وفى صحارى الجزيرة العربية مؤكدين أنهم خير جند الارض ٠ وبالنسبة للمجال الزراعى شيد محمد على القناطر المختلفة ومنها القناطر الخيرية التى تعتبر أول قناطر فى العالم بهذا الحجم وبأيد مصرية لزراعة المحاصيل الصيفية ، وهى بحق قناطر الخير ٠ كما شق الترع ومنها ترعة المحمودية التى أحييت مدينـة الاسكندرية بعد وصول الماء العذب اليها مباشرة من النيل ٠ كما تم اضاف غلات الى المحصولات الزراعية كالقطن ٠٠٠ الذهب الابيض وعماد الاقتصاد لوطنى ٠

وفى مجـال الصناعة أقـام صناعات كبرى ٠٠ ثمانية عشر مصنعا للنسيج ومصانع النحاس والحديد والزجاج والمصانع الحربية ٠ والمتحف الحربى يحفظ لنا بعضا من المدافع والبنادق التى صنعت فى مصر مع بداية القرن التاسع عشر ٠ والكلام عن محمد على لا ينتهى فهناك التعليم والبعثات وانشاء كلية الطب والهندسة ثم انشاء الصحافة وتشكيل المجالس المختلفة ، كل ذلك يجعل المؤرخ المنصف يقول كمـا عنون الكاتب الانجليزى هنرى دودويل كتابة عن محمد على « قصة محمد على أو مؤسس مصر الحديثة » كما أن ابراهيم باشا ابن محمد على هو قائد عسكرى عالمى بكل المعايير شئنا أم لم نشأ ومعاركه فى الشام والجزيرة العربية والدولتان تدرس حتى الآن فى بعض المعاهد العسكرية العالية والعليا ٠ أن هذه الفترة التى امتدت من ١٨٠٥ ــ ١٨٤٩ هى فترة عظيمة ومزدهرة فى تاريخ مصر بصفة عامة ٠

ويتناول الفصل الثالث عصر اسماعيل وهو عصر التحديث ، فقد عادت بعثات محمد على من الخارج بعد أن نهلت من الغرب علومة وفنونه وبدأت

تؤثر فى مصر ومنهم على مبـارك أبو التعليم ورفاعة رافع الطهطاوى أبو الترجمة والخديوى اسماعيل نفسه كان تواقا لتحقيق النقلة الحضارية فى مصر ، فنشر التعليم وأنشأ المدارس لتعليم الابناء ، وشيد الكبارى ككوبرى قصر النيل وأقام دار الكتب ووضع أساس المتحف المصرى وشيد القصور الخديوية والبساتين ، وفى عصره افتتحت قناة السويس للملاحة وأقيمت دار الاوبـرا ٠

وقد خصصنا الفصل الرابع لقناة السويس لخصوصية هذا الموضوع وكيف أن فكرة المشروع بدأت منذ عهد الحملة الفرنسية على مصر الى أن وافق الوالى سعيد باشا على شقها ، وتم افتتاحها فى عصر اسماعيل سنة ١٨٦٩ ٠ وكيف أن انجلترا وقفت تتحين الفرص للاستيلاء على هـذا الشريان المـائى الخطير والذى يصـــل أهم بحرين عـالميين البحـر المتوســـط الهند ٠ وكل هذا أدى الى احتلال بريطانيا لمصر سنة ١٨٨٢ ٠

اما الفصل الخامس فيتحدث عن الثورة العرابية وكيف ن الصحافة المصرية فى عصر اسماعيل وكذلك رجال البعثات ، هذا بالاضافة الى مجئ رجل يعد دولة وحده الى مصر وهو السيد جمال الدين الافغانى ، واقامته بها لمـدة سبع سنوات من سبعينات القرن التاسع عشر ويكفى أن نذكـــر اسماء مثل محمـد عبده ٠ المويلحى ــ أديب اسحق ــ البارودى ــ سعد زغلول لنعرف مدى تأثير هذا الرجل ٠

وهكذا اندلعت ثورة عرابى وســـط هذا المناخ سنة ١٨٨١ واضطر الخديو توفيق الى الامر بتشكيل وزارة وطنية أصبح الفلاحـون فيهـــا وزراء وقادة لاول مرة ٠ ولكن بريطانيا انتهزت فرصة الخلاف بين عرابى والخديوى توفيق واحتلت مصر ، وران على مصر صمت عميق ٠

وفى الفصل السادس ناقشنا اليقظة المصرية بعد السبات ٠ فقد وقف الزعيم مصطفى كامل يندد بالاستعمار ويستغل حادثة دنشواى ويكتب فى الصحافة العالمية ضد الانـجليز وكان بحق كما عنون عبد الرحمن الرافعى كتابة عنه باعث الحركة الوطنية بعد الاحتلال ٠

واذا كان مصطفى كامل قد قضى سنة ١٩٠٨ ، فان زميله محمد فريد حمل المشعل من بعده مضحيا بكل شىء من أجل مصر وكان بحق أيضا كما عنون عبد الرحمن الرافعى كتابة عنه رمز الاخلاص والتضحية ... ما احوجنا اليوم للتعرف على هذه الزعامات . وفى الفصل السابع ثورة ١٩١٩ والتى اندلعت عقب نهاية الحرب العالمية الاولى ، لأن المصريين ذاقوا الامرين من هذه الحرب ، وسئموا وعود الانجليز بالجلاء ، فكانت الثورة التى أجبرت الانجليز على اصدار تصريح الاستقلال فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ .

أما الفصل الثامن فيتكلم عن مصر المعاصرة ويتعرض بايجاز لاهم موضوعات هذه الفترة حتى سنة ١٩٥٢ .

ولم ارد ان اكتب تاريخ ثورة يوليو السياسى الآن لقلة الوثائق المنشورة والمتاحة الخاصة بالثورة ، وكثرة الكتابات الصحفية ، والكتابات المتعارضة للمسئولين ، ولأن مرجل الحوادث لم يهدأ بعد . ويعرض الفصل التاسع لبعض موضوعات مصر المعاصرة الحضارية فهو يعطى صورة سريعة لاهم متاحف مصر الحديثة وهى دراسة تقدم لاول مرة . فقد افزعنى حقا قلة المترددين على هذه المتاحف . ومن المناسب هنا ان نركز على ان هذه المتاحف تعد سجلا للحضارة المصرية الحديثة التى هى نتاج واستمرار للحضارة المصرية على مر العصور .

وتجدر الاشارة الى اننى سرت فى هذا الكتاب متبعا التسلسل الزمنى للموضوعات ، ومع ذلك فاننى فى بعض الفصول آثرت طريقة الوحدات فى الكتابة أى انهاء الموضوع كله ، حتى تكون الصورة واضحة .

والله ولى التوفيق

أ . د . جاد طه

مصر الجديدة فى ٢٩ يوليو ١٩٨٥ .

« من أحب وطنه ... أحب تاريخ وطنه »

ظلت دولة المماليك مسيطرة على طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب حتى نهاية القرن الخامس عشر · وكان لاكتشاف البرتغاليين لطريق راس الرجاء الصالح وتحويلهم لطرق التجارة العالمية على حساب مصر · ولقد حاولت مصر رغم المفاجأة أن تدفع هذا الهجوم ، وأن ترسل السفن الى البحر الأحمر ، والقوات العسكرية الى اليمن لكى تمنع استيلاء البرتغاليين على عدن أو دخولهم البحر الأحمر وتهديدهم لموانى الحجاز · وبذل السلطان الغورى كل ما فى وسعه ، الا انه لم يحقق نتائج حاسمة (١) ·

وهكذا تمت السيطرة البرتغالية على مياه الهند ، فى نفس الوقت الذى ضعفت فيه امكانيات مصر العسكرية ، وتدهورت تجارتها ، وحرمت من مورد أساسى من مواردها ·

واذا كان بعض الكتاب ينسب سوء أحوال مصر ابتداء من القرن السادس عشر الى الحكم العثمانى فان الواقع يؤكد أن هذا الحكم وصل الى مصر بعد تحول طرق التجارة العالمية عنها ·

وكانت منطقة الشرق الادنى تضم فى ذلك الوقت ثلاث قوى رئيسية هى قوة الاتراك العثمانيين فى آسيا الصغرى والبلقان والثانية هى قوة الصفويين فى فارس والثالثة هى قوة المماليك فى مصر والشام والحجاز ، وكان التنافس واضحا بين كل من هذه القوى ، خاصة بين العثمانيين

---

١ ـ لمزيد من التفصيلات انظر دكتور جاد طه ـ سياسة بريطانيا فى جنوب الجزيرة العربية ـ الطبعة الثانية ـ دار الفكر العربى ١٩٨٤ ـ ص ٢٠ ـ ٢٥ ·

السنيين والصفويين الشيعة · لقد استولى الصفويون على العراق سنة ١٥٠٨ فى عصر الشاه اسماعيل الذى جعل المذهب الشيعى مذهبا رسميا لدولته ، مما أدى الى سوء العلاقات مع العثمانيين السنة ، وهكذا قاد سليم الاول قواته نحو الشرق ، وهزم القوات الفارسية فى موقعة جالديران سنة ١٥١٤ ، ودخل عاصمتهم تبريز ·

واعتبر العثمانيون أن واجبهم الأول يتلخص فى الدفاع عن العالم الاسلامى من الاخطار الخارجية ، واعتقدوا أنهم أقدر من دولة المماليك فى الدفاع عن المنطقة ، وخاصة ضد الغزو البرتغالى · واستخدم العثمانيون السيف وسيلة لتوحيد الشرق الأدنى بأقاليمه فى دولة واحدة ·

وهكذا سار سليم الأول على رأس قواته صوب سوريا التى كانت تابعة لدولة المماليك ، وانتصر العثمانيون فى معركة مرج سنة ١٥١٦ على قوات السلطان الغورى الذى فقد فى المعركة ثم هجموا على مصر وانتصروا على المماليك مرة ثانية فى موقعة الريدانية سنة ١٥١٧ ، واصبح العثمانيون بذلك أكبر قوة موجودة فى العالم الاسلامى (١) ·

وارتكز نظام الحكم العثمانى فى مصر على عدة أسس ، فهناك الوالى الذى كان يعين لمدة عام واحد فى أغلب الأحوال ، وأدى ذلك الى اهتمام الولاة بجمع الأموال فى هذه الفترة القصيرة ، خاصة وأنهم أصبحوا يشترون المنصب قبل توليهم اياه ، كما أنهم اضطروا فى نفس الوقت الى الانصراف عن المشروعات العمرانية والانتاجية ، والتى تتطلب متابعة لاتمامها ·

ولما كان الوالى هو ممثل السلطان فى مصر ، فقد زودته الدولة بسلطات كبيرة ، وجعلته حاكما مطلقا فى ولايته ·

ومع خوف الدولة من أن يعلن الولاة استقلالهم ، انشأت الى جانبهم الديوان الذى كان يتألف من كبار ضباط الحامية العسكرية وكبار العلماء

---

(١) دكتور جلال يحيى ودكتور جاد طه ـ العرب فى التاريخ الحديث دار الكتب الجامعية ١٩٧٤ ص ١٤ ، ١٥

والتجار • والى جانب الوالى والديوان أضاف العثمانيون قوة ثالثة وهى قوة المماليك ، كنوع من تحقيق التوازن بين القوى •• قوة الوالى وقوة الديون وقوة المماليك ، حتى لا تستبد احداها بالسلطة •

والواقع أن تحول طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب كان سببا أساسيا فى تدهور الاحوال فى مصر ، وجاء نظام الحكم العثمانى لكى يؤدى الى مزيد من التدهور •

لقد أخذ الولاة يهتمون بجمع الأموال ، وأخذوا يهتمون بمظاهر الحكم أكثر من اهتمامهم بجوهره •"كما كان المماليك يعيشون حياة مترفة ، ويستغلون مئات القرى لحسابهم ، ورغم ذلك فانهم أهملوا الزراعة ، فقلت المحصولات ، وارتفعت الاسعار ، واجتاحت البلاد جماعات عديدة • وكان سليم الأول قد أبقى على الارض الزراعية فى يد الحاكم يوزعها على اتباعه أو يوزعها على الفلاحين نظير دفعهم الضرائب • وكانت الحكومة توزع الاراضى على الملتزمين الذين يتعهدون بتحصيل الضرائب نظر حصولهم على عقد الالتزام ، واصبح الملتزم مع الزمن يورث هذا الحق لابنائه • ومع تدهور الأحوال ، أصبحت الدولة لا تهتم الا ببيع الالتزام لمن يتعهد بدفع مبلغ معين للخزانة (١) •

وفى مثل هذه الظروف أهملت الزراعة والرى ، وزحفت الرمال على الارض الخضراء ، وتناقص عدد السكان ووصلت الصناعة الى مرحلة يرثى لها من الانحطاط ، وتدهورت التجارة الداخلية والخارجية • ومع السنوات الاخيرة من القرن الثامن عشر ، ومصر تعيش سنوات التخلف والتدهور حدثت المفاجأة •• مفاجأة الحملة الفرنسية على مصر والتى كانت تمثل تقدم ثلاثة قرون عاشتها اوربا منذ بداية النهضة فى مواجهة ثلاثة قرون من التخلف عاشتها مصر منذ تحول طرق التجارة العالمية والحكم العثمانى، وكان اللقاء حافلا بلا شك •

---

(١) دكتور جلال يحيى — دكتور جاد طه — المصدر السابق ص ٣٣ •

الحمـــلة :

حاولت فرنسا النزول الى الميدان الاستعمارى بارســال قواتها الى كندا ، والى بعض الجزر فى الهند الغربية ، وسايرت فى ذلك الحركة الاستعمارية العامة التى اجتاحت كل أوربا ، وانتقلت من اسبانيا والبرتغال الى دول غرب أوربا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر • ولكن بريطانيا نافست فرنسا فى الميدان الاستعمارى فى العالم الجديد ، وتمكنت من الاستيلاء على كندا ، ومن مضايقة فرنسا فى مستعمراتها ومراكزها الاستعمارية فى الهند والمحيط الهندى (١) • الا أن قيام الثورة الفرنسية قلقل الاوضاع والنظم السياسية والاقتصادية فى العالم ، ودخل بالتنافس البريطانى الفرنسى الى ميدان جديد •

وكان البريطانيون قد قاموا بعدة محاولات لاستخدام طريق البحر المتوسط الذى يمر عبر من الاسكندرية الى القاهرة فالسويس • لكى يواصلوا السفر فى البحر الاحمر ثم المحيط الهندى • وكانوا قد واجهــوا صعوبات متعددة أمامهم فى هذا الطريق ، أولها الباب العالى ، ثم البكوات المماليك فى مصر ، والاهالى العرب بصفة عامة ، اذ انهم كانوا لا يوافقون على حضور السفن الاوربية الى البحر الاحمر (٢) لان تجارب العرب مع البرتغــاليين الذين هاجموا موانى البحر الاحمـــــر جعلت العرب يفكرون كثيرا قبل أن يسمحوا للاوربيين بالملاحة فى هــذا البحر •

ورغم كل ذلك فقد تمكنت الشركات الاستعمارية البريطانية من عقد اتفاقيات مع البكوات المماليك للمرور عبر مصر ، ومن هذه الاتفاقيات الاتفاقية التجارية التى عقدتها انجلترا مع محمد بك ابو الذهب ـ الذى كان قد تطلع الى الانفصال عن الباب العالى ـ وذلك من أجل تامين سير السفن البريطانية

---

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى ـ الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ص ٢٢ •

(٢) انظر د • جلال يحيى العالم العربى الحديث ـ المدخل ص ٨٤

فى البحر الاحمر (١) . وهذا يوضح اهمية العلاقات الودية - من وجهة النظر البريطانية - مع مصر ، وذلك بالنسبة لمواصلاتها مع الهند .

وكان لتقارير وكتابات رجال السياسة الفرنسيين ، الذين خدموا فى القسطنطينية أو القاهرة ، وكذلك الرحالة الذين زاروا مصر ، أكبر الاثر فى كشف القناع عن حالة الامبراطورية العثمانية من جهة ، وتوجيه انظار مواطنيهم الى مصر احدى ولايات هذه الامبراطورية من جهة أخرى . وقد أقبل السياسيون على دراسة هذه التقارير وقراءة هذه الكتب باهتمام كبير ، عندما تجددت الرغبة فى الاستعمار (٢) .

قد اختارت حكومة الثورة الفرنسية الجنرال بونابرت قائدا لحملتها على مصر ، وزودت هذه الحملة القوية بكل ما يلزمها ، وأعطت قائدها سلطات واسعة فى التصرف . وقد وصل الاسطول الفرنسى الى سواطىء مالطة فى يونيو ١٧٩٨ ، وفى صبيحة يوم ١٩ يونيو غادرت الحملة مالطة فى طريقها الى الشواطىء المصرية . ولما كان بونابرت يخشى من مهاجمة الاسطول الانجليزى للاسطول الفرنسى أثناء تقدمه ، فقد عمد الى تغيير اتجاهه ، وأبحر صوب كريت بدلا من الابحار مباشرة صوب الاسكندرية وفى مياه كريت علم بونابرت أن نلسن Nelson أمير البحر الانجليزى كان لا يزال يجد فى اثره ، فاستمر فى سيره بكل سرعة الى الاسكندرية (٣) ، وتمكن من احتلالها ، ثم زحف بحملته عبر الدلتا حتى وصل الى القاهرة التى لم يصمد المماليك طويلا للدفاع عنها امام قواته (٤) ، وهكذا اصبح بونابرت فى موقف يهدد منه المواصلات البريطانية مع الهند (٥) .

ولم يقف الامر عند حد التهديد ، بل ان بونابرت أمر المسيو لسكاريس بالسفر الى بلاد العرب ليتفاوض مع القبائل العربية المختلفة حتى تسهل

---

(١) Hunter F.M. an occount of the British Settlements of Aden p. 162.

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى - المصدر السابق ص٤٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٨٤ - ٨٦ .

(٤) Harold Ingrams The Yemen p. 49.

(٥) H. Dorwell The Story of Nehmet Alior The founder of modern Egypt p. 56.

تقدم جيوشــه الى الهند (١) ٠

ورغم أن محاولات بونابرت هذه لتأمين طرق تقدم القوات الفرنسية الى الهند لم تكن لها من نتيجة ، فانها أوضحت خطورة الموقف حينذاك بالنسبة للمصالح البريطانية ، ونتيجة لذلك ، قامت قوة بريطانية باحتلال جزيرة بريم فى مضيق باب المندب بين خليج عدن والبحر الاحمر (١) وذلك باسم شركة الهند الشرقية ، وذلك حتى تعرقل هذه القوة أى تقدم فرنسى نحـــو الهنـد ٠

الا أن الفرنسيين لم يظلوا فى مصر فى موقف يهددون منه المواصلات البريطانية مع الهند ، فقد جعل انتصار نيلسون فى أبو قير فى أول أغسطس ١٧٩٨ موقفهم فى مصر صعبا ، كما أرسل السلطان العثمانى سليم الثالث فى نفس السنة سفنا عليها قوات تركية الى مصر (٢) ٠

وهكذا تمكن نلسون باغراقه لسفن الاسطول الفرنسى من قطع خطوط مواصلات الحملة الفرنسية مع فرنسا ، الا أن بونابرت واصل حملته التى حضر من أجلها ، وأمر قواته بالزحف على سوريا مبتدئا بفلسطين ، واتصل فى نفس الوقت بالوهابيين فى الجزيرة العربية ٠ وقد تصدت بريطانيا بمساعدة الدولة العثمانية لهذا التقدم الفرنسى ، مما اضطر بونابرت فى النهاية الى العودة الى فرنسا ، وقد اضطرت الحملة الفرنسية نفسها الى الانسحاب من مصر والعودة الى أوربا بعد ذلك ٠

ولقد فشلت الحملة الفرنسية على مصر من ناحية فاعليتها فى ضرب بريطانيا فى الهند ، كما فشلت فى اقامة مستعمرة فرنسية فى مصر ، أما من حيث تأثير هذه الحرب الاستعمارية على المصريين كجزء من الشعب العربى، فان النتائج كانت ايجابية وكانت هامة ٠ فالواقع أن الحملة الفرنسية على

---

(١) سديديو ـ خلاصـة تاريخ العرب (مترجم) ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ ٠

(٢) Plafair R.L. A History of Arabia Felix or Yemen p. 122-123.

(٣) Carl Brocklemann The history of Islamic People p. 348.

مصر فتحت حقبة جـــديدة فى تاريخ العرب ، فقد اوضحت هذه الحملة ان سياسة العزلة التى فرضها العثمانيون على العالم العربى لا تصلح أن تكون خطا للمقاومة يحمى الوطن العربى من أطماع أوربا ٠

المقاومة المصرية ضد الحملة الفرنسية :

بذل الفرنسيون جهدهم عند احتلالهم الاسكندرية منذ ٢ يوليو ١٧٩٨ للتقرب من الشعب المصرى ، واتخاذ سياسة أطلق عليها السياسة الاسلامية، ولكن الاسكندرية مع هذا ظلت تبدى من ضروب المقاومة ما يستحق الاعجاب ويعتبر السيد محمد عبد الكريم (١) ــ كما تنعته المصادر ــ أو محمد كريم كما شاع بعد ذلك بطل المقاومة فى المرحلة الاولى من المواجهة ٠ وعندما شعر الجنرال كليبر قائد منطقة الاسكندرية حينذاك بمسئولية السيد كريم عن المقاومة الوطنية فى الاسكندرية وزعامته لها قام بالقبض عليه فى ٢٠ يوليو ١٧٩٨ (٢) وبعد ثمانية عشر يوما من الغزو ٠ وكتب كليبر فى ٢١ يوليو يخبر بونابرت فى القاهرة بنبأ القاء القبض على السيد وتعيين السيد محمد الغريانى خلفا له (٣) ٠

ثم أمر بونابرت بتشكيل محكمة عسكريه لمحاكمة الشريف محمد كريم برئاسة الجنرال ديبوى حاكم القاهرة العسكرى وعند بداية الجلسة قال ديبوى « لقد أثبت التحقيق خيانتك للجمهورية (فرنسا) وانك قمت بتحريض الاهالى وســـكان البحيرة على الثورة ضدنا ، ورد عليه الزعيم

---

(١) السيد محمد عبد الكريم (محمد كريم) شريف النسب ولد على الارجح فى عام ١٧٤٥ ، وكان أبوه رجلا متدينا ، علم ابنه العلوم الدينية فى أحد الكتاتيب بالاسكندرية ، ثم ارسله بعد ذلك الى الأزهر لاستكمال دروسه ٠ وبعد وفاة الوالد عمل السيد كريم وزانا (مهنة القبانة) ٠ واحبه الناس لامانته واشتهر ذكره فى الاسكندرية ورشيد ، وصارت له صلة بالامير صالح بك أمير الحج ٠ ويقول الجبرتى ان صالح بك قد قلد عثمان خجا أمر ثغر رشيد ، وقد سعيا لدى مراد بك الذى قلد محمد كريم أمــــر الديون والجمارك بالثغر وتخويله السلطة به ٠ وهكذا كان الســـيد كريم بمثابة محافظ الاسكندرية عند وصول الحملة الفرنسية اليها ،

(٢) عبد الرحمن الرافعى ج ١ ص ١٨٩ ٠

(٣) المصـــدر الســـابق ص ١٩٢ ٠

بثقة وهدوء ، ان جمهوريتكم هى التى خانت مبادئها ... لقد اغتصبت وطنى ، وقتلت الناس بلا شفقة أو رحمة ، ثم صاح الشريف فى قاعة المحكمة ، ستؤكدون للعالم بموقفكم هذا ، وبمحاكمتكم لى أننا أمة تبغى الحرية ، وتضحى فى سبيلها بكل ما نملك ، وسوف يخلد التاريخ اسم كل مجـــاهد ، (١) ٠

وظل التحقيق مع السيد عدة أيام وهو ثابت لا يحيد عن موقفه ، وأخيرا أعلنت المحكمة قرارها بثبوت جميع التهم المنســوبة اليه وأنه خائن للجمهورية الفرنسية ورفع الامر الى بونابرت الذى أصدر قراره بالحكم باعـدام الشريف ٠ واظهر محمد كريم جلدا وشـجاعة امام حكـم الاعدام ٠ وفى اليوم السادس من سبتمبر ١٧٩٨ تم تنفيذ الحكم رميــا بالرصـــاص ، وأحدث مقتله تاثيرا سـيئا لدى المصريين الذين اعتبروه شهيدا ، وانتظروا صابرين حتى تجىء فرصة الجهاد المقدس ٠ ويمكن القول ان هذه الحادثة كانت من أسباب ثورة القاهرة الاولى ضد الحملة الفرنسية فى ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، وأن مقتل الجنرال ديبوى حاكم القاهرة الفرنسى أثناء هذه الثورة لنوع من القصاص لأن ديبوى كان رئيس المحكمة الفرنسية العسكرية التى حاكمت الشريف محمد كريم والذى انتهى امرهـا بالحكم عليه بالاعـــدام ٠

ثورة القـــاهرة الأولى :

وهكذا احتل الفرنسيون القاهرة ، ووطدوا سلطتهم بها ، وأصـــدر بونابرت قرارا بانشاء الديوان الذى تالف من عشرة من المشايخ لمعاونته فى حكم البلاد (٢) ٠ الا أن شعور اعضاء الديوان بأن سلطتهم استشارية وبان بعض القرارات الهامة تتخذ دون الرجوع اليهم ، أو تنفذ بطريقة مخالفة لما أبدوه من مشورة ، كان يدفعهم الى النظر الى السلطات الفرنسية على انها كانت تحتفظ لنفسـها بالسلطة الفعلية (٣) ٠

---

(١) المصـــدر الســـابق ص ١٩٦ ٠
(٢) الجبرتى ج ٣ ص ١٨ ٠
(٣) د ٠ جلال يحيى - مصر الحديثة - ص ٣٨٤ ٠

ولقد تكاتفت عوامل كثيرة من أجل زيادة شعور المصرين بالانفصال عن الفرنسيين ، ولا شك ان قيام الثورة أكد استحالة ايجاد جو من التعايش السلمى بين الحكم الفرنسى لمصر الاسلامية وبين الشعب المصرى بسبب اختلاف الدين بين الفرنسيين والمصريين . لقد كان الشعب فى القرن الثامن عشر يشكل مجتمعا دينيا اسلاميا ، ينظر الى الدولة العثمانية على انها دولة الاسلام الكبرى وأن سلطانها هو سلطان المسلمين (١) .

ولا شك أن سلوك بونابرت مع المصريين خالف فى كثير من المواطن ما وعدهم به فى منشوراته وبياناته ، لقد كان ينعى على المماليك ظلمهم وقسوتهم ، فاذا به أشد منهم قسوة وظلما . فقد روى الجبرتى أنه فى يوم السبت ١٤ صفر ١٢١٣ (٢٨ يوليو ١٧٩٨) أى عقب أن استقر بونابرت فى العاصمة ببضعة أيام ، وعقب تأسيس الديوان بثلاثة أيام « .. اجتمعوا بالديوان وطلبوا دراهم سلفة وهى خمسمائة الف ريال من التجار المسلمين والنصارى والقبط والشوام وتجار الافرنج أيضا ، فسالوا التخفيف فلم يجابوا فأخذوا فى تحصيلها (٢) » .

ويجب أن لا ننسى هنا أن الفرنسيين كانوا يمنون أنفسهم قبل دخول القاهرة بالحصول على ثروات طائلة من أموال وأملاك المماليك . ولكنهم لم يجدوا الشىء الكثير بعد دخولهم القاهرة ، خاصة وأن المماليك هربوا كل ما يمكنهم تهريبه معهم فى عملية خروجهم الى سوريا . كما أن تحطيم الاسطول الفرنسى فى أبو قير ، ومحاصرة الاسطول البريطانى للسواحل المصرية ادى الى توقف التجارة وسوء الاوضاع الاقتصادية ، وقطع اتصالات الحملة بفرنسا . وقد أدى ذلك كله بالفرنسيين الى ضرورة الحصول على موارد بطرق أخرى (٣) .

---

(١) د . عبد العزيز الشناوى — صور من دور الازهر فى مقاومة الاحتلال الفرنسى لمصر فى أواخر القرن الثامن عشر — من ابحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة (مارس — ابريل ١٩٦٩) — مطبعة دار الكتب ١٩٧١ .

(٢) الجبرتى — ج ٣ ص ١٢ .

(٣) د . جلال يحيى — المصدر السابق ص ٣٨٤ .

وقد ذكر مؤرخنا الجبرتى ان تقرير الضرائب الفادحة التى فرضها الفرنسيون هو الذى ادى الى نشوب الثورة . ففى يوم السبت ١٠ جمادى الاولى سنة ١٢١٣ ، عملوا الديوان واحضروا قائمة مفردات الاملاك والعقار. فجعلوا على الاعلى ثمانية فرانسه والاوسط ستة والادنى ثلاثة ، وما كان أجرته اقل من ريال فى الشهر فهو معافى ، وأما الوكائل والخانات والحمامات والمعاصر والسيارج والحوانيت فمنها ما جعلوا عليه ثلاثين وأربعين بحسب الخسة والرواج والاتساع ، وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم ، والصقوها بالمفارق والطرق ، وأرسلوا منها نسخا للاعيان ، وعينوا المهندسين ومعهم اشخاص ليتميز الاعلى من الادنى ، وشرعوا فى الضبط والاحصاء ، وطافوا ببعض الجهات لتحرير القوائم وضبط اسماء اربابها ، ولما اشيع ذلك فى الناس كثر لغطهم واستعظموا ذلك (١) .

ونتوقف قليلا عند هذا النص ، ونتمعن فى كلمات مؤرخنا .. لقد تمادى الفرنسيون فى فرض القروض الاجبارية على جميع انحاء البلاد ، ففرضوا على تجار الاسكندرية ٣٠٠,٠٠٠ فرنك ، وعلى تجار رشيد ١٠٠,٠٠٠ فرنك ، وتجار دمياط ١٥٠,٠٠٠ فرنك وعلى تجار المنسوجات بالقاهرة ٦٠,٠٠٠ ريال نقدا و ٤٠,٠٠٠ نوعا ، وعلى تجار البن والبهار بالقاهرة ٢٠٠,٠٠٠ ريال ، وعلى الاقباط الذين يتولون تحصيل الضرائب فى الاقاليم ١٠٠,٠٠٠ ريال . ثم فرضوا على تجار خان الخليلى ١٠,٠٠٠ ريال ووكائل الصابون ١٠,٠٠٠ ريال ووكائل الفاكهة ٦,٠٠٠ ريال والسقائين ١٥,٠٠٠ ريال وتجار السكر ١٠,٠٠٠ ريال وتجار الاقمشة الهندية بالغورية ١٥,٠٠٠ ريال (٢) .

ومما زاد الامر سوءا أن الفرنسيين أخذوا يخرجون كثيرا من أصحاب البيوت من بيوتهم ويحتلونها أو يهدمونها بحجة تحصين القاهرة . كما قاموا بهدم أبواب الحارات والدروب ، فاشتد قلق الناس من عدمها ، وتظننوا بالفرنسيين أنهم عازمون على قتل الناس وهم فى صلاة الجمعة ، وان كان الجبرتى لا يوافق على هذا الرأى ، فهو يشير الى ذلك بقوله

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٢٥ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى - تاريخ الحركة القومية ج ١ ص ٢٦٧ .

« ٠٠ فلما حصلت هاتان النكتتان انكمش الناس ثانيا وارتجفت قلوبهم » (١) اى أن القول بأن الفرنسيين عازمون على قتل الناس وهم فى صلاة الجمعة هو مجرد مبالغة كبيرة جدا لا يمكن الموافقة عليها أو نكتة على حد قول مؤرخنا ٠٠ الا أن انتشار الاشاعة على أية حال أدى الى انكماش الناس وخوفهم ثم الى ثورتهم فى النهاية ٠

وزاد ظهور تشدد الفرنسيين وضوحا فى موقفهم من السيد محمد كريم الحاكم الوطنى لمدينة الاسكندرية ، الذى ثبتوه فى سلطته ، ثم حكموا عليه بالاعدام ٠ وكان هذا العمل كفيلا باثارة نفوس المصريين ، وتقليل همة من يتعاون معهم من المصريين ٠

وكانت هناك اسباب اخرى اجتماعية تدفع المصريين الى عدم التجاوب مع الفرنسيين ، فرغم تظاهر الفرنسيين باحترام وعادات الأهالى وتقاليدهم ، فكانوا فى الواقع لا يابهون بها كثيرا ، فظهرت دور الشراب ، والتفت بعض النسوة الساقطات حول الجنود بشكل يخدش من كرامة المجتمع الاسلامى المتزمت الذى كانت تعيشه مصر آنذاك ، ويكفى أن نورد موقف الجبرتى من هذه النقطة « ٠٠ لما حضر الفرنسيين الى مصر ومع البعض منهم نساؤهم، وكانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه ، لا بسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة ، ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى والمزوكشات المصبوغة ، ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقا عنيفا مع الضحك والقهقهة ومداعبة السكارية معهم وحرافيش العامة فمالت اليهم نفوس أهل الاهواء من النساء الاسافل والفواحش » (٢) ٠

كان الرأى العام – اذا جاز لنا استخدام هذا التعبير – مهيأ للثورة ، وجاءت مسألة الضرائب لتكون سببا مباشرا لاندلاعها ٠ وعلى أية حال فقد استسلم بعض الناس للامر الواقع، ورأى البعض ضرورة المقاومة «٠٠ ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذى لم ينظر فى عواقب الامور ، ولم يتفكر أنه فى القبضة مأمور لتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد

(١) الجبرتى ج ٣ ص ١٣ ٠
(٢) الجبرتى ج ٣ ص ١٦١ ٠

يقودهم ، واصبحوا يوم الاحد وحضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسينية وزعر الحارات البرانية ولهم صياح عظيم وهول جسيم ويقولون بصياح فى الكلام نصر الله دين الاسـلام » (١) ٠

ونتوقف هنا لحظات كى نتناول كلمات مؤرخنا بالتحليل فهو هنا ياخذ على بعض المتعممين انهم لم ينظروا فى عواقب الامور ، وانهم لم يفطنوا الى قوة عدوهم ، ونستطيع بصفة عامة ان نتلمس انه لم يكن موافقا على قيام ثورة القاهرة الاولى بالطريقة التى قامت بها ٠ كما يتضح من كلمات الجبرتى ان الحركة بدأت تلقائية بدون رئاسة او تنظيم ، وان كان بعض المؤرخين يؤكد ان لجنة الثورة اعدت لقيامها قبل بدئها ٠ كذلك نتوقف عند كلمات الجبرتى الخاصة بتوصيف الثوار وبأنهم من الغوغاء او الحشرات والزعر والواقع أن الجبرتى كان قاسيا فى وصفه هذا على الثائرين الذين كان منهم المحاربون والشهداء فى هذه الثورة الاولى ، الا انه يبدو أن الذى جعله يطلق عليهم هذه الالقاب المنفرة هو تاكده من عدم جدوى الثورة ضد القوات الفرنسية المنظمة والمسلحة بأعتى الاسـلحة آنذاك ، وكذلك لان الفوضى والسلب والنهب اللذين صاحبا بدء قيام الثورة جعلته ينفر من بعض القائمين بها ويلقبهم بهذه الالقاب المهينـة ٠

وفى ٢١ اكتوبر سنة ١٧٩٨ تكونت للثورة لجنة تديرها وتنشر دعوتها ومقرها الازهر ، وامتلأت الطرق والشوارع بالناس حاملين الاسلحة قاصدين الى احياء الفرنسيين لمهاجمتها ٠

ويبدو أن السلطات الفرنسية لم تتخذ التدابير لمنع احتشاد الجماهير المسلحة ، فعمت الثورة مدينة القاهرة كلها فى أسرع من لمح البصر ، وأخذ الثوار طريقهم الى مركز المخافر الفرنسية فقتلوا الجنود والحراس ٠ ولم يقدر الجنرال ديبوى ــ حاكم القاهرة الفرنسى ــ خطورة الموقف ، واكتفى بارسال بعض دوريات من الجند ، الا أنه لم يلبث ــ عندما تبين خطـورة الموقف ــ أن مضى فى كتيبة من الفرسان قاصدا مركز الثورة ، الا ان الشوارع ازدحمت بالجموع حتى صـارت كأنها بحر يزخر بالناس ، وأخـذ الجنرال

---

(١) الجبرتى جـ ٣ ص ٢٥ ٠

ديبوى يشق لنفسه طريقا بين هذه الجموع الصاخبة ، وتساقطت الاحجار على الكتيبة من جموع الثوار . ولم يحسب حسابا لعواقب مواجهته هذه الجموع الثائرة ، فهجم عليها على رأس فرسانه ، الا أن الثائرين اطبقوا عليه من كل جانب ، (١) وهنا انزعج ديبوى ، « وخرج من بين القصرين وباب الزهومة ، وتلك الاخطاط باللاخلق مزحومة فبادروا اليه وضربوه واثخنوا جراحاته وقتل الكثير من فرسانه وأبطاله وشجعانه » . والواقع ان مقتل الجنرال ديبوى زاد من حماســـة الثوار ، وانحازت الجموع الهادئة الى صفوف الثورة متشجعين بهذا النصر الاول ، فزاد عدد الثائرين وتضاعف، واشتدت حمية القتال فى نفوســـهم واستولوا على معظم المواقع المحيطة بالقاهرة كباب الفتوح وباب النصر وباب زويلة وباب الشعرية ، « وهدموا مساطب الحوانيت وجعلوا احجارها متاريس للكرنكة لتعوق هجوم العدو فى وقت المعركة ووقف دون كل متراس جمـــع عظيم من الناس » اما منطقـة مصر القديمة ومنطقة بولاق فلم تشتركا مع الثورة ، ويبرر الجبرتى ذلك بقربهما من ثكنات القوات الفرنسية .

وظل الثوار متحصنين وراء المتاريس . الى أن هاجمت قوة فرنسية بعض المتاريس التى كانت موجودة فى ناحية الداخلية ، وأمكن للقوة الفرنسية أن تبعد الثوار عن هذه المنطقة ، الا ان الموقف تطور تطـورا خطيرا ، اذ « زاد الحال وكثر الرجف والزلزال ، وخرجت العامة عن الحد وبالغوا فى القضية بالعكس والطرد ، وامتدت أيديهم الى النهب والخطف والسـلب ، فهجموا على حارة الجوانية ونهبوا دور النصارى والشوام والاروام ، وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام ، وأخذوا الودائع والامانات وسبوا النســـاء والبنات ، وكذلك نهبوا (٢) خان الملايات وما به من الامتعـة والموجودات ، وأكثروا من المعايب ولم يفكروا فى العواقب وباتوا تلك الليلة سهرانين وعلى هذا الحال مستمرين » .

ولما بلغت الثورة هذا المبلغ ، أخذت القوات الفرنسية فى التجمع ، ثم بدأ هجومها على الثوار فى الشوارع وخلف المتاريس ، وطفقت جمـوع

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ــ المصدر السابق ص ٢٧٧ ــ ص ٢٧٩ .
(٢) الجبرتى ج ٣ ص ٢٥ .

الثوار تحتشد فى حى الازهر ، وامتنع بالجامع الاكبر خمسة عشر ألفا من أشد الثوار حماسة ، ودعموا المتاريس فى الطرق والازقة الموصلة اليه « وأما الافرنج فانهم أصبحوا مستعدين وعلى تلال البرقية والقلعة واقفين وأحروا جميع الآلات من المدافع والقنابر والبنبات ، ووقفوا مستعدين ، وكان كبير الفرنسيين قد أرسل الى المشايخ مراسلة فلم يجيبوه عنها . ومل من المطاولة . هذا والرمى متتلع من الجهتين وتضاعف الحال ضعفين حتى حضر وقت العصر وزاد القهر والحصر . فعند ذلك ضربوا بالمدافع والبنبات على البيوت والحارات ، وتعمدوا بالخصوص الجامع الازهر ، وحرروا عليه المدافع والقنبر وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين كسوق الغورية والفحامين » .

ويصور الجبرتى مدى تاثير ضرب المدفعية الثقيلة على الاحياء الوطنية سواء من الناحية المادية أو المعنوية ، فقد زاد الخطب وعظم الكرب ، فركب المشايخ يقصدون الجنرال بونابرت « ليرفع عنهم هذا النازل ، ويمنع عسكره عن الرمى المتراسل ، ويكفهم كما نكف المسلمين عن القتال ، والحرب خدعة وسجال فلما ذهبوا اليه واجتمعوا عليه عابهم فى التاخير واتهمهم فى التقصير فاعتذروا اليه فقبل عذرهم وأمر برفع الرمى عنهم » وعاد العلماء يبشرون الاهالى ويطمئنونهم ، وأما أهل الحسينية والعطوف الدرانية فانهم لم يزالوا مستمرين وعلى الرمى والقتال ملازمين ولكن خانهم المقصود وفرغ منهم البارود والافرنج اثخنوهم بالرمى المتتابع والقنابر والمدافع الى أن مضى من الليل نحو ثلاث ساعات وفرغت من عندهم الادوات . وعندئذ انتهت المقاومة ، وبدأ الفرنسيون فى الدخول فى شوارع القاهرة وأخذوا فى هدم المتاريس ، وسيطروا على الموقف .

ونجد الجبرتى — وهو القوى فى عقله ودينه — وقد اعتراه غضب شديد مما قام به الفرنسيون فى هذه المرحلة ، فتنفف وتشتد كلماته ، ثم يبدو وكانه كان يتلوى الما وحزنا لما قام به هؤلاء فى الجامع الازهر فيقول أن الافرنج دخلوا المدينة كالسيل « أو جند ابليس وهدموا ما وجدوه من المتاريس ودخل طائفة من باب البرقية ومشوا الى الغورية وكروا ورجعوا وترددوا وما هجعوا وعلما باليقين أن لا دافع لهم لا كمين وتراسلوا ارسالا ركبانا ورجالا

ثم دخلوا الى الجامع الازهر وهم راكبون الخيول وبينهم المشاة كالوعول وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقباته وعاثوا بالاروقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ونهبوا ما وجدوه من المتاع والاوانى والقصاع والودائع والمخبآت بالدواليب الخزانات ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الارض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها ·· وشربوا الشراب وكسروا أوانيه والقوها بصحنه ونواحيه » (١) ·

وأحاطت القوات الفرنسية بهذه المنطقة احاطة تامة ونهبت بعض المنازل بحجة التفتيش على الاسلحة ·

ويؤكد الجبرتى أن الشوام وجماعة الاروام اتخذوا موقفا انفصاليا عن اخوانهم المصريين المسلمين وأنهم « أغتنموا الفرصة فى المسلمين وأظهروا ما هو بقلوبهم كمين » فشكوا الى بونابرت أمر نهب ممتلكاتهم رغم أن عمليات النهب والسلب امتدت ايضا الى الكثير من ممتلكات المسلمين المجاورين كذلك ·

ويبدو أن البحث عن حملة الاسلحة كان يتم بطريقة عنيفة جدا أغضبت الشيخ حتى أطلق على الفرنسيين اسم الكفرة « ·· ويسالونهم عن السلاح وآلات الحرب ويدل بعضهم فيضعون على المدلول عليهم ايضا القبض ·· وكثير من الناس ذبحوهم وفى بحر النيل قذفوهم ، ومات فى هذين اليومين وما بعدهما أمم كثيرة لا يحصى عددها الا الله وطال بالكفرة بغيهم وعنادهم ونالوا من المسلمين قصدهم ومرادهم » وواضح هنا الاتجاه الاسلامى سواء لدى الثوار أم لدى الشيخ الجبرتى نفسه ·

ولم يتوقف الامر عند هذا الحد ، فان الفرنسيين بدأو فى البحث عن المسئولين عن تدبير الثوره فطلبوا الشيخ سليمان الجوسقى (٢) شيخ طائفة العميان والشيخ أحمد الشرقاوى والشيخ عبد الوهاب الشبراوى والشيخ يوسف المصيلحى والشيخ اسماعيل البراوى وحبسوهم ببيت

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٢٦ ·
(٢) الجبرتى ج ٣ ص ٢٧ ·

البكرى ، • كما انهم اتهموا غيرهم بتوزيع الاسلحة على الاهـــالى والقوا القبض عليهم ، ولم يستجيبوا لطلب المشايخ وتشفعهم وعلى راسهم الشيخ السادات فى أمر اطلاق سراحهم (١) • الا أن الامر انتهى حسب رواية الجبرتى الى قتلهم بالبنادق والقائهم من السور خلف القلعة • ويبدوا أن الفرنسيين خافوا من ثورة النفوس عند اذاعة أنباء قتل الشيوخ المذكورين فكتبوا أوراقا والصقوها بالاسواق تتضمن العفو والتحذير من اثارة الفتنة وأن من قتـــل من المسلمين فى نظير من قتل من الفرنسيين •

ويبدو أن الناس كانوا قد اســـتكانوا ـ ولو مؤقتا امام قوة الحديد والنار ، لان الفرنسيين اخذوا من جديد فى احصـــاء الاملاك تمهيدا لفرض الضرائب عليها فلم يعارض فى ذلك معارض ولم يتفوه بكلمة (٢) كما انهم استمروا فى نزع أبواب الدروب والحارات الصغيرة •

كما يوضح الجبرتى كيف أن الفرنســيين أستغلوا المكانة التى كان يتمتع بها المشايخ فى مصر ، فكتب الفرنســـيون « عدة أوراق على لســـان المشايخ وارسلوها الى البلاد والصقوا منها نسخا بالاسواق والشـــوارع » واتخذت هذه الاوراق شكل نصيحة من كافة علماء الاســـلام بمصر الى المواطنين بعدم سماع الاشاعات والاتصال بالمخربين واثارة الفتنة (٣) •

ثورة القاهرة الثانية :

الا أن القاهرة لم تظل صامتة فترة طويلة اذ أنها لم تلبث أن ثارت ضد الفرنسيين مرة أخرى فى ٢ مارس سنة ١٨٠٠ ، وتفصيل الامر أنه وقعت اتفاقية العريش بين العثمانيين والفرنسيين فى ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ والتى كانت تقضى بجلاء الفرنسيين من مصر • « وورد الخبر بذلك الى مصر ، وفرح الناس بذلك فرحا شديدا » (٤) •

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٢٨ •
(٢) الجبرتى ج ٣ ص ٢٩ •
(٣) الجبرتى ج ٣ ص ٣٠ •
(٤) الجبرتى ج ٣ ص ٨٣ •

وهناك مسألة محيرة ، هل كان الجبرتى يكتب يومياته يوما بيوم فعلا ، أم أنه كان يكتب هذه اليوميات بعد وقوع هذه الاحداث بفترة ، أم أنه كان ينقح ما كتب وبعد ظهرو النتائج ، بحيث جاءت كتاباته وكأنه كان عالما بما سوف يحدث فى الايام التالية أو انه كان محللا سياسيا يتوقع بصفة عامة بعض الاحداث التالية لانه نتيجة للاتفاق السابق بين العثمانيين والفرنسيين نظر المصريون الى الفرنسيون على أن خروجهم من البلاد أصبح وشيكا وأظهروا شماتتهم فيهم ، دون تمعن فى العواقب ، ويقول الجبرتى : « أما الدعايا وهمج الناس من أهل مصر فانهم استولى عليهم سلطان الغفلة ونظروا للفرنسيين بعين الاحتقار ، وأنزلوهم عن درجة الاعتبار ، وكشفوا نقاب الحياء معهم بالكلية وتطاولوا عليهم بالسب واللعن والسخرية ولم يفكروا فى عواقب الامور ولم يتركوا معهم للصلح مكانا حتى أن فقهاء المكاتب كانوا يجمعون الاطفال ويمشون بهم فرقا وطوائف ... وهم يجهرون ويقولون كلاما اقفى باعلى أصواتهم يلعن النصارى وأعوانهم وأفراد رؤسائهم كقوليم الله ينصر السلطان ويهلك فرط الرمان ونحو ذلك وظنوا فروغ القضية ولم يملكوا لانفسهم صبرا حتى تنقضى الايام المشروطة على أن ذلك لم يثمر الا الحقد والعداوة التى تاسست فى قلوب الفرنسيين وأوجبت ما حصل بعد ذلك من وقوع العذاب البئيس » .

وفى هذه النقطة ، يبدو ان الجبرتى كتب ناقدا عدم تبصر العامة بالامور وتسرعهم فى ابراز عواطفهم ، الا أنه فى ذلك حكم عليهم بما حدث بعد ذلك من أحداث ، فالعامة عبروا فى ذلك الوقت عن سعادتهم - بطريقتهم الخاصة فى التعبير - بقرب جلاء قوات الاحتلال الفرنسى ، وليس هذا عيبا فيهم ، بل هى الظروف الدولية التى جعلت الفرنسيين يتراجعون عن تنفيذ بنود اتفاقهم ، فقد كان السير سدنى سميث هو الذى توسط فى الاتفاق بين الفرنسيين والعثمانيين ، وكان أخوه سبنسر سميث هو الوزير المفوض البريطانى فى استانبول ، ووافق على مسودة الاتفاق بين الانجليز والعثمانيين ، وعلى أساس اعطاء جوازات مرور للقوات الفرنسيه لتعود الى بلادها دون التعرض لها ، ولكن سرعان ما وصل اللورد الجن الى

استانبول سفيرا لبلاده (١) ، وأقنع الوزارة البريطانية بخطأ هذه السياسة ما دام فى وسع الانجليز ن ياسروا ملقوات الفرنسية بدلا من أن تستخدمهم فرنسا من جديد فى معاركها فى القارة الاوربية ضد بريطانيا وحلفائها ٠

وكان الموقف خطيرا ، ففى الوقت الذى وصـــلت فيه طلائع الجيش العثمانى الى المطرية ، استمر الفرنسيون فى بيع امتعتهم والانسحاب الى الاسكندرية ، بدا أن السلطات البريطانية لا توافق على اتفاقية ـ العريش، الامر الذى اثر على تسلســـل الحوادث ، فقد أضطر الجنرال كليبر الى اصدار الامر من جديد باعادة تحصين القلاع المحيطة بالقاهرة ، واستعد لملاقاة الجيش العثمانى الزاحف (٢) ، والعثمانيون لا يدرون عن هـــذه الاستعدادات شيئا ، وهكذا فوجىء العثمانيون بالهجوم الفرنسى ، وتمكن الفرنسيون من تحقيق بعض الانتصارات ، الا أن انتصاراتهم لم تكن كاملة ، اذ ستقوم القاهرة بثورتها الثانية ضدهم ، لأن « أهل مصر لمـا سمعوا صوت المدافع كثر فيهم اللغط والقيل والقال ، ولم يدركوا حقيقة الحال ، فهاجوا ورمحوا الى اطراف البلد ، وقتلوا اشخاصا من الفرنساوية صادفوهم خارجين من البلد ليذهبوا الى اصحابهم ، وذهبت شرذمة من عامة مصر ، فنهبت الخشب وبعض ما وجدوه من نحاس وغيره حيث كان عرضى الفرنساوية وخرج السيد عمر أفندى نقيب الاشراف والسيد أحمد المحروقى وانضم اليهما أتراك خان الخليلى والمغاربة الذين بمصر ، وكثير من العامة وتجمعوا على التلال خارج باب النصر وبأيدى الكثير منهم النبابيت والعصى والقليل معه السلاح وكذلك تحزب كثير من طوائف العامة والاوباش والحشرات وجعلوا يطوفون بالازقة وأطراف البلد ولهم صياح وضجيج ونجاوب بكلمات يقفونها من اختراعاتهم » ٠

وكانت فرقة من الفرسان الاتراك قد أنفصلت عن الجيش ، واتجهت صوب القاهرة بقيادة نصوح باشا ، وعجز الفرنسيون عن تعقبها . كمـا عجزوا عن منعها من دخول القاهرة ، وكان لوصول هذه الفرقة أثر كبير فى

(١) د ٠ محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ص ١٨٨ ٠

(١) د ٠ جلال يحيى ـ مصر الحديثة ص ٤٦٠ ـ ص ٤٦١ ٠

تغيير الموقف ، اذ أنها ستزيد من حماس الجماهير ، وتشجيع روح الثورة نفوس الشعب ، وخاصة عندما قال « نصوح باشا عند ذلك للعامة ، اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم ، فعندما سمعوا منه ذلك القول صاحوا ورفعوا أصواتهم (١) ومروا مسرعين يقتلون من يصادفونه .

وشرع أهل مصر مع العسكر فى اقامة المتاريس حول المدينة وبأطرافها وكذلك تحصين البلد على قدر طاقتهم ، « وبالجملة كل من كان فى حارة من أطراف البلد انضم الى العسكر الذى بجهته بحيث صـــار جميع أهل مصر والعساكر كلها واقفة بأطراف البلد عند الابواب والمتاريس والاسوار وبعض عساكر ان العثمانية وما أنضم اليهم من أهل مصر المتسلحين مكثت بالجمالية» وكأن هذه القوة التى مكثت بالجمالية كانت كفرقة للامداد أو كقوة احتياطية، والجبرتى يرى هذا الرأى ، ويوضح أنه « اذا جاء صـــارخ من جهة من الجهات أمدوه بطائفة من هؤلاء » .

كما أن الجبرتى يحدد موقفه من هذه الثورة بوضوح « .. وصــار جميع أهـــل مصر أما بالازقة ليلا ونهارا وهو من لا يمكنه القتال وأمـا بالاطراف وراء المتاريس وهو من عنده اغتنام وتمكن من الحرب » . ثم يصدر الجبرتى قراره ويصبح موقفه أكثر تحديدا « ولم ينم ببيته سوى الضعيف والجبان والخائف » (٢) . والواقع ان العالم المتحفظ وقد تأثرت مشاعره بهذا التجمع الوطنى ، لم يستطع سوى أن يتخذ موقفا واضـحا ومحددا ، فكل من تقاعس عن المشاركة فى هذه الاعمال الثورية والدفاعية فهو أما جبان أو ضعيف لا يستطيع المعاونة .

ولم يتوقف هذا التجمع الوطنى الاسلامى عند حد الاستعداد الحربى، بل « باشر السيد أحمد المحروقى وباقى التجار ومساتير الناس الكلف والنفقات والمآكل والمشارب ، وكذلك جميع أهل مصر كل انسان سمح بنفسه وبجميع ما يملكه واعـانة بعضهم بعضـا وفعلوا ما فى وســعهم وطاقتهم من المعونة » (٣) .

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٩١ .
(٢) الجبرتى ج ٣ ص ٩٣ .
(٣) الجبرتى ج ٣ ص ٩٤ .

ان الجبرتى يبرز فى النص السابق تلك الروح المصرية الاصيلة ، روح التعاون أمام الاخطار والازمات ، فالناس على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية يجودون بأرواحهم وممتلكاتهم من أجل نصرة الوطن والدين .

أما فى بولاق ، فقد هاجم الثوار المعسكرات الفرنسية واستخدموا بعض مدافع العثمانيين التى كانت لهم فى المطرية ، ولم تكن بهذه المدافع قنابل فأستخدموا كرات الموازين الحديدية التى جلبوها من الوكالات والمحلات ، ثم أنشأ الثوار معملا للقنابل ومصنعا لصب الاسلحة ، وانتزعوا من المساجد الحديد والخشب ، وتطوع الحدادون والسباكون والنجارون وغيرهم للعمل فى هذه المصانع « وتحزم الحاج مصطفى البشتيلى وامثاله وهيجوا العامة وهيئوا عصيهم وأسلحتهم ورمحوا وصفحوا وأول ما بدأوا به أنهم ذهبوا الى وطاق الفرنسيين الذى تركوه بساحل البحر وعنده حرسية منهم فقتلوا من أدركوه منهم ونهبوا جميع ما فيه من خيام ومتاع وغيره ورجعوا الى البلد وفتحوا محازن الغلال والودائع التى للفرنساوية وأخذوا ما أحبوا منها وعملوا كرانك حوالى البلد ومتاريس واستعدوا للحرب والجهاد وقوى فى رأسهم العناد » (١) .

الا أن الجنرال كليبر بدأ فى معالجة الثورة - من وجهة نظرة - باحكام الحصار حول المدينة الثائرة « ومنعوا الداخل من الدخول والخارج من الخروج واشتد الحرب وعظم الكرب وأكثروا من الرمى المتتابع بالمكاحل والمدافع وأكثروا وأوصلوا وقع القنابر والبنبات » ولا شك أن هذا الحصار اثر على الحالة المعنوية للمصريين ، كما اثر كذلك على وجود المواد التموينية الضرورية « وعدمت الاقوات وغلت أسعار المبيعات وعزت الماكولات وفقدت الحبوب والغلات وارتفع وجود الخبز من الاسواق » (٢) .

وقد عمد الجنرال كليبر الى تنفيذ مخططه للقضاء على الثورة ، فمع الحصار سعى الى تفتيت عناصر الثورة وهى العثمانيين والمصريين وأمراء المماليك وبدأ بالعثمانيين ، فتفاوض مع زعمائهم على وقف القتال ، ثم عمد

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٩٥ .
(٢) الجبرتى ج ٣ ص ٩٦ .

كليبر فى نفس الوقت الى محاولة الاتفاق مع مراد بك الذى كان قد انسحب بقواته الى الصعيد ، وبعد ذلك اصبح فى وسع الجنرال أن يضيق الخناق على ثورة القاهرة ويقوم باقتحام المدينة بالقوة المسلحة . وكانت احوال القاهرة قد ازدادت صعوبة مع استمرار الحصار وقوة ضرب المدفعية ، ويوضح الجبرتى مدى ما لاقاة المصريون من عناء فى هذه الفترة ، فقد « استمر الحال على ما هو عليه من اشتعال نيران الحرب وشدة البلاء والكرب ووقوع البنبات على الدور والمساكن من القلاع والهدم والحرق وصراخ النساء من البيوت والصغار من الخوف والجزع والهلع من القحط وفقد المأكل والمشارب وغلق الحوانيت والطوابين والمخابز ووقوف حال الناس من البيع والشراء » (١) .

وطلب كليبر المشايخ للتحدث معهم فى الامر ، وذكر لهم أنه يعطى الامان الكامل لاهل القاهرة على أساس خروج القوات العثمانية الموجودة فى المدينة ، وتوسط العلماء بين الفرنسيين والعثمانيين فى عقد الصلح . الا أن جماهير القاهرة انقلبت على العلماء « وسبوهم وشتموهم وضربوا الشرقاوى والسرسى ورموا عمائمهم وأسمعوهم قبيح الكلام وصاروا يقولون هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس ومرادهم خذلان المسلمين وانهم اخذوا دراهم من الفرنسيس . وتكلم السفلة والغوغاء من أمثال هذا الفضول » .

ومرة أخرى يحتد الجبرتى وتشتد كلماته على العامة وتعنف ، والعامة هم وقود الثورة ودعائمها ، وهم قد تم شحنهم ضد الفرنسيين ورفعت روحهم المعنوية ، وبذلوا النفس والنفيس من أجل انجاح ثورتهم ، وهم قد فسروا طلب الفرنسيين للمصالحة على أنه ضعف منهم ، كما كان الجميع يعتقدون بأن هناك قوات نجدة ستاتى للقاهرة ، كل هذا ويقوم العلماء بالتوسط فى الصلح ، لا شك أن ذلك العمل قد أثار العامة جدا وجعلهم يوجهون للعلماء أقذع الكلام . اما العلماء فهم أيضا قد تبين لهم الفارق الهائل فى التسليح بين الفرنسيين وبين قوات الثورة ، وأن الدائرة سوف تدور على الثائرين

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٩٨ .

وأن المسالة مسألة وقت ليس الا ، ومن ثم ـ وحقنا لدماء المسلمين ـ توسطوا فى الصلح بين العثمانيين والفرنسيين كمقدمة لحل المسألة كلها ٠

على أيه حال استمات أهل بولاق فى الدفاع عنها ، ويقدم الجبرتى تلك النهاية الدرامية للثورة « ٠٠ غيمت السماء غيما كثيفا وأرعدت رعدا مزعجا عنيفا وأمطرت مطرا غزيرا وسيلت سيلا كثيرا ٠ فسالت المياه فى الجهات وتوصلت جميع السكك والطرقات ٠٠ والفرنساوية هجموا على مصر وبولاق من كل ناحية ولم يبالوا بالامطار لانهم فى خـــارج الافنية وهى لا تتأثر بالمياه كداخل الابنية ٠٠ ثم هجموا على بولاق من ناحية البحر ومن ناحية بوابة ابى العلا بالطريقة المذكور بعضها وقاتل اهل بولاق جهدهم ورموا بأنفسهم فى النيران حتى غلب الفرنسيين عليهم وحصروهم من كل جهـة وقتلوا منهم بالحرق والقتل وبلوا بالنهب والسلب وملكوا بولاق وفعلوا بأهلها ما يشيب من هوله النواصى وصـــارت القتلى مطروحه بالطرقـات والازقة وأحترقت الابنية والدور والازقــة » (١) ٠

وهكذا سيطر الفرنسيون على بولاق ، وأستمرت هذه المأساة من يوم ١٤ أبريل حتى يوم ١٧ ، أن منطقة بولاق لم تسلم ولم تنهزم ، ولكنهـا احرقت وتم تدميرها ، ولم يتوقف الامر عند هذا الحد ، بل فرض الفرنسيون على أهل بولاق غرامة جسيمة بلغت قيمتها مائتى ألف ريال علاوة على ثلثمائة الف على المتاجر ، وفرضوا على الاهالى أن يسلموا ما لديهم من مدافع وذخائر وغلال وحبـوب ٠

واستولى الفزع على ســكان القــاهرة ، وانتهز كليبر هذه الفرصة وأمـر بالهجوم العـام على القـاهرة فى ١٨ أبريـل ، وبـدأ الهجوم بتحضيرات من المدفعيــة على المدينـة من كل جانب ، وبهـال العلمـاء مــرة ثانيــة الى ضرورة السعى للوصــول الى الصلح، واستمرت المفاوضـات فى شروط التسليم حتى يـوم ٢١ أبريل ، وأنتهى الامـر بدخـول كليبر القاهرة بعـــد انكســار الثوار والاتفاق على شروط التسليم ٠ الا أن هذا

---

(١) الجبرتى جـ ٣ ص ١٠٢ ٠

التمادى فى سياسة القوة وفرض الغرامات سيكون عاملا فعالا فى أغتيال الجنرال فى النهاية ٠

نتائج الحملة

١ ـ نتائج سياسية ٠

وضعت الحملة الفرنسية مصر على مائدة السياسة الدولية ، لان مصر منذ مجيىء الحملة أصبحت بحكم موقعها الجغرافى المتوسط فى العالم، وسيطرتها على أكبر بحرين عالميين البحر الاحمر والبحر المتوسط ، أصبحت محط انظار الطامعين ٠ ويأتى قيام بريطانيا بتحطيم الاسطول الفرنسى فى موقعة أبو قير دليلا على بريطانيا لم ترض بوجود قوى منافسة على الطريق التجارى العالمى بين الامبراطورية البريطانية وجوهرة التاج البريطانى أى الهند ٠ ولم تتوقف بريطانيا عند حد تحطيم الاسطول الفرنسى ، ولكنها اشتركت مع الدولة العثمانية فى اجلاء الحملة الفرنسية عن مصر سنة ١٨٠١ ٠ ورغم انسحاب الفرنسيين فعلا فى هذا التاريخ ، فان الاسطول البريطانى ظل محاصرا الشواطىء المصرية حتى عام ١٨٠٣ ٠ ولما فشلت بريطانيا فى ايجاد حكم مملوكى تابع لها فى مصر ، فانها عادت وحاولت احتلال مصر سنة ١٨٠٧ فيما عرف بحملة فريزر والتى انتهت بهزيمة ساحقة للقوات البريطانية ٠ وعندما شيد محمد على الامبراطورية المصرية فى النصف الاول من القرن التاسع عشر وحطم بذلك الهيمنة الاقتصادية لبريطانيا فى المنطقة بعد أن شيد صرح الصناعة المصرية الحديثة ، فان بريطانيا حطمت هذه الامبراطورية ، وحددت سلطة الوالى المصرى الطموح بحكم مصر فقط وكذلك السودان مدى الحياة ، وذلك بتسوية لندن ١٨٤٠ ، ١٨٤١ ٠

وبعد شق قناة السويس سنة ١٨٦٩ قررت بريطانيا الاستيلاء على مصر ، لان القناة أصبحت تشكل مع البحرين المتوسط والاحمر أقرب طريق لمستعمراتها فى الهند ٠ وانتهزت بريطانيا فرصة الخلاف بين الزعيم أحمد عرابى والخديو توفيق واحتلت مصر سنة ١٨٨٢ ٠

٢ ـ نتـائج قومية :

من نتائج الحملة الفرنسية غير المباشرة ، أن المصريين ثاروا مرتين عندما تجمعوا فى حشود ثورية بزعامـات مصرية خالصـة ٠ والتعاون بين الثوار وبين المقاتلين ضد قوى الاحتلال ، ولد شعورا خاصـا بالقوميـة ظل بتفاعل علـى مـر الزمن ٠ كمـا أن اشراك بونابرت للمصريين معه فى حكم مصر أى فى الديوان كان بدء الشعور لدى المصريين بأنه فى امكانهم حكم بلادهم ٠ كمـا أن استخدام اللغة العربيـة فى المنشورات الصادرة من قيادة الحملة للشعب المصرى ، والصحف التى كانت تصدر باللغتين العربيـة والفرنسية أدى الى تدعيم القوميـة المصريـة العربيـة ٠

٣ ـ الآثار الحضـارية ٠

(أ) المجمع العلمى المصرى ٠

كانت سياسة بونابرت قائمـة علـى أساس دراسـة طبيعة البـلاد والوقوف على جميـع مواردهـا حتى يجعل منهـا نقطـة ارتكـاز لتوسعاته فى الشرق ، ولذا أمر بانشاء المجمع العلمى ، فقـد كـان يعتقد أن آثار العلم أبقى من آثار الحروب ، ومصر تصلح أن تكون حقلا لتحقيق تلك الغايـات ، خاصـة وان علمـاء الحملة قـد شملوا كل التخصصات ٠ ولذا أصدر بونابرت بعـد دخوله القـاهرة أمرا بانشـاء مجمـع للعـلوم والفنون أهم اختصاصاته نشر العلوم والمعارف فى مصر ، والقيام بالبحوث والدراسات واصدار الكتب والنشرات ٠ وقد تم بالفعل انشاء المجمع الذى ضم أربعة أقسام : الرياضيات ـ الطبيعة ـ الآداب والفنون ـ الاقتصاد ويضم كل قسم اثنا عشر عضـوا ٠

واجتمع المجمع المصرى لاول مرة يوم ٢٣ أغسطس سـنة ١٧٩٨ ٠ وفى الواقـع قـام أعضـاء المجمـع العلمى بمجهودات جليلة كشـفت النقاب عن كثير من ثروات مصر الاقتصـاديـة ٠

(ب) لجنـة العلوم والفنون :

كان بونابرت قـد اختار مونج لرئاسـة هيئة العلمـاء الذاهبـة

الى مصر (١) • وكان عـدد العلمـاء الذين حضروا الى مصر ١٧٥ عالمـا •

وقسمت لجنـة العلوم والفنون عنـد وصولهـا الى مصر الى ثلاثة أقســام : قسـم بالقاهرة برئاسـة مونج ، والثانى بالاسكندريـة وكانوا نحو خمسـة عشر عالمـا والقسـم الثالث فى رشـيد وكانوا حوالى عشرين عالمـا • ولمـا استقر بونابرت فى القاهرة ، أرسـل فى ٢١ أغسطس يطلب حضور جميـع العلمـاء الى القاهرة • فاستجاب مينو ، وأرسـل العلمـاء الموجودين فى رشـيد ، ولكن كليبـر استبقى العلمـاء الذين كانـوا فى الاسكندرية بدعوى انشغالهم برسـم خريطة الاسكندرية •

وتم تنظيم لجنة العلوم والفنون ، ووزعت الاعمـال عـلى أعضائها ، وقبـل بدايـة شـهر اكتوبر سنة ١٧٩٨ كـان قـد تم انشـاء مكتبة العلوم الطبيعية ومعمـل الكيميـاء ومكتبة التـاريخ الطبيعى ومرصـد علماء الفلك ، كمـا تم تشـييد الورش الميكانيكية التى زودت العلمـاء بالآلات والادوات التى احتاجوا اليها فى بحوثهم (٢) •

(جـ) الآثـار •

اهتم علماء الحملة بالكشـف عن الآثار القديمة • وعندما أمـر بونابرت بعمـل تحصينات فى رشـيد ، تبين أن خير مكـان لانشاء هـذه التحصينـات هو موضع القلعة التى كانت تعرف باسـم برج رشـيد • وعنـد الحفـر عثر بوشـار على حجـر رشـيد ، وهـو حجر من الجرانيت الاسود ارتفـاعه ٩٧٥ مليمترا وعرضـه ٧٣٢ ملمترا وسمكه نحو ٢٥٠ مليمترا •

وقـد وجـد المكتشـفون نقوشـا على واجهـة واحـدة عبـارة عن ثلاث مجموعات من النقوش منفصلة بعضها عن بعض • أمـا النقوش العليـا فكانت اربعـة عشر سـطرا بالهيروغليفية ، يليهـا اثنـان وثلاثون سـطرا بالديموطيقية – كمـا عـرف فيما بعـد – اما

---

(١) دكتور فؤاد شكرى – عبد الله جاك مينو وخروج الفرنسـيين ص ٦١٥ •

(٢) المرجـع السـابق ص ٦١٩ •

النقوش التى نلتها فكانت فى اربع وخمسين سطرا باللغة اليونانية الذديدة . وقد أرسل هذا الحجر من رشيد الى القاهرة حتى ذفحصه المجمع العلمى . وقضى العلماء بالقاهرة أسابيع طويله حول الحجر بحاولون فك رموزه .

وقد ظل الحجر فى مصر حتى جلاء الحملة ، وبذل مينو جهدا كبيرا لمنع الانجليز من الاستيلاء على حجر رشيد ولكن الانجليز اصروا على أخذه ، فنقلوه الى المتحف البريطانى وهناك نجح شامبليون فى فك رموزه .

اما بالنسبة لآثار الصعيد فان ميفان دينون كان من اوائل علماء الحملة الذين تجولوا فى اتجاه الصعيد ، فقد رافق حملة الجنرال ديزية فى الصعيد نحو ثمانية اشهر يرسم ما يشاهده من معابد وتماثيل (١) . وقد رسم دينون آثار هرمو بوليس (الاشمونين) ومنفلوط وأسيوط كما زار آثار كوم امبو وادفو الاقصر والكرنك خصوصا مدينة هابو والرمسيوم ووادى الملوك .

وقد أحضر دينون معه الى القاهرة مائتى رسم تشتمل الى جانب صور التماثيل والمعابد وما الى ذلك على رسوم نقوش هيروغليفية ، كما احضر معه بعض مجموعات أوراق البردى .

(د) خريطة جاكوتان .

اعتقد بونابرت انه من الاهمية بمكان وضع خريطة دقيقة ومفصلة لمصر ، وذلك لتحقيق أهدافه المرسومة بها . وانتشر العلما - بتعليمات منه - فى ربوع مصر لرسم الخرائط المفصلة . وبعد جهد جهيد ، أمر بونابرت فى ٢٨ يونيو ١٧٩٩ باجتماع العلما الجغرافيين فى مقر هيئة اركان الحرب ، وعهد الى جاكوتان بمسئولية رئاسة الفريق المسئول عن اعداد الخريطة (٢) .

---

(١) - دكتور فؤاد شكرى - المصدر السابق ص ٦٣٧ .

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى - المصدر السابق ص ٦٤٠ .

وعندما حان وقت جلاء الحملة ، استطاع العلماء الفرنسيون أن يأخذوا معهم الى فرنسا هذه الخرائط التفصيلية ، وفرغوا من اعداد هذه الخريطة نهائيا فى ١٣ اكتوبر سنة ١٨٠٣ ٠

(هـ) كتاب وصف مصر ٠

يرجع الفضل الى كليبر فى ظهور هذا الكتاب ٠ فهو الذى دعا المجمع العلمى للاجتماع فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٧٩٩ حتى يمكن التفاهم فى شأن كتاب وصف مصر ٠ ولقى مشروع وضع الكتاب تاييدا شاملا ، وعندما عادت الحملة الى فرنسا ، تقرر ان تقوم الحكومة بنشر الكتاب على نفقتها ٠ وظهر أول اجزاء الكتاب سنة ١٨٠٩ وكتب الاهداء باسم الامبراطور نابليون ، ثم حالت الظروف السياسية دون نشر بقية أجزاء الكتاب ، فظهر آخر أجزاء هذه الطبعة فى سنة ١٨٢٢ ٠

وتتالف من تسعة مجلدات تشتمل على بحوث العلماء ومذكراتهم واحد عشر مجلدا آخر تحوى الرسوم ٠

وينقسم الكتاب الى ثلاثة اقسام هى : التاريخ القديم والتاريخ الحديث والتاريخ الطبيعى ٠ والواقع أن كتاب وصف مصر تعرض للجغرافيا والآثار وموارد الثروه الحيوانية والنباتية والمعدنية والتاريخ والمجتمع وما الى ذلك من فروع المعرفة ، ويعتبر اعظم آثار الحملة الفرنسية وابقاها على مر الايام ٠

(و) المطابع والصحافة ٠

هيات حكومة الادارة للحملة كل ما احتاجت اليه من آلات للطباعة (١)، ولذا فقد عهد بونابرت الى مونج باختيار المستشرقين والذين يحترفون فنون الطباعة العربية (٢) ٠ وتم جمع حروف المطبعة من باريس ،

---

(١) دكتور ابراهيم عبده — تاريخ الطباعة والصحافة فى مصر خلال الحملة الفرنسية ص ١٢ — ١٣ ٠

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى — الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ص ٦٥٢ ٠

واستكملت لها الاحرف العربيــة من مطبعة البروبا جندا يروما ، وأصبح المستشرق مارسيل ، أحــد اعضــاء لجنة العلوم والفنــون ــ مسئولا عن المطبعة العربيــة (١) ٠

وقــد تألفت المطبعــة الرسميــة التى احضرتهــا الحملة معهــا الى مصر من مطبعة فرنسية واثنتين عربيتين وواحــدة يونانيــة وبالاضــافة الى المطبعة الرســمية كــانت هنــاك مطبعــة خاصــة لاحد المدنيين الذين رافقوا الحملة هــو مارك اوريل (٢) :

وبعــد أن استولى بونابرت على القاهــرة ، أمــر باحضــار المطابع من الاسكندرية ، لاهمية الاعــلام أو الدعــاية بين ابناء الشــعب المصرى (٣) ٠

وكان بونابرت قــد عهد الى مطبعة مارك أوريل بطبع الصحيفتين اللتين قرر اصدارهما فى مصر وهى صحيفة لوكوربيه دوليجبت Le Courrier De L'Egypte ولا ديكاد اجبسيين La Decade Egyptienne وكانت الصحيفة الاولى سياسية والثانية ادبية علمية تصدر كل عشرة أيام ، ثم انتهى بها الحال لتصــدر كــل شــهر ٠

وبالاضافة الى ذلك كانت هنــاك صحيفة التنبيــه التى كانت تصــدر باللغة العربية لنشر البيانات والاوامر ونشــاط الديون وأخبار العــالم والمقــاولات الادبيــة والاخلاقيــة ٠

واذا كان مارك اوريــل قــد باع مطبعتــه وعــاد الى فرنســا فى ٧ سبتمبر سنة ١٧٩٩ ، فان مينو استطاع ان يعيد المطبعة الرسمية الى فرنســا مع انســحاب الحملة ٠

والواقــع أن المطبعــة الرسميــة قــد حازت على اعجاب الكثير من المشايخ وأعضــاء الديوان وغيرهم من المصريين الذين زاروهــا ، وقرأوا الصحف والبيــانات المطبوعــة باللغــة العربيــة ٠

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ــ تاريخ الحركــة القوميــة جـ ١ ص ١٤٤ ٠
(٢) د ٠ ابراهيم عبده المصدر الســابق ص ٣٦ ٠
(٣) دكتور محمد فؤاد شكرى ــ عبد الله جاك مينو ص ٦٥٧ ٠

(هـ) المسرح ٠

لم يكن فى مصر فى نهاية القرن الثامن عشر مسرح بالمعنى المفهوم ، الا أنه مع عام ١٧٩٩ بدأ بناء مسرح الازبكية لتمثل عليه بعض فرق الفنانين مسرحيات فرنسية ٠ وتشكلت بعد ذلك الفرقة المسرحية (الأوبرا) ٠ وبذلك يرجع الفضل الى الفرنسيين فى انشاء المسرح فى مصر فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ٠

وخلاصة القول أن تاثير الحملة الفرنسية كان محدودا على المدى القصير ، وذلك لقصر الفترة التى عاشتها الحملة فى مصر ، ولكن بالنسبة للمدى الطويل فان الحملة هزت المفاهيم الفكرية والاجتماعية التى كان المجتمع المصرى يخضع لها ، وأوضحت للمصريين مدى التخلف الذى كانوا فيه تحت ظل الحكم العثمانى وأنه لابد لهم من مجاراة العصر والتعرف على العلوم الحديثة ، أى أن الحملة قد أقنعت المصريين او الصفوة المثقفة بضرورة التغيير ، وجاء مؤسس مصر الحديثة والى مصر العظيم محمد على ليستفيد من هذا الاعداد النفسى للتغيير ، ويبنى مصر الحديثة ٠

الفصل الثاني

عصر محمد علي

تعتبر الفترة التى أعقبت جلاء الفرنسيين عن مصر حتى استقر الأمر لمحمد على فترة اضطراب فى مصر ، حيث تعددت القوى المتصارعة على السلطة ، فالاتراك العثمانيون عادوا للاستيلاء على البلاد ، أما المماليك فقد اعتبروا أنفسهم أصحاب مصر ، وكذلك ظل الانجليز محاصرين للسواحل المصرية ، وكانت لهم اليد الطولى فى اجلاء الفرنسيين عن مصر ، ووجدوا فى المماليك ركيزة لهم وسندا بالنسبة لتحقيق أهدافهم ، وأهملت هذه القوى جميعا قوة الشعب المصرى التى بدأت فى الظهور ، ولم يدركوا أهمية هذه القوة ، ولكن محمد على أدرك هذه الاهمية وأقن أن التقرب اليها ومصانعتها هو هو السبيل الى تحقيق آماله فى حكم البلاد . وقد اختلف المؤرخون فى تقديرهم لاعمال محمد على ، فمنهم من يراه مصلحا مستنيرا ، ومنهم من يراه انتهازيا كون لنفسه ولاسرته ملكا كبيرا من بعده . بل ان ما كتب عنه من مراجع وكتب تتناقض مع ظروف المرحلة ... فالكتابات عن محمد على قبل ثورة ١٩٥٢ كانت محايدة الى حد ما ، ولكن ومع قيام ثورة يوليو ، بدأ الكتاب يهاجمون الاسرة المالكة السابقة ... يهاجمون كل شيىء ، ولكن مع شيوع حرية الفكر وروح الديمقراطية وحرية ابداء الرأى يمكن أن نؤرخ للوالى العظيم دون خوف أو وجل ، ولتكن الحقيقة هى النبراس والاساس ، فالحقائق التاريخية هى بمثابة العبرة للشعوب حتى يمكن ان تتلافى اخطاءها السابقة وتتخذ من أيام عظمتها ومجدها شعاعا يضيىء لها الامل وييسر لها سبل التقدم والنجاح .

لقد تقلد محمد على باشا ولاية الحكم بارادة زعماء الشعب المصرى ، ونزولا على رأيهم فى ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ ، وقد ظلت هذه

الزعامة فى الميدان ، وبقيت قائمة عاملة فى السنوات الاولى من حكم محمد على (١) فكان لها اثر فعال فى تثبيت دعائم حكمه وتذليل العقبات التى وضعتها القوى المتصارعة فى طريقه ٠

يتبين مما سبق أن زعماء الشعب وعلى راسهم السيد عمر مكرم (٢) كان لهم نفوذ فى ادارة الحكومة ، وكانوا ملجأ الناس فى رفع المظالم ، وقد عظم نفوذ السيد عمر مكرم فى تلك السنوات مما لم يسبق له نظير من قبل ولاغرو ، فهو الذى أجلس محمد على على كرسى الحكم فى مصر ، وكان فى السنوات الاولى من حكمه أحد أركان الحكم فى مصر ٠

لقد استعان محمد على بالزعامة الشعبية - فى السنوات الاولى من حكمه - لارساء قواعد السلطة ٠ وكان الوالى العظيم من أولئك الذين

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ٠ عصر محمد على - الطبعة الثانية ١٩٥١ مكتبة النهضة المصرية ص ١٦ ٠

(٢) ولد السيد عمر مكرم فى مدينة أسيوط فى أسرة شريفة تنتسب الى البيت النبوى الكريم ، ولسنا نعرف على وجه اليقين تاريخ ميلاده ، ولكن بعض الباحثين يرون أنه ولد فى عام ١٧٥٥ ٠ ولما بلغ السيد مرحلة الشباب - أرسله أبوه الى القاهرة لاتمام تعليمه بالازهر الشريف ، وكانت له عناية بالقراءة ، واقتنى مكتبة كبيرة لا يزال جزء منها محفوظا فى دار الكتب المصرية يحمل اسمه ٠ وبدا السيد حياته السياسية منذ سنة ١٧٩١، واصبحت علاقاته بالولاة العثمانيين وثيقة وفعالة ٠ وكان للسيد دور كبير ابان الحملة الفرنسية ثم الى غزة ، كما شارك السيد فى ثورة القاهرة الثانية وكان من زعمائها ٠

واثناء الحملة الانجليزية على مصر (فريزر) سنة ١٨٠٧ نظم السيد عمر مكرم المقاومة الشعبية ، وأمر بتعطيل الدراسة فى الازهر كى يتفرغ الاساتذة والطلاب للجهاد ٠ واستمر السيد فى جهاده مما أدى الى علو مكانته وغيرة محمد على منه ، وقراره بابعاد السيد الى دمياط سنة ١٨٠٩ ٠

لمزيد من التفصيلات : انظر : دكتور عبد العزيز الشناوى - عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية - أعلام العرب (٦٧) دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٧ ٠

اصطلح المؤرخون على وصفهم بالحكام المصلحين المستنيرين ، وان كان قد شاب ذلك الاصلاح نوع من الاستبداد الضرورى لارساء قواعد الاصلاح

الحكومة والادارة •

كانت حكومة محمد على تشكل نوعا من الديكتاتورية المركزية مع شىء من الشورى التى كفلت وجودها تلك المجالس المتعددة التى انشأها محمد على ليحث المشروعات واعدادها قبل أن تعرض عليه • فهذه المجالس كان عليها أن تدرس كل المسائل بكل تفصيلاتها ، وكان الباشا يبدى عناية بالآراء التى قدمت فى الموضوع الواحد ، ولكن للباشا وحده الكلمة العليا فى النهاية ، ومن حقه المطلق تصريف الأمور •

وكان المجلس العالى هو اهم هذه المجالس ، وقد صدر الى الكتخذا محمد بك لاظ أوغلى أمر تأسيسه فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٢٤ ، وكان يسمى باسماء كثيرة منها مجلس القلعة وديوان الخديوى ومجلس العموم • واختص المجلس بجميع الشئون الداخلية عدا المالية منها • وفى عام ١٨٢٥ صدرت لائحة المجلس الاساسية التى حدثت لها عدة تعديلات ، ونصت هذه اللائحة على أن يضم المجلس بعض « رجال الاقاليم المنتخبين » وكذلك عالمين من علماء الازهر واثنين من كبار التجار وكاتبين ، وشيخا عن كل مديرية ، علىأن يستبدل الجميع كل سنة •

وأخذ المجلس يعقد اجتماعاته السنوية ابتداء من ٢ سبتمبر سنة ١٨٢٩ ، وكان اجتماعه الاول برئاسة ابراهيم باشا فى سراى الروضه

وبالاضافة الى المجلس العالى كانت هناك عده مجالس أخرى كمجلس الصحة والاستباليات وديوان التجارة والمبيوعات وجمعية الحقانية وديوان الجهادية وديوان الابنية وغيرها ، وواضح من اسماء هذه الدواوين اختصاصات كل منها •

وفى يوليو ١٨٣٧ صدر قانون السياستنامه لتنظم شئون الحكومة الداخلية وتوزيع الاختصاصات بين الدواوين (الوزارات) وضم

هذا القانون مقدمة وثلاثة فصول ، اختص الفصل الاول منها ببيان « الترتيبات الاساسية » ، واختص الثاني ببيان « الاجراءات العملية » واقتصر الفصل الثالث على بيان « قانون العقوبات » .

وكان قانون السياستنامه أول خطوة واسعة فى سبيل تنظيم الادارة والحكومة المصرية فى عهد محمد على وكان عدد الدواوين (الوزارات) التى انحصرت فيها السلطة حسب التنظيم الجديد سبعة : الديوان العالى (الخديوى) وديوان الايرادات وديوان الجهادية وديوان البحر وديوان المدارس وديوان الامور الافرنكية والتجارة المصرية وديوان الفابريقات .

على انه على الرغم من وجود تلك الدواوين والمجالس كان محمد على مصدر السلطة العليا فى مصر ، وكان أسلوبه مع رجال دولته أسلوب الوالد المرشد والحاكم المصلح يتوعد بالعقوبة المذنبين ، كما يمنح المكافاة للمخلصين فى أعمالهم على قاعدة الثواب والعقاب ، وفى خطبته التى ألقاها الوالى العظيم فى أعضاء مجلس المشورة ... « ولتعلموا انكم اذا لم تحولوا عن خصالكم القديمة من الآن فصاعدا ، ولم ترجعوا عن طرق المداراة والمماشاة ولم تقولوا الحق فى كل شىء ، ولم تجتهدوا فى طريق الاستواء ولم تسلكوا سبيل الصواب لصيانة ذات المصلحة، فلا بد لى من أن اغتاظ منكم جميعا ، واذا كنت موقنا بتقدم هذا الوطن العزيز على اى صورة كانت ، وملتزما فريضته على ، صرت مجبرا على قهر كل من لم يسلك هذا الطريق المستقيم اضطرارا ، مع حرقة كبدى وسيل الدموع من عينى ، فالذى أرجوه من الخالق سبحانة وتعالى ان يجعل نصيحتى هذه مؤثرة فى قلوبكم حتى اشهد منكم حسن الحركة آنا فآنا ، وأعاين ما تستحقونه من الخير ، وتقر عيناى بامتياز كل منكم حسب أقصى آملى (١) .

وواضح من تحليل الخطبة التى اوردنا جزءا صغيرا منها فلسفة حكم محمد على وبروز فكرة الثواب والعقاب بروزا واضحا ، وهو أمر

---

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى وآخرون - بناء دولة مصر محمد على دار الفكر العربى ١٩٤٨ ص ٢١ .

لازم لتقدم أى دولة فى أى وقت ٠

الحملة الانجليزيــة على مصر سنة ١٨٠٧

جردت انجلترا حملتهــا على مصر بقيــادة الجنرال فريزر فى مارس ١٨٠٧ ٠ وكانت انجلترا على اتفــاق مع محمد بك الالفى ـ أحــد زعمــاء المماليك ـ أن يؤيدها وينسق التعـــاون معها لانهاء حكم محمــــد على واعتلاء المماليك السلطة ـ تحت الوصاية البريطانيــة ٠

وهكذا تقدمت الســـفن البريطانيــة فى منتصف مارس الى الاسكندرية وبعد مفاوضات صورية استسلم أمين أغا محافظ المدينة ودخل الانجليز الاسكندرية ليلة ٢١ مارس ٠ وأمين أغا كان ضابطا عثمانيا لان الحكومة التركية كانت تعتبر الاسكندربة حتى ذلك التاريخ تابعة لها مباشرة ، فكانت تعين حاكمهــا ٠

كانت الحملة الانجليزيــة مؤلفــة من أكثــر من ٦٠٠٠ جندى بقيادة الجنرال فريزر ، وتتالف من فرقتين الاولى بقيــــادة الجنرال ستيوارت والثانيــة بقيــادة الجنرال ويكوب وكــان محمــد على فى ذلـــك الوقــت بالصعيد يقاتل المماليك ، فلمــا جاءته انباء الحملة اعتزم العـــودة الى القاهرة ، وعمد الى مفاوضة المماليك حتى لا يحارب فى جبهتين ، وتــرك لهم حكم الصعيــد حتى يتفرغ لمقاومــة الحملة الانجليزيــة الاكثر خطرا ٠

كانت خطة الانجليز فى القتــال هى أن يزحف المماليــك على القاهرة فيحتلوهــا ، وأن يحتل الانجليز ثغور مصر ثــم يزحفوا الى الداخـــل مستعينين بحلفائهم المماليك ٠

موقعــة رشـــيد :

عهـــد الجنرال فريزر الى الجنرال ويكوب بالزحف الى داخـــل البلاد ، فتقــدم ويكوب على رأس الفى جندى يــوم ٢٩ مارس ١٨٠٧ قاصدا رشـــيد ، فوصلهــا فى اليــوم التالى ، واخــذ يستعد لاقتحاميــا صباح

يوم ٣١ مارس • وكان محافظ رشـيد فى ذلك الوقت هو على بك السلانكلى ومعه قوة من سبعمائة رجل ، فعزم على مقاومة الجيش الانجليزى معتمـــدا على الحامية التى معه وعلى مشاركة الاهلى • وامـر على بك بأن تتراجـع الحامية الى داخل المدينـة وان تعتصم فى المنـازل •

وعندما تقـدم الانجليز يـوم ٣١ مارس ١٨٠٧ ، ولـــم يجدوا أثرا للمقـــاومة ، اعتقدوا أن الحـامية قد اخلتها وان المدينـة ستسلم كمـا فعل محافظ الاسكندريـة ، فدخلوا شوارع المدينـة مطمئنين • ولكن بمجرد دخولهم أمر على بك باطـــلاق النـــار ، مما ادى الى هزيمـة الانجـــليز هزيمـة ماحقة وســـقط منهم ١٧٠ قتيلا من بينهم الجنرال ويكوب نفســه هـذا بالاضـافة الى ٢٥٠ من الجرحى و ١٢٠ من الاسرى •

والواقع أن لاهالى رشيد النصيب الاوفر فى هزيمة الجيش الانجليزى لان حاميتها كانت من القلة بحيث لا تستطيع أن تصد الجيش الزاحف • وقد ملا هذا النصر المبين قلوب المصريين حماسة وفخرا وضعضع الهيبة التى كانت للانجليز فى نفوس الناس ، تلك الهيبة التى جاءت من انتصاراتهم السابقة على الجيش الفرنسى فى مصر وعلى الاساطيل الفرنسية ، كما أن هذا النصر جعل المماليك يفقدون الامل فى المساعدة البريطانية كمـا جعلتهم ينكمشون فى معاقلهم بالوجه القبلى •

وقد بادر على بك السلانكلى حاكم رشـــيد بعد الموقعة بارســـال الاسرى الانجليز ومعهم رؤوس قتلاهم الى القـاهرة اعلانـا للنصر •

معركـة الحمـاد :

اراد الجنرال فريزر ان يثار من هزيمة جيشـــه فى موقعـــة رشيد ، فكلف الجنرال ستيوارت بمهاجمة رشيد مرة ثانية • وكان محمد على قـد وصل الى القاهرة فى ١٢ ابريل سنة ١٨٠٧ ، ودبر احتياطاته من الهجوم الثانى للانجليز ، وعاونه السيد عمر مكرم والعلماء فى تدبير نفقات الاستعداد• وكانت فرق المقاومة المصرية تتكون من ٤٠٠٠ مقاتل من المشاة و ١٥٠٠ من الفرسان وسارت بقيادة طبوز أوغلى الى رشيد • أما القوات الانجليزية

بقيادة الجنرال ستيوارت فكانت نحو ٤٠٠٠ مقاتل ومسلحة بالاسلحة الانجليزية المتطورة ٠

وتقدم الانجليز من الاسكندرية الى رشيد فى ٣ ابريل ١٨٠٧ ، واحتلوا (الحماد) التى تقع جنوبى رشيد ٠ وفى صباح ٢٠ ابريل تقدمت طلائع الجيش المصرى من الفرسان نحو مواقع الانجليز فى الحماد ٠

وفى السابعة صباحا من يوم ٢١ ابريل ١٨٠٧ بدأت المعركة ، واستمرت ثلاث ساعات حمى فيها وطيس القتال ، وأنتهت بهزيمة الجيش الانجليزى هزيمة ساحقة ، فقد فر الجنرال سيتوارت من الميدان ومعه بعض الجنود ، وبلغت خسائر الانجليز ٤١٦ قتيلا و ٤٠٠ أسير ٠

كانت معركة الحماد نصرا مبينا لمصر ، وأخذ محمد على يعد العدة للزحف على الاسكندرية وطرد الانجليز منها ، ولكن الانجليز آثروا الصلح مع القوات المنتصرة ، وتم انسحابهم فعلا من المدينة فى سبتمبر ١٨٠٧ بعد أن مكثوا بها زهاء ستة أشهر ٠

وكانت الاسكندرية فى ذلك الوقت تابعة تبعية مباشرة للباب العالى العثمانى ، ولم يكن للوالى المصرى أى نفوذ عليها ، ولكن بعد جلاء الأنجليز عنها سار اليها الوالى العظيم محمد على وبسط عليها نفوذ الحكومة المصرية لتصبح العاصمة الثانية للبلاد ٠

الامبراطورية المصرية فى عصر محمد على

محمد على والجزيرة العربية :

ظهرت الحركة الوهابية فى اقليم نجد ، وهو اقليم عربى بعيد عن سلطة الدولة ، ويمتاز أهله بحب الحرية والاستقلال ، وقد رأى الشيخ محمد بن عبد الوهاب انتشار البدع والمنكرات ، وتعظيم الناس للقبور والاضرحة والاحجار والاشجار ، وابتعادهم عن روح الاسلام الصحيحة وعن الوحدانية السليمة التى جاء بها ، اذ كانوا يستغيثون بالأولياء

وتنحون لهم النذور ، ويتشفعون بهم لجلب منفعة أو لدفع ضرر (١) ٠

والواقع ان من بين العوامل التى اثرت فى تكوين شخصية الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، شخصية تقى الدين بن تيمية الذى عاش فى القرن الثامن الهجرى ، ورغم طول الفترة الزمنية التى تفصل بينهما ، فان الشيخ عكف على آثار ابن تيمية من كتب ورسائل وتنبعها ، وأخذ عنها ونسخ بعضها لنفسه ، بل ان المبادىء التى نادى بها الشيخ كانت هى نفس المبادىء التى سبقه اليها ابن تيمية بأربعة قرون ، فكلاهما نادى بالعودة الى الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح ومقاومة البدع والخرافات التى الصقت بالاسلام ، فدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب تعتبر تطورا تاريخيا لدعوة ابن تيمية ٠

ويطلق بعض الكتاب على هذه الدعوة السلفية اسم المذهب كما يطلق عليها البعض الآخر اسم الوهابية الذى اشتهرت به ٠ والحقيقة أن استعمال هذين الوصفين للدعوة غير دقيق ، فهى ليست بمذهب جديد فى الاسلام حتى يصح اطلاق لفظ المذهب عليها ، بل ان صاحب الدعوة نفسه كان حريصا على أن يؤكد للناس أنه لا يدعوهم الى مذهب فى الاسلام ، ولذا نرى أن وصف الدعوة بالمذهب فيه مغالاة ، لان الشيخ لم يات بمذهب جديد ، بل دعا الى تخليص سلوك المسلمين مما علق به من بدع وخرافات ٠

أما وصف الدعوة بالوهابية ، فقد أطلقه عليها خصوم الشيخ حتى يبرهنوا للناس أن المبادىء التى يدعو اليها بدعة جديدة خارجة على مبادىء الاسلام ٠ أما أتباع الدعوة فاطلقوا على انفسهم الحنابلة أو الموحدين أو السلفيين ٠

وقد اثارت هذه الدعوة السلفية - ولا تزال تثير - جدلا كثيرا ، والحقيقة انها لم تات بجديد فى الدين الاسلامى ، ولم تكن خارجة

---

(١) د ٠ جمال الدين الشيال - الحركات الاصلاحية ومراكز الثقافة فى الشرق الاسلامى الحديث ص ٥٠ ٠

على مبادئه ، بل انها دعوة سلفية سنية ، فصاحبها واتباعها يؤمنون بمذهب أهل السنة والجماعة . والواقع أن المبادىء التى نادى بها الشيخ كانت كلها مبادىء قديمة وجديدة فى الوقت نفسه ، قديمة لكونها لم تخرج عن تعاليم الاسلام ولم تأت فيه بجديد ، وجديدة لان الاسلام الصحيح أصبح غريبا على النفوس فى ذلك الوقت فرأى الناس أن انكار أفعالهم التى يقومون بها ، ودعوتهم الى أصول الدين التى أصبحت بعيدة عن نفوسهم ، رأوا فى ذلك شيئا جديدا عليهم . ولم تكن رغبة الشيخ تستهدف تعديل العقائد التى جاء بها الاسلام أو اعطاء التعاليم الاسلامية تفسيرا جديدا ، وانما هدف أولا وقبل كل شىء الى محاربة البدع والعودة بالاسلام الى أصله الصادق .

ويعتبر دخول الامير محمد بن سعود فى عام ١٧٤٥ فى الدعوة السلفية النواة الاولى فى صرح الدولة السعودية الاولى (١) ، التى تمكنت من السيطرة على الحجاز ومدت سيطرتها الى الحرمين الشريفين (٢) ، وتطلعت الى ضم الشام والعراق :

وكان العثمانيون منذ أن استولوا على الحجاز فى القرن السادس عشر قد اتخذوا من جدة قاعدة لحكمهم هناك ، واستمر الحجاز تابعا لهم الى أن استولى عليه السعوديون . ولما وصلت الامور عند هذا الحد ، أيقن السلطان العثمانى سليم الثالث انه ينبغي القضاء على حركة الوهابيين التى اظهرت عداءها الصريح تجاه السلطة العثمانية (٣) .

وقد اضمر محمد على طويلا رغبته فى الاستيلاء على الجزيرة العربية ، الا أن الباب العالى الذى كان يشك فى الاطماع الكامنة وراء هذه الرغبة ، لم يشجع تحقيق هذا المشروع على يد هذا الوالى الطموح (٤)

---

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم - الدولة السعودية الاولى ص ٣٠ - ٤٠ .

(٢) Playfair R.L. op. cit., p. 127

(٣) Richard H. Sanger. The Arabian Penisula p 27

(٤) H. St. Philby. Arabia p. 92.

الا أن خطر الوهابيــة أخـذ فى التزايـد ، فبعـد أن استولوا على مكة والمدينة ، تقدم السعوديون الى ارض اليمن ، وانضمت اليهم بعض القبائل التى خرجت عن طاعة الامام المنصور (١) دعاه الى طلب معاونة السلطـان العثمانى ووالى مصر لصـد هجوم السعوديين فوعـده بالمساعدة (٢) ٠

وقـد تبين للسلطـان العثمانى محمود الثانى اهميـة اعادة الاستقرار الى الحجاز والقضـاء على تلك الحركـة الخارجة على الخلافـة الاسلامية ٠ وكحقيقـة واقعة ، فان الجزيرة العربيـة لـم تكن فى ذلـك الوقت من المناطق الغنية التى يجب على السلطنة ان تضحى بالكثير من اجلهـا ، الا ان بقـاء هذه البـلاد فى يد الخليفة العثمانى كان أمرا مرغوبا فيه حتى تتحقق الناحيـة الروحية لخلافته ، وحتى لا يكـون هنـاك مجـال للشـك فى قدرته على حماية الحرمين الشريفين ٠ الا أن الدولة العثمانيـة كـانت تقاسى فى ذلك الوقت من مشـكلات داخليـة خطيرة (٣) ولم يجـد السلطان تحت يـده القوة اللازمـة للقضـاء على تلك الحركـة المناوئة للخلافة ، مما اضطره الى أن يلجأ الى والى مصر ، وكلفه بالقيام بتلك المهمة سنة ١٨٠٧ ، ثم كرر طلبه فى العامين التاليين (٤) ٠

وقد قاسى الامـام على منصور فى عـام ١٨٠٤ من وطاة السعوديين الذين سلبوه بضعة من خيرة الاقاليم التابعة له (٥) ، كما نهبوا الحديدة واللحية وحموا دخـول بيت الفقيه ، وأرسلوا عملاءهم الى المخا ليخبروا أهلهـا بانهم سـوف يكونون هناك فى مـدى اشـهر قليلة ، الا انهم عندما قدموا اليهـا لم يتمكنوا من دخولهـا ، واستعصت عليهم أسوارها ، وبذا لم يتمكن السعوديون من التسلط على الساحل اليمنى كله وبالتالى

---

(١) عبد الواسع بن يحيى الواسعى اليمانى ـ تاريخ اليمن ص ٢٥٥ ٠

(٢) د ٠ احمـد فخرى ـ اليمن ، ماضيهـا وحاضرها ص ١٥٩ ٠

(٣) ساطع الحصرى ـ صفحة من تاريخ العرب ص ٤٨ ٠

(٤) Bury, G. Wyman, Arabia Infelix or the Turks in Yemen p. 13.

(٥) C.U. Aitchflison, A Collection of Treaties, Engagements and Sanads Relating to India and Neigbouring countris eVol. XI P. III.

على تجارة المنطقة (١) ٠

ونحن ان ندرس بالتفصيل معارك السعوديين الكثيرة والتى انتهت بهم الى تلك السيطرة على مناطق شاسعة من الجزيرة العربية ، بل اننا تعرضنا لها بايجاز شديد فقط لكى نوضح الاسباب التى أدت بالسلطان الى أن يكرر طلبه الى محمد على فى ١٠ سبتمبر ١٨١٠ بان يجرد حملة لمحاربة هذه الدعوة الخارجة على الخلافة (٢) ٠

وقد اضطر السلطان الى طلب تنفيذ هذه العملية من محمد على رغم شكوكه فى نوايا هذا الوالى الطموح — لان التهديد الوهابى كان قد اتخذ شكلا خطيرا حتى أنه أصبح من الضرورى اتخاذ اجراءات فعالة لتلافى حدوث أية نتائج أشد خطورة ، وفى نفس الوقت ، فأن محمد على كان قد شيد لنفسه فى مصر مكانة راسخة ، والباب العالى لن يضيره أن يقحم هذا الوالى القوى فى مشروع يستحوذ على كل مجهوداته ويبعده عن طريق الخيانة ٠ كما أن هذا الوالى اذا منى بالهزيمة ، فان ذلك سيكون فى مصلحة السلطة العثمانية التى بمكنها اخضاعه بعد ذلك ، ومن ثم تطورت الامور ، وصدرت اليه التعليمات باتخاذ الخطوات اللازمة لسحق الحركة الوهابية ٠ وقد اهتم محمد على بذلك المشروع بعزيمة صادقة (٣) ، الا أن الامر من جانبه لم يكن مجرد طاعة منه لسيده السلطان للقضاء على تلك الحركة الخارجة على الخلافة ، بل ان المسأله كانت أعمق بكثير ، فان ذلك الوالى كان همه الاكبر موجها نحو المصرية ، وبصفة رئيسية عن طريق التجارة ، ولما رأى أن انجلترا هى الدولة البحرية الكبرى التى تمر أساطيلها وتجارتها فى كل البحار فانه تقرب منها واهـد النقط الانجليزية فى البحر المتوسط بالقمح اللازم لها اثناء الحروب النابليونية ٠ ووصل محمد على الى محمد على الى أبعد من ذلك بأن قدم اقتراحات الى حكومة الشركة فى الهند للعمل على تشجيع التجارة معها ٠ وقد كانت هذه الاقتراحات

---

(١) Playfair R.L. op. cit., p. 128

(٢) عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر — عصر محمد على ص ١١٥ ٠

(٣) H. Et, Philby. op. cit., p.p. 92-93

من الاهميــة بمكان ، حتى انهــا كانت كافيــة لان يرســل بلزونى كمبعوث بريطانى الى القاهرة ، حيث وقعت معاهدة بين الطرفين فى عام ١٨١٠ ، وقــد نصت هــذه المعاهدة على أنه يجب أن تشــكل أسس المعاملة مــع الهند ، وأنه فى حالة حدوث حرب بين انجلترا وتركيــا ، فان الباشــا لن يقوم تحت اية ظروف باهانة الرعايا البريطانيين أو الاستيلاء عــلى ثروات بريطانية ، وأن يقــوم الباشــا باعــادة الهاربين من الســفن البريطانيــة حتى ولو كانوا ممن يعتنقون الاســلام ، وأن يمــر المسافرون ومعهم امتعتهم الشخصيــة فى الاراضى المصريــة دون دفــع ضرائب ، وأن تمــر القوافل التجاريــة بسلام ، وتحت الحراســة من والى السويس ، وان الضرائب الجمركيــة لا تزيــد عن ٣ ٪ ٠ الا أنــه لــم يتم التصديق على هــذه المعــاهــدة ، وليس من شــك فى أن ذلك حــدث خوفــا من ان يؤدى عقدهــا الى تدهور العلاقــات البريطانيــة مــع تركيــا (١) ٠

فمحمد على بدون شك لــم يقم بهــذه الحملة ارضــاء للباب العالى فقط بــل لا نجاز اهــداف اخــرى ، فقد رأى أنه اذا ما نجح حيث اخفقت السلطنة واستطــاع بقوة جيشــه أن يقضى على السعوديين ، وأن يستخلص منهم الاراضى المقدســة ، فان ذلك سوف يؤدى الى توطيــد مركزه وعلــو مكانته حيال العالم الاسلامى والباب العالى فلا يفكــر فى عزله أو تغييره ٠

وفى سبتمبر ١٨١١ شقت الحملة المصريــة طريقهــا الى الجزيرة العربية ، فتقدمت قوات الخيالة بالطريق البرى عبر العقبة الى ينبع (٢) ٠ ميناء المدينة ، حيث وصلت قوات المشــاة بقيادة طوسون نفســه بالطريق البحرى فى اكتوبر من نفس الســنة ٠ وتم الاستيلاء على ينبع بلا مجهود كبير ، وتابع الجيش المصرى زحفه نحو الداخل وواجه الجيش اول مقاومــة له فى بدر ، وبدا يعانى من الاقــامة فى منطقــة قاحلة ، وتقــدم الجيش فى الوادى حيث تجمــع البدو فى واحة لمواجهته ، وكــان ضيق الوادى وبالاعلى المصريين ، وسيطر السعوديون على الموقف ، وانسحب طوسون وجيشــه الى ينبع . ولــم يكن امــامه ســوى البقــاء فيهــا فى انتظــار وصــول

---

(١) H. Dodwell op. cit., p. 57

(٢) Philby : op. cit., p. 93

امـدادات جديدة (١) ٠

وعلى أية حال ، فعندما شعر طوسون مـرة أخـرى بقوته ، تقـدم الى المدينـة وحاصرهـا مـدة شهرين الى ان سلمت فى النهاية سـنة ١٨١٢ (٢) كمـا ان عبد الله قائـد الجيش السـعودى فى الحجـاز قـام بالانسـحاب من مكة التى سقطت فى أيـدى المصريين بقيـادة مصطفى بك صهر محمـد على ٠ وهكذا خرجت المدن المقدسـة من سـيطرة السعوديين وظلت كذلك أكثـر من قرنين من الزمـان ٠

وبدا انه من الصعب على الدولة السعوديـة أن تحافظ على تماسكها ، كمـا أن الزعيم نفسـه كان مريضـا ، وكان الوقت ملائمـا لاعدائه كى يبذلوا مجهودا مضاعفـا ضـده ، فخـرجت مدن الحدود السوريـة عن السلطـة السـعودية ، وتشجعت القبائل الواقعـة فى الجزيرة العربية ، وانتشرت الاضطرابات فى تخوم نجـد نفسـها ، وعندمـا بدا أن نهاية السعوديين قـد اصبحت قريبة ، قرر محمـد على أن يديـر العمليـات بنفسـه فى الحجاز ، وبعـد ان ترك مسئولية الحكم لولديـه اسـماعيل وابراهيم ، ترك القاهرة الى السويس ومنها الى جدة (٣) ٠

الا أن نفوذ محمـد على لـم يكن آمنـا تماما فى الجزيرة العربيـة ٠ حقيقـة لقـد احتلت قواته المدن الساحلية فى الحجاز وعسير بلا صـعوبة كبيرة ، الا ان المناطق الداخليـة كانت لا تزال فى ايـدى السعوديين ٠ الا انه فى أول ما يـو ١٨١٤ مـات سعود فجاة فى الدرعية ، ومـات معه الامـل الاخير فى بقاء الدولة السعوديـة التى بذل الكثير من أجل اقامتهـا والتى استطـاع هـو وحـده السيطرة عليهـا (٤) ٠ ولم يتفق ابنـاؤه الثلاثة فيما بينهم على كيفيـة حكم دولتهم (٥) ٠

---

(١) Dodwell : op. cit., p. 43.

(٢) Philby : op. cit., p. 93

(٣) Playfair : op cit., p. 130

(٤) Philby p. 95 - 96.

(٥) Dodwel : op. cit., p. 45.

وهاجم طوسون نجد الا ان مواصلاته مع المدينة كانت تقطعها اغارات السعوديين ، وبقي طوسون على غير اتصال بوالده الذى كان فى الواقع قد عاد الى مصر · وتحت هذه الظروف وافق طوسون على اجراء مفاوضات ، وتم توقيع معاهدة وافق فيها عبد الله بن سعود على الاعتراف بسلطة السلطان العثمانى ، وتعهد بزيارته زيارة ودية ، وكان على طوسون فى مقابل ذلك ان ينسحب من كل أراضى الوهابيين ، وأن يكون لنجد اتصال حر مع الحجاز (١) ·

وقد هاجم محمد على هذه المعاهدة ، الا أنه فى نفس الوقت أرسل تهديدا بأنه سوف يهاجم الدرعية نفسها ، الا اذا تقدم عبد الله الى الآستانة حسب شروط المعاهدة . الا ان عبد الله تغاضى عن هذا التهديد وكرس نفسه لتاكيد سيطرته على قبائله وتقوية عاصمته بالأسوار والمدافع والمؤن لمواجهة الحصار (٢) ·

وعند وصول محمد على الى مصر عين ابراهيم باشا لقيادة الجيش فى الجزيرة العربية (٣) · وبعد عدة معارك ظهر ابراهيم بقواته فى ٦ أبريل ١٨١٨ بالقرب من عاصمة السعوديين ، وارتفع الستار عن الفصل الاخير من نهاية الدولة السعودية الأولى · وتوجه عبد الله ابن سعود بنفسه الى ابراهيم باشا طالبا انهاء القتال كى يحمى اتباعه، وقد استقبله ابراهيم باحترام كبير كبطل منافس ساعة الهزيمة ، وأرسله الى العاصمة العثمانية حيث ضربت عنقه فى سانت صوفيا ، وضاعت بذلك الدولة السعودية (٢) ·

ساعدت الاوضاع الداخلية والقوى الخارجية على اقامة دولة مصر الحديثة فى أوائل القرن التاسع عشر · ونجحت هذه الدولة فى توطيد الأمن وضرب الاقطاع ، ومد نفوذها على كل منطقة الشرق الادنى

---

(١) Philby : op. cit., p. 98

(٢) Dodwell : op. cit., p. 46.

(٣) Playfair : p. 133.

(٤) Philby p. 98 - 102.

وكان بعض البكوات المماليك — من الذين نجوا من مذبحة القلعة — قد تمكنوا من الفرار الى شمال السودان ، ومن تدعيم نفوذهم فى جنوب مصر ، فنظرت اليهم كخطر يهدد أمنها وسلامتها • ولقد تمكنت مصر بفتحها للسودان من القضاء نهائيا على قوة المماليك واستبعدت بعد ذلك لوضع أسس جديدة لبنيانها الاجتماعى والاقتصادى •

وقد انتهت الحروب ضد الحركة الوهابية باسناد ولاية الحجاز الى ابراهيم الابن الاكبر لمحمد على ، وأصبح أبناء الجزيرة العربية يجندون فى القوات المصرية ، وساعد ذلك بالتالى على زيادة الاندماج بين ابناء هذين الاقليمين داخل وحدة ادارية واحدة •

السودان وسوريا :

أما تجربة السودان ، فقد سارت مع حملات توغلت فى هذه البلاد وضمتها الى مصر • وكما حدث فى الجزيرة العربية ، بدأ السودانيون يشتركون فى وحدات الجيش المصرى ، وزاد التقارب بين أبناء هذين الاقليمين العربيين ، وسهلت الادارة الموحدة شئون التجارة •

أما تجربة سوريا ، فقد دعمت هذه الوحدة الادارية الجديدة فى منطقة الشرق الادنى ، وأصبحت حدود الدولة الجديدة تمتد من جبال طوروس الى أعالى النيل ، ومن حدود ليبيا الى أعالى الفرات • وبدت هذه الامبراطورية فى شكل عربى واحد من ناحية السكان على الاقل • وكان بالمرستون يعتقد ان محمد على له أطماع واسعة فى بناء امبراطورية عربية تضم كل البلاد التى تتكلم العربية ، والغالب أن الوالى كان يعتنق مثل هذه الرغبة ، فان الاستيلاء على سوريا والحجاز والسودان جعله فى موقف قد يسمح له بتنفيذ هذا المشروع الضخم ، وبقيت فقط العراق والخليج العربى وجنوب الجزيرة العربية كى يمكنه أن يحقق مثل هذا التوسع فى الشرق العربى (١) •

---

(١) H. Dodwell op. cit., p. 125.

ومن وجهة النظر البريطانية ، فان أهداف الباشا كانت تتلخص فى أن يرسل فرقة من قواته من اليمن للاستيلاء على عدن وميناثها العظيم الذى يتحكم فى مدخل البحر الاحمر ، وبعد ذلك تتقدم القوات المصرية الى حضرموت المقسمة بين العديد من الامراء والشيوخ الضعاف ، وبعد ذلك تتقدم قواته الى عمان ، وأخيرا الى مسقط والمنطقة الواقعة فى الجانب الجنوبى الغربى من الخليج العربى ، بحيث يصبح بعد ذلك سيدا على كل شبه الجزيرة العربية ، وبعد أن يتم له ذلك ، فان الاستيلاء على بغداد سوف يكون امرا سهلا (١) ٠ والواقع ان وثائق عابدين لم لم تؤكد هذا التصور البريطانى ، الا انه بالنسبة لهذا الوالى الطموح ، فإن هذا التصور قد يبدو امرا محتملا ٠

الا انه من وجهة نظر اخرى ، فاننا اذا تتبعنا الخطوط التى سار عليها محمد على ، لوجدنا أنها كانت تهدف القسطنطينية عاصمة الدولة ومقر الخلافة الاسلامية ، بدلا من محاولة اتمام الوحدة العربية بالسير صوب بغداد مثلا ٠

ولقد كانت تجربة الدولة المصرية الحديثة فى العالم العربى تجربة عميقة ، وخاصة بالنسبة للسياسة التى انتهجتها تجاه الرعية من جهة ، ونظرا لما حققته من جهة أخرى فى الميادين الثقافية والفكرية ٠ اما السياسة التى سارت عليها الادارة ، فكانت تتلخص فى المساواة بين كل سكان الامبراطورية فى الحقوق والواجبات أمام القانون ٠

وعندما تعقدت الامور بين محمد على وسلطان تركيا واستحكم النزاع بينهما وثارت الحرب طلبت الحكومة البريطانية من محمد على

---

(١) India Office Library Political and Seeret Library B-8 ،
Confidentiel, Memorandum on the Turkish Claim to reignty over the Eastern shores of the Read Sea and the whole of Arabia, and the Egyptian Claim to the Whole of the Western shores of the same Sea, including the African Coast from Suez to Cape Gurdfui, Printed for the use of the Foreign Office, Hertslet, March, 1874 p. 2.

اجلاء الجيوش المصرية عن الجزيرة العربية ، فاجاب محمد على بأنه « سيضع هذا الطلب موضع النظر » الا أن الامور تطورت بسرعة ، وانتهزت بريطانيا فرصة الازمة التركية المصرية (١٨٣٩ - ١٨٤١) فادعت أنها حامية للسلطان ضد محمد على وانتهت الامر بتدخل قواتها فى سوريا واضطرار محمد على اثر ذلك الى الانسحاب من كل الأراضى التى ضمها الى مصر •

التعليم فى عصر محمد على :

يعتبر الاهتمام بنشر التعليم هو الواجهة المضيئة لعصر محمد على فقد عنى الباشا بالتعليم على اختلاف درجاته ويتبين من مقارنة تاريخ المنشآت العلمية أنه عنى أولا بتأسيس المدارس العالية وايفاد البعثات ثم اهتم بعد ذلك بالتعليم الابتدائى •

المدارس العالية :

مدرسة الهندسة ببولاق : انشئت اول مدرسة للهندسة سنة ١٨١٩ بالقلعة ، وهى بذلك اول مدرسة عالية انشئت فى عصر محمد على • وكان التعليم فيها بالمجان ، كما كانت الحكومة تؤدى رواتب شهرية لتلاميذها • وفى بادىء الامر كان الاساتذة من الاجانب ، ولكن مع الوقت بدأ الاساتذة المصريون العائدون من الخارج فى المساهمة فى التدريس •

وفى سنة ١٨٣٤ انشأ محمد على مدرسة أخرى للهندسة فى بولاق ، وكانت هذه المدرسة العالية من اجل وانفع المدارس التى انشأها والى مصر العظيم •

مدرسة الطب :

انشأ محمد على أول مدرسة عالية للطب فى مصر سنة ١٨٢٧ فى أبى زعبل على مقربة من المستشفى العسكرى هناك ، حتى يمكن تدريب الطلاب بهذا المستشفى • واختارت الدولة فى بادىء الامر مائة من طلاب الازهر للتعليم بهذه المدرسة ، وتولى ادارة المدرسة والمستشفى الدكتور كلوت بك ، فاختار لها نخبة من الاطباء الاوربيين ومعظمهم من الفرنسيين • ولما

كان الطلاب يجهلون اللغة الفرنسية لغة الدراسة وتلافى بهذه المدرسة العالية، فقد عين مترجمون لترجمة المحاضرات من الفرنسية الى العربية . وتلافى هذا النقص ، الحق بالمدرسة قسم لتعليم اللغة الفرنسية للطلاب .

وبعد خمس سنوات من انشاء المدرسة تخرجت (الدفعة) الاولى منها . وتم توزيع الخريجين على المستشفيات وكتائب الجيش . كما ارسل اثنى عشر خريجا الى الخارج فى بعثات لأكمال دراساتهم العليا فى تخصصات الطب المختلفة ، وعين ايضا ثمانية معيدين بهذه المدرسة العليا .

واخذ عدد طلاب المدرسة فى الزيادة عاما بعد عاما لتلبية حاجات المجتمع المصرى ، وحاجات جيش مصر العظيم .

وفى سنة ١٨٣٧ تم نقل مدرسة الطب الى قصر العينى لتكون فى داخل العاصمة ، وحتى تؤدى هى والمستشفى الملحق بها الخدمات للمواطنين .
كما ألحقت بمدرسة الطب مدرسة خاصة للصيدلة حتى تتعاون المدرستان فى تحقيق الخدمات الطبية للمجتمع المصرى (١) .

مدرســــة الألسـن :

وافق محمد على على اقتراح رفاعة رافع الطهطاوى (٢) . بانشاء مدرسة الالسن ، وتم انشاؤها بالفعل فى سنة ١٨٣٦ ، واختير لها سراى الالفى بالازبكية وعرفت فى أول الامر بمدرسة الترجمة ثم أطلق عليها مدرسة الالسن . وفى سنة ١٨٣٧ أصبح رفاعه هو ناظر هذه المدرسة،

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ـ عصر محمد على الطبعة الثالثة ١٩٥١ ـ مكتبة النهضة المصرية ص ٤٦٨ ـ ٤٧١ .

(٢) ولد فى عام ١٨٠١ فى اقصى صعيد مصر وتلقى العلوم الدينية ودخل الازهر ، ثم تخرج منه ، وصحب البعثة العلمية الاولى من بعثات محمد على ، وارتحل الى معاهد العلم فى باريس ، فزادت معارفه ولكنه ظل محتفظا بشخصيته متمسكا بدينه . ثم عاد الى مصر ليضطلع بالنهضة العلمية تأليفا وترجمة وتعليما ، وتخرج على يديه جيل من خيرة علماء مصر . وعاش حتى عصر اسماعيل . ومن اهم انجازاته انشاء مدرسة الالسن، وان كانت شهرته انه بحق هو ابو الترجمة فى مصر وقدر رحل رفاعة سنة ١٨٧٣ .

وكان عدد التلاميذ فى العام الاول خمسين تلميذا ثم ازدادت الاعداد فى السنوات التاليـة ٠

ويعتبر بعض المؤرخين أن هذه المدرسـة هى بمثابة أكاديمية لنشر الثقافة فى مصر ، فقد كانت تدرس فيها اللغات الاجنبية وخاصة الفرنسية والايطالية والانجليزية والفارسية والتركية ، هذا بالاضافة للآداب العربية والتاريخ والجغرافيا ٠

كما نشأ الباشا العديد من المدارس التجهيزية (الثانوية) ، كما أكثر من انشـاء المكاتب الابتدائيـة فى الاقاليم ، حتى بلغ عدد هذه المكاتب فى عام ١٨٣٦ سبعة وستين مكتبا هذا عدا الكتاتيب القديمة (١) ٠

البعثـات :

الحقيقة أن الاصل فى تلك البعثات وأسبابها ترجع كما ذكر أستاذنا الدكتور احمد عزت عبد الكريم الى أن محمد على أخـذ عن أوربا علومها ، ونظمها التعليمية والاقتصادية وفنونها الحربية والبحرية ، واستدعى منها المدرسين والنظار لمدارسه والضباط والمدرسين لجيشه وأسطوله والصناع والمهندسين لمصانعه ، ومن ثم اضطر محمد على الى الاعتماد على الاوربيين الذين أصابوا فى ذلك الوقت قصب السبق فى التطور الصناعى ٠ الا ن محمد على كان يرى أنه من الحكمة عدم استمرار الاعتماد على الاجانب وابقـاء اهل البلاد من المصريين والاتراك بمعزل عن الاشتراك فى انهـاض بلادهم فبدأ يرسل الى أوربا نفرا من التلاميذ الاتراك والمصريين ليأخذوا مباشرة من علوم الغرب وفنونه ويحذقوا لغاته وتجاربه ، حتى اذا عـادوا الى مصر كانوا له أعوانا ومساعدين يقلدهم ادارة المصـانع والمدارس والدواوين ويجلسـهم مجالس التعليم ، ويطلب منهم ترجمة الكتب النافعة ، وبعبارة أخرى يطلب منهم أن يكونوا - كما أصبح كثير منهم فعلا - قادة النهضة الحديثة فى البلاد (٢) ٠

---

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى وآخرون - بناء دولة مصر محمد على - ص ٩٦ ٠

(٢) د ٠ أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، ص ٤٢٢ - ٤٢٣ ٠

ولا شك أن هـذه البعـات كانت لها انطباعاتهـا العميقة على المجتمـع المصرى فقد صحبها نشاط كبير فى نواح ثقافية مختلفة كبده ظهور الصحافة المطبوعـة (١) ٠

ولقد نبغ كثيرون من أعضاء هذه البعثات ، فمنهم على مبارك الذى نستطيع أن نلقبه بأبى التعليم كذلك رفاعة رافـع الطهطاوى الذى يمكننا أن نلقبه بأبى الترجمة وغيرهم كثيرون ٠

ولقد قدم أعضـــاء البعثات هؤلاء خدمات جليلة للدولة ، ولا شك أن الثمرة الحقيقية التى جناها المجتمع المصرى من هذه البعثات هى الاستغناء عن الاجانب واحلال اعضاء البعثات فى أماكنهم : لان محمد على لم تكن تعنيه كثيرا ثقافة المبعوثين وجنسياتهم وأعمارهم بقدر ما كانت تشغله فكرة الاستغناء عن الاجانب (٢) ٠

ولكن سرعان ماخبا ضياء هذه البعثات على يد عباس ، الذى استدعى الطالبة المبعوثين فى بعثات خارجية فور تولية السلطة مباشرة (٣) ، وجاء سعيد ليطفىء الشعلة التى أضاءت على المجتمع المصرى فى مطلع القرن التاسع عشر ، فابدى عدم اهتمام بشئون التعليم والغى ديوان المدارس (وزارة المعارف) (٤) ، وزاد الطين بلة باعتماده بصفة اساسية على الاجانب فى كـل المجـــالات ٠

على أن التعليم فى مصر نال نصيبا كبيرا من العناية والاهتمام على يد اسماعيل فقد أعاد تاليف ديوان المدارس ، كما اهتم بانشاء المدارس وخصوصا المدارس العليا كمدرسة المهندسخانة ومدرسة الحقوق وغيرها ، ولم يكتف اسماعيل بذلك بل أرسل عددا ضخما من البعثات التعليمية الى

---

(١) Dodwell : op. cit., p. 239.

(٢) د ٠ أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، ص ٤٢٣ ٠

(٣) أمين سامى ، تقويم النيل ، المجلد الاول من الجزء الثالث ص ٧٢

(٤) عبد الرحمن الرافعى ، عصر اسماعيل ، الجزء الاول ص ٤٤ ـ ٤٥ ٠

أوربا وخصوصا الى فرنســـا ، فضلا عن السماح لعدد كبير من المدارس الاجنبيه بممارسة نشاطهــا التعليمى فى مصر ٠

المطـــابع والصحـــافة :

كانت « مطبعة صاحب الســعادة » أو المطبعة الاميرية فى بولاق اول مطبعة انشئت فى عهــد الوالى العظيم ، وقــد تأسست سنة ١٨٢٠ ٠ ولكنها بدأت عملهــا سنة ١٨٢٢ ٠ وكان الغرض من انشــائهــا هو طبع الكتب المدرسية والعسكرية ٠ ومع مضى الوقت ازداد عدد المطابع فى مصر وصارت تنشر بالاضــافة الى الكتب المدرسية كتبا فى الآداب والفنون ٠

وبالنسبة للصحافة ، فقــد اصدر الباشــا امره بانشــاء الصـــحيفة الرسمية (الوقائع المصرية) باللغتين العربية والتركية فى ٣ ديسمبر سنة ١٨٢٨ ٠ وكان الغرض من انشــائهــا كما جــاء فى العدد الاول هو نشر أوامر وتعليمات ديوان الخديوى وكذلك اخبار (الامبراطورية) المصرية ٠

واعتبارا من سنة ١٨٤٢ تقرر أن يعهد الى رفاعة رافع الطهطاوى بترجمة بعض ما يرد فى الصحف الاجنبية علاوة على الاوامر الحكومية ٠

الجيش والبحـرية :

رأينا فيما سبق كيف أسس محمد على امبراطورية شاسعة ضمت تقريبا كل العالم العربى ماعدا المغرب العربى والعراق ٠ وهذه الرقعـــة الشــاسعة املت على الوالى الطموح انشــاء جيش قوى مدرب للسيطرة على ممتلكاته ٠ وكان الباشــا يدرك تمام الادراك ان انتصارات جيشه انما ترجع الى رقابته الصارمة والى اشراف ابنائه ومنهم ابراهيم باشـــا العظيم ، ولهــذا كله لم يكن محمد على راغبا فى انشــاء جيش كبير فحســب ، بل كان فى نفس الوقت معنيا بتدريب هذا الجيش على احدث النظم ، ومن تم سمى الجيش الذى شرع فى تكوينه بالنظام الجديد ٠ ولم يكن الامــر سهلا امام محمد على بل كان الطريق مفروشا بالاشـــواك ٠ فعندما اراد تطبيق « النظام » عارض العلماء هــذا الامر (أغسطس ١٨١٥) رغبة فى

القضاء على « بدعة النظام الجديد » · ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل انهم تآمروا على حياة الباشا وقد ذكر الجبرتى كثيرا من اخبار تلك المؤامرات ·

وكانت المشكلة الاولى التى صادفت الباشا هى مشكلة الحصول على المدربين الاكفاء واتجه هو مباشرة الى أوربا . وكان عدد كبير من الضباط الفرنسيين قد أصبح بلا عمل بعد توقف الحروب النابليونية ، فقرر الباشا استخدام جماعة منهم ، كما استخدم بعض الايطاليين والاسبان · وكان أقدرهم جميعا هو جوزيف سيف الذى اشترك فى حروب نابليون العديدة ثم قدم الى مصر سنة ١٨١٩ ليعمل فى خدمة محمد على ·

وحوالى سنة ١٨٢٠ أنشئت مدرسة المشاه ووضعت تحت قيادة سيف ، وانتقى محمد على تلاميذها من بين افراد اسرته ومن المماليك ، وكان عددهم نحو ٤٠٠ طالب · وفى اكتوبر ١٨٢١ نقلت هذه المدرسة الى أسوان وهناك شرع سيف فى اعداد المدرسة من جميع النواحى كانشاء التكنات الصالحة للايواء والمستشفى · ولما فشلت عملية تجنيد السودانيين ، اعتزم الباشا تجنيد المصريين ولكن الصعاب واجهت هذا المشروع ·· لان الطبقة الارستقراطية رأت أن الجندية مهنة نبيلة يحط من قدرها أن تصبح فى متناول الفلاحين ، كما زعموا ان وضع السلاح فى ايدى الفلاحين انما هو تسليمهم الاداة لطرد « العثمانى » ولكن الباشا مضى فى طريقه غير عابئ بتلك الآراء ، فأقبل على تجنيد المصريين ، ونجحت التجربة نجاحا لم يكن يتوقعه احد ، وسرعان ما احب الفلاحين الجندية ، وأصبحوا يرون انه من دواعى فخرهم" أن يعتبروا أنفسهم من جنود الباشا العظيم · وهكذا تمكن سيف فى عام ١٨٢٣ من أن يشكل ستة آلايات من المشاه طبقا للتكتيك الفرنسى من هؤلاء الفلاحين · وفى نفس ذلك العام (١٨٢٣) مرر الباشا ان ينتقل الجنود الى مكان قريب من القاهرة ·

أما بالنسبة للفرسان ، فان القائد الفاتح ابراهيم باشا العظيم وأحد القادة العظام على المستوى العالمى فى التاريخ الحديث كان معجبا تماما بقوة الفرسان الفرنسية وتنظيمها ابان حرب المورة · وعند عودة

القائد العظيم (ابراهيم باشا) الى مصر أبلغ والده ما شاهده من فاعلية تلك القوة فقرر الباشا تنظيم قوة الفرسان المصرية ، وكلف بولان دى تارليه - وهو أحد قدامى الفرسان الفرنسيين - بانشاء هذه القوة · وأقبل تارليه على عمله الجديد فى همة ونشاط ، وذلك الباشا كل الصعاب فابتاع الخيول من الشام ، وتكفلت المصانع المصرية بتسليح الفرسان ·

وفى عام ١٨٣٠ أمكن تشكيل سبعة آلايات فرسان مصرية · ولما كانت هذه الآلايات فى حاجة الى مزيد من الضباط ، فقد انشئت مدرسة الفرسان سنة ١٨٣١ فى الجيزة بسراى مراد بك القديمة ·

وقد استدعى تنظيم قوة الفرسان العناية بالطب البيطرى · وأدى هذا الى تأسيس مدرسة الطب البيطرى فيما بعد ·

أما بالنسبة للمدفعية ، فان الباشا استخدم ضابطا اسبانيا قديما هو سجويرا ليكون مسئولا عن هذا السلاح · وقد اقنع سجويرا ابراهيم باشا باهمية اعداد الضباط قبل تدريب الجنود ، وهكذا أسست مدرسة للمدفعية فى عام ١٨٣١ · ولكن الخلافات بين سجويرا الاسبانى وسليمان باشا الفرنساوى أدت الى بعض المشكلات · ورغم هذا كانت المدفعية من أقوى الاسلحة التى استعان بها القائد الفاتح ابراهيم باشا فى فتوحاته المختلفة ·

هذا بالاضافة الى فرق المهندسين والخدمة الطبية وما الى ذلك · وكان من أثر العناية بالجيش أن ارتفع عدده من ٢٤٫٠٠٠ سنة ١٨٢٤ الى ١٥٠٫٠٠٠ سنة ١٨٣٩ (١) ·

البحرية :

من الصعب أن نفصل موضوع البحرية المصرية فى عهد محمد على عن اهتمامات الباشا الاقتصادية والعسكرية التى أوجبت ذلك النشاط الكبير فى هذا القطاع ·

---

(١) د · محمد فؤاد شكرى وآخرون بناء دولة مصر محمد على ص ١٨٠

الا أنه كان أمام محمد على صعوبات جمة لانشاء البحرية ، أولها أن مصر لم تكن فى تلك الفترة من أوائل القرن التاسع دولة بحرية ، كما أنها كانت تفتقر الى القوة البشرية اللازمة لهذه العملية بصفة عامة من بحارة ومدربين وصناع وما الى ذلك كما ان المواد اللازمة لصناعة السفن لم تكن متوفرة ، هذا الى عدم استعداد ميناء الاسكندرية فى ذلك الوقت لاستقبال السفن الكبيرة ، ولكن الباشا استطاع بالعزيمة والمثابرة ان يذلل كل هذه الصعوبات متدرجا من شراء سفن اسطوله من الدول الاوربية الي التوصية بصنعها فى الخارج لحسابة الخاص الى انشائها فى دار الصناعة التى شيدها بالاسكندرية ٠

وكانت البداية (١٨١٠ - ١٨٢١) عبارة عن تلبية احتياجات الباشا السريعة الى قوة بحرية فى البحر الاحمر ، وذلك لتنفيذ حملته الى الجزيرة العربية والتى سبق الكلام عنها ٠ وكان هذا الاسطول صغيرا ، ولكنه كان كافيا لنقل الجنود الى مسرح العمليات ٠

واذا كان الغرض الاساسى من اسطول البحر الاحمر هو النواحى الحربية والسياسية ، فان اسطول البحر المتوسط الذى انشىء فى نفس الوقت كان الغرض منه اقتصاديا ، لان الباشا كما سوف نرى سيحتكر تجارة الصادر والوارد ، وبالتالى سيطر على كل تجارة النقل النهري والبحرى لذلك كان من المتوقع أن يؤدى هذا النشاط التجارى الكبير الى حتمية انشاء اسطول ٠ وفى سنة ١٨١٧ كان الاسطول المصرى فى البحر المتوسط يتألف من خمسة عشر سفينة كبيرة ثم زادت عليها سفينتان اشتراهما الباشا من النمسا ٠٠٠ ويقول ديران فيل مؤرخ البحرية المصرية فى عصر محمد على « لو فكر الانسان فى حال الاسكندرية قبل عشرين سنة ، حين هبط الفرنسيون مصر ، دهشته النتيجة الباهرة التى انتهت اليها ولم يكن خلق النشاط سوى احد الباشاوات العثمانيين - محمد على - نجح فى ان يجعل اسمه مشهورا وسلطانه ملموسا حتى فى بحار نائية كبحر الشمال وبحر البلطيق » (١) ٠

---

(١) انظر المصدر السابق ص ١٣٤ ٠

وانتقل الباشا الى المرحلة التالية من مراحل بناء الاسطول (١٨٢١ - ١٨٢٧) والتى بدأ يطلب فيها من دور الصناعة الاوربية بناء سفن خاصة لاسطوله الحربى ، ويبدو أن السبب فى هذا هو محاولة الباشا معاونة الدولة العثمانية فى اخضاع كريت وقبرص واخماد ثورة المورة . وعندما خرج اسطول مصر من الاسكندرية سنة ١٨٢٤ للاقاة سفن الثوار اليونانيين فى مياه رودس ، كان يتألف من واحد وخمسين سفينة حربية و ١٤٦ ناقلة جنود تحمل ١٨٫٠٠٠ جندى .

على ان الباشا لم يلجأ الى الموانى الفرنسية وحدها فى صنع السفن التى تألف منها اسطوله الاول ، بل لجأ كذلك الى الموانى الايطالية كالبندقية وشكلت هذه السفن الاسطول المصرى الذى تحطم فى معركة نفارين البحرية .

أما الفترة الزاهية من عمر البحرية فى عصر محمد على (١٨٢٧ - ١٨٤٨) فانها تعد بالفعل الفترة التاريخية للبحرية ، فقد اتفق المؤرخون على أن كارثة نفارين كانت بداية القوة البحرية الحقيقة فى عصر محمد على ، ذلك أن تلك الهزيمة البحرية لم تنل من قوة شكيمة الباشا العظيم ، فبعد عامين من العمل الدائب (١٨٢٩) تكون الاسطول المصرى الحربى من ٢٩ سفينة ونحو الف مدفع وحوالى عشرة آلاف من رجال البحرية . والجديد فى المسألة ، أن الباشا أيقن أن بناء البحرية يجب أن يتم فى مصر ذاتها حتى لا يقع تحت تسلط القوى الاوربية المختلفة وكذلك لتوفير النفقات لان الدول الاوربية بالغت فى اسعار تلك السفن . لذلك قرر الباشا سنة ١٨٢٨ أن يصنع سفن اسطوله فى مصر . وأولى هذه المسالة عناية فائقة ، لانها تحتاج الى المهندسين والمدربين وفن الصناعة والملاحة والاخشاب وبدأ الباشا باستقدام بعض الخبراء الفرنسيين للقيام بالتدريب . أما دار الصناعة اللازمة فقد امر الباسا بأنشائها بالاسكندرية ، وكان يشرف على العمل فى هذه الترسانة الحاج عمر رجل تقدمت به السن واكتسب من الخبرة والمران ما جعله موضع اعجاب الباشا حتى لقد اثنت عليه الوقائع المصرية بمناسبة صنع « سفينة الفركطون (الفرقاطة) » ونزولها الى البحر فى ٩ فبراير ١٨٣٠ .

اما الورش والمصانع التى انشئت بهذه الترسانة البحرية ، فكان عددها ١٠٥ وذلك بالاضافة إلى خمس عشرة ورشة للذخيرة والمهمات الحربية .

اما الاخشاب اللازمة لبناء السفن فقد جلبها الباشا من آسيا الصغرى ورودس وانجلترا وفرنسا وسوريا .

وكان فى برنامج الباشا - الى جانب صنع السفن - العمل على توسيع وتطوير ميناء الاسكندرية ، ولهذا أحضر الباشا من الخارج الآلات اللازمة لتوسيع الميناء وتعميقه .

واعتبارا من سنة ١٨٣٣ اوصى الباشا ان يصنع فى انجلترا اول سفينة مصرية بخارية وكان استخدام البخار فى تسيير السفن لازال اكتشافا حديثا .

ولم يفت محمد على انشاء الاحواض اللازمة لاصلاح السفن بالاسكندرية على ان هذا الاسطول اخذ فى الضمور منذ عام ١٨٤٢ نتيجة للصعوبات المالية التى أحاقت بمصر نتيجة لحروبها مع تركيا .

تطور الصناعة فى عصر محمد على

الصناعة المصرية قبل محمد على

١ - الصناعة تقليدية :

لم تكن الصناعة المصرية فى نهاية القرن ١٨ فى حالة متازمة خصوصا وان صناعة النسيج من القطن والحرير والتى كانت أهم فروع الصناعة كانت فى وضع حسن بحيث كان انتاجها يكفى الحاجيات المحلية بل ويصدر بعضه . الا ان الاساليب الصناعية كانت تقليدية عاجزة عن مجاراة الصناعة الاوربية مما ادى بالصناعة المصرية الى التصنيع فى مطلع القرن ١٩ ابان غزو الصناعة الاوربية للاسواق المصرية ، وخاصة بعد الحرب النابليونية .

ومع ذلك لم تقم الدولة العثمانية باية محاولة قصد مواجهة الخطر الذى يهدد صناعتها - وجاءت المحاولة الجديدة الوحيدة على يد محمد على الذى حاول أن ينتقل بمصر من اقتصاد الكفاف الى الاقتصاد المركب (١) .

ومما يدلنا على أن مصر عرفت صناعة متقدمة الى حد ما هو ما قام به السلطان سليم من نقل أمهر الصناع الى عاصمته عند فتحه لمصر اذ لم يبق بها سوى بعض الصناعات البسيطة مثل غزل القطن والكتان بالمغازل اليدوية وضرب الارز وطحن القمح وعصر الزيت ، وحسب ما ورد عند الدكتور محمد فؤاد شكرى (٢) أن أهم الصناعات التقليدية تتمثل فى صناعة النسيج وصناعة الحصر وعمل الاوانى الفخارية ، ولهذه الاوانى فى عالم التجارة مكانه ملحوظة بحيث تصنع الجرار الكبيرة كما تصنع آنية صغيرة يطلق عليها اسم « برداق » وتضخ المياه من خواص هذه الجرار وتلك الآنية اتى لا يستغنى عنها أى منزل ، وللبرادق فائدة كبيرة اذ تقوم بتبريد المياه اذا عرضت لتيار الهواء . ولا يقدر هذه المزية حق قدرها الا من عاش فى بلد لا ثلج فيه ولا جليد على حد تعبيره .

أما الطريقة المتبعة فى صنع الاوانى الفخارية فى « قنا » فتتمثل فى « خلط تراب الفخار بالرماد بنسبة ٤ الى ١ وبفعل المياه تحلل الذرات القلوية التى يحتويها الرماد فيؤدى ذلك الى أحداث كثير من المسام لا تراها العين ولكنها تساعد عملية الترشيح » (٣) .

ولم تكن هذه الصناعات اليدوية لتكفى حاجيات البلاد بل كانت الدولة تقوم باستيراد ما يلزمها من الخارج خاصة ما كانت تحتاج اليه الطبقات العليا من كماليات .

---

(١) دكتور عبد العزيز الدورى - مقدمة فى التاريخ الاقتصادى العربى - بيروت ١٩٧٨ ص ١٣١ .

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى - بناء دولة مصر محمد على ص ٤٣٤

(٣) المصدر السابق ص ٣٢٦ .

ولا نهمل جانبا آخر من جوانب الصناعة وكان متقدما فى مصر وضعف أيام العثمانيين الا وهو صناعة البناء ، فالمبانى صغر حجمها وقلت الزخارف بها ولم تراع الدقة والاتقان فى صناعتها ويرجع سبب ذلك الى قلة الثروة من جهة وتقهقر الصناعات من جهة ثانية ٠

على أى حال ، فقد مارس ارباب الصناعات التقليدية نشـــاطهم فى كثير من النجاح والتوفيق مع انهم لم يحتاجوا الى كثير من الذوق والمهارة وكان هناك عدد كبير من الصائغين يؤدون عملهم على أحسن وجه وبنحـو يدعو الى الفخر والاعتزاز ، فهذه الصناعات موجودة منذ زمن بعيد وتعتمد على استخدام الايدى فى صنع المواد الخام دون الحاجة الى الاستعانة بما حدث من تقدم آلى ضخم ٠

٢ - نظـــام الطوائف :

كان أصحاب الصناعات يقسمون حسب مهنهم أو حرفهم الى طوائف، ونقابات وهذه هى القاعدة التقليدية المألوفة فى الشرق بأسره فى تنظيم أرباب الحرف والصناعات الا انهم كانوا يمثلون فئة اجتماعية قليلة الافراد خاصة فى ظل حكم المماليك ، وبدأ نطاقها يتسع لكونها كانت ترحب بكل من أراد الانتماء اليها ٠ فالحرفيون فى ظل المماليك كانوا من الفئات الاجتماعية القليلة التى كانت مفتوحة لانتماء الافـــراد من خارجها فالطوائف الحرفية فى مصر كانت فعلا ميدانـــا لنوع من التحرك الاجتماعى اذ كانت تتغذى الى حـــد مـــا من الفقراء المهاجرين من الريف الى المدن او الذين كانوا يفقدون مركزهم فى التجارة او الادارة أو السـلك الدينى ٠

وكان انتماء الحرفيين الى طائفتهم يجعلهم يمارسون نشاطهم كلـــه ويحيون آمنيين ومحميين بظلها وخاضعين لنظمهـــا وحسب ماورد عند الدكتور احمد عزت عبد الكريم (١) انه لم يكن من السهل ان يتحول الفرد من طائفته الى طائفـــة أخـرى اذ جرت العادة أن ينشأ ابن الفلاح فلاحا وابن الصانع

(١) دكتور احمد عزت عبد الكريم - دراسات فى تاريخ العـــرب الحديث - دار النهضة العربية بيروت ١٩٧ ص ٢٢٢ ٠

صانعا وابن العالم عالما ولبس ثمة ما يدعو ابن الريف ومقتضياته الى ان يهجر قرينه فى المدينة ٠

ولم تكن الدولة العثمانية تتدخل لترسم سياسة معينة لاعمالهم اذ تقنع ببقاء كلمة السلطان فى مصر واسعة يذكر على منابرها مما اتاح لهم ادارة شئونهم وفقا لتقاليدهم ونظم طوائفهم ٠ غير أن ذلك ادى الى انقسام القطر الى وحدات اقتصادية متعددة تكاد تكون كل واحدة منها تكفى نفسها حتى لا تضطر الى الاعتماد على ما يرد اليها من خارجها ٠ الا ان هذا النظام سوف يعرف انحلالا وتفسخا بعدما كان قوام النظام الصناعى فى المدن ، الامر الذى ساعد محمد على على تنفيذ سياسة الاحتكار على الصناعات الصغيرة عن طريق فرض قيود على ارباب الحرف وترتيب المواد الخام اللازمة لعملهم ثم وضع يده على انتاجهم بعد اتمامه فاصبحوا مجرد اجراء بعد أن كانوا اصحاب عمل ٠ فما هو هدف محمد على من نظام الاحتكار ؟ ٠

٣ ـ نظـام الاحتكـار :

بعدما صار محمد على المالك الوحيد لاراضى مصر ثم التاجر الوحيد لحاصلاتهـا ، صار الصانع الوحيد لصنائعها ٠ والظاهر أنه راى الاحتكار مما يعود بالنفع على الحكومة باعتباره يفتح بابا جديدا للربح فاتجه الى احتكار الصناعة (١) ٠

ويذكر الجبرتى طرفا من احتكار هذه الصناعات فى حوادث سنة ١٢٣٢هـ موافق سنة ١٨١٧ فيقول : « قام الباشا بضبط أنوال الحياكة وكل ما يصنع بالمكوك وما ينسج على نـول أو نحوه من جميـع أصناف من ابريسم أو حرير أو كتان الى الخيش والحصير فى سائر الاقليم المصرى طولا وعرضا، قبلى وبحرى من الاسكندرية ودمياط الى اقصى بلاد الصعيد والفيوم » (٢) ٠

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ـ عصر محمد على ـ ط ٣ ، ١٩٥١ ص ٦٣٢
(٢) عبد الرحمن الجبرتى ـ المصـدر السابق ج ٣ ـ دار الفارس بيروت ص ٧٥٠ ٠

كما وصف ايضا احتكار الحكومة للصابون وتجارته، والبلح بأنواعه والعمل وصناعة الخيش والقطن والتلى الذى ينسج من أسلاك الذهب والفضة للتطريز والمناديل والمحارم وغيرها من الملابس وصارت الحكومة هى المالكة لكل صناعة البلاد ٠

فى الحقيقة أن النظام الاقتصادى المتطور الذى كان محمد على يرغب فى تحقيقه وتنفيذه ، اقتضى منه ان يحتكر جميع انواع الصناعات القائمة فى البلاد (١) ٠

وفى تقرير الكولونيل « كامبل » وكيل الملك البريطانى وقنصله العام فى مصر وملحقاتها والذى ارسله الى الدكتور « بورنج » من القاهرة فى ١٨ يناير ١٨٣٨ يقول بأن احتكار الصناعة يتسبب فى فقر الصانع وتجريده من املاكه ولو حدث أن اظهر القناصل العامون - الذين كانوا فى مصر آنئذ - الحزم فى معارضة هذه الاحتكارات واحتجوا بصفة جدية فى هذا الموضـــوع لالغيت جميعها الغاء تاما أو جزئيـــا غير ان كثيرين منهم كانوا يشتغلون بالتجارة وكان الباشا صاحب الفضل الكبير عليهم (٢) ٠

وبعد هذه المرحلة أى مرحلة ضبط الحكومة للصناعات القائمة وخاصة الغزل والنسيج بدأت مرحلة جديدة فى السياسة الاقتصادية وهى مرحلة الانقلاب الاقتصـــادى الا ان المشكلة الكبرى التى كانت تعانى منها مصر فى النصف الاول من القرن الماضى كانت مشكلة النقص فى الايدى العاملة نتيجة لقلة سكان مصر آنئذ بانتشار الاوبئة وانعدام العناية بالصحة ، فى الوقت الذى احتاج فيه مشروع التنمية والتوسع الاقتصـــادى الى الاعداد الوفيرة من المصريين ٠

وكان محمد على يرى ان الصناعة الحديثة الكبرى هى مصدر قوة كل دولة اذ ان امداد الجيش والاسطول بحاجتيهما من السلاح والعتاد والملابس والسفن ومواد وغيرها يقتضى حتما الاخذ بسياسة التصنيع

---

(١) انظر الموضوع الخاص بالتجارة فى عصر محمد على ٠

(٢) د ٠ محمد فؤاد شكرى - المصدر السابق ص ٧٠٧ ٠

وفعلا قام بتنفيذ سياسته على الرغم مما اعترضه من العقبات للحيلولة دون ذلك حيث كان يدرك أن مصر كانت تملك كثيرا من المواد الاولية التى تحتاجها الصناعات الاجنبية وكان يعز عليه كما ورد فى بعض الوثائق « أن يشترى الاوربيون قطننا ويدفعون عليه جمركا ونولونا ، ثم يشغلونه ويأتون بالمصنوع منه بنفقات اخرى من النول والجمرك ويبيعونه بأثمان ارخص من مصنوعاتنا » (١) ٠

الواقع أن سياسة التصنيع اثرت تأثيرا سيئا على الصناعات التقليدية وعجزت هذه الاخيرة عن استعادة نشاطها بعد انهيار النظام الصناعى الكبير نظرا لفقدها لكثير من مقوماتها وللخبرة الفنية التى كانت معتزة بها ولنظام الطوائف الذى كانت محتمية فى ظله ٠

وأهم من ذلك أنها لم تعد وحدها قادرة على تلبية مقتضيات المجتمع الجديد الذى تطور بسرعة خلال القرن ١٩ واصبحت عاجزة عن الصمود أمام منافسة المصنوعات الاوروبية باثمانها الرخيصة وانتاجها الضخم ٠ فما هى مظاهر التجديد التى طرأت فى الحقل الصناعى ؟ ٠

محمد على والصناعة

ادرك محمد على أن الصناعة الحديثة الكبيرة عماد الدولة القوية ومصدر قوتها السياسية والعسكرية ولكى ينشىء قوة عسكرية ضخمة فى البر والبحر كان لا بد له من الأخذ بسياسة التصنيع لاعداد جيشه واسطوله بما يلزم من السلاح والعتاد والملابس والسفن ومواد البناء وغيرها ، وكان يقدر رخص الأيدى العاملة فى مصر وقدرة الحكومة على تمويل المشروعات الصناعية الكبيرة من أرباحها فى عمليات التجارة ٠ اما ماعدا ذلك من عقبات كصعوبة التعدين والخبرة الفنية فقد تغلب عليها ، وذلك باحضار العمال من انجلترا وفرنسا وايطاليا لقاء أجور عالية ، هذا فضلا عن شراء الآلات من جميع الانواع ، وتعتبر الصناعات الحربية من أعظم منشآته الصناعية ٠

---

(١) دكتور أحمد عزت عبد الكريم - المصدر السابق ص ٢٤٩ ٠

١ - الصناعات الحربية :

أثمرت سياسة التصنيع ثمرتها فانشئت فى القاهرة والاسكندرية وكثير من مدن الاقاليم مصانع لانتاج الاسلحة المختلفة من بنادق ومدافع ورصاص ومصانع الطرابيش والجلود ودور الصناعة البحرية .

ولا يخفى ما فى ذلك من المصاعب لضرورة جلب الفحم والحديد والأخشاب والآلات من الخارج ، ولانه أيضا يلزم المصريين زمن طويل وخبرة فنية كبيرة حتى يصلوا الى درجة يمكنهم معها ان ينافسوا اعمال أوربا ، الا انه قاوم كل هذه الصعوبات و « سخر وفقا للعادة الشرقية القديمة جميع النجارين والبنائين لينشئوا اسطولا واشترى جميع الخشب المستورد باسعار محددة . والحق ان سياسته الجمركية التى استشعر جمهور الاهليين شدة وطاتها بسبب انصبابها على السلع المستوردة من البلدان الاسلامية الاخرى بأكثر واثقل من انصبابها على السلع الاوربية ما لبثت ان ادت الى ارتفاع لا يطاق فى نفقات المعيشة » (١) .

ان تاسيس المصانع فى مصر يرجع الى عام ١٨١٦ حيث انشا الباشا مصنعا للغزل والنسيج بالخرنفش ، وفى عام ١٨١٨ أقام مصنعا ضخما فى بولاق لصنع المنسوجات « وشرع عمال من مصانع فرنسا وبلجيكا يقومون بمحاولات جديدة . وقد ادى موت البعض وعزوف البعض الآخر عن المشروع الى وقف العمل والكف عن تعليم التلاميذ غير ان الباشا لم يفرغ من اعداد جيش قائم حتى اراد أن يلبس الجنود مما تنسجه بلادهم (...) وفى كل قسم من اقسام المصنع ملاحظ يوجه العمال . ويتقاضى العامل أجرة بنسبة ما يقوم به من عمل فيتناول ٧٠ بارة عن الذراع (الاسلامبولى) الذى يتم نسجه بعد أربع وأربعين « طرحة » ونسج العامل ذراعين فى الشتاء ونحو ٣ أذرع

---

(١) كارل بروكلمان - تاريخ الشعوب الاسلامية ط ٦ بيروت ص ٤٥٦ .

في الصيف » (١) ٠

عمل محمد على على تحويل جزء كبير من قلعة الجبل الى دار صناعة حيث يشتغل فيها مئات من المصريين فى صب المدافع المعدات للجنود والذخيرة كما أنشا ترسانة القاهرة لنفس الغرض تنتج عجلات وعربات للمدافع وكذلك صناديق الذخيرة وحيوات الخيل والسيوف والبلط وركائب السرج والابازيم والآلات التى يستعملها حملة البلط والنسافون وغيرهم ويبلغ عدد العمال ٨٠٠ عندما يكون العمل قائما على قدم وساق ٠٠

وهناك قسم اخر لصنع المسامير والاقفال والامشاط وعربات النقل وصناديق الادوية وغيرها ، ثم قسم ثالث لصنع السرج وقرب الماء واطقم الخيل وصناديق الخرطوش وغيرها ٠ ويشتغل فى هذا القسم الف عامل ويقوم نحو اربعين عاملا بصنع نحو خمسين زوجا من أحذية الجيش فى اليوم الواحد ٠ ولكل قسم مراقب ووكيل وموظفون كما أن هناك مراقبين ومراجعين للحسابات يمنحون جميعا رتبا عسكرية ٠

اما اسطول الباشا فنشأته كشأن مصانعه سواء بسواء اى انه كان ينقصه الاساس المتين بمعنى انه لم يكن فى الاستطاعة الاحتفاظ به فى حالة الاستعداد الا اذا سهر مؤسسة على مراقبته ورعايتة بنفسه لان الاسطول لم يرق فى اعين فئة من الجيش ، وقد وقف هذا الاسطول مكتوف اليدين فى مياه الاسكندرية طيلة فترة الحرب السورية القصيرة الاجل وقد حرمه القبطان باشا من فرصة اداء المهمة التى لم ينشا الاسطول الا لادائها (١) ٠

ولقد أنشا محمد على أول اسطول ايام حربه مع الوهابيين بغرض نقل الجنود من السواحل المصرية الى بلاد العرب وقد افاده

---

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى ـ المصدر السابق ص ٤٤٣ ٠

(٢) هنرى دودويل ـ محمد على مؤسس مصر الحديثة ترجمة أحمد عبد الخالق واخر ص ٢٥٥ ٠

فيمـا بعـد عندما كان يحافظ بـه على السفن التجاريـة الذاهبـة الى الشرق من القراصـــنة • وعلى مـر الايـام راى ضرورة بقـاء الاسطول فى البحـر المتوسط لحمايـة السفن التجاريـة من قراصنة اليونان • وقبـل نشوب حـرب اليونان اشترى بعض السفن من البندقيـة ومرسيليـا وصنـع بعضهـا الآخـر هنـاك على حسابه ، غير ان معظم أسطوله حطم فى هـــذه الحـرب فى واقعـة « نوارين » ولمـا علم محمـد على ما للاســطول من الفائدة بعـد هذه الواقعة اسس دار صناعة بحرية بالاســكندرية (١) • وبنى فيهـا مصـانع خاصـة لفتل الحبـال وصناعـة الحديد وعمـــل الصوارى والقلوع وكل ما يلزم للسفن وانشـا فيهـا ايضـا مدرســـة بحريـة اعدهـا لتدريب عـدد من الشـبان المصريين على العلوم والمعـارف اللازمـة لضباط البحريـة ، وكان المنوط بـه انشـاء هـذه السفن المهندس البحرى « سيريزى » امـا ادارة المدرســة فكانت فى يـد المسيو « بيسون » وقـد ترقى فيمـا بعـد الى رتبة امير البحـر للاسـطول المصرى وعمـل الرجلان على ترقية العمـارة البحريـة الى درجـة جعلتهـا فى صـــف سليمـان باشـا منظم الجيش البرى • وقـد بلغ عـدد المراكب البحرية فى عـام ١٨٣٢ ثلاثين قطعـة تحمـل ١٣٠٠ مدفـع وفيهـا من العساكـر البحرية ما لا يقـل عن ١٢٫٠٠٠ جندى •

٢ - صـناعـة النسيج والغزل :

لما كانت مصر غنيـة فى انتـاج القطن والكتـــان والصوف فـان الباشـا خطط لنسج وغزل هاته المواد تلبيـة لحاجـة البلاد الاستهلاكية خصوصـا. وأن جوميـل الفرنسى كان قـد نجح فى زراعـة القطن الى جانب انخفاض الاجـور وبالتالى التكاليف ، فكانت أولى المصـانع التى انشـأهـا مصـنع الخرنفس الذى تاسس سـنة ١٨١٦ (٢) واستدعى له عمالا فنيين من فلورانسـا بايطاليـا تخصصوا فى غزل خيـــوط الحرير لصناعـة القطيفـة والساتان الخفيف • وبعـد قليـل من الـزمن نقلت الانوال الخاصـة بصناعة الحريـر الى مصنع اخـر ووضعت محلهـا

---

(١) انظـر صفحة ٥٧ وما بعدهـا •
(٢) عبد الرحمن الرافعى - المصدر السابق ص ٥٨٨ •

مغازل للقطن وآلات لصنع الاقمشة القطنية فركب بها مائة دولاب للخيوط السميكة الى تسعة للخيوط الرفيعة وهى النسبة المتبعة عادة فى مصانع الغزل ، والى جانب هذا المصنع كان للقطن ثمانية عشر مصنعا فى المنصورة ودمياط ، رشيد ، المحلة الكبرى ، زفتى ميت غمر ، بنى سويف فوه ، دمنهور ، السيدة زينب وغيرها ، لكن اهمها مصنع مالطة الذى اكتسب اسمه نتيجة كثرة العمال المالطيين الذين كانوا يشتغلون فيه - ويشكل هذا المصنع بالاضافة الى صناعة الخيوط القطنية - مبيضة ترسل اليها المنسوجات على اختلاف انواعها لتبييضها ٠

وعهد بادارته الى جوميل ، وكان فيه من دواليب الغزل ٢٨ دولابا و ٢٤ « عدة » وآلات تجهيز القطن وتدور هذه الآلات كما فى مصنع الخرنفش بواسطة ١٤ طنبورا تحركها عدة يجرها ثمانية من الثيران ، وكل دولاب يشتغل عليه رجل و ٣ أطفال يعقدون الخيوط التى تقطعها حركة « العدة » ويبلغ عدد الانوال فى مصنع مالطة مائتى نول تنسج خيوط القطن ويصنع منها البافتة والبصمة والباتست والموسلين وفيها ورشة تضم عمالا من مختلف الحرف معدين لاصلال آلاتها واصلاح مصانع الوجهين البحرى والقبلى ٠

على أى حال ، يعتبر مصنع مالطة مركز العصب لجميع المصانع الاخرى ، فادارته معقدة ، فهناك عدد من الكتبة الاقباط يمسكون الحساب ، كما أن هناك صرافا يقبض الاموال من « الخزينة» ويدفعها لمن يقومون بالعمل ٠

والى جانب القطن انشأت الحكومة مصانع لغزل الصوف ونسجه الا ان الصوف المصرى كان لا يصلح لاى نوع من المنسوجات الناعمة ، لان تشبعه بغبار ملىء بالملح كان يكسبه صلابة وجفافا ، ولكن يبدو على الرغم من ذلك أن المنسوجات التى تصنع من هذا النوع من الصوف ملائمة كل الملاءمة لملابس الجند لان صناعتها متينة متداخلة الخيوط ، وذلك فضلا عن اتقانها ٠

واهم مصانع لغزل الصوف مصنع بولاق الذى تاسس سنه ١٨١٨ وبدات الحكومة تجلب من مديريات المنيا والفيوم والبحيرة حير ما ذنتجه دصر من انواع الصوف (١) ، وكانت تعمل منها ملابس البحارة واعطية النيم ويستعمل لهذا الغرض الصوف السميك الوارد من الوجه القبلى وبلغت انواع النسيج الصوفى الموجود منها من قبل وما انشىء فى ذلك العصر (٤٠٠٠) نول (٢) .

اجتهد محمد على فى تربية دودة القز ليستغنى بانتاجها عن الحرير الذى ياتى اليه من الخارج فزرع اشجار التوت بشكل وافر وحفر السواقى لريها فبلغ ما جمع من الحرير سنة ١٨٣٣ عشرة آلاف اقة تقريبا بعد ان استقدم عددا كبيرا من الاخصائيين ، فلقى المصنع الذى اقامه الخرنفش نجاحا كبيرا مما ادى الى تشجيع هذه الصناعة .

كما تاسس مصنع فى القاهرة على مقربة من الجهة المعروفة ببركة الفيل ، « حيث استقدم الباشا من القسطنطينية منذ البداية بعض الارمن الذين يجيدون صنع الحرير والمنسوجات الحريرية الموشاة بالذهب مما يصنع مثله فى تركيا والهند ، (..) واصبح فى المصنع فى المصنع ١٦٠ نولا ، لنسج الحرير من خيوط بيروت المصنوعة من الذهب والقطن (٣) .

على العموم ، تطورت معامل الغزل والنسيج لدرجة اصبحت معها تصدر جزءا من غزل القطن الى شمال البحر المتوسط والشام وبلاد العرب .

٣ - صناعات اخرى :

وفى سنة ١٨١٨ اسست الحكومة فى احد مراكز مديرية اسيوط يدعى « الزيزهون » مصنعا لصناعة السكر يماثل مصانع السكر فى حزر الانتيل كما انشات مصنعين آخرين لنفس الصناعة احدهما فى ساقية موسى والثانى فى الروضة (مركز ملوى) .

---

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى - المصدر السابق ص ٤٤٤ .
(٢) عبد الرحمن الرافعى - المصدر السابق ص ٦٥٣ .
(٣) دكتور محمد فؤاد شكرى - المصدر السابق ص ٤٤٣ .

وبلغ انتـاج الزيزمون سـنة ١٨٣٣ ، ٢٠١٩٥ اقنطارا من السـكر الخـام ، لكن استيراد السكـر المكرر من معامـل أوربـا منـذ سنة ١٨٢٦ أضر بانتـاج معمـل الزيزمون وفضـل النـاس السكر الوارد من أوربـا لجودته ورخص اسـعاره (١) .

اما مصانع النيلة فقـد انشئت فى شبرا شـهاب والعزازنـة ، ومبت غمـر والمنصورة ومنوف والاشمونين وبركـة السـبع والمحلـة الكبرى والجيزة وابو تيج وملوى ومنفلوط وطهطـا واسيوط والفشن ، وهـذه المصـانع تسنفذ سدس محصول القطر المصرى وكانت النيلة ترسـل من المصـانع الى القاهرة حيث تبيعهـا الحكومـة ، وتصدر منهـا للخارج بعـد استنفـاذ حاجة المستهلكين .

ولم يقم الباشـا باستيرادهـا من الخـارج لانهـا كانت تزرع فى مصر ، ولكن الصبغـة الماخوذة من مادتهـا كانت رديئـة النـوع واضطر محمـد على الى استقدام بعض الصناع لتعليم « ابنـاء العـرب » وسائل الصناعـة واسـاليبهـا من البنغـال بالهند .

ومنذ سنة ١٨٣٥ رأى الباشـا ان يترك الاشراف على اعداد النيلة لمشـايخ القـرى على شريطـة ان تتسـلم الحكومـة جميـع المادة المستخرجة منهـا مهمـا كان نوعهـا بثمن قدره ٣٠ قرشـا للاقـة الواحدة .

أما مضارب الأرز فكانت تديرهـا الثيران ، ومـع هـذا فقـد كلفت الباشـا مبلغـا يربو على ضعف ما كـان يتكلفـه انتـاج الأرز نفسه ، حتى أن توماس جالوى ابن المهندس الانجليزى Gallaway اتفق مـع الباشـا على ان يستبدل مضارب الارز الموجودة بمضـارب غيرهـا تستخدم البخار ، منهـا واحـد فى رشيد وآخـر فى الزيزمون (٢) .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى المصدر السابق ص ٦٠٠ .
(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى ـ المعهد السابق ص ٨٤ .

ولعل متاعب استخدام الثيران والرغبة فى توفير النفقات هى التى جعلت الباشا - على ما ذكره الجبرتى فى حوادث ذى القعدة ١٢٣١ هـ الموافق لاكتوبر ١٨١٦ - بأن « يأخذ قبل ذلك بفكرة تقدم بها شخص من ابناء البلد يسمى حسن جلبى عجوة » ابتكر بفكره صورة دائرة وهى التى يدقون بها الارز وعمل لها مثالا من الصفيح تدور باربعة ثيران ، وقدم ذلك المثال الى الباشا فاعجبه وأنعم عليه بدراهم وأمره بالسير الى دمياط وان يبنى بها دائرة ويهندسها برايه وبمعرفته واعطاه مرسوما بما يحتاجه من الاخشاب والحديد ، ففعل وصح قوله ثم فعل اخرى برشيد وراج امره بسبب ذلك » (١) ٠

ولتزويد المصانع بالآلات اللازمة عمدت الحكومة الى انشاء معمل لسبك الحديد فى بولاق وضع تصميمه المستر جالويه المهندس الميكانيكى الانجليزى ، الذى كان يشتغل فى خدمة الحكومة وكان يتولى رئاسة العمل فيه رئيس انجليزى يساعده خمسة من العمال الانجليز وثلاثة من المالطيين وأربعون تلميذا مصريا موزعين على جميع اقسام المسبك ورئيسه القائد أدهم بك ، ونظام الأجور مقيد بما ينتجه العمال ٠ بل انهم على اختلاف طوائفهم يقيدون فى المصنع بفئات ثابتة ، يحددها الناظر او من يليه فى المرتبة ، وقلما تقوم المنافسة بين للعمال لان المتفوق لا يلقى على تفوقه جزاء ، اما العقوبة البدنية والسجن فمما يقضى به نظام المصنع ، وتتراوح الاجور بين قرش واحد وثمانية قروش فى اليوم ٠ وقد انفق محمد على على بناء المصنع ٠٠٠ ر ٥٠٠ ر ١ قرش ٠ وكان من الممكن صب خمسين قنطارا من الحديد المصهور فى اليوم الواحد بخمسين قنطارا من الفحم (٢)

وتجدر الاشارة الى مصنع آخر انشىء خصيصا لصناعة الواح النحاس التى تبطن بها السفن ، وتولى ادارته المستر جالوى الميكانيكى الانجليزى يساعده اربعة رؤساء عمل ، اثنان للاسطوانه وثالث

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى - المصدر السابق ص ٥٣٦ ٠
(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى المصدر السابق ص ٤٥٩ ٠

لمراقبة الآلة البخاريـة ، والرابـع للسبك وتنقية النحاس من المواد العزيبة، وكان فى المصنـع عشرون عامـلا مصريـا من العمـل الفنيين موزعين عـلى الاعمـال المختلفـة منهم واحـد للسبك وثلاثة للاسطوانـة يشتغلون فى اخراج الواح النحـاس ، وعملية السبك الواحـدة تقتضى ٣٥ قنطارا من النحـاس والاسطوانـات تخـرج كل يـوم من سبعين الى مائة لـوح من النحاس مختلفـة المقـاس والسبك » (١) ٠

الى جانب هـذه الصناعـات هنـاك صناعـات اخـرى كصناعـة الزجـاج ودبـغ الجلود والصابون والورق والمـواد الكيماويـة وغيرها ٠

كان يشتغل فى الصناعـة من ٠٠٠ ر٣٠ الى ٠٠٠ر٤٠ عـامل ، وبلغ مجموع ما دفعته الحكومـة فى الصناعـة حتى عـام ١٨٩٨ حـوالى ١٢ مليون قرش ، وحاولت فى نفس الوقت اعـداد اناس مدربين تدريبـا حديثا ، فعملت على ارسـال حوالى ثلثمائة مبعوث الى أوربـا وأدخـل اضعـاف هؤلاء فى المدارس الحديثة التى انشئت لدراسـة الطب والهندسـة والكيميـاء اضافة الى الكليـة العسكريـة والكليـة البحريـة ٠

وهكذا حاول محمـد على ان ينفذ برنامج تصـنيع محدد وحصل على المال اللازم من ارباح احتكـارات التجارة ومن الضرائب والقروض الاجبارية ويعود نجاحه بصفة اساسية الى الحماية الاداريـة للصناعـات ٠

لكن نجاحه لـم يدم بفعـل الضغط الاوربى بمعونـة البـاب العالى الذى ازال هـذه الحماية الاداريـة للصناعـات وعرض الصناعـة الناشئة الى منافسـة الصناعـة الاوربيـة وبالتالى الى انهيارهـا ، فلم يكن محمـد على حرا فى فرض الرسوم على الواردات ، بـل كان مقيـدا باتفـاقيـات البـاب العالى مع الدول الاوربيـة ونتيجـة ضغط بريطانيـا فى سبيـل حريـة التجارة وضمان اسواق لتجارتهـا عقـد البـاب العـالى معاهدة ١٨٣٨ التجارية « بالتـا ـ ليمـان » معهـا ، وهـذه المعـاهدة فتحـت

---

(١) عبد الرحمن الرافعي المصدر السابق ص ٥٩٩ ٠

الباب امام التجارة الاوربية لقاء رسم قدره ٥ ٪ فقط ، فكانت ضربة قاصمة لنظام الاحتكار .

وحاول محمد على تجاهلها أول الامر ، لكن القوات الاوربية ضربت قواته بصفة نهائية بعد عام ١٨٤٠ ، وهكذا تعرضت صناعاته للمنافسة الاوربية فبدأت تضعف بعد وفاته .

نتائج حركة التصنيع
فى عصر محمد على

نجحت اصلاحات محمد على الصناعية نجاحا امكن معه سد حاجيات الدولة خاصة فى الميدان العسكرى وعملت على تطوير البلاد سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وفكريا ، غير أن هذه الصناعة كانت تكلف الحكومة نفقات معتمدة على مرافق الانتاج الاخرى من الزراعة والتجارة التى كانت تدر عليها ارباحا مكنتها من تعويض خسارتها فى الصناعة فى المراحل الاولى .

١ - على المستوى السياسى :

ان مقتضيات الصناعة بمصر ارغمت محمد على على الاخذ بالحكومة المطلقة وتنظيم ادارتها تنظيما يساعد على استمرارية خطواته الاصلاحية ، ومن هنا جاءت ، فكرة تاسيس بعض المجالس او الدواوين التى كان يرجع اليها محمد على قبل الشروع فى تنفيذ مشروعاته ، ورئيس هذا الديوان يقلب كتخدا بك أو كتخدا باشا وهو بمثابة وكيل الباشا او نائب وله سلطة واسعة المدى فى كافة شئون الحكومة .

وفى سنة ١٨٢٩ الف محمد على نواة لنظام الشورى وهى مجلس الشورى ، يتالف من كبار موظفى الحكومة والعلماء واعيان القطر برئاسة ابنه ابراهيم باشا .

ومن قرارات هذا المجلس انه قرر أخذ ١٠٠ غلام من كل ثمن من اثمان القاهرة وبولاق ومصر القديمة وجملتهم ١٠٠٠ غلام لتشغيلهم

بالاجرة فى مصانع الحكومة وكذلك قرر اخذ الصالحين للعمل من المتسولين للالتحاق بهذه المصانع وأن ترتب لهم أرزاق يومية وبعد تعليمهم الصناعة ترتب لهم اجور يومية ، ولهذا القرار قيمته فى تعليمهم الصناعة ومحاربة البطالة (١) ٠

أدت نشاة الحكومة الجديدة بوظائفها واداراتها وهيئاتها الى ان اصبح الفرد يواجه الحكومة فى كل خطوة يخطوها منذ مولده حتى وفاته ، فالحكومة لا تطلب منه المال فقط وانما تسوقه للجيش أو للمدرسة او للمصنع ، وتنظم عمله فى الحقل تنظيما دقيقا لا تكاد تدع له حرية فى العمل أو التصرف ، وهكذا ذابت فى ظل النظام الجديد الهيئات والطوائف المختلفة التى كانت تنظم المصريين فى الريف والحضر وفقدت اختصاصاتها وامتيازاتها فتحولت الدواوين والادارات الجديدة التى نهضت لسد الفراغ الذى خلفه انهيار الطائفية لتحل محلها فكرة القومية الواحدة ووقف المصريون جميعا امام الحكم الجديد آحادا يلتمسون منه التوجيه بل وينتظرون لقمة العيش فى المصنع أو الحقل أو فرقة الجيش أو المدرسة او الديوان (٢) ٠

وقد ذكر حسين مؤنس فى كتابه " الشرق الاسلامى فى العصر الحديث " (٣) ان اكثرية الاوربيين كانوا ينتظرون افلاس محمد على بين آونة وأخرى ولكنه لم يكن يلبث حتى يخيب ظنونهم ويتخلص من اثقال الضائقات التى تهبط عليه ، ففى سنة ١٨٢٧ مثلا ابهظته تكاليف حرب المورة وهبط النيل سنتين متتاليتين فتبادل القناصل التهانى بالفراغ امره فاذا به يضاعف همته فى انشاء المصانع والاحواض فى الاسكندرية (...) وليس ادل على شرقية محمد على واساليبه من انه لم يضع لماليته ميزانية أو شيئا يشبه الميزانية الا بعد زمن طويل - بل كان يضع ما يرد اليه من المال فى خزائنه ، وينفق

---

(١) عبد الرحمن الرافعى المصدر السابق ص ٦١٩ ٠

(٢) دكتور أحمد عزت عبد الكريم - المصدر السابق ص ٢٦٤ ٠

(٣) دكتور حسين مؤنس - الشرق الاسلامى فى العصر الحديث ط ٢ ، ١٩٣٨ ص ١٦٢ ٠

منه بغير حساب مكتوب على اسلوب الحكام الشرقيين من قديم الزمان ولكنه اجتهد دائما فى ان يكون منصرفه اقل من ايراده وظل على ذلك حتى وضع له وزير ماليته بوغوص بك حسابا منظما كالمتبع فى أوربا بمعاونة الفرنسي « جومار » .

... ظل محمد على الى اواخر ايامه والنزعة الاوتوقراطية متمكنة من نفسه ولم يكن لاعيان الاسكندرية رغبة فى ارسال أولادهم الى باريس للتعليم فاستعاض عنهم بابناء البوابين وما شاكلهم من ابناء الطبقة الدنيا . « ولم يكن الباشا الحاكم الاوتوقراطى بحكم الميراث فقط بل كان كذلك بحكم البيئة ايضا . واذا استثنينا العنصر الاوربى الضئيل العديم الحيثية ويدخل فيه القناصل العموميون ، وبعض التجار الانجليز والفرنسيون وشرذمة الموظفين الفرنسيين الذين كانوا يعملون فى الادارة المصرية - نقول اذا استثنينا هؤلاء لألفينا الباشا انما يعيش فى وسط شعب لم يكن يتوسع ولا يرغب فى شىء من الادارة الاوتوقراطية . ونحن نعلم ان الحاكم الاوتوقراطى هو دائما بمعزل عن شعبه . على ان محمد على لم تكن تفصله عن شعبه سلطته الغير المحدودة فحسب ، بل كانت تضاف اليها سياسته ونواياه . ولهذا قال مرة للدكتور بورنج الذى هبط مصر لوضع تقرير عن سير الحركة التجارية فى سوريا ومصر ما معناه « ارجو الا تحكموا على اعمالى بمقاييس المعارف عندكم بل ينبغى ان تفرقوا بينى وبين ما يخيم حولى من الجهل المطبق ، فبينما توجد لديكم طائفة من الاذكياء النابهى الذكر لا اكاد اجد حولى من يفهمنى ويعمل على تنفيذ أوامرى ، وكثيرا ما يخدعنى الناس وأنا اعلم انهم يخدعوننى . ولست أعدو الحقيقة اذا صرحت أننى كنت وحيدا طيلة حياتى أو على الاقل الشطر الاكبر منها . » وكان يظهر فى خلال حكم محمد على من اعمال صالحة من صنع الباشا نفسه دائما وبالعكس كانت الاعمال السيئة فى الاغلب من عمل أشخاص اضطر الى استخدامهم لعدم وجود من يفوقونهم علما وذكاء . وقد كانوا من الموظفين الذين لا يتعففون عن ارتكاب الموبقات لاشباع شهواتهم فى الحصول على المال . والى هذه الحقيقة اشار الباشا مرة فى حديث له اذ قال : « عندما هبطت أرض مصر كانت البلاد بربرية

وهمجية لاقصى حد وهى لا تزال كذلك ليومنا هذا على اننى برغم ذلك مازلت ارجو أن تكون أعمالى قد حولتها الى احسن مما كانت عليه ، فلا ينبغى أن تجزع اذا لم تجد فى هذه الاقطار شيئا من المدنية المعروفة فى الاقطار الاوربية ... » (١) .

فى الحقيقة ان ثلاثين سنة من حكمه قد أحدثت فى البلاد انقلابا سياسيا معدوم النظير ولكن لا يفوتنا أن جيلا واحدا لا يكفى لتترك آثار دائمة ونتائج ثابتة .

٢ - على المستوى الاقتصادى :

يقول هنرى دودويل فى هذا الصدد : « ان معظم مظاهر النشاط الصناعى قامت على أساس فكرة سقيمة (٢) مختلة ولذلك سرعان ما دب دبيب الفشل فى المصانع العديدة فاهملت الاتها وتركت اجزاؤها المتحركة (...) وان الباشا انفق ما لا يقل عن اثنى عشر مليونا من الجنيهات على هذه المصانع وعلى الآلات التى جهزت بها وقد ذهبت كل هذه الاموال سدى » .

أما الدكتور محمد فؤاد شكرى (٣) فيقول أن المصانع لم تزد شيئا من موارد البلاد وكان من الاحسن لو استخدم ذلك القدر نفسه من راس المال فى الزراعة وجهود العمال فى الشئون الفلاحية، وكان محمد على يبرر تصرفاته بما لجأت اليه الدول الاخرى من تقدم ورقى ضاربا الامثال بانجلترا وفرنسا تاييدا لحجته ، هذا الى ان المساوىء التى تنجم عن ادخال الصناعة تسرا اقل فى مصر منها فى بلد آخر لان الخسارة تقع على عاتق الخزانة لا على عواتق المستهلكين .

ويضيف قائلا بان المصنوعات الاجنبية كانت ترد الى البلاد بعد ان تدفع ضريبة آسمية قدرها ٣ ٪ ولكن الضريبة فى الواقع

---

(١) هنرى دودويل المصدر السابق ص ٢١٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

(٣) دكتور محمد فؤاد شكرى - المصدر السابق ص ٤٤٥ .

كانت اقل من ذلك كثيرا مما يفسر ان مصنوعات مصر كانت تباع بنفس السعر المنخفض الذى تباع به المصنوعات الأوربية ٠

ولا بد من الاشارة هنا الى ان المنسوجات القطنية هى وحدها التى عادت بالضرر على الواردات حيث ان انجلترا انقصت مقدار ما ترسله من هذه الاصناف والانواع الواطئة منها خاصة ، اما انواع الموسلين الهندى وكانت شائعة الاستعمال فيما مضى أصبحت أنذاك لا يرد شيء منها ٠

وكم حاولت انجلترا بواسطة مبعوثها ان تقنع محمد على بتخليه عن سياسته الصناعية فيقصر اهتمامه على الارض الزراعية تاركا امور الصناعة لمن حذقوا اسرارها ٠ وكان محمد على يدرك ان مؤسساته الصناعية تكلفه كثيرا لاسباب وعوامل مختلفة منها ما يتعلق باستحالة اتخاذ وسائل الحماية التى عرفتها الامم المستقلة فى دور التصنيع ، فقد كان مقيدا بالرسوم الجمركية التى حددتها المعاهدات التجارية بين الباب العالى والدول الاوربية ٠

على كل ، لا بد من ذكر التاثيرات التى طرات على اقتصاد البلاد بفعل سياسة التصنيع بما فى ذلك الزراعة والصناعة التقليدية وكذلك على التجارة ، ذلك لان مشروعات التنمية الاقتصادية فى الزراعة والصناعة لا بد ان تكملها سياسة تجارية نشيطة ترمى الى (تتجير) الزراعة من ناحية وحماية الصناعة المصرية من ناحية اخرى ٠

فعلى المستوى الزراعى لم تعد الزراعة مقصورة على انتاج المواد الغذائية اللازمة للسكان وانما اصبحت تنتج المواد اللازمة للنهضة الصناعية الحديثة كما تنتج فائضا من المواد يصدر الى الخارج فيجلب النقد الاجنبى الى داخل البلاد مما يعين على زيادة مقدرتها الشرائية وعلى تمويل المشروعات الكبيرة التى بدأ تنفيذها ، وبذلك خرجت الارض المصرية من النطاق المحدود الذى فرض عليها حتى القرن ١٩ وهو اعاشة الناس واداء مرتبات الجند الى نطاق اوسع فتصبح

الدعامة القوية للتجارة الخارجية والصناعات فى مصر فتحولت مصر بذلك من النظام الذى يقوم على التخصص والانتاج لسوق أوسع نطاقا ، وهى السوق المصرية عامة والسوق الخارجية ايضا ٠

ويذكر الجبرتى (١) فى حوادث جمادى الاولى سنة ١٢٣٢ هـ الموافق لسنة ١٨١٧ انجاز الحكومة لعمارة السواقى فى مكان ملائم لغرس اشجار التوت بهدف تربية دودة القز واستخراج الحرير فيقول: « انشا الباشا عمارة السواقى بالارض المعروفة براس الوادى بناحية شرقية بلبيس قيل انها تزيد على الف ساقية ، وهى سواقى دواليب خشب تعمل فى الارض التى يكون منبع الماء فيها قريبا واستمر الصناع مدة طويلة فى عمل آلاتها عند بيت الجبجى ، وهو بيت الرزاز الذى جهة التبانة بمقرب المحجر وتحمل على الجمال الى الوادى هناك المباشرون للعمل المقيدون بذلك وغرسوا بها اشجار التوت الكثيرة لتربية دود القز واستخراج الحرير كما يكون بنواحى الشام وجبل الدروز » ٠

وكانت الحكومة تضع يدها على اكثر محصولات البلاد وخاصة المحصولات ذات الصلة بالاسواق الخارجية وحركة التصنيع ٠

أما على مستوى الصناعات الصغيرة فقد اثرت سياسة التصنيع الجديدة عليها تاثيرا سيئا بحيث امر محمد على بضبط وقيد المشتغلين بها ورتب لهم المواد الخام اللازمة لعملهم ثم وضع يده على انتاجهم بعد اتمامه فاصبحوا اجراء بعد ما كانوا أصحاب عمل وكذا الشأن بالنسبة للفلاحين والفلاحات فى القرى الذين كانوا يعملون فى الغزل ، ومما ساعد محمد على على تنفيذ سياسة الضبط بالنسبة للصناعات الصغيرة انحلال الطوائف التى كانت قوام النظام الصناعى فى المدن ٠

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى — المصدر السابق ص ٥٥٥ ٠

لم تعد الصناعات التقليدية قادرة على تلبية الحاجات الجديدة والأذواق الجديدة للمجتمع المصرى فى تطوره السريع فى القرن ١٩ ولم تعد قادرة على الصمود لمنافسة المصنوعات الاجنبية بانتاجها الجمعى واثمانها الرخيصة .

٣ - على المستوى الاجتماعي :

جرت تغييرات هامة فى الحياة الاجتماعية فى مصر بفضل انفتاح مصر على العالم الاوربى أيام حكم محمد على كما هو معلوم الذى حكم فى الفترة ما بين ١٨٠٥ الى ١٨٤٩ حيث كان يتطلع الى الاستفادة من منجزات الغرب العلمية والتقنية فى إنشاء جيش واسطول حديثين ، الامر الذى كان يتطلب تغييرا جذريا لجمل حياة المصريين ، وقد جرت تحولات معينة تحت التاثير الاوربى واساسا فى المعيشة والملبس والاساليب خاصة للذين تسنى لهم اكثر من غيرهم مخالطة الاوربيين ، وفى هذا الصدد يقول كلوت بك (١) « منذ وقت معين اخذ الكثيرون من الوجهاء فى محاكاة الاوربيين حتى فيما يتعلق بتناول الوجبات الغذائية (...) واخذوا يستعملون صحوننا واكوابنا وفى السنوات الاخيرة ظهر الكثير من اثاثنا فى بيوت الوجهاء والأثرياء » .

فى الواقع أن الاصلاحات عملت على نقص كثير من الامور المالوفة العتيقة والمساس بالعادات والخزعبلات المتاصلة وتحميل الشعب اعباء جديدة ، وحسب كلام كلوت بك فان الشعب لم يكن منصرفا عن المساعدة فى تنفيذ الاصلاحات وحسب ، بل كان يعارضها بشتى الوسائل ، وكان الناس يسعون الى مقاومة تعليم الاطفال فى المدارس العلمانية التى افتتحها الباشا والتى كانت بدعة بالنسبة للمصريين ، وأما الذين ساعدوا محمد على فى تحقيق الاصلاحات فقد كانوا فى غالبيتهم يفعلون ذلك على غير ارادتهم ، وكانوا يخدمون الباشا شخصيا وكانوا خداما له .

---

(١) آن ريفلين الفكر الاجتماعى والسياسى الحديث ترجمة بشير السباعى ١٩٧٨ ص ٢٤ .

كان المصريون ينظرون الى تلك المصانع ، كما ينظر الانسان الى كارثة نزلت بساحته ، ولما كانوا يعتبرونها سجونا لا اقل ولا اكثر ، فقد امتنعوا عن العمل بها واضطر الباشا الى استخدام القوة حتى يجمع العدد الكافى من الايدى العاملة ، كما صار يستخدم فى هذه المصانع صغار السن ممن لا يصلحون للخدمة فى الجيش ، ولم تكن النساء بمنأى عن الصناعة اذ كانت توزع على القرويات مقادير معينة ويضيق به ذرعهن فقد كن يعمدن الى شتى الحيل للتخلص منه ولو ادى الامر الى احداث عاهات فى ايديهن • على ان اشتراك النساء فى الجهد الصناعى لم يقف عند حد العمل فى المنازل ، فقد كان فريق منهن يشتغل فى المصانع الى جانب الرجال تحت اشراف دقيق • .

اما عن حالة العامل فى المصنع فقد ذكر محمد فؤاد شكرى (١) • تقريرا لاحد المهندسين الميكانيكيين الانجليز كتبه فى فبراير سنه ١٨٣٨ : « ••• اذا رفض الرجال العمل فالسوط حاضر ، ومن ثم كانوا يمضون الى عملهم والحقد يملا صدورهم ، وفى كل مصنع يشتغل به ٥٠٠ عامل ما لا يقل عن خمسة اشخاص او ستة ينهمكون على الدوام فى البحث عن الغائبين ، وعلى الرغم من شدة تيقظهم فقلما يتكامل العدد قط » ويستمر فى حديثه قائلا بان مدير اى مصنع لا يهمه ان تزيد اجور العمال أو تنقص كما لايهمه توفر المواد الضرورية فى المصنع أو عدم توفرها ، فكل ما يشغل باله انما هو مرتبه وتفادى توجيه اللوم اليه ، كما ان العامل لا يلقى أى تشجيع لذلك يستوى لديه أن يؤدى عمله أداء حسنا أو سيئا ، يذهب الى عمله فاتر الهمة وكل ما يعنيه ان يقترب الليل حتى يغادر المصنع •

وفى راى لوتسكى (٢) ان سياسة التصنيع الجديدة عملت على خلق طبقتين متناقضتين ، طبقة متضررة تتمثل فى البروليتاريا الصناعية وطبقة مستفيدة منها تتمثل فى الطبقة التجارية التى كانت

---

(١) المصدر السابق ص ٧٣٤ •

(٢) لوتسكى ـ تاريخ الاقطار العربية الحديث ترجمة دكتوره عفيفة البستانى ص ٦١ ، ٦٢ •

ملتزمة ابتيـاع البضـائع المحتكرة بالجملـة وجباية الضرائب ، يقـول لوتسكى : « وكنتيجة لانشـاء عـدد كامـل من المشـاريـع الصناعيـة الكبيرة والمتقدمـة بالنسبة لذلك العهـد ، ظهـرت لاول مـرة فى مصر البروليتاريـا الصناعية » ٠

وكان العمـال المصريون يعيشـون فى ظروف صعبة جـدا عن اخوانهم الاوربيين ، وكان المصنع المصرى بتنظيمـه الداخلى يذكـر الى درجـة ما بالعمـل اليدوى الاقطاعى وحتى بالقـرى العسكرية ذات النظـام الحديدى ٠ وكان العمـال المرتبطون بالمصـانع منظمين فى فصـائل وسرايا وكتائب وهم يخضعون الى امراء وملزمون باجراء التمارين العسكرية بعد الانتهـاء من العمـل وكانوا يعيشـون فى الثكنـات ويعملون فى الثكنات ويعملون فى المصـانع نتيجة التجنيـد الاجبارى ويستلمون اجورا زهيدة ، وتشير معطيات ميزانيـة عـام ١٨٣٣ الى ان مصروفـات الجيش كانت قـد بلغت ٢٨ مليون فرنك ونفقـات محمـد على الشخصية ٣٫٥ مليون بينمـا دفـع لنفقـات المصـانع واجور العمـال ٢٫٧٥ مليون فرنـك لا اكثـر

وفى الوقت الذى كانت فيه الاحتكـارات تحكم على الفلاحين والحرفيين بالجوع ، كانت تدر بايرادات طائلة على الحكومـة المصرية متيحـة لها امكانية تشكيل جيش جديد ، كمـا اغنت التجار الذين التزموا ابتيـاع البضـائع المحتكرة بالجملة وجباية الضرائب ٠

واصبح الكثيرون من الفلاحين والحرفيين غير قادرين على تحمـل الظلم الظالم فتمردوا ولاذوا بالفرار الى سوريـا المجاورة الا آن الحكومة المصرية تمكنت من استعادتهم » ٠

فى نظرى انه يجب ان ناخـذ آراء لوتسكى بكثير من الحـذر حيث نراه يبالغ حينمـا يقول بان مصروفـات الجيش ونفقـات محمـد علـى تفوق بكثير ما كان ينفقه على المصـانع واجور العمـال ، صحيح ان حكمه كان مطلقـا وهـذا عيب كبير فى سياسته لكن الدافـع الذى دفعه الى اللجوء الى مثـل هـذه السياسة هو عـدم وعى الشـعب المصرى ٠ بالخدمة الوطنية ونفوره من الاصلاحـات ٠

اما عن الاحتكارات فقد رأى فيها خير وسيلة لتحتين نظام اقتصادى متطور يفتح له بابا جديدا للربح ولم يكن يهدف ابدا الى تجويع الشعب المصرى وشراء الطبقة التجارية باعتبارها الطبقة الوحيدة التى استفادت من الاحتكارات ، وقد راينا ان محمد على انفق كل ما فى الخزينة من أموال بهدف انشاء المصانع باعتبارها الطريق الوحيد الذى يوصل الى التقدم والرقى الذى تشهده الدول الاوربية ففى رأى محمد على ان الشعب الذى يريد الثراء يتعين عليه ان ينتج بنفسه كل ما هو فى حاجة اليه حتى يستغنى عن الواردات الاجنبية .

- اما محمد فؤاد شكرى (١) فيقول بان السياسة الجديدة عادت على المصريين بمكانة رفيعة ومكاسب مادية ولكنهم لم يرتقوا الى مستوى الفهم لافكار خدمة الوطن ، ومع ذلك فان تعزيز اقتصاد البلاد ومبادرات محمد على الثقافية وسياسته التوسعية الناجحة وما الى ذلك قد غرست فى أفئدة أنصار الجديد النزيهين الذين كانوا يتميزون باتساع مداركهم بالنسبة الى عصرهم والذين لا شك فى أنهم كانوا لا يزالون قلة ، غرست فيهم بذور الوطنية المصرية التى سرعان ما انتجت بواكير النزعة القومية .

على أى حال ، جنت مصر من وجود الاوربيين اجل الفوائد ، وليس الأمر مقصورا على ما أدوه من خدمات مباشرة بما لديهم من علم ودراسة ، فان الماهم الواسع بجميع ما ادخل من ضروب الاصلاح ، اشاع نوعا من التسامح ازاء تلك الآراء التى اخذ أثرها ينتشر انتشارا سريعا بين الشعب .

وصحيح انه كان من النتائج التى اسفر عنها انتشار العلم والخبرة بالآلات بين المصريين انهم اخذوا يعتقدون انهم اصبحوا فى غنى عن مساعدة الفرنجة وان ما تعلموه منهم كان لتمكينهم من السير وحدهم وان شيئا قط لا يمكن أن يعوق تقدمهم المطرد ولكن ليس هناك ما هو اوهى أساسا من هذه الفكرة ، ذلك بانه على الرغم من نشوء

---

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى - المصدر السابق ص ٢٨ .

طبقة من العمال تستطيع أن تدير المصانع الهامة تحت اشراف الاوربيين فان كل ما تم سوف يسرع اليه الخراب والدمار اذا تركوا وشأنهم ، وقد أجريت هذه التجربة فى كثير من المصانع انتهت بنتائج وخيمة ذلك بانهم لم يستطيعوا احراز ما تتطلبه الادارة من كفاية واستعداد، ففيهم ذكاء ولديهم استعداد للعمل تحت اشراف من يفوقهم علما ومعرفة ولكنهم يفتقرون افتقارا شديدا الى تلك التفوق العلمى الذى تستلزمه ادارة المشروعات الكبرى ادارة رشيدة .

على كل ، فقد نتج عن الاصلاحات حدوث تغيير فى الآراء المألوفة ويتمثل ذلك فى الموقف الجديد من الفلاح والذى نجده عند محمد على بحيث أمر المدير العام للمانيفاتورات بتحسين معاملته : « لا ينبغى الاستهانة بالفلاح كما لو كان عدوا ، فاننا كلنا مدينين برفاهيتنا للفلاح وحده ، ولذا ينبغى توفير أسباب الراحة له ورفع اجوره كى يعمل برضى » (١) .

ومحمد على باعرابه عن رايه هذا يبدو انه كان فى مستوى أرقى من مستوى الاقطاعيين المصريين بل وغير المصريين .

وقد ترتب على الاصلاحات ان انجذب الى التعليم الفلاحون والحرفيون فقد كانوا يوفدون الى الخارج للتعليم وكانوا يقبلون فى المدارس فتشكل من بينهم جبش واسطول حديثان ، وهكذا اتجه العامة الى المعارف وان كان ذلك على غير ارادتهم .

الصناعة المصرية بعد عصر محمد على

هبطت الصناعة المصرية كثيرا بعد وفاة الوالى نتيجة لتغيير الرسوم الجمركية والتى فتحت باب التجارة للسلع الاجنبية التى غزت الاسواق ونافست الصناعة المحلية حتى قضت عليها او كادت ، فتحولت الصناعات

---

(١) هـ . أ ريفلين — المصدر السابق ص ٣٠ .

الكبيرة الى صناعات صغيرة ، وهجر العمال مصانع الدولة بعد اغلاقها وشرعوا ينشئون مصانع صغيرة تفتقر الى رؤوس الاموال ٠

واستمر هذا الركود فى عصر سعيد الذى اهتم بالانتاج الزراعى ، وبتحسين حالة الفلاح ، والقاء العبء عن اكتافه برفع الضرائب المتأخرة عليه وزيادة حقوقه فى ملكية الارض ٠ وقد اعرض سعيد باتجاهه هذا عن الصناعة ، فلم يهتم بها ، ولم يشجعها التشجيع الذى يبعث فيها الحركة والنشاط ٠

ـ ـ واستمر ركود الصناعة المصرية فى بداية عصر اسماعيل ، ولكن اسماعيل حاول محاولة ثانية النهوض بها ، وسلك فى توجيهاته طرقا ساعدت على هذا النهوض ، بيد انه كان محصورا فى دائرة ضيقة لم تتسع كما كان الحال فى عصر محمد على ٠ فقد توسع اسماعيل فى زراعة قصب السكر بعد ان هبطت اسعار القطن بعد انتهاء الحرب الاهلية الامريكية واقام المصانع بالوجه القبلى لصنع السكر وتكريره ، وبذل فى بنائها واعدادها اموالا كثيرة ، وجلب لها المهندسين من الخارج، ودرب المصريين على ادارتها ، وقد ارتفعت كميات السكر المصدرة الى الخارج ، غير ان الحكومة وجدت ان هذه المصانع تستدعى انفاق الكثير من الاموال لانها كانت فى طور الانشاء ،و كانت الازمة المالية قد استحكمت ، فاضطرت الى الغاء كثير منها ٠

كما لجأ اسماعيل الى احياء كثير من الصناعات التى اندثرت بعد وفاة محمد على كمصانع دبغ الجلود فى الاسكندرية ومصانع الورق ، الا ان هذا النشاط الذى دب فى عصر اسماعيل ظل متأثرا بالتعريفات الجمركية التى تركت الباب مفتوحا للمنافسة الاجنبية ، فقضى على الكثير من الصناعات ٠

وبعد عصر اسماعيل استمر ركود الصناعة ، حتى اذا ما جاء الاحتلال البريطانى خضعت الصناعة للسياسة التى رسمها الانجليز ، وهى ان تظل مصر بلدا زراعيا وسوقا للصناعات البريطانية (١) ٠

---

(١) دكتور أمين مصطفى عفيفى ـ تاريخ مصر الاقتصادى فى العصر الحديث ـ الانجلو ١٩٥١ ص ١٠٠ ٠

تطور الزراعـة فى مصر
فى عصر محمد على

فى اواخـر القرن الثامن عشر كانت الزراعـة فى مصر تسير عـلى طريقة الالتزام ، وكان الالتزام عبارة عن ضيعـة أو قرية أو عـدة قرى تسلمهـا ادارة الروزنامـة بالنيابة عن الحكومـة لشخص ما ، بعـدما تتفق معـه عـلى الثمن ، أو ان يتقـدم باكبر عطـاء اى بالمزايـدة فيعجـل الملتزم بدفـع ضريبة الارض كلهـا أو بعضهـا على سـنة أو أكثـر ، فى حين يتولى هو بنفبسـه جمـع الضرائب من الفلاحين بمسـاعدة سلطـات الحكومـة وغالبـا ما كانت « توجه الروزنامـة ايضـا خطابا الى اعيـان وسـكان الضيعـة تطلب فيهـا من الفلاحين طاعـة الملتزم وان يدفعوا لـه قيمـة الضرائب المحددة فى شروط الحجة » (١) .

وهكذا يتضح لنـا أن ملكيـة الدولة للارض أصبحت خـلال القرن الثامن عشر شكليـة فقط ، اذ أصبح الالتزام فى الظاهـر شبيهـا بالملكيـة الخاصـة ، وان لـم يكن فى الواقـع للملتزمين سوى حق الانتفـاع .

امـا الفئة التى كانت تحتكر هـذا النظام فهم بعض الموظفين الاتراك ومشـايخ العـرب بالصعيد الا انـه « فى اواخـر القرن الثامن عشر كان اكثـر الالتزام يعطى لاعضـاء من البيوت المملوكيـة » . (٢) فازداد نفـوذ هؤلاء وتقوت شوكتهم وكثـرت مظالمهم فادى جشعهم المتزايـد الى الشطط فى فرض الاتاوات وجباية الضرائب دون رقابـة أو قيـد أو ادنى حمـاية لحقوق الفلاح ، فغدوا بذلك اصحاب الحكم المطلق فى اطـار التزاماتهم .

هذا ولـم تكن هناك قاعـدة اساسية متبعة لتوزيـع اراضى الالتزام بين الناس بالقسـط ، بل كان الحق لمن كثرت ثروته وعظم جاهـه واستطاع إن يقـدم أكبر قسـط من المـال .

---

(١) دكتور عمر عبد العزيز ـ دراسـات فى التاريخ العربى الحـديث والمعـاصر ص ١٨٧ .

(٢) دكتور عبد العزيز الدورى ـ المصدر السابق ص ١١٥ .

وبهـذا انقسـم الشعب المصرى الى فئتين ، فئـة قليلـة تمثـل الطبقة الحاكمـة وتتركب غالبـا من المماليك والملتزمين الذين تركزت ثروة البـلاد بيدهم ، وفئة عريضـة تمثـل الطبقـة المحكومة ، وتتكون من ابنـاء الشعب المصرى وقـد كانت هـذه الطبقـة الاخيرة تتالف من عـدة فئات اجتماعيـة اذكـر منهـا التى تهمنـا هنـا بالخصوص وهى طبقـة الفلاحن ٠

وضعية المزارعين والزراعـة قبل مجىء محمد على الى الحكم :

لقـد كانت حالة المزارعين مزرية جدا نظرا لمـا كانوا عليـه من الفقر والجهل والاضطهاد ، ولما عانوه من جراء نظـام الالتزام الـذى اصبحوا بموجبه عبارة عن اداة سهلة بين أيـدى الملتزمين يسيرونهم وفق ارادتهم ٠

أمـا حالة الزراعـة فكانت هى الاخرى فى تدهـور مستمر « وتأخـر بسبب حرمان البلاد من منشات الرى والصرف تضمن استخدام ميـاه النيل وتوزيعهـا » (١) بصورة جيدة والاهمـال دائمـا يؤدى الى الضـيـاع ، وذلك ما حدث بالفعـل ، فقـد طغت الرمال وطمسـت كل ما تبقى من منشآت الرى القديمـة فجفت الترع والقـنوات ، وانطمرت المجارى المـائيـة الصغيرة (٢) فضاعت بضياعهـا واتلفت مسـاحات شـاسعة من الاراضى الصالحة للزراعـة ٠

ومما يوضح لنـا مدى أهمية هـذه المجارى المائيـة هو ان أرض مصر الزراعية سقوية ، ففلاحتهـا اذن تتوقف بالخصوص على ميـاه نيلهـا العظيم وعلى مدى وكيفيـة وطـرق استخدام هـذه الميـاه ، فكلمـا كـان استخدامهـا جيدا كان الانتـاج جيدا والعكس بالعكس ٠

ومما زاد الطين بلـة حرمان اهـل البلاد من حكومـة منصفـة تضمن لهم الاستقرار وترعى مصالحهم وتوطـد لهم الامن ، اذ بانعـدام هـذا الاخير لا يمكن لابـة امـة ان تزدهـر فى ظل الخوف ، فهـو اذن شرط اساسى

---

(١) عبد الرحمن الافعى ـ المصدر السابق ص ٥٢ ٠
(٢) دكتور محمـد فؤاد شكرى ـ المصدر السابق ص ٥ ٠

من شروط التقدم والرقى ، وهـذا ما عبر عنـه الدكتور عبـد العـــزيـز الدورى بقوله : « وقاسى الفلاحون من عبث القبائل ومن تعديـات عصابات الجنود للذين عجزت الادارة عن تمويلهم ففرضوا أنفسـهم على العـلاح والملتزم » (١) ٠

وأدام هـذه الاوضـاع المزريـة والظروف القاسـية لم تجـد الغالبيـه العظمى من الفلاحين بدا من الفرار من الظلم والهجرة الى البلدان القريبـة من مصر أو الى باقى مـدن القطـر وقـد كانت النتيجـة المحتومة أن اندثرت قرى بكاملهـا « واقفرت من سكانهـا جهـات كالفيوم التى اشتهرت بخصب ارضهـا ووفـرة خيراتهـا » (٢) ٠

كل هـذا حدث وعيون الحاكمين والمسئولين غافلة عمـا يجـرى فى البلاد وعن الحالة السيئة التى اضحت عليهـا ٠

ويصور لنـا المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى فى كتابة « عجائب الآثار » حالة الفلاح المصرى فى اواخـر القـرن الثـامن عشر فيقـول ٠ « كان اذا تأخـر الفلاح فى دفـع الضريبة جروه من شنبه وبطحوه وضربـوه بالنبابيت رجـال الملتزم ، هذا عدا ما كان يراه من عسف الصراف النصرانى من مماطلة فى استخراج ورقة الخلاص ، وكذلك الشاهد والشاويش الذين كانوا يسومونه انواع العذاب » فمن خلال تعبير الجبرتى هذا يتضح لنا جليا الى اى حد بلغت سيطرة الطبقة الاقطاعية على الفلاحين ٠ وبالتالى يمكننا أن نستنتج دون عناء كيف سيكون رد فعل هؤلاء المزارعين الذين يقومون بزراعة الارض رغمـا عنهم فطبعا سيكون هنـا المحصـــول ضئيلا جدا وذلـك نظرا لمشـاعر الفلاح واحساساته ، لأنه يعلم مسبقا ان هذا المردود مهما بلغ فان نصيبه منه لا يكاد يكفى حتى متطلباته اليومية ، بل كثيرا ما امتدت يـد الطغاة حتى الى هـذا النصيب الضيل نفسـه ٠

وفوق هذا وذلك فقد اثقل الملتزمون كاهل الفلاحين بالضرائب سواء منها المشروعة أو غير المشروعة والمفروضة أو الاختيارية ٠

---

(١) دكتور عبد العزيز الدورى ـ المصدر السابق ص ١١٦ ٠
(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى ـ المصدر السابق ص ٥ ٠

فحتى « المضاف » و « البرانى » التى كانت فى بادىء الأمر ضرائب اضـافية اصبحت بمرور الوقت تجبى بانتظـام مع الضرائب المقررة (١) . أى بصفة رسمية اجبارية ونقدا - اذ فى الاول كانت تجبى عينا .

وكان الفلاحون فى الواقع مرتبطين بالارض وكان يقـع على عاتقهم عبء ضرائب كبيرة كالعشر أو الخـراج والضرائب مقـابل استخدامهم للمراعى الصيفية والشتوية واستخدامهم أيضا للطواحين .

وهكذا ومن خلال كل ما تقدم نلاحظ أن وضعية الفلاح كانت وضعية يؤسف لها ، فهو لا يملك لا حق ملكيـة الارض ، ولا حق التصرف فيما تنتجه لهـا ، فهو لا يملك لا حق ملكيـة الارض ، ولا حق التصرف فيمـا

فانه كان مطاردا حتى وقت محاولته الفرار أو الهجرة الى حيث ترتاح نفسه ، وقد عانى فوق هذا وذلك من بعض مظاهر نظام الالتزام : كنظام السخرة داخل ارض الوسية « وقد استغلها الملتزم طوال احتفاظه بالالتزام لمساعدته على واجبات لالتزام ونفقاته من الصرف على المساجد والمدارس وايواء المسافرين والموظفين وضيافتهم فى دائرة التزامه ، وكانت هـذه الاراضى معفاة من الضرائب وفرض على فلاحى الجهة أن يعملوا فيهـا سخرة للملتزم بلا اجـر ولا جزاء » .

فبعد ان قضى محمد على ادن على المماليك خلا له الجو فبسط سيطرته على جميع الاراضى التى كانت بايديهم .

ثم التجأ الى حيلة ثانية من أجـل الغاء الالتزام ذلك أنه قبل أن يكشف عن عزمه فى الغائه طلب من سائر الملتزمين أن « يقدموا له كشوفا بارباحهم من التزاماتهم وهى التى تسمى بالفـائض أو فـائض الالتزام فظنوا أن الغرض من هذا الطلب عـزم الحكومة على زيادة الضريبة التى يلتزمون بدفعها للحكومة فانقصوا قيمة هذه الارباح جهد مـا استطاعوا ، فاعتمد محمد على باشـا على هـذا الحسـاب » ، (٢) حيث منح للملتزمين

---

(١) دكتور عمر عبد العزيز - المصدر السابق ص ١٨٧ .
(٢) عبد الرحمن الرافعى - عصر محمد على ص ٦٢٢ .

رواتب سنوية تُدفع لهم من ادارة الروزنامة تساوى مقدار ما كانوا يحصلون عليه من الاراضى الداخلية فى حوزة التزاماتهم واسترجع مقابل ذلك جميع الاراضى والاملاك الواســعة التى كانت تحت سيطرة الملتزمين ، معتبرا اياها ملكا له ولحكومتـــه .

وان كان هذا العمل يدل على شىء فانما يدل فى الحقيقة على ذكـاء ودهاء وعبقريـــة محمد على فى تنفيذ مشاريعه ومخططاته بصورة محكمة .

ومما سبق يتضح لنا أن علاقة الفلاحين بالحكومة اصبحت مباشرة دون الاعتماد على الملتزمين وأن سلطة هؤلاء وحقوقهم قد آلت الى محمــد على رغما عن انفهم خصوصا بعد أن وزع منفعة هذه ألاراضى على الفلاحين كأطيان مؤجرة وخول كل قادر على العمل زراعة ثلاثة أو أربعة أو خمســة أفدنة ، وبهذا تحرر الفلاحون نوعا ما من رق الالتزام ومظاهره الســيئة وحق لهم بعد وقت طال أن يقولوا للملتزمين « انتم ايش بقالكم فى البلاد قــد انقضت أيامكم احنا صرنا فلاحين الباشا » (١) .

وهنا يتبادر الى الذهن عدة اسئلة منها : ما موقف الملتزمين من هذا الاجراء ؟ ثم من المستفيد منه ؟ وبالتالى ما هــو الهدف منه ايضـــا ؟ .

هنا سيكون رد فعل الملتزمين سلبيا بالطبع ، كرد فعل أى انســان حرم من أسباب النعمة فجــأة كى يعيش عيشــة التقشف والكفاف الشىء الذى لم يحلم به الملتزمون يوما ما ، وهذا ما يؤكده محمد فؤاد شـــكرى بقوله « وقــد تصايح الملتزمون بالشـــكوى منــد البداية حين استبانوا أن الباشا يريــد ابطال الالتزام والاستحواذ على الارض » (٢) .

ولتبرير موقفه ، فقــد استند محمد على فى دعواه الى قرار او فتوى تقول بأن مصر فتحت عنوة ولم تسلم او تخضع صلحا مما يترتب عليــه أن تصبح الحكومــة صاحبة الحق فى الملكية . (٣) فلا احد اذن ينكر أن

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى ـ المصدر السابق ج ٤ ص ٢٠٧ .
(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى ـ المصدر السابق ص ٣٠
(٣) نفســـــــه ص ٢٩ .

مصر فتحت بحد السيف شـــأنها شـــأن جميـــع ممتلكات الامبراطورية العثمانية الا أن هذه الحجة ليست قاطعة ، انما اراد محمد على أن يسكت بها أفواه الملتزمين ويضع بالتالى حدا لصياحهم وشكاويهم .

ولقد كانت معارضة الملتزمين بالوجه القبلى أشد ضراوة من الوجـه البحرى نظرا لمكانتهم الاجتماعية ، ونفوذهم المرموق - فمعظمهم من سـلالة المماليك ورؤساء العشائر - ولهذا لم يذعنوا الا تحت قوة السـلاح .

أما المستفيد من هذا الاجراء أو النظام الجديد فهو محمد على بالطبع لأنه استطاع أولا وقبل كل شىء أن يقضى على (الطبقة المالكة)آنذاك اى الملتزمين ، هـذا بالاضـافة الى ان تلك الرواتب قـد اصبحت ضئيلة اذا ما قورنت بمـا كانوا يحصلون عليه من قبل من التزاماتهم ، وبما انها لم تكن وراثية ايضـا فقـد نقصت وتقلصت قيمتها بمـرور الزمن نظرا لتقلص الحاصلين عليها . وعلاوة على هذا فان بعض ملتزمى الوجه القبلى قـد « حرموا من ميزة (الفائض) واضطر بعضهم الى الهجرة ، ونزع محمـد على أملاكهم وأضـافها الى مجموع الاراضى الزراعية التى اعتبرها ملكا لـه » (١) .

والجدير بالذكر أن الغاء الالتزام لم يمس الا طبقة معينة قليلة العدد اى الطبقة المسيطرة فقط ، لان مجموع الامة أو القادة الشعبية كانت تتالف فى غالبيتها العظمى من الفلاحين ومن باقى الفئات الدنيا الاخرى من امثـال الصناع والحرفيين وغيرهم .

وهناك بعض المؤرخين من امثال الرافعى يـرى « أن الغـاء الالتـزام مع عدم تقرير حق الملكية لا يمكن ان يعد اصـلاحا ، بل هو ابعد ما يكون عن الاصلاح » ويستشهد على ذلك بقول المسيو مانجان المؤرخ المعاصر وهـو صديق لمحمد على « أن التعديلات التى ادخلها الباشا فى نظام الملكية لم تكن متفقة مع الصـالح العام ، فلا هو احترم الملكية الفردية ولا هو اعترف بها ... فالغاء الالتزام مع عدم انشاء الملكية الفردية معناه الغاء الملكية

---

(١) عبد الرحمن الرافعى - المصدر السابق ص ٦٢٥ .

وامتلاك الحكومة جميع الاراضى المزروعة » (١) ٠

وعلى العموم فان هذا التغيير الجديد فى نظـام الملكية لم يكن فى بادىء الأمر مخالفا لنظام الالتزام ، الذى كان يسمح بحق الانتفاع مدى الحياة فقط دون السماح او الاعتراف بالملكيـة الفردية المطلقة لرقعة الارض المستغلة ، الا انه بعد سنة ١٨٤٢ بدأت الملكية العقارية تحت ظل محمـد على تتخـذ وجها آخـر حيث بدات تظهر هناك فئة محدودة العدد من الملاك الكبار استولت على أجود الاراضى الزراعية ، وقد كانت تتكون من الاسرة الحاكمة ومن الموظفين السامين الذين تفانوا فى خدمتها ومن بعض الاثرياء ورؤســاء القبـائل ٠

وربما يرجع سبب تأخير ظهور هـذا النوع من الملكية الفردية ، الى تأنى محمد على ريثما يوطد اركان سلطته كى لا يثير القلاقل حـوله ، أو ربما انه أيضا « لم يسمح فى بادىء الأمر بتكوين ضياع خاصـة حتى لا يؤدى ذلك الى قيـام طبقـة مالكة تتحدى سلطته » (٢) ٠

ولهذا فهو لم يعترف بالملكية الخاصة الا بعد ان استتب له الأمر فى الداخل والخارج وضمن لاسرته حكما وراثيا داخل مصر اثر معاهدة لندن ســنة ١٨٤٠ ٠

وأيا كان الأمر فتبعا لظهور هذا النـوع من الملكية الفردية ، يمكن القول انه الى جانب استفادة محمد على من الغاء الالتزام ، فقد استفادت طبقة محظوظة أخرى من أمثال مشـايخ البلاد وأعيانها وكبار الموظفين وأفراد الاسرة المالكية الذين كان يريد من وراء اختيارهم أن تدين له وحده بثرواتها وقوتها مستوحيـا فى ذلك تجـربة نابليون وبعض الحكــام الأتوقراطيين المعاصرين ٠ وهذه الطبقة الصاعدة هى التى سيزداد وضعها الاقتصادى والاجتماعى تحسنا يوما بعد يوم الى ان بدأت تتجه بالنظـام الزراعى نحو الرأسمالية ٠ وهى التى سيدخل معها المصريون ابان الثورة

---

(١) المصـدر نفســه ص ٦٢٤ ٠

(٢) دكتور عمر عبد العزيز - المصدر الســابق ص ١٩٣ ٠

العرابية فى مواجهة حاسمة ومعركة فاصلة ، نظرا لازدياد نفوذها وامتيازاتها ومشاركتها فى شئون الحكم ، بل ومآزرتها لكل حكومة جائزة تخـــدم مصـــالحها .

وقد كان هدف محمد على الاول والاخير من وراء الغاء الالتزام والسيطرة على كافة الاراضى هو احتكار جميع الموارد الاقتصـــادية والمردودات التى تغلها هذه الارض ولتسهيل هذه المهمة فقد قام محمد على بعملية هى :

مســح الاراضى وتنظيم الضرائب :

لما صار محمد على باشـا المالك الوحيد لاغلبية الاراضى الزراعيـــة (اراضى الالتزام - أراضى الوقف - بعض أراضى الأوسية) لأن بعضها الآخر اضطر محمد على أن يبقيه تحت ايدى عناصر معينة من الملتزمين وأن يسمح لهم باستثماره طيلة حياتهم دون ضريبة يؤدونها ثم ترجع ملكيته بعد مماتهم الى الحكومة وربما يرجع سبب اتخاذه هذا الاجراء الى اقتبال بعض الملتزمين على وقف اطيان الوسية حتى لا يحرم خلفهم من ريعهـــا ماداموا لا يملكون سوى حق منفعتها فقط ، قام بمسح هذه الاراضى كلهـا « وذلك هو (التاريخ) المشهور الذى بدأ بعمله سنة ١٨١٣ وعهد به الى ابنه ابراهيم بك (باشـا) ومعه المعلم غالى بصفته رئيس المساحين ، وتعد دفاتر التاريخ التى أمر محمد على بوضعها من أهم أعماله العمرانيـة وفيها مساحة اطيان القطر المصرى المزروعة وحدود كل أطيان البلاد وأحواضهـا ومساحة كل بلد ومســـاحة الاراضى المستعملة للمنافع العمومية كالترع والجســور والطرق والمدافن » (١) .

وقد كان هدف محمد على من هذا المسح هو أولا تثبيت صحة ملكية كل ارض ، ثانيا مصادرة كل قطعة وجد ادلتها منعدمة أو مشبوهة أو غير كافية . وبعد هذا قام محمد على « باعادة تسجيل الارض باسم اهل القرية وجعلهم مسئولين عن دفع الضرائب للحكومة مباشر » (٢) .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى - المصدر السابق ص ٦٢٦ .
(٢) دكتور عبد العزيز الدورى - المصدر السابق ص ١١٦ .

ومن هنا يتضح لنا أيضا أن هدف محمد على الثالث هو تسهيل مهمة جمع الضرائب ، اذ أنه لم يكن لها قبل عهده أى أساس ثابت ، ولهذا فبعد أن راجع هذا النظام ، واعاد النظر فى شانه فرض ضرائب جديدة ، وصار الفلاحون اثرها يتعاملون مع الحكومة مباشرة ، وهكذا اخذوا يعرفون على الأقل ما عليهم أن يدفعوه لها من مال سنويا .

وقد « منح مشايخ البلاد عن كل مائة فدان من زمام البلد خمسة افدنة لا يدفعون عنها ضريبة مقابل خدماتهم للحكومة وايواء من يحضر اليهم من الموظفين ، وقد سميت هذه الاطيان (مسموح المشايخ) أو مسموح المصطبة ، على أن معظم هؤلاء المشايخ ساءت تصرفاتهم واستبدوا بتسخير الفلاحين فى خدمة اراضيهم وكثرت شكاوى الناس منهم » .

ومسموح المشايخ هذا كثير الشبه بالاوسية ، الا أن أرض الوسية كانت خدمتها واجبة على الفلاح طبقا لنظام السخرة على حين أن تسخيره اليوم بعد الغاء الالتزام يعد اكثر جورا وظلما .

وقد رتب محمد على الضرائب تبعا لقيمة ونوع كل مساحة ، ومدى قربها او بعدها عن نهر النيل ، هذا مع مراعاة العوامل الجغرافية والطبيعية والبشرية ايضا . وهكذا جعل لكل فدان او قطعة ضريبة خاصة ومحدودة .

وقد كان فى البداية « يستشير العلماء فيما يفرضه من ضرائب (١)، الا أنه لم يحترم هذه المبادىء ، اذ بمجرد أن تخلص من نفوذ العلماء وخصوصا السيد عمر مكرم ، خول لنفسه السماح بفرض ما يشاء من الضرائب والاتاوات كلما شعر بأزمة مالية . وكم كان احتياجه الى المال كبيرا نظرا لكثرة حملاته وحروبه فى الخارج واصلاحاته العمرانية فى الداخل ، وباسم هذه الظروف وباسم هذه الازمة الاقتصادية ايضا كان يعدل من سعر الضرائب من حين لآخر قصد الزيادة فى قيمتها .

وقد كان لنظام الضرائب عواقب وخيمة على الزراعة والزراع ، حيث هرب كثير من الفلاحين فأخلوا قرى باكملها نتيجة لتراكم الضرائب عليهم

---

(١) عبد الرحمن الرافعى - المصدر السابق ص ٦٢٧ .

وبالتالى عجزهم المستمر عن ادائها · ولمعالجة الموقف فكر محمد على فى ايجاد حل له وذلك بفرضه « نظام العهد » وذلك أنه عهد الى بعض لاعيان والمامورين ورجال الجهادية ان يكون فى (عهدتهم) جباية ضرائب بلاد باكملها ، على أن يكونوا مسئولين عن الدفع من مالهم الخاص اذا لم يجبوها ··· على أن مركز الفلاح ازاء (المتعهد) لم يكن مما يغبط عليه لأن المتعهد بما التزم به من اداء الضريبة كان يسخر الفلاح لاطماعه لأنه يعتبر نفسه كالدائن الذى يسدد عنه دينه » ومما لا شك فيه ان هذا النظام الجديد لا يخلو من مخلفات ورواسب الالتزام وذلك لما للنظامين من اوجه الشبه ·

ومما سبق يتضح لنا أن الحكومة قد زادت من تعميق شقاء الفلاح وظلمه لا لشىء الا لأنه لا يملك مالا وليس من الاثرياء · وياليت شقاءه يقف عند هذا الحد ، بل لم يكن له حتى حق الهجرة ، وهو ادنى ما يمكن للانسان ان يفعله للهروب من الجور والتعاسة اى ضاق به الحال ·

وهذا ما أكده عبد الرحمن الرافعى نفسه بقوله « وكانت الحكومة ملزمة اذا هجر الفلاحون بلادهم أن تعيدهم اليها حتى يستوفى المتعهد منهم ما دفعه عنهم وفى هذا من مطاردة الناس وارهاقهم ما لا يغيب عن البال (١) فبدلا من أن تمد لهم الحكومة - تلك الحكومة التى كانوا بالامس القريب يدعمونها بكل الوسائل وبشتى الطرق يد الرحمة والمساعدة وتخرجهم من محنتهم منها هى اليوم وبكل ما اوتيت من قوة تتنكر لهم ، وتساهم بدورها فى زيادة عذابهم ، وحرمانهم · والحديث عن الضرائب يطول اذ لم تكن فى عهد محمد على تشمل الاراضى المزروعة فقط ، بل لقد كانت هناك ضرائب أخرى زادت من شقاء الطبقة الكادحة كضريبة الدخل أو الضرائب المفروضة على المواشى ، وقوارب النقل والصيد بل حتى على بعض الأشجار وكالنخيل ·

---

(١) عبد الرحمن الرافعى - المصدر السابق ص ٦٢٩ ·

وضعية الفلاح فى ظل حكم محمد على :

على ضوء كل ما سبق نستنتج ما يلى : أن وضعية الفلاح بالمقارنة لما كانت عليه ايام حكم الامراء المماليك لم تتغير تغييرا جذريا ، وانما كان التغيير الذى طرأ عليها طفيفا للغاية .

وهذا التغيير الطفيف تجلى بوضوح فى سياسة التجنيد ، لأن نوع وأسلوب الحياة ظل تقريبا كما كان عليه ايام المماليك حتى اليوم الذى استحدث فيه محمد على سياسة تجنيد قوات اسطوله وجيشه الجديدين من بين صفوف الفلاحين .

وقد كان لهذه السياسة الجديدة المتعلقة بتجنيد الاهالى اثر بالغ الاهمية على حياة الفلاحين ، حيث انهم وجدوا عاملا ومبررا آخر للهجرة الى جانب العامل الاول المتمثل فى فداحة الضرائب وقسوة الحكام - وهو درأهم ثانيا من الانخراط فى الخدمة العسكرية .

واذا كنا نعلم ان الخدمة العسكرية واجب وطنى مقدس يجب على كل مواطن حر ابى يقوم به ، فاننا ولا شك سنتعجب من هروب المصريين ومن اتباعهم لساليب كثيرة ومتنوعة للتهرب من التجنيد ، وخاصة الفلاحين منهم اذ كان يهجرون بيوتهم أو وطنهم او قراهم ، بل لقد بلغ بهم الحال الى حد تشويه اجسادهم على أن يخضعوا ويستسلموا لعنف محمد على وينخرطوا فى الجندية .

لكن لا غرابة ولا ملامة فى ذلك اذا كنا نعلم ايضا ان « الرشوة والمحسوبية كانت توفر للاثرياء او ذوى النفوذ فرصا لشراء اعفائهم من التجنيد » . (١) وكان التجنيد هنا ليس بواجب وطنى ، وانما هو أمر مقصور فقط على طبقة الفلاحين وكافة الطبقات الكادحة ، اى التى لاتستطيع

---

(١) دكتور هـ . ريفلين - الاقتصاد والادارة فى مصر فى مستهل القرن ١٩ ترجمة دكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى ص ٢٩٤ .

تقديم أى بدل نقدى مقابل اعفائها من هذه المهمة . هذا بالاضافة الى الطريقة التى كان يجمع بها هؤلاء .

وهذا ما عبر عنه الجنرال بوليه Boyer أيضا سنة ١٨٢٦ بقوله : « أن وادى النيل هو وادى للصفوة وان عددا كبيرا من الفلاحين يهاجرون الى سوريا ، وهو الشيء الذى أثر بصورة سلبية على النشاط الزراعى » .

وقد كان والى عكا عبد الله باشا يمنح هؤلاء اللاجئين المصريين ارضا بعد ما حرموا منها داخل وطنهم الأب ويعفيهم من مهمة اداء الضرائب لمدة ما يقرب من ثلاث سنوات أو أكثر .

وقد طالب محمد على بعودة هؤلاء الفلاحين الفارين الى مصر ، لا حبا فى رجوعهم الى وطنهم وديارهم ، بل لازدياد حاجته الملحة اليهم اذ أنه وجد فى يوليو عام ١٨٣١ أن ربع اراضى الصعيد تقريبا يتعذر زرعها لعدم وفرة العدد اللازم والكافى من اليد العاملة فى هذا الميدان .

فما كان عليه والحالة هذه الا أن يصدر أوامره الصارمة الى بعض موظفى حكومته بمحاصرة جميع الفلاحين الهاربين الى مدينة الاسكندرية وارغامهم بالقوة على العودة الى قراهم تحت حراسة مشددة « اما أولئك الذين لم تكن لهم قرى أو أقارب فكانوا يجندون فى الجيش أو الاسطول أو الورش » . هذا اتخذ الباشا من هجرة الفلاحين الى سوريا ذريعة لغزوها فيما بعد .

وتذكر الدكتورة هلين أن نفور الفلاحين من الخدمة العسكرية قد بلغ مداه حتى أن الامهات على حد تعبيرها كن يشوهن أطفالهن حتى لا يجبرون على التجنيد (١) .

هذا والى جانب عامل الهجرة وعدم الاستقرار والاضطهاد المستمر ، فان الفلاح المصرى لم يستفد ايضا من الاصلاحات الضخمة والتغيرات

---

(١) المصدر السابق ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .

التى لدخلها محمد على على الميدان الزراعى بالقدر الذى لستفادت منـــه الحكـومـــة ٠

فاذا كانت الاراضى قد انتزعت فعلا من يد عـدد كبير من الملتزمين ، فلكى تصبح اخيرا فى قبضة ملتزم واحد وهو الباشا ، الذى كان يتصرف فيها كيفما شـــاء ويسلمها لمن شاء دون ادنى قيد أو رقابة ، حيث بلغت المسـاحة المعفاة من الضرائب على عهـده خلال سنة ١٨٤٤ ، ٥٥٩ر٢٠٥ر١ فـدان وهى موزعـة كالتــالى :

الأشـخاص المالكين لها	مساحة الاراضى بالفدان
محمـــد عـــلى	٠٠٠ر١٢٠
ابنـــه اسـماعيـل	١٠٠ر٩٨
أفـراد اسـرة الوالى	٠٠٠ر٧٥
الضباط الاتراك وكبـار الموظفين والمحاسـبين	٥٥٩ر٢١٢
المجمـــوع	٥٥٩ر٢٠٥ر١

وهكذا يتضح لنا أن التغييرات التى استحدثها محمد على فى حيازة الاراضى الزراعية لم تكن اصلاحات حقيقية ، لأنه استولى على الارض من المجموعات المالكة السابقة ، وأعاد توزيعها على مؤيدى واتباع النظام الجديد ، وبهذا اذن كان نظامه الجديد قريب الشـبه بنظام الالتزام الذى الغـاه من قبـل (١) ٠

وهكذا استفادت فئة قليلة العدد ، أما الطبقة الكادحة من المزارعين فقد بقيت وضعيتها هى هى ، فكما كان الفلاح بالامس القريب يعانى من نظام الالتزام وقواعده الجائرة ، فها هو اليوم فى ظل حكم محمد على يعانى أيضا من سوء تصرف الحكام والمسئولين ومن فداحة الضرائب والقروض ٠

---

(١) دكتور عمر عبد العزيز ـ المصدر السابق ص ١٩٥ ٠

وعلاوة على حرمانه من حق ملكية الارض فقد حرم كذلك من حقه فيما تغله ، اللهم الا ذلك النذر اليسير الذى كان لا يكفى حتى لسد حاجاته ومتطلباته اليومية نتيجة لمساوىء الاحتكار ٠

ومما يؤكد كل هذا هو وصف المسيو مانجان لحالة الفلاح فى ذلك العهد بقوله : « اذا صح أنه لا يوجد فى العالم بلاد اغنى من مصر من الوجهة الزراعية فليس ثمة بلاد أخرى أتعس منها سكانا ، واذا بقى فيها العدد الذى بها من السكان (سنة ١٨٣٢) فالفضل فى ذلك انما يرجع الى خصوبة ارضها وقناعة فلاحها » (١) ٠

تطوير منشآت الرى :

تاتى مياه النيل فى فصل الفيضان كل عام غزيرة متدفقة وتنساب الى البحر دون حاجز يحجزها او ادنى انتفاع بها ، وهى فى طريقها اليه قد تسبب فى اتلاف المحصولات وهلاك النسل ، بل غالبا ما كانت تكاد تصيب البلاد بالغرق ، ولهذا كانت تهدد القرى والمدن وتزرع الرعب فى قلوب الاهالى ، فى حين انها تاتى فى فصل الصيف من الشحة لدرجة أن الزراعات القائمة قد تحتاج ولو الى قطرة واحدة منها فلا تجدها ٠

ومن هنا كان الاهتمام بمنشآت الرى ومن هنا ايضا نشأت فكرة تشييد القناطر والجسور والخزانات والترع والسدود وغيرها من الوسائل التى من شأنها أن تحافظ على مياه النهر من الضياع ٠ وقد نالت هذه المنشآت اهتمام المصريين القدماء الفراعنة والرومان وغيرهم ممن تعاقب على حكم مصر ٠

فحياة مصر اذن مرتبطة ارتباطا وثيقا بوادى النيل ودلتاه التى لا تتعدى مساحتها فى المجموع اربعة بالمائة من مساحة القطر المصرى ٠ اذ كل ما يتبقى من الاراضى فهى عبارة عن صحارى جرداء ، الشىء الذى يجعل

---

(١) عبد الرحمن الرافعى — المصدر السابق ص ٦٦٨ ٠

من مناخ مصر مناخا جافا قليل الامطار شديد الحرارة ، وبهذا كانت هذه الظروف المناخية القاسية من أكبر دواعى الاعتناء بشبكة الرى ٠

ومن الدوافع الاساسية التى جعلت محمد على يعتنى بشبكة الرى . هو أن المساحة المزروعة كانت قد تقلصت بصورة ملحوظة قبيل توليه منصة الحكم فحلت الصحارى محل المزروعات فى مناطق شاسعة ، فأدى ذلك الى تضعضع اقتصاد البلاد نتيجة تدهور المردود ، هذا بالاضافة الى انخفاض النقل النهرى كما ونوعا ٠

اما فى عصره فقد نال القطاع الفلاحى على يده عناية فائقة لم يسبق له أن نالها على يد من سبقه من الحكام المماليك ٠

هذا وان كان الاعتناء بشبكة الرى تراثا مصريا قديما قدم النيل فالجديد فى تلك الحقبة الزمنية هو التوسع الملموس لنوع متطور من التقنية ، ونعنى بذلك الشبكة العميقة التى تمكن من ازدهار الزراعات الصيفية ٠

ولم يكن غرض محمد على من الاهتمام بالزراعة وما يتعلق بها من وسائل الرى تحسين أحوال الفلاحين والرفع من مستواهم المعاشى ، انما كان يهدف من وراء ذلك الى جعل الانتاج الزراعى السلعى هو السائد على الانتاج الاكتفائى ، اما فيما يخص نمو السوق الداخلى للبلاد فقد جاء كنتيجة حتمية تابعة لهذه العملية فقط اذ وجهت المحصولات الزراعية الجديدة نحو التصدير طبقا لنظام الاحتكار ٠ وهكذا خطت الزراعة المصرية خطوة سريعة نحو المستوى الانتاجى العالمى فى ذلك العصر الذى بدأ فيه تقدم تقنى آخر وهو ايصال الماء أو صرفة بواسطة الترع والجسور أو السواقى أو الرفع من مستواه عن طريق بناء وتشييد القناطر سواء منها الصغرى او الكبرى ٠

السدود فى عهد محمد على :

لقد أنشا الشعب المصرى فى ظل محمد على عدة جسور منها :

- السدود التى تم انشاؤها على شاطىء النيل من جبل السلسلة الى البحر المتوسط والتى كان الغرض منها حجز مياه النيل فى مجراها الطبيعى حتى لا تطفى على الضفتين فتسبب الخسائر للناس •

- السدود التى تم انشاؤها على الحياض ، والتى كان الغرض منها صد الامواج عنها •

- وأخيرا السدود التى أقيمت على الترع ، اذ كان لكل ترعة من تلك الترع جسران لحفظ مياهها •

الترع :

لقد شقت فى عهد محمد على ترع كثيرة فى سائر المديريات سواء فى الوجه البحرى أو القبلى ، وقد كان الباشا يعنى بتطهيرها والحفاظ عليها بالترميم من حين لآخر • وهناك من يقدر هذه الترع بأربعين ترعة منها الكبيرة مثل الفرعونية وترعة المحمودية ، ومنها الصغيرة كترعة الشنهورية أو ترعة الرمادى •

سد ترعة الفرعونية :

يتفق كل من عبد الرحمن الرافعى ومحمد فؤاد شكرى على أن سد الفرعونية كان من أول أعمال محمد على والسبب فى ذلك أن المياه كانت تتسرب من هذه الترعة اثناء الصيف الى فرع رشيد فيجف فرع دمياط وتقل مياهه العذبة نتيجة لذلك فتطغى عليه بالتالى مياه البحر التى تختلط ملوحتها بما تبقى بهذا الفرع من مياه فتفسدها وتجعلها غير صالحة للزراعة • ولو فكر الاهالى فى اقامة سدود ترابية على النيل لمنع مياه البحر الملحة من دخول فرع دمياط لهان عليهم الأمر ، ولكن هذا لم يكن شائعا عندهم فكانت النتيجة المحتومة ان تضررت محصولات الارز بهذه الجهات بعدما حرمت من مياه الرى العذب « وقد شكا أهلها على توالى السنين ما

تجلبه عليهم هذه الترعة من المضار ، » (١) ولهـذا صدر امر من طرف الباشا لاغلاقها فى عام ١٨٠٥ بسد منيع من الحجارة ليحجز تدفق مياه فرع دمياط الى فـــرع رشــــيد ٠

وقد تابع اهتمامه بـــه فكان يتعهده بالترميم كلما دعت الضرورة ، واقام ترعا اخرى كى تعوض جهات البحيرة ما كان يصلها من ماء من ترعة الفرعونية قبل اغــلاقها ٠

هذا وقد افاد سد فم الفرعونية افادة كبيرة فى زراعة محصول الارز الذى كان متقدما بالدقهلية ودميــاط والذى كان محصولا تصديريا منذ العهــد العثمــــانى ٠

شـــــق ترعة المحمودية :

كانت رغبة محمد على فى الحصول على الاموال هى التى جعلته يفكر بجدية فى الاستفادة من مركز مصر الجغرافى وموقعها الاستراتيجى الهام، فأراد بذلك احياء طريق التجارة بين مدينة الاسكندرية وباقى مدن البلاد الداخلية لما فى ذلك من ارباح مهمة للخزينة ، فأمر بحفر ترعة المحمــودية عــــــام ١٨١٨ ٠

وترعة المحمودية هى ترعة الاسكندرية القديمة أو خليج الاشرفيــة، نسبة الى الاسكندر المقدونى الذى قام بحفرها خلال القرن الرابع قبـــل الميلاد كى يمـــد مدينته الجديدة الاسكندرية بالمياه ، أو نسبة الى الملك الاشرف برسباى الذى أعاد حفرها ٠ الا أن هذه الترعة لم يلبث تراكم الردم بالرمـــال أن طمست معالمها من جديد « فجفت فكان لا يدخلها الماء فى معظم السنين الا فى وقت زيادة النيل ، ثم تجف باقى الســـــنة ، وفى مدة زيادة النيل اى فى شهر سبتمبر من كل سنة تصل مياهها الى الاسكندرية فيملأ اهلها الصهاريج ليجدوا منها حاجتهم من الماء طول السنة وكان أهل الاسكندرية

---

(١) لمزيد من التفصيلات : انظر على شافعى بك ـ اعمال المنافع العامة الكبرى فى عهد محمد على الكبير ـ الجمعية التاريخية ١٩٥٠ ٠

يحتفلون بمجيء ميـــاه الترعة وخزن الماء فى الصـــهاريج ويبتهجون لذلك ابتهــاجا عظيمــا » .

وهكذا انعزلت الاسكندرية وانحطت مكانتها التجارية القديمة وتقلص عدد سكانها نتيجة لذلك ، فذهب الكثير من عمرانها كما فقدت تلك القيمة التى كانت لها أيام حكم البطالمة ، اذ كانت عروس المدائن من غير منازع ، ومركز تجارة العالم ، وقد بدأت فى التاخر والاضمحلال منذ تحـــول طريق تجارة الهند باكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ ، وزاد الفتح العثمانى من تعميق هذا التاخر وبقى الحال على ما هو عليـــه حتى عهد محمد على الذى أعاد فتح ترعة المحمودية متخذا من قرية العطف فتحة لها بعد أن كانت فيما مضى تاخذ مياهها من الرحمانية الواقعـــة على النيل وتمر بين بحيرتى مريوط وأبو قير الى ن تصل الى الاسكندرية .

وقد تطلب حفر هذه الترعة مجهودات جبارة ومتاعب كثيرة وضحايا لا تحصى ، وفى هذا يقول عبد الرحمن الرافعى ما نصه « ويكفيك لتعرف مبلغ الضحايا التى بذلت فى هذا السبيل ما كتبه فى هذا الصدد المسيو (مانجان) الذى كان شاهد عيان لحوادث مصر فى ذلك العصر ، فقد ذكر أنه مات من الفلاحين الذين اشتغلوا فى حفر ترعة المحمودية اثنا عشر الفا فى مدة عشرة أشهر وأن هؤلاء الموتى دفنوا على ضفتى الترعة تحت اكداس التراب الذى كانوا يرفعونه من قاعها ، وقال أن معظمهم مات من قلة الزاد أو المؤونة أو من الاعنات فى العمل وكذلك من سوء المعاملة التى كانوا يلقونها من الجنود القساه المنوط بهم حراستهم فقد كانوا يجبرونهم على العمل المهلك بدون انقطاع ولا هوادة من الفجر الى الليل » (١) .

وقد بلغ عدد المشتغلين فى حفر هذه الترعة ما يقرب من ٤٠٠ر٠٠٠ من الفلاحين جمعوا من مختلف المديريات ، ووصف لنا المؤرخ المصرى الجبرتى الكيفية البشعة واللا انسانية التى كانوا بجمعون بها من طرف المسئولين فى حوادث شهر شوال ١٢٣٤ هـ فى (ربع عشرة) أى فى ٦ أغسطس سنة

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ـ المصدر الســابق ص ٥٧٤ .

١٨١٩ حيث يقول : « وكان الباشا سافر الى جهة الاسكندرية بسبب ترعة الاشرفية ، وأمر حكام الجهات بالارياف بجمع الفلاحين للعمل فأخذوا فى جمعهم فكانوا يربطونهم قطارات بالحبال وينزلون بهم المركب » الشىء الذى يدل على أن هؤلاء الفلاحين لم يكونوا يذهبون عن طواعيه واختيار انما كانوا مجبرين على ذلك . وبهذا كانت الزراعة تتعطل ولا تجد من يقوم باعبائها ، لكن هذا لم يعف الفلاحين ولو مرة من تقديم المال للباشا اثر عودتهم لحقولهم وقت الحصاد ، بل بالاضافة الى ذلك المال كان عليهم أن يقدموا له كيلة قمح ومثلها من الفول وحمل بعير من التين .

هكذا يتضح لنا أنه اذا كان الجندى المصرى هو الذى ساهم فى اعادة بناء دولة مصر بما حققه من انتصارات رائعة وبطولات فى الخارج رفعت من شان مصر بين الامم ، فان الفلاح المصرى هو الاداة الاساسية واللبنة الصلبة التى ارتكز عليها بنيان صرح مصر ، هذا فى الوقت الذى ظلت فيه حقوقه مهضومة .

فحفر ترعة المحمودية اذن كان الثار التى كان وقودها الفلاح المصرى الصبور ، فى حين حملت الترعة اسم السلطان العثمانى محمود الثانى تيمنا به ، وكانه هو الذى ساهم بدمه وعرقه أو بفلذات كبده فى بنائها .

وقد كانت « جريدة الوقائع المصرية » هى الاخرى بدلا من ان تصف مجهودات الفلاحين وما يقع على عاتقهم من اعباء وما يبذلونه من جهد يفوق طاقاتهم الجسمانية فى بناء القناطر والجسور ، وشق الترع ، وما يلاقونه من ظلم تكتفى آخر المطاف بنشر مقالات مزيفة ومشوهة للحقائق تصف فيها كفاح حكومة محمد على وسهرها المستمر على تقدم وعمران مصر . وفى هذا الصدد يقول ابراهيم عبده « والوقائع المصرية ... هى الميدان الفسيح لمدحه « اى الباشا) والثناء عليه ، وهكذا تعطى الوقائع المصرية بمقالاتها واخبارها صورة للحكومة العادلة القادرة المجددة » (١) .

---

(١) دكتور ابراهيم عبده تطور الصحافة المصرية (١٧٩٨ - ١٩٥١) ط ٣ القاهرة ص ٣٣ .

هذا ويبلغ طول ترعه المحمودية ٨٠٢٥٢ مترا ، اما نفقات حفرها فتقدر بـ ٣٠٠ الف جنيه حسب تقدير كلوت بك ، واما المهندس الذى كلف بانجاز تصميم حفرها فهو المهندس الفرنسى كوست Coste وقد ذكر الجبرتى انتهاء حفر الترعة فى حوادث ربيع الاول سنة ١٢٣٥ هـ (ديسمبر ١٨١٩) وانهى ما كتبه بقوله : « ورجع المهندسون والفلاحون الى بلادهم بعدما هلك معظمهم » .

واحتفل بفتح الترعة لدخول مياه النيل الى الاسكندرية فى ٢٤ يناير سنة ١٨٢٠ وذلك بمحضر الباشا وابنه ابراهيم وبعض اقربائه الآخرين .

ولم يكن هدف محمد على من فتح هذه الترعة تسهيل الملاحة بين مختلف اقاليم القطر وجهة الاسكندرية ، أو توفير الماء الكافى لاهالى تلك المنطقة فحسب ، وانما كان البشا يريد على ما ذكره عبد الرحمن الرافعى « احياء الاراضى الزراعية فى مديرية البحيرة . وقد كانت هذه المنطقة قبل تشييد الترعة عبارة عن صحراء جرداء من منبع الى مصب الترعة ، لا يسودها اخضرار ولا ينبت فيها زرع ، الا انها سرعان ما تحولت بعد تدفق مياه النيل اليها ، فاخذت الحياة تدب فى ارجائها طولا وعرضا » .

وقد زار المارشال (مارمون) هذه الجهات سنة ١٨٣٤ فاستوقفه ما شاهده من الحدائق الغناء المنشاه بعد فتح ترعة المحمودية ، وكان يعرف حالة الاسكندرية وضواحيها مذ كان قومندانا للثغر فى عهد الحملة الفرنسية فاستطاع ان يدرك الفارق العظيم بين حالتها القديمة وما اوجدته الترعة بها من العمران والتقدم .

فمن خلال هذه الفقرة يتضح لنا اذن انه بعدما لم يبق من الاسكندرية القديمة سوى الاسم أواخر القرن الثامن عشر والاطلال والخرائب ، لما آل اليه سكانها من الفقر والحاجة ، تحولت فجاة بعهد فتح الترعة الى مدينة آهلة بالسكان مسترجعة بذلك نضارتها وعظمتها التى فقدتها منذ قرون خلت .

فمن ناحية المواصلات ، صارت السفن والبواخر المصرية المعدة للملاحة النهرية لا ينقطع جريانها بين الاسكندرية ودمنهور وبعض المناطق الداخلية عبر هذه الترعة . وهي محملة بمختلف حاصلات البلاد فازدهرت حركة التجارة نتيجة لذلك ازدهارا عظيما ، واصبحت البضائع تصل فى مأمن من كل خطر من أخطار الملاحة .

اما من ناحية العمران ، فقد اتسعت رقعة المدينة وعمرت مساحات شاسعة واراضى كثيرة على جنابى الترعة ، هذه الترعة التى كانت سببا ايضا فى رقى اقليم البحيرة واحياء راضيه اذ ساعدت مياهها على الاكثار من التشجير والحدائق والبساتين الغناء . ومما يؤكد هذا ما ذكره عبد الرحمن الرافعى بقوله : « فحيثما ذهبت تجد معالم العمران المترامى مداه وتلمح دلائل الحياة والنشاط والتقدم مرتسمة على كل ما يقع عليه نظرك من مشاهد الطبيعة والخلائق » ، ويضيف قائلا واذا سرحت الطرف فى تلك المناظر البهجة فاذكر ان الفضل فى ذلك العمران يرجع لمن حفروا بايديهم ترعة المحمودية وبذلوا مهجهم وارواحهم حتى جرى ماء النيل فى تلك النواحى حاملا الى ... الناس ... عناصر الخصب والحياة » (١) .

ولم يكتف محمد على بانشاء الترع فحسب بل اقام عليها القناطر لضبط مياهها وضمان كيفية توزيعها على احسن وجه ، وقد تعددت هذه القناطر بتعدد الترع واهمها القنطرة الكبرى على بحر مويس بالزقازيق ذات العيون التسع ، لكنها لا تصل كلها الى مكانة القناطر الخيرية التى تعد بحق من اعظم منجزات ذلك العصر (وان كان انجازها لم يتم بصورة فعلية الا بعد ذلك) .

القناطر الخيرية :

لقد كان نظام الرى المتبع حتى مجىء محمد على هو رى الحياض الذى يعتمد بالدرجة الاولى على مياه الفيضان . وبهذا كان لا يساعد

---

(١) على شافعى بك - المصدر السابق ص ٢٨ - ٣١ والرافعى ص ٥٧٦ .

على اقامة الزراعات الصيفية ولا يسمح بزراعة الارض الا مرة واحدة خلال السنة فقط ، وبهذا كانت الزراعة السائدة حتى ذلك الحين هي الزرعه الشتوية ، اما الصيفية فكانت لا تزرع الا على شواطىء النيل أو ضفاف الترع المتفرعة عنها

فعمل محمد على على ادخال نظام الرى الصيفى تدريجيا وذلك بالاكثار من حفر الترع وتطهيرها مما كان يرسب فى قاعها من الطمى كل سنة ، واقامة القناطر عليها ٠

هذا وقد كان لهذه القناطر نتائج جد هامة اذ سمحت بانتشار زراعة القطن على نطاق واسع بالوجه البحرى ، وغيره من الحاصلات الصيفية التى كانت تنمو نظرا لوفرة المياه لريها وقت الجفاف كزراعة الأرز وقصب السكر ٠

فلما رأى الباشا فوائد هذه القناطر اخذ يفكر فى وسيلة اخرى تمكنه من ايصال المياه اللازمة الى الاراضى المزروعة بالوجه البحرى أيام الجفاف ، فاقترح عليه المهندس الفرنسى لينان دى بلفون Linant de Bellefonds اقامة قناطر على فرعى النيل قرب تفرعهما ٠

والراجح ان مهندسى الحملة الفرنسية كانوا اول من خطرت ببالهم فكرة انشاء القناطر لحجز المياه للاستفادة منها فى رى الاراضى وقت الحاجة ٠ وقد دون ذلك نابليون بونابرت فى مذكراته حيث قال : « انه لو اعطى لى الوقت الكافى لانشأت من الاعمال ما يكفل عدم ذهاب قطرة واحدة من مياه هذا النهر الى البحر دون ان تكون هذه المياه قد مرت من قبل بالارض حتى ترويها وتهيء لها قدرا موفورا من الخصب » (١) ٠

الا ان الاراء تختلف حول من يكون صاحب الفكرة الاولى فى انشاء القناطر ، فكلوت بك يرى فى كتاب (لمحة عامة الى مصر) انه من المقطوع به ان المهندسين الذين كانوا فى خدمة الباشا اطلعوه على

---

(١) على شافعى بك ــ المصدر السابق ص ٤٧ و د ٠ فؤاد شكرى ص ٤٤ ٠

المشروع الذى جــال بخاطر مهندسى الحملة الفرنسـية والابحاث العلمية التى قاموا بهـا توطئة لتنفيذه ·

فى حين يرى لينان باشا انه لـم يكن لدى محمـد على اى علــم او دراسـة بمـا قاله نابليون ، وهـذا الراى كمـا يظهـر يناقض ما اعترف به كلوت بك واكــده ·

وسواء اكانت الفكرة من وحى محمـد على حقـا أم لـم تكن ، فانـه على كل حال قد أصـدر اوامره فى أواخر عام ١٨٣٣ للبدء فى العمل حسب التصميم الذى قدمه (لينـان باشـا) كبير مهندسيه وبانى ومرمم قنطرتى اللاهـون القديمـة وقنطرة بحـر شبين ، الا ان العمـل سرعـان ما اوقف بعـد قليل وبقى على تلك الحالة حتى سنة ١٨٤٢ حينما استؤنف من جديد تحت اشراف المسـيو موجيـل Mougelç الذى قـدم للباشـا تصميمـا جديدا يختلف عن تصميم المسيو لينان الذى كان يرى اقامة القنـاطر على الارض اليابسـة بعيدا عن فرعى النيـل ، واختـار لتطبيق مشروعـه قطعتين بين ملتويين ملتويـات من ملتويـات فـرعى النيـل حتى اذا تم انشـاؤهـا حول الفرعين اليهـا بحفـر مجريين جديدين ·

أما مشروع موجيـل فيقتضى اقامـة القناطر مباشرة فى حوض النهـر على القطعة التى بجانب قمة الدلتـا المعروفـة ببطن البقـرة ، حيث يتفرع فرعـا النيـل : الاول فى اتجـاه رشـيد ، والثانى فى اتجـاه دمياط ·

والحقيقة انه كان فى التخلى عن مخطط لينـان وهو العـالم والعارف باحوال الرى فى مصر خسـارة كبيرة على البلاد لا يمكن حصرهـا ليس فقط من ناحيـة مصاريف اصلاح القناطـر من حين لاخر او استبدالهـا ببناء قناطر أخرى جديدة على احـدث الطرق ، بـل من ضياع الفرصـة على مصر للاستفـادة من زراعـة القطن طويل التيلة ، هذا بالاضـافة الى المتاعب الكبرى اثنـاء عمليـات حفر الاساسـات وما يتبعهـا من مشـقة وارهاق للناس ·

هذا وعلى الرغم من أن بعض الباحثين ادعوا أن بناء قناطر كبرى من هذا النوع يتطلب نفقات باهظة فى حين تبقى فوائدها ومدى نجاحها امرا يثير الاستفهام ، فان القناطر قد اقيمت على النيل وعادت بالنفع العميم على البلاد واهلها ، وتم تنفيذ مشروع موجيل بمساعدة المهندسين المصريين المتخرجين من البعثات التعليمية مصطفى بهجت باشا ومظهر باشا .

ووضع محمد على الحجر الاساسى للقناطر الخيرية فى احتفال عظيم يوم الجمعة ٢٣ ربيع الثانى سنة ١٢٦٣ هـ - ٩ أبريل سنة ١٨٤٧ ، ولكن العمل كان قد بدا قبل ذلك التاريخ ، واستمر العمل فى المشروع ولكنه سار ببطء شديد نظرا لما اعترى جهاز الحكومة من ركود أواخر ايام محمد على الذى مات قبل ان يتم المشروع الذى تقلب فى عدة ادوار قبل أن يتم فى اواخر عهد سعيد باشا عام ١٨٦١ ، وقد انشىء رياح المنوفية ايضا فى عهده (١) .

وبعد ان تم بناء القناطر وجد انها لم تات مكتملة كما كان يرجى منها ، اذ حدث تصدع ببعض اجزائها ايام حكم اسماعيل فأدخلت عليها عدة اصلاحات طبقا لآراء موجيل وكان قد غادر مصر الى فرنسا - وبهجت باشا ومظهر باشا ثم اعيد اصلاحها مرة ثانية فى العصر الحديث لتقويتها وقد رجعت الحكومة الى راى موجيل فى هذا الاصلاح. وجاء مصر وكان قد بلغ الخامسة والسبعين من سنة فعينته الحكومة مهندسا ومستشارا للقناطر ، فتم الترميم اذن وفقا لارشاداته ، وبهذا يكون موجيل قد عاصر القناطر منذ نشأتها حتى اتمام بنائها .

وقد بقيت القناطر الخيرية قائمة تشهد على قوة وصلابة ارادة الشعب المصرى وعزمه ، وقد نوه بعض الكتاب بقيمة هذه القناطر ، ومن هؤلاء المسيو شيلو (Chelu) كبير مهندسى السودان المصرى . والمسيو بارو ، السكرتير العام لوزارة الاشغال ، ننقل رأيهما عن

---

(١) عبد الرحمن الرافعى - المصدر السابق ص ٥٨١ .

المؤرخ عبد الرحمن الرافعى (١) ويقول المسيو شيلو : « أن مشروع القناطر الخيرية كان يعد فى ذلك العهد انه اكبر اعمال الرى فى العالم قاطبة لان فن بناء القناطر على الانهار لم يكن بلغ من التقدم ما بلغه اليوم ، فاقامة القناطر الخيرية بوضعها وفخامتها كان يعد اقداما بداخله شىء من المجازفة » .

وقال المسيو باروا (Baroa) « أن هذه أول مرة اقيمت فيها قناطر كبرى من هذا النوع على نهر كبير » .

فعلى العموم وان كانت القناطر الخيرية آخر ما اختتم به محمد على منجزاته فى ميدان الرى ، فانها تعد بحق من عظم مشروعاته التى أقيمت فى هذا المجال وهى بهذا احدى الاسس الهامة التى يعتمد عليها الرى الصيفى بالوجه البحرى حيث ساهمت بقسط وافر فى توفير السرى الدائم لبعض المحصولات الصيفية كالقطن والارز وغيره ، الشىء الذى سمح بزيادة المساحة المزروعة زيادة ملحوظة ، وهذا ما كان محمد على يهدف للوصول اليه ، اذ قفزت من مليونى فدان فى عام ١٨٢١ كما قدرها كلوت بك الى ٣٫٨٥٦٫٠٠٠ فدان عام ١٨٤٠ (٢) .

وقد كان الباشا حتى حدود عام ١٨٣٠ يفتخر بانه ادخل ٣٨٫٠٠٠ ساقية فى اراضيه الخاصة ، وابتكر الكثير من الناس سواقى تدار بدون دواب واخرى تدار بقوة الهواء ، نظرا لقلة تكاليفها ، وقد استعمل ابراهيم باشا مضخات تدار بالبخار مما دفع ببعض الملاك الكبار الى تقليده فى ذلك (١) . كما دخلت الدورة الثلاثية عام ١٨٣٣ ، وظهرت الآلات الزراعية الحديثة المستعملة فى بعض المزارع النموذجية واقترن هذا ايضا بعملية انتقاء البذور الجيدة ، واستعمال الاسمدة المخصبة للاراضى ، واختبار مواسم الحصاد ، والعمل على الاحتياط

---

(١) المصدر السابق ص ٥٨٢ .

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى - المصدر السابق ص ٤٧ .

(٣) - دكتور أحمد الحتة تاريخ الزراعة المصرية فى عهد محمد على الكبير - القاهرة دار المعارف ص ٢٧ .

من الافات والطفيليـات التى تقضى على بعض المحصولات كدودة ورقـة القطن أو الجـراد ... الخ ، وتدعيم الارشـاد الزراعى والتوعيـة . وعلى العموم فقـد ادت هـذه الظروف الملائمـة والشروط المتوفـرة الى زيـادة المحصـولات الزراعيـة (٢) .

توسـيع نطـاق الزراعـة

لقـد اولى محمـد على مجـال الزراعـة اهتمامـا بالغـا حيث عنى بهـذا القطـاع الحيوى عنايـة تستحق التقديـر اذ عمـل على ترقيتهـا وتوسيع نطاقاتها المحدودة وذلك بفضـل مـا ادخله عليها من تحسينات جذريـة تستحق الذكـر سواء فى مجـال الرى كمـا تقـدم أو مجـال تطويـر نوعية الانتـاج أو المردود . وسنقتصر هنـا على الحديث عن القطن .

اكتشـاف القطن ذى التيلة الطويلة :

الى حدود سـنة ١٨٢١ كان نوع القطن الذى تغله مصر من نـوع ردىء وهو النوع الشـائع ، الا انـه خـلال هـذه السـنة نفسـهـا حدث انقلاب فى زراعته ، وذلـك ان رجـلا فرنسـيا يدعى جوميـل كان محمـد على قـد استدعـاه من بلاده لتنظيم مصـانع النسيج ، عثـر صدفـة فى حديقـة احـد كبار الحكـام وهو محو بك بالقاهرة على شجيرة للقطن من الصنف الممتـاز ذى التيلة الطويلة ، فنصح محمـد على بتعميم زراعتـه على نطاق واسـع بعدما كان زرعة حكرا على الحدائق الخاصـة ونبهه الى أهميـة هـذا النوع .

« وبتراوح ارتفـاع هـذه الشجيرة بين ستة اقدام وسبعـة وهـى قادرة على الانتاج عدة سـنوات متوالية ويزرع القطن فى الربيع ويمتـد موسم الحصـاد من سبتمبر الى فبراير (١) . وقـد كان اكتشـاف القطن ذى التيلة الطويلة مهما جـدا لمحمـد على ولتنفيذ سـياسته ، اذ اقترن هـذا الاكتشـاف بهبوط أسعار القمح فى الاسواق العاليـة خـلال

---

(١) دكتور محمـد فؤاد شكرى المصدر السابق ص ٤٧ .
(٢) دكتور محمـد فؤاد شكرى المصدر السابق ص ٣١١ .

الفترة الممتدة ما بين ١٨١٨ و ١٨٢٠ الشيء الذى جعل محمد على
حاجة ماسة الى الاموال التي يسدد بها كل ما تتطلبه البلاد من مشروع
اصلاحية كبرى كتعبيد الطرق وتسديد نفقات التعليم والبعث
التعليمية المصرية التى ارسلها الى مختلف دول أوربا واقتناء الآلا
الزراعية والصناعية الحديثة وجلب الاسلحة المتطورة ، هذا بالاضافة
الى منجزات الري الكبرى من شق الترع واقامة الجسور وبناء القنا
وغيرها .

وقد كان الباشا يعى مدى خطورة هذا الوضع الاقتصادى ، و
كان يتمنى ان يصنع القطن فى مصر البلاد المنتج عوضا عن ان يصد
خاما للدول الاجنبية ، ثم يعود ثانية الى مصر منسوجات (٢) .

هذا وقد عمل محمد على على تشجيع زراعة القطن بكل
الوسائل وبشتى الطرق ، فشجعه باعفاء أرضه من ضريبة الميرى أولا
برفع ثمن شرائه . وقد اشار عبد الرحمن الرافعى الى هذا بقوله
« وقد اقبل الفلاحون على زراعة القطن بعد ان راوا الحكومة تشت
القنطار من النوع الجيد بـ ١٧٥ قرشا ... وشجعت الحكومة زراعة
القطن ايضا بما انشاته من السواقى فى القرى ، وبما فتحت من التر
وأقامت من القناطر والسدود ، فتوافرت مياه الرى اللازمة لزراعته (٣) .

وهكذا فلم تكد تمض بضع سنوات حتى انتشر هذا النوع
القطن الممتاز فى كافة انحاء القطر المصرى وصار يعرف باسم
قطن محو بك ، نسبة الى صاحب الحديقة التى وجد بها اول مرة
أو باسم قطن جومل Jumle نسبة الى مكتشفه .

وقد بلغ اول محصول من هذا القطن عشرين الف بالة راجت سوقه
وأتت بربح كبير ، فاقبل الباشا على زراعته حتى بلغ محصو

---

(١) - دكتور أحمد عزت عبد الكريم - المصدر السابق ص ٢٤٩
(٢) عبد الرحمن الرافعى - المصدر السابق ص ٥٨٥ .

هـذا النوع من القطن فى العـام التالى مائتى ألف بالة جـاءت بايراد بلغ ثلاثين مليونـا من القروش » ٠

وقـد ارتفعت صادراته ووصلت الى ٢٠٠ر٠٠٠ قنطـار عام ١٨٢٤ ثم الى ٣٤٥ر٠٠٠ قنطار عـام ١٨٤٥ ٠ ويقـول المسـيو مانجـان ان الحكومة انقصت سعر مشترى القطن حوالى سنة ١٨٣٧ ممـا حدا بالفلاحين الى التراخى فى زراعته و « علاوة على هـذا فقـد كان لعمليـة التجنيد آثارا وخيمة ايضـا على محصول القطن ، وهـذا ما عبر عنه محمـد فؤاد شـكرى بقوله : « غير ان محصول القطن الجديد لـم يلبث أن اخـذ يقـل فى الاعوام التاليـة لان الباشـا أكثـر من تجنيـد الفلاحين فى جيشـه ، فقلت الايدى العاملة فى الزراعـة ونقص محصول القطن تبعـا لذلك حتى بلـغ (١٦٠ر٠٠٠) بالة فى عـام ١٨٣١ » (١) ٠

ولم يكتف محمد على بهذا النوع وحـده ، انما جلب بذورا أخـرى من الهند ، ثـم من امريكـا ، وهو قطن (سرايلانـد) ومنـذ ذلك الحين اخذ القطن المصرى ينافس قطن البنغال وامريكا وتهافتت على طلب شرائه الدول المصنعة وكافـة مصانع النسيج فى فرنسـا وانجلترا ٠ وقـد احتكرت الحكومـة بيعه طبقـا لنظـام الاحتكـار الذى سبق ان اشرت اليه ٠ هـذا من جهـة اما اذا اردنـا ان نقيم مجهود وفضـل محمـد على على مصر فى تطويـر زراعـة القطن ، فمن الواجب علينـا ان ندرس اليوم وقـد ابتعدنـا عن الحقبة الزمنيـة التى عاش فيهـا محمـد على باكثـر من قرن وربـع ، المرتبة التى وصـل اليهـا هـذا النوع اذ لا احـد ينكـر ان هـذا الصنف اصبح معروفـا فى عالم التجارة بانه من أجود أنواع القطن فى العالم من حيث طول التيلة وقوة المقاومـة ودرجـة اللمعـان ، واذا علمنا هـذا فلا غرابة اذن أن نعلم ايضـا ان مصر اليـوم تعـد أول دولـة منتجة لهـذا النـوع ، اذ يبلغ انتاجهـا نصف الانتاج العالمى ، ويمثـل القطن بصفـة عامة نصف الصادرات المصريـة ، وبهـذا فهو عمـاد ثروتهـا « وذهبهـا الابيض » كمـا يسميـه البعض ٠

---

(١) دكتور محمـد فؤاد شكرى — المصدر السابق ص ٣٨ ٠

الزراعـــة فى مصر
بعد عصر محمـد على

تعتبر فترة حكم عباس وسـعيد فترة هبوط مكملة للفترة التى انتكست فيهـا مصر بعـد سنة ١٨٤٠ ، بالرغم ممـا نال الفلاح من زيـادة فى الحرية الاقتصـاديـة بامتلاكـه غلات الارض وزيـادة حقوقه فى التمليك وترقيـة وسائل الرى ·

وكان عصر اسماعيل مدرسة للاساليب الزراعيـة التى اصبحت نواة لسياسة زراعية لا تزال خطوطها الرئيسية واضحـة الى الوقت الحاضر · كذلك شاهد عصر اسماعيل تقدمـا فى النهضة الزراعيـة التى ظهرت فى زيـادة مسـاحة الاراضى القابلة للزراعـة وفى زيادة الانتـاج والعنايـــة بالماشـية وتقرير اساليب التفتيش الزراعى وفى توجيـه التعليم الزراعى ·

وقد شجع اسماعيل انشـاء الحدائق ، وعلم الاهالى فلاحـة لبساتين التى كانت ناقصـة فى البلاد ، وكذلك ادخـل اشجار الفاكهـة والزهور ·

وقـد ادى نجاح حقول تجارب فلاحة البساتين الى انشـاء حـدائق الجيزة (التى تعتبر الاورمان جزءا منهـا) وحدائق الجزيرة (التى بقى منها حدائق الاسـماك والزهرية) وحديقـة الازبكيـة ، وحديقـة النزهـة بالاسكندريـة ، كمـا انشـا حديقـة الحيوان فى مصر وهى نواة حديقة الحيوان الحالية بالجيزة ·

واستورد اسماعيل اشجار الموالح والعنب ، فانشـا فى الجيزة حديقـة الليمون ، وغرس بهـا اشجار البرتقـال والعنب التى جلبهـا من قبرص وايطاليـا واليونان وفرنسـا ، واهتم باشجار الغابات وغرسهـا بالقـرب من الاسكندرية فى مساحة تبلغ الف فدان ، كما غرس اشـجارا فى الطرق الزراعيـة ·

وقـد سببت العناية بالقطن والاهتمـام بالغـلات النقديـة التى تدر المال على المزارعين انهم اهملوا علف الماشية ، فنقص عددهـا نقصـا عظيمـا ،

كمـا سبب الطاعون الذى كان يتردد من آن لآخر زيـادة الشعور بالنقص الكبير فى الماشـــية ·

وفى سنة ١٨٦٤ حل اسماعيل هـذه الازمـة باستيراد الماشـــية من الخارج ، وبذلك انفرجت الازمـة التى كانت تهـدد البلاد والزراعـة بالخراب·

عمد اسماعيل الى وضع اثمان هـذه الماشـــية وتوزيعهـا على المزارعين بالتقســيط ، فسبب هـذا ضيقـا ماليـا للحكومـة يقابله نفـع للاهالى ·

أما فى بدايـة الاحتلال البريطانى لمصر ، فقـد وجه الانجليز البلاد نحو سياسـة زراعيـة خاصـة تتمثـل فى الاهتمـام بالرى ووسائله وزراعـة القطن الذى اهتم بـه الفلاح وزاد من انتـاجه لانــه اصبح المورد الــذى يعتمـد عليــه دخله اعتمادا كليـا ، ووضع الانجليز سياسة خاصـة تزيـد من هـذا الاهتمـام ، فاشتروا من الفلاح محصول القطن باسـعار معقولة ، فاصبح لا يفكـر فى تصريفه وتوزيعـة والبحث عن أسواقـه ، وبذلــك فرضت هـذه السياسـة تبعيـة القطن امرى واسواقه لانجلترا وبخاصة اســواق لا نشكير ومصانعها (١) ·

التجارة المصرية فى عهد محمد على

اعتنق محمـد على مبدأ السياسة التجـارية أى محاولة المحـافظة على الذهب فى الداخل عن طريق الاقلال من الواردات والعمل على زيادة الصادرات · فالاســتهلاك من أى سلعة = الانتــاج + الاستيراد ، وكلما زاد الانتاج من هذه السلعة قل الاستيراد أى أن الباشا أراد أن يجعل الميزان التجارى دائما فى صالح مصر وذلك بان تكون قيمة الصـــادرات أكبر من قيمة الوردات · ثم تطور الامر الى سياسة لاحتكار ومراقبة الدولة تماما للتجارة الداخلية والخارجية ، وهذا النظام وان قلل من مكاسب الافراد فانه عاد بالنفع الكبير على الدولة ·

---

(١) دكتور أمين مصطفى عفيفى عبد اللاه المصدر الســابق ص ٦٣ - ٦٥ ·

ومنذ سنة ١٨١٠ بدأ محمد على فى جمع الضرائب الزراعية عينا اى من المحصولات • فكان المزارعون يوردون كميات معينة من الغلات الزراعية الى (شونة) الحكومة • وكانت الحكومة تقرر تسعيرة تنظم بها المعاملات وتضبط حركة السوق ، كما كان كان مجلس الشورى يتولى تقدير تسعيرة الحكومة لكافة المحصولات •

وبطبيعة الحال ، كانت تسعيرة مشتريات الحكومة من الفلاحين أقل من التسعيرة التى تبيع بها الحكومة للاهالى • هذا بالاضافة الى تسعيرة ثالثة تبيع بها الحكومة للتجار والمصدرين ، وكانت بلا ريب أعلى من تبيع بها الحكومة للتجار والمصدرين ، وكانت بلا ريب على من التسعيرتين السابقتين • وبالتالى امتلأت الخزانة المصرية بالاموال كنتيجة لهذه السياسة •

واختص ديوان التجارة بوضع تسعيرة الصادرات وان كان المسيطر فعلا على هذا الديوان هو محمد على شخصيا • كما تولى الوكلاء التجاريون الذين عينهم محمد على البيع فى موانىء الدول الكبرى •

وفى الفترة الاولى من حكم الباشا ، لم يكن هناك قانون لتنظيم ديون التجار ، وان كان الباشا قد شكل بعض اللجان للتحقيق فى أسباب خسائر بعض التجار وعجزهم عن دفع ديونهم • وكان محمد على يتخذ اسلوبا حاسما مع المتلاعبين أو المتهربين من دفع الضرائب ، اذ يتم القبض عليهم ، كما كان يقرر الجزاء بعد ثبوت التهمة وهو الحبس أو الجلد والتعذيب ، وذلك مع الزام التاجر بدفع المبالغ المستحقة عليه • وقد يأمر الباشا ببيع ممتلكات التاجر ليوفى من ثمنها ما على التاجر من ديون ومستحقات •

أما المنازعات التى كانت تقوم بين التجار أنفسهم ، فكانت تعرض على مجالس التجار لدراستها ، ثم تفحص دفاتر التجار ، وتصدر الأوامر والاحكام حسب الأصول المرعية • وهناك عدة مجالس للتجار منها مجلس تجار المحروسة (القاهرة) ومجلس تجار دمياط ومجلس تجار الاسكندرية •

أما ديوان التجار الذى أنشأه الباشا بالاسكندرية سنة ١٨١٥ ،فانه كان بمثابة همزة الوصل بين التجار والمصدرين والحكومة ، أو هو الادارة الحكومية التى يستطيع التجار أن يتعاقدوا معها لشراء الصفقات وبخاصة محصول القطن والقمح وغيرها من الغلات المصرية التى كانت تصـــدر الى الاسواق الخارجية ، ولهذا عد هذا الديون الادارة المختصة بحركة الصادرات للمصرية .

والواقع أن (الامبراطورية المصرية) فى عصر محمد على أفادت الباشا كثيرا لأنها كانت بمثابة السوق الواسعة للصادرات المصرية ، فهناك أسواق كريت والشام والحجاز واليمن والسودان ، كما أنه حصل على سلع خاصة من هذه الامبراطورية كالبن من اليمن والصوف والتيلة والاخشاب والصمغ والماشية من السودان والحرير والزيتون والاخشاب من الشام والاغنام وزيت الزيتون من كـــريت .

ولم يتوقف ازدهار التجارة المصريه عند حد الامبراطورية المصرية ، بل امتد الى اســـواق تركيا ، فقد توجهت الدولة العثمانية نفســها الى مصر لتحصل على ما تريد منها من انتاج زراعى وصناعى وحربى .

علاوة على ذلك ، فانه تم تصدير القمح والارز والشعير والفول والقطن والكتان والمواد المصنوعة الى الدول الكبرى فى العالم كانجلترا وفرنســـا والروسيا والنمســـا . وفى المقابل اســـتوردت مصر من هذه الدول الفحم والحديد والمصانع .

وفى جميع الاحوال كان الباشا حريصا على أن تكون قيمة الصـــادرات اكبر من قيمة الواردات . فكان الميزان التجارى دائما فى صـــالح مصر . وهذا دليل واضح على أن السياسة التى رســـمها محمد على كانت ناجحة تمـــاما . .

ولكن دول أوربا وعلى رأسها انجلترا كانت فى ذلك الوقت قد حققت ثورة صناعية كبرى ، وكانت محتاجة الى أسواق الشرق الأوسط ، وهـــذا والى يابى الا أن يطرد انجلترا من أسواقها السابقة ، مما جعل الرأسمالية

الانجليزية تضيق ذرعا وتشعر بمدى الخســائر التى وقعت لها على يد محمد على . ولما كان الباشا يابى ان يخضع لأى ضــغط انجليزى ، فان الانجليز ضغطوا على تركيا - صاحبة السيادة الشرعية على مصر - وعقدوا معها اتفاقية تجارية (بلطة ليمان) سنة ١٨٣٨ تنص على معاملة بريطانيا معاملة خاصــة ، وعلى الغاء الاحتكارات ، وأن تكون الضرائب ١٢٪ على الصادرات و ٥٪ على الوردات ، ولم يأبه محمد على لهذه المعــاهدة فى أول الأمر ، الا انه فى اعقاب تســوية لندن ١٨٤٠ واتفاقية ١٨٤١ اضطر الى الغاء الاحتكار على مراحل اعتبارا من ١٨٤٢ .

ونتيجة لسياسة الغاء الاحتكار صدرت لائحــة ١٨٤٥ لترتيب زراعة الاراضى بطريقة الاشتراك مع « الميرى » على أن يصــبح للفلاح جزء من المحصول . ثم أصدرت الحكومة لائحة جديدة سنة ١٨٤٦ خاصة بامتلاك الأرض ، وهى اللائحة الاولى من لوائح تمليك الأرض فى مصر الحديثة ، واباحت هذه اللائحة حرية التعامل فى الأراضى التى يزرعها الفلاح ، فله أن يتنازل عنها لغيره أو يرهنها .

والواقع ان الانتاج الزراعى زاد فى هــذه الفترة زيادة كبيرة لاسباب منها اطمئنان الفلاح على ما يمتلكه من أرض ، واستطاعته بيع محصولاته ، واهتمام الحكومة بشئون الرى ، وتحسن اســعار القطن ، وزيادة الانتاج الزراعى بزيادة مساحة الأرض المزروعة .

اما بعد عصر محمد على ، وبالتحديد فى عصر اســماعيل فقد حدثت ثورة فى عالم النقل ، فانشئت السكك الحديدية ، واسست شركات الملاحة ، وقد أثر ذلك كله على تجارة مصر الداخلية والخارجية .

الفصل الثالث

عصر اسماعيل

أدت الازمة الدولية التى اثارها النـــزاع بين محمد على والســلطان العثمانى ، وتدخل أوربا بين الطرفين الى ان ينتهى الموقف بمعاهدة لندن فى ١٥ مايو ١٨٤٠ ثم تسوية ١٨٤١ ٠ وأصبحت مصر بذلك تحت السيادة الفعلية لتركيا حتى سنة ١٨٨٢ ، ثم تحت السيادة الشـــكلية منذ ذلك التاريخ حتى سنة ١٩١٤ وهو تاريخ اعلان الحماية البريطانية على مصر ، وان كانت تركيا لم تتنازل نهائيا عن ادعاءات السيادة على مصر الا بعد توقيع معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ (١) ٠

وقد حددت تسوية ١٨٤٠ ـ ١٨٤١ نظام ولاية العرش فى مصر بشكل وراثى فى أسرة محمـــد على طبقا لقاعدة الســـن ولما أحس محمـــد على بالشـــيخوخة (٢) تنازل عن الحكم لابنـــه ابراهيم باشـــا أكبر أفراد الأسرة سنا ٠ الا أن ابراهيم لم يلبث فى السلطة سوى عشرة شهور أنتقل بعدها الى جوار ربه فى نفس العام (١٨٤٩) ٠

وقد تولى بعد ابراهيم باشا عباس الاول ابن طوسون ، واستمر يحكم لمدة خمس سنوات ، وبعد وفاته انتقل الحكم الى سعيد باشا سنة ١٨٥٤ ومات سعيد سنة ١٨٦٣ ، وتولى الحكم اسماعيل باسا فى ١٨ يناير من نفس العـــام ٠

ولم يكن اسماعيل ولبا للعهد ، فقد كانت الولاية لاخيه أحمد الذى

---

(١) د ٠ أحمـــد عبد الرحيم مصطفى ـ مصر والمســـألة المصرية (١٨٧٦ ـ ١٨٨٢) دار المعارف ١٩٦٥ ص ٩

(٢) ولد محمد على سنة ١٧٦٩ ٠ وتوفى سنة ١٨٤٩ ٠

كان أكبر منه سنا · ولكن حادثا مروعا أودى بحيـــاة هذا الأمير وأدى الى احلال اسماعيل محله فى ولاية العهد (١) ·

علاقته بالدولة العثمانية :

حاول اســـماعيل توسيع استقلال مصر وكسب الكثير من الحقوق من الدولة صاحبة السيادة على مصر حتى يصل بالبلاد الى الاستقلال ، أى أنه أراد اكمال العمل الذى بدأه محمد على ، وان كان اسماعيل قد اختار سبيل دفع الأموال ، أما محمد على فقد أراد الاستقلال بمصر باللجوء الى السلاح ·

وقد بذل اسماعيل تضحيات مالية كبيرة للحصـــول على الامتيازات التي نالها · فالدولة العثمانية لم تكن لتصـدر فرمانا الا مقابل الأمــوال الطائلة · وقد بدأ اسماعيل حكمه بالتقرب الى الســـلطان عبد العزيز · ونتيجة لهذه السياسة حقق عن طـــريق دفع الأموال تغيير نظام توارث العرش الى أكبر أفراد اسرة محمـــد على سنا · ولكن بأموال اســـماعيل استطاع أن يجعل وريث العرش هو أكبر انجاله طبقا لفرمان مايو ١٨٦٦ · كما تضـــمن هذا الفرمان أيضـــا امكان زيادة الجيش المصرى الى ٣٠٫٠٠٠ جندى · كما أن اسماعيل حصل على فرمان آخـــر سنة ١٨٦٧ يخول له ولخلفائه من بعده لقب خديو بعد أن كان واليا فقط ، وأقر هذا الفرمان حق الحـــكومة المصرية فى ادارة شـــئونها الداخلية والمالية · وحقهـــا فى عقد المعاهدات الخاصة بالجمارك والبريد ·

ولكن اسماعيل كان يريد أن يكون له حق تعيين سفراء لمصر فى الدول الاجنبية ··· وهو حق من حقوق السيادة ، وهكذا بـدأت العلاقات تســوء بين مصر وتركيا عندما قام اسماعيل بدعوة ملوك أوربا الى حضور حفلات افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ دون وساطة الدولة العثمانيه ·

---

(١) تفصيل ذلك انه بعد تولى سعيد باشـــا ، قرر اقامة احتفال فى الاسكندرية يحضره جميع أفراد أسرة محمـــد على ، وكان معظمهم يقيم فى القاهرة · وقد توجه هؤلاء الى الاسكندرية بطريق البحر · وكان من ضمنهم احمد الأخ الاكبر لاسماعيل وولى العهد ، أما اسماعيل فقد كان مريضا ولم يحضر الحفل ، وعند عودة أحمد وبطانته الى القاهرة بقطار خاص ، سقط القطار فى النيل لأن جسر كفر الزيات كان مفتوحا ، وغرق أحمد ومن معه ما عدا الامير حـــليم ·

على أن اسماعيل لم يفقد الوسيلة للتقرب الى السلطان مرة أخرى مستخدما الوسيلة المعروفة أى بذل الاموال ، وخاصة أن تركيا كانت فى ضائقة مالية فى ذلك الوقت ، مما جعله فى النهاية يحصل على فرمان ٨ يونيو ١٨٧٣ الذى منحه حقوقا واسعة ، منها توارث العرش فى أكبر أنجال الخديو وأن املاك مصر تشمل السودان وسواكن ومصوع ، وحق الحكومة المصرية فى سن القوانين وعقد الاتفاقات التجارية ، وكذلك حق الاقتراض من الخارج وزيادة الجيش وبناء السفن الحربية ٠

الزراعـة :

اهتم اسماعيل بالزراعة اهتماما فائقا فشـق الكثير من الترع فى الوجهين البحرى والقبلى وبلغ عـدد الترع التى حفرت وأصلحت فى عصره ١١٢ ترعة واهمها الترعة الابراهيمية والترعة الاسماعيلية ٠

وكان القطن من المحصولات التى وجه اليها اسماعيل كـل اهتماماتـه بسبب توقف تصـدير القطن الامريكى أثنـاء الحـرب الاهلية الامريكية (١٨٦١ ـ ١٨٦٥) وأهمية سد حاجات الدول الاوربية من الاسواق المصرية٠ والواقع انه مع اسـتمرار الحرب الاهلية الامريكية ، فان أسـعار القطن ارتفعت ارتفاعا كبيرا ، مما ادى الى اقبال الفلاحين المصريين على زراعته ، وهكذا زادت الأرض المزروعة قطنا فى مصر ٠

وقد كان لعناية اسماعيل باشا بزراعة القطن اثر ظاهر فى زيادة انتاجه سواء اثناء الحرب الاهلية الامريكية أو بعد انتهائها ، حتى أصبح القطن عماد الاقتصاد القومى فى مصر (١) ٠

كمـا اكثـر اسماعيل من زراعة قصب السكر ، وازدادت عنايته بـه بعد أن تراجعت اسعار القطن عقب انتهـاء الحرب الاهليـة الامريكية (٢) ٠

---

(١) د ٠ السيد رجب حـراز ، المدخل الى تاريخ مصر الحـديث ص ٣٤٩ ٠

(٢) عبد الرحمن الرافعى ـ عصر اسماعيل جـ ٢ ص ١٦ ٠

الصـــناعة :

انشا اسماعيل المعامل الكبرى لصناعة السكر فى الوجه القبلى ، ونتيجة لزيادة الرقعة المزروعة قصبا زادت معامل الســـكر حتى بلغت سبعة عشرة معملا انشئت فى بنى سويف والمنيا وأسيوط وقنا والفيوم .

كما اهتم اسماعيل بمصانع النسيج ، فعادت للعمل من جـــديد (١) وكذلك الحال بالنسبة لمصانع الزجاج والورق وما الى ذلك .

المواصـــلات :

اهتم اسماعيل بالمواصلات كوسيلة ضرورية لتنشيط التجارة ، ولذلك انشا عددا من الكبارى والجسور بلغ عددها ٤٣٠ جسرا منها كوبرى قصر النيل.

كما أن اسماعيل اهتم بالسكك الحديدية ، ومدت فى عصره ١٠٨٥ ميلا من الخطوط الحديدية . وارتبط هذا كله بالرغبة فى تطوير الموانى المصرية وانشاء الخطوط الملاحية . وكان من الاعمال التى ســـهلت الملاحة للسفن ، انشاء الفنارات على سواحل البحر المتوسط والبحـــر الاحمر ، بلغ عددها ١٥ فنـــارا .

وفى عام ١٨٦٣ صـــدر اسماعيل مرســـوما لتاسيس شركة مصرية للملاحة البخارية برأسمال قدره ٤٠٠ر٠٠٠ جنيه وذلك للعمل فى البحـــر الأحمر وأخرى فى البحر المتوسط . وقد تقدمت أعمال هذه الشركة تباعا ، وصار لها فى عام ١٨٦٧ عشر بواخر فى البحر الأحمر واربع عشرة باخرة فى البحر المتوسط ، هذا بالاضافة الى ملكيتها لتســـع وعشرين باخرة فى النيل . وأهم خطوط هـــذه الشركة كانت فى البحر الأحمر بين الســـويس وجدة وينبع وسواكن ومصوع . أما فى البحر المتوسط ، فان حقوقها كانت تمتد الى الآستانة وازمير ويافا وحيفا وبيروت ورودس وغيرها .

غير أن الخسائر سرعان ما لحقت الشركه بسبب أزمة القطن سنة ١٨٦٥ وبسبب الازمات المالية المتتالية ، فقلت أرباحها وساءت حالتها تماما فى عام

---

(١) المصدر الســـابق ص ١٩ .

١٨٦٩ . واضطر المساهمون فى مارس ١٨٧٠ الى التنازل عن هذه الشركة الى الحكومة المصرية فى نظير دفع ديون الشركة . وقد انشئت على انقاضها شركة « وابورات البوستة الخديوية » وازدهرت اعمالهـا من جديد الى أن اشترتها شركة انجليزية بعد الاحتلال البريطانى لمصر (١) .

البريد والبـرق :

نظم البريد فى عصر اسماعيل ، وانشئت المكاتب البريدية فى عصره حتى صار عددها ٢١٠ مكتبا (٢) كما تألفت شبكة تلغرافية فى أنحاء مصر، ومد خط الى السودان ، وبلغ طول الخطوط التلغـرافية سنة ١٨٧٢ حوالى ٥٥٨٢ كيلومترا . وبلغ عدد المكاتب التلغرافية ١٥١ مكتبا منها ٨٦ بالوجه البحرى ، ٤٤ بالوجه القبلى و ٢١ بالسودان .

وأنشأت شركة انجليزية فى عهده خطا تلغرافيا بحريا من الاسكندرية الى مالطة وصقلية فاوربا ، وخطا آخـر من الاسكندرية الى السـويس فعدن والهنـد (٣) .

العمـران :

دخل اسماعيل الكثير من التحسينات على القاهرة ، فانشـا المبادىء الكبرى ، وردم البرك وانشا مكانها القصور والبساتين ، ورصف الطرق حتى سهل الانتقال بين اطراف المدينة .

واعتبارا من سنة ١٨٦٧ ، اهتم اسماعيل « بالازبكية » اهتماما كبيرا وحولها الى مجموعة من الحدائق والجداول ، على غرار الحدائق الفرنسية .

كما قام اسماعيل ببناء الاوبرا ، وانشـا كوبرى قصر النيل ليصـل الجزيرة بالقاهرة . كما شيد اسماعيل الطريق المعبد بين القاهرة والاهرام ،

---

(١) د . السيد رجب حراز ـ المصدر السابق ص ٣٥٥ .
(٢) عبد الرحمن الرافعى ـ عصر اسماعيل جـ ٢ ص ٢٤ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٢ ، ص ٢٣ .

ورصفه بالحجارة سنة ١٨٦٩ بمناسبة زيارة الامبراطورة أوجيني لحضور حفل افتتاح قناة السويس . وفى عهد اسماعيل ، تم توصيل انابيب المياه الى احياء المدينة لتوزيع مياه النيل العذبة فى المنازل بعد أن كان يملؤها السقاءون فى القرب .

كما عنى اسماعيل بنظافة القاهرة ، وانارها بغاز الاستصباح ، فاكسبها بالليل رونقا وجمالا ، كما ساعدت الانوار الليلية على حفظ الامن .
ويعتبر اسماعيل أول من شرع فى اقامة تماثيل العظماء فى الميادين ، فهو الذى أمر بصنع التمثالين الكبيرين اللذين يزينان هم ميادين القاهرة والاسكندرية الاول لابراهيم باشا والثانى لمحمد على .

أما الاسكندرية ، فقد أهتم بها الخديو اهتماما فائقا ، وشيد بها عددا من الشوارع الواسعة ، وعهد الخديو الى احدى الشركات الاجنبية لتوصيل المياه العذبة من ترعة المحمودية الى المدينة وتوزيعها بواسطة « وابور مياه الاسكندرية » وانتعشت منطقة الرمل انتعاشا فائقا ، وتم وصلها بالاسكندرية

بخط حديدى ، ويرجع الفضل الى اسماعيل فى جعل الاسكندرية مصيفا للقطر المصرى . كما انشا الخديو حديقة النزهة على ترعة المحمودية وجعلها متنزها عاما ، وأصلح ميناء الاسكندرية كما ابطل دفن الاموات فى المدافن الخاصة بجوار المنازل وداخل المساجد (١) .

وبالنسبة للقصور ، نجد أن أهم القصور التى انشأها اسماعيل قصر عابدين ، وقد جعله المقر الرسمى بدلا من القلعة . وهناك قصر الجيزة وقصر بولاق الدكرور وقصر الجزيرة وقصر القبة وقصر حلوان وقصر الاسماعيلية وقصر الزعفران وسراى الرمل بالاسكندرية .

---

(١) د . صالح رمضان الحياة الاجتماعيه فى عصر اسماعيل ص ١٨ .

التعليم فى عصر اســـماعيل (١)

وضـــع الشـــعور بالحاجة الى نشر التعليم الابتدائى ، عند حكومه الخديوى اسماعيل ، كما أحس بها مجلس شورى النواب ٠

وقد وضع مجلس شورى النواب سنة ١٨٦٧ لاول مرة فى تاريخ التعليم المصرى المبادىء والقرارات الخطيرة التالية : -

أولا : التعليم الابتدائى واجب قومى ، ويجب أن تتعاقد قوى الحكومة والامة فى سبيل نشره ٠

ثانيا : ضرورة تدبير موارد للصرف على التعليم خارج نطاق ميزانية الدولـة ٠

ثالثا : ترتب على ذلك أن دعيت المدارس الابتدائية الجديدة التى أنشئت فى ظل هذا النظام بالمدارس أو المكاتب الاهلية ، تاكيدا لصفتها الاهلية كمعاهد للتعليم الابتدائى الخارج عن ميزانية الحكومة ٠

رابعا : الاعتراف بالمكاتب أو الكتاتيب الاهلية ، وهى معاهد التعليم الاولى الشعبى التى عاشت دهرا طويلا لا يحفل بها السلطان هذا الى ادراك ضرورة اصـــلاحها حتى تصبح تحت اشراف الحكومة وسيلة طيبة لنشر تعليم أولى (٢) ٠

اقتنص على مبارك هذه الفرصة ، وهى تعبئة شعور الامة نحو القيام بالتعليم ، فقام باعداد لائحة لذلك وفى هذا يقول فى خططه « وأعملت فكرى فيما يحصـــل به نشر المعارف وحسن التربية ، وكانت المكاتب الاهلية فى

---

(١) لمزيد من التفصيلات انظر :
دكتور أحمد عزت عبد الكريم - تاريخ التعليم فى مصر ودكتور سمير محمد طه - على باشـــا مبارك مكتبة سعيد رأفت ١٩٨٥ جـامعة عين شمس ٠

(٢) دكتور أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر ج ٢ المجلد الاول ص ٤٥ - ٤٧ ٠

المدن والارياف جارية على العادة القديمة ليس فيها على قلة أهلها الا تعلم القرآن الشريف واقل من القليل من يتممه منهم ويجيد حفظه ويجود ويحسن قراءته مع رداءة الخط فى عامة المكاتب المذكورة فاستحسنت اجراءه على نسق المدارس المنتظمة فحررت لائحة بتنظمها وترتيبها » (١) .

وقدم على مبارك مشروع هذه اللائحة للخديو ، وكان اذ ذاك ناظر لمدرسة المبتديان ، فأحالها الخديو الى لجنة لدراستها ، كما قدم الخديو لهذه اللجنة بيانا بتعداد المكاتب فى مصر والتابع منها لديوان الاوقاف والتابع للأهالى (٢) .

وفى ٩ مايو ١٨٦٨ وافق المجلس الخصوصى على ما جاء باللائحة التى وضعها على مبارك ، والتى ناقشتها لجنة خاصة ، واشتهرت بلائحة رجب (٣) .

وصدق الخديو على تنفيذ هذه اللائحة فى ٤ صفر سنة ١٢٨٥ هـ - ٢٧ مايو سنة ١٨٦٨ م (٤) .

وبدأت بعد ذلك محاولة تنفيذ لائحة رجب ، وكان من نتائج هذه المحاولة أن أنشىء ديوان المكاتب الاهلية فى مارس سنة ١٨٧١ م وقد جعل مستقلا عن ديوان المدارس ثم ألحق به مع احتفاظه بكيانه الخاص ونشط ديوان المكاتب الاهلية لتنظيم المكاتب القائمة وانشاء مكاتب جديدة (٥ كان ينفق عليها من الاوقاف وما يدفع من الاهالى كل حسب مقدرته فظهرت مكاتب كثيرة متعددة .

---

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٥٠ .

(٢) دار الوثائق القومية : دفتر ١٩١٩ (أوامر عربى) ص ١٨٩ رقم ١٢٠ أمر الداخلية فى ١٧ محرم سنة ١٢٨٤ هـ - ٢١ مايو سنة ١٨٦٧ م .

(٣) امين سامى : التعليم فى مصر ص ٣٣ - انظر د . سمير طه ص ٧٨

(٤) دكتور احمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر ج ٢ المجلد الاول ص ٥٩ .

(٥) على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٨٩ .

أما المدارس المركزية فلم تسر على النحو الذى رسمته لائحة رجب ، فظل النظام الداخلى المجانى أساس الحيىة الدراسيية فى المدارس المركزية ، ولكن منذ سنة ١٨٧٢ م فرضت رسوم دراسية بسيطة على التلاميذ (١) . وبدأ بها النظام الخارجى ولكن فى حدود ضيقه (٢) ، وكان عرض على مبارك السير على نظام المدارس الاوربية . وهو ابطال مبدأ المجانية البحتة وتكليف الاهالى بالانفاق على تعليم أولادهم ولو انفاقا يسيرا فى بادىء الامر (٣) يقول فى خططه « وجعلت المصاريف اللازمة للمدارس والمكاتب جارية على وجه يستوجب انتظامها مع خفة الصرف على الديوان فجعل على حسب اقتدارهم من غير تنفيل عليهم واستمالة لقلوبهم واسندعاء على حسب اقتدارهم من غير تثقيل عليهم واستمالة لقلوبهم واستدعاء لرغبتهم ، وجعل لذلك استمارة حفظت فى المدارس وفى كل مكتب وباقى المصروف يصرف من حاصلات الاوقاف الخيرية الموقوفة على المكاتب وغيرها من وجوه الخيرات والمبرات واطيان الوادى بمديرية الشرقية وكان الحسن على المكاتب الاهلية بهذه الاطيان وبعض املاك آلت الى بيت المال من بعض التركات فكان من هذه الموارد يصرف كل ما يلزم لهذه المكاتب بعد الايرادات الجزئية المتحصلة من ذوى الاقتدار من أهل التلاميذ وكان القصد تعويد الناس على الصرف على أولادهم بالتدريج شيئا فشيئا حتى لا يبقى مع توالى الازمان على الحكومة الا ما يختص بالمدارس الخصوصية كالمهندسخانة والطب والادارة ونحوها وأما باقى المدارس فيكون الصرف عليها من الاهالى والاوقاف والاملاك المذكورة ، اذ بذلك تدوم الرغبة وتتسع دائرة التعليم » (٤) .

وتنفيذا لاحكام اللائحة بدأ التفتيش على المدارس لاول مرة فى سنة ١٨٦٩ م (٥) . وعين حماد عبد العاطى مفتشا على المدارس المكتبه - وطبقا

---

(١) دكتور أحمد عزت عبد الكريم تاريخ التعليم فى مصر ج ٢ المجلد الاول ص ٦٠ ، ٦١ .
(٢) أمين سامى : التعليم فى مصر ص ١٩ .
(٣) الياس الايوبى : عصر اسماعيل ج ١ ص ٢٠٠ .
(٤) على مبارك : الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٥٠ .
(٥) وزارة التربية والتعليم : تاريخ وزارة التربية والتعليم ممثلا فى اشخاص وزرائها ص ٣٥ .

للائحة عين مفتش للوجه البحرى وآخر للوجه القبلى وهما البكباشى على افندى فرحات لمدارس الوجه البحرى والصاغقول أغاسى محمد أفندى سليمان مفتشا لمدارس الوجه القبلى ٠

وبدأ المفتشون عملهم فى زيارة المكاتب والتفتيش عن أحوالها ومعلميها وابنيتها ، وكان ديوان المدارس يكتب الى الجهات الادارية لتعاون مفتشيه فى أداء مهمتهم وتنفيذ ما يقترحونه من الغاء بعض المكاتب أو اصلاح بعضها الآخر (١) ٠

أما تعليم البنات ، فالواقع أنه لم تكن هناك مدارس لتعليم البنات قبل عصر اسماعيل ٠ فقد انشئت أول مدرسة لتعليم البنات ، وهى مدرسة السيوفية فى ٣ اغسطس ١٨٧٣ ، وقد ذكر امين سامى انها افتتحت فى يناير سنة ١٨٧٣ - (٢) ،وذلك بعد دعوة رفاعة رافع الطهطاوى لتعليم البنات فى كتابه المرشد الامين للبنات والبنين والمطبوع فى شوال سنة ١٢٨٩ هـ ديسمبر ١٨٧٢ فقد ذكر فى الفصل الثالث من هذا الكتاب تحت عنوان « تشريك البنات مع الصبيان فى التعليم والتعلم وكسب العرفان » أنه « ينبغى صرف الهمة فى تعليم البنات والصبيان معا لحسن معاشرة الازواج فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك فان هذا مما يزيدهن أدبا وعقلا ويجعلهن بالمعارف أهلا ويصلحن به لمشاركة الرجال فى الكلام والرأى فيعظمن فى قلوبهم ويعظم مقامهن لزوال ما فيهن من سخافة العقل والطيش مما ينتج من معاشرة المرأة الجاهلة لمرأة مثلها ويمكن للمرأة عند اقتضاء الحال ان تتعاطى من الاشغال والاعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة ، فان فراغ ايديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالاباطيل وقلوبهن بالاهواء وابتعال الاقاويل فالعمل يصون المرأة عما

---

(١) دكتور احمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر ج ٢ المجلد الاول ص ١٢٨ ، ١٢٩ ٠

لمزيد من التفصيلات انظر دكتور سمير محمد طه المصدر السابق

(٢) أمين سامى : التعليم فى مصر ص ٢٨ ٠

لا يليق وبقربها من الفضيلة واذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال فهى مذمة عظيمـة فى حق النسـاء » (١) ٠

فلا شـك أن الدعوة الى نهضـة المرأة فى مصر ترجـع الى رفاعه الطهطاوى (٢) ويرجع انشـاء اول مدرسة لتعليم البنات فى مصر الى الزوجة الثالثة لاسماعيل (٣) ، تشما آفت خانم افندى على نفقتها الخـاصة (٤) ٠

الصحافة فى عصر اسماعيل

اهتم المصريون بالصحافة فى عصر اسماعيل بعد أن اغفلوها فى الفترة بينه وبين محمد على ٠ واقدم صحيفة مصرية صدرت بعد الوقائع المصرية هى يعسوب الطب وهى مجلة طبية ، ظهـرت فى القاهرة سنة ١٨٦٥ ، وهى اول مجلة من نوعها بالعربية ، ولكنها لم تعمر طويلا (٥) ٠

وانحصرت الصحافة الشعبية فى تلك الفترة فى جريدتى وادى النيل ونزهة الافكار ٠

وجريدة وادى النيل مجلة سياسية علمية أدبية انشأها سنة ١٨٦٦ م عبد الله ابو السعود ناظـر المدرسة الكليه التى اسسها محمد على باشا فى القاهرة (٦) ، وكانت تصدر مرتين فى الاسبوع (٧) ؛

والحقيقة أن جريدة وادى النيـل كانت جريدة شـعبية اسما رسمية فعلا يقول فى ذلك الدكتور ابراهيم عبده « ازدحمت معظم صفحاتها بأخبار

---

(١) رفاعه رافع الطهطاوى . المرشد الامين للبنات والبنين ص ٦٦ ٠
(٢) عبد الرحمن الرافعى . عصر اسماعيل الجزء الثانى ص ٣٢٧ ٠
(٣) دار الوثائق القوميـة محفظة الوقـائع المصريـة رقم ٥ تعليم العدد ٥٧٦ بتاريخ ١٢ شعبان سنه ١٢٩١ هـ - ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٧٤ م٠
(٤) الياس الايوبى ٠ تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل باشا من سنة ١٨٦٣ الى سنه ١٨٧٩ المجلد الاول ص ٢٠٤ ٠
(٥) دكتور سمير طه - المصدر السابق ص ١١٧ ٠
(٦) الفيكونت فيليب دى طرازى ٠ تاريخ الصحافة العربية الجـزء الأول ص ٦٩ ٠
(٧) دكتور عبد اللطيف أحمد حمزه ٠ الصـحافة المصرية فى مائة عام ص ٢٨ ٠

الخديو ورجال حكومته . ولولا أنها أعلنت شعبيتها لظن متصفحها أنها صحيفة رسمية ، فهى صورة للوقائع فى تفكيرها واتجاهها » (١) .

وفى عصر اسماعيل شعر على مبارك بحاجة الأمة عامة وأبناء المدارس خاصة الى صحيفة علمية أدبية فلم يكن فى مصر فى ذلك الوقت غير جريدة وادى النيل والوقائع المصرية (٢) مما سبق التنويه عنه فانشا مجلة روضة المدارس فى سنة ١٨٧٠ وكان اذ ذاك مديرا لديوان المدارس ، فهى صحيفة ديوان المدارس تنفق عليها الحكومة وكان الغرض من انشائها النهوض باللغة العربية واحياء آدابها ونشر المعارف الحديثة وقد جاء فى مقدمة العدد الاول من هذه المجلة ان الغرض من ظهورها هو « ان تنكشف للعامة مخدرات العلوم وترفع حجبها المستورة وتستضىء بنورها ارباب العقول السليمة واصحاب الطبائع المستقيمة » .

دار الكتب المصرية :

ترجع فكرة تاسيس دار الكتب الى عصر محمد على . ويقول عبد الرحمن الرافعى (٣) أن محمد على انشأ مستودعا لبيع مطبوعات الحكومة فى بيت المال القديم خلف المسجد الحسينى ، وذلك عندما تكاثرت الكتب التى تم طبعها فى المطبعة الاهلية .

ونستخلص من الوثائق ان محمد على كان اول من راودته فكرة انشاء دار الكتب ، بل انه رسم طريقة التحفظ على هذه الكتب وطريقة اعارتها واعادتها الى مكانها .

وقد انشئت هذه المكتبة فى تاريخ لاحق لهذه الاجراءات التى امر بها الوالى ، ونقلت الكتب الموجودة فى خزينة الامتعة الى هذه المكتبة الجديدة بجوار مسجد سيدنا الحسين ، وأصبحت تابعة لديوان المدارس (٤) .

---

(١) دكتور ابراهيم عبده ـ تطور الصحافة المصرية ص ٧٧

(٢) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية الجزء الرابع ص ٥٥

(٣) دكتور ابراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية وأثرها فى النهضتين الفكرية والاجتماعية ص ٦١ ، ٦٢ .

(٤) د . سمير محمد طه ـ المصدر السابق ص ١٣٢ ـ ١٣٣

وقد استمرت دار الكتب القديمة حتى عصر اسماعيل ، وأن أوقف نظام الاعارة بها منذ عصر عباس وقد أضاف اسماعيل الى هذه الدار القديمة أو الكتبخانة كما كان يطلق عليها نحو ألفى مجلد من مخطوطات بالعربية والتركية والفارسية ، اشتراها من تركة حسن باشا الموناسترلى أحد كبار رجال عباس الاول (١) .

ومن هذه الكتبخانة القديمة التى قامت فى عصر محمد على واستمرت الى عصر اسماعيل ومن تركة حسن باشا الموناسترلى من الكتب تطورت الفكرة الى انشاء دار عامة للكتب .

على أية حال صدر أمر الخديو بانشاء الكتبخانة الخديوية ، وكلف على مبارك الشيخ راشد افندى شيخ رواق الاتراك ونائب المحكمة الشرعية فى ذلك الوقت بتجميع كتب مساجد الاوقاف وذلك بجمعها من مكاتب المساجد فى مكان واحد ، حتى اذا فرغ من ذلك ، أمر السيد على الببلاوى فقام بتصنيفها وترتيبها ووضعها فى الامكنة التى أعدت لها فى الكتبخانة (٢) التى اختير مقرا لها الطابق الأسفل (البدروم) من سراى مصطفى فاضل بدرب الجماميز ، وهو القصر الذى كان يشغله فى ذلك الوقت (ديوان نظارة المعارف) كما قام على مبارك بجمع المخطوطات التى سبق أن أوقفها السلاطين والامراء والعلماء على المدارس ومعاهد العلم (٣) .

وكذلك ادمجت دار الكتب القديمة فى دار الكتب الجديدة حتى صار عدد مجلداتها نحو ثلاثين مجلد ، كما اقام معرضا للآلات الطبيعية وغيرها من آلات العلوم والرياضة اللازمة للمدارس وصرف لشراء تلك الآلات نحو أربعة الاف جنيه » (٤) .

---

(١) الياس الايوبى . تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل باشا ـ المجلد الأول ص ٢٤١ .

(٢) محمد عبد الجواد . تقويم دار العلوم ص ٤ . انظر د . سمير طه ص ١٣٥ .

(٣) دار الكتب . دار الكتب فى عهد الثورة ص د .

(٤) على مبارك : الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٥١ .

وبعد أن تم على مبارك انشاء هذه الكتبخانة الجـامعة عرض على الخديوى ما اتمه من اعمال وطلب « احالة الكتباخنة على عهدة ديوان الاوقـاف على ان تبقى تحت نظـارة مدير المدارس وذلك حتى لا يطـرأ على الكتب الموقوفة على ذمة الاوقـاف ادنى تبديل ولا تغيير » ، وأن لا تكون هذه الكتب قاصرة على كتب الاوقاف وحدها بل جامعة لكافة ما يدخل بها من سـائر كتب الكتبخانة القديمة وكتبخانتى الاشغال والمدارس وغيرها مع ما يرد اليها تباعا من الكتب بأى نوع وأى لغة من ى جهة وتكون جميعها تابعة لديوان الاوقاف وموقوفـة من طرف الخديوى على المنفعة العامة ٠

وقد قام الخديوى بزيارة هذه الكتبخانة الجديدة فى شهر ابريل سنة ١٨٧٠ م وذلك قبل افتتاحهـا بعدة اشهر وسر كثيرا من حسن النظـام لاشتمالها على المؤلفات المطبوعة وجميع المخطوطات النفيسة والتى كانت متفرقة فى المساجد القديمة (١) ٠

ولا ريب ان تجميـع الكتب والمخطوطات فى مكان واحد يسـهل عمل الباحثين والكتـاب ، ويعد فى هذا الوقت فى حـد ذاته عمـلا يدعو الى الاعجـاب (٢) ٠

---

(١) دار الوثائق القـومية : محفظة الوقائع المصرية (٨) الوقائع المصرية العدد ٣٥٢ بتاريخ ٩ محرم ١٢٨٧ هـ (١٠ ابريل ١٨٧٠ م) ٠

(٢) د ٠ سمير محمد طه ـ المصدر السابق ص ١٣٧ ٠

الفصل الرابع

قناة السويس

اول من فكر فى ربط البحرين المتوسط والأحمر بطريق غير مباشر عن طريق النيل سنة ١٨٨٧ ق ٠ م هو سنوسرت الثالث من الأسرة الثانية عشرة الفرعونية ٠ ومازالت آثار هذه القناة حتى يومنا هذا واضحة تماما فى محاذاة المجرى الحالى لقناة السويس بالقرب من جنيفه ، ويمكن تتبع سيرها الى حيث حفرت قناة المياه العذبة فى مجرى القناة القديم نفسه ، ثم تختفى بعد ذلك معالم هذه القناة التى كانت تمتد حتى ميناء (السويس) ٠

وقد أهملت قناة سنوسرت الثالث نتيجة لظروف مختلفة حتى امتلأت بالرمال ٠ وفى ٦١٠ ق٠م أعاد نخاو الثانى من الاسرة السادسة والعشرين شق القناة ، فنجح فى وصل النيل بالبحيرات المرة ، الا انه لم يوفق فى وصل البحيرات المرة بالبحر الاحمر وفى سنة ٥١٠ ق ٠ م تمكن الملك الفارسى دارا الأول (٥٢١ ـ ٤٨٦ ق٠م) من اعادة ربط النيل بالبحيرات المرة بعد ان كانت قد ردمتها الرمال ، ولكنه لم ينجح كالملك نخاو الثانى فى وصلها بالبحر الاحمر الا بواسطة قنوات صغيرة لم تكن صالحة للملاحة الا فى مرسم الفيضان ٠

وفى سنة ٢٨٥ ق ٠ م تغلب بطليموس الثانى على كل الصعوبات التى اعترضت سبيل سابقيه فتمكن من اعادة الملاحة الى القناة باكملها بعد أن نجح فى حفر الجزء الواقع بين البحيرات المرة والبحر الأحمر ٠

وفى سنة ٩٨ م على عهد الامبراطور الرومانى تراجان (٩٨ - ١١٧ م) تم حفر فرع جديد عرف بقناة تراجان يمتد من بابليون عند فم الخليج

بالقاهرة حيث يتصل بالفرع القديم الذى يصل بوبست (الزقازيق) بالبحيرات المرة ٠

وفى سنة ٦٤٢ م أعاد عمرو بن العاص قناة الرومان الى الملاحة من الفسطاط الى (السويس) واطلق عليها اسم قناة أمير المؤمنين ٠ وظلت قناة أمير المؤمنين مفتوحة للملاحة أكثر من قرن من الزمان استخدمت خلالها فى التجارة ونقل الحجاج ٠

وكان شق قناة السويس احد اهداف الحملة الفرنسية ، فقد كلف الجنرال بونابرت كبير مهندسيه جاك مارى لوبير بدراسة مشروع حفر قناة تصل بين البحر المتوسط والبحر الاحمر ، الا ان دراسة لوبير اسفرت عن أن مستوى البحر الاحمر اكثر ارتفاعا من مستوى البحر المتوسط بمقدار ثمانية امتار ونصف ، ووضح خطأ حسابات لوبير ٠

وفى سنة ١٨٤١ اهتم المهندس الفرنسى لينان بمشروع وصل البحرين وكان يساوره نفس اعتقاد لوبير فى وجود فارق بين منسوب سطحى البحرين

.. وقد ارسل لينان دراساته الى قنصل فرنسا بالاسكندرية واطلع عليها ديلسبس الذى كان حينذاك نائبا للقنصل ، والذى فتح ملفا للمشروع واستفاد من كل الدراسات السابقة ٠

وفى عام ١٨٤٦ تشكلت جمعية للدراسات الخاصة بقناة السويس فى باريس ٠ وفى سنة ١٨٤٧ اوفدت هذه الجمعية الفرنسية الانجليزية الالمانية احد الاخصائيين فى الطبوغرافيا للقيام بعملية مسح لبرزخ السويس ، وانتدبت الحكومة المصرية كبير مهندسيها لينان لمعاونته فى أعماله ٠ فاثبت الاثنان انه لافارق يذكر بين منسوبى البحرين ٠

ويذكر انه لما عرض الاقتراح على محمد على انه رفضه قائلا « لا اريد لمصر بسفورا آخر » أى انه لا يريد ان يفتح للاجانب باب الاغارة على مصر ٠

وقد عكف فردينان ديلسبس بعد اعتزاله السلك السياسى على دراسة كل ما يتعلق بحفر قناة تربط البحرين ، فاطلع على كتاب وصف

مصر ، كما راجع تقارير لربير ودراسات أتباع سان سيمون وجمعية قناة السويس .

وفى ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤ تمكن ديلسبس - مستغلا صداقته للوالى محمد سعيد باشا - على فرمان الامتياز الاول - واصدر سعيد هذا الفرمان معطيا لديلسبس حق استغلال القناة لمدة تسعة وتسعين عاما تبدأ من تاريخ الافتتاح هذا عدا امتيازات اخرى كلها مجحفة بحق مصر ، كمنحه جميع الاراضى اللازمة لشق القناة البحرية وقناة المياه العذبة بدون مقابل ، واعطائه الحق فى استخراج المعادن فى المنطقة ، واعفاء كافة المهمات المستوردة من الخارج لصالح المشروع من الرسوم الجمركية ، هذا علاوة على امداده بالمهندسين والموظفين والعمال اللازمين للمشروع ، مع مساعدته وحمايته .

ومن المناسب ان نقدم نص الفرمان الأول ، حتى تكون الصورة اكثر وضوحا :

(مادة ١)

يؤسس المسيو فردينان ديلسبس شركة نعهد اليه بادارتها تسمى « الشركة العامة لقناة السويس » تكون مهمتها القيام بشق برزخ السويس واستغلال طريق صالح للملاحة الكبرى وانشاء واعداد مدخلين كافيين احدهما على البحر الأبيض المتوسط والآخر على البحر الأحمر وبناء مرفأ أو مرفأين .

(مادة ٢)

يعين مدير الشركة دائما من قبل الحكومة ويختار ما امكن من بين المساهمين الذين لهم أوثق الصلة بالمنشأة .

(مادة ٣)

مدة الالتزام تسع وتسعون سنه تبتدىء من التاريخ الذى تفتتح فيه قناة البحرين .

(مـادة ٤)

تجرى الأعمـال التى يقتضى اجراؤهـا على نفقـة الشركـة وحـدها وتمنح بدون مقـابل جميـع ما يلزمهـا من الأراضى التى ليست ملكـا للأفـراد ولا تكون التحصينـات التى ترى الحكومـة القيـام بهـا على نفقة الشركـة .

(مـادة ٥)

تجبى الحكومة سنويا من الشركـة ١٥٪ من صافى الارباح المستخلصة من ميزانية الشركـة وذلـك فضلا عن الفوائـد والحصص الخاصة بالأسهم التى تحتفظ الحكومـة بحق الاكتتاب فيهـا لدى اصدارهـا وذلـك دون اى ضمان من جانبهـا لتنفيذ الأعمـال او لقيـام الشركـة بمهمتهـا . ويوزع الباقى من صـافى الأرباح على الوجه الآتى :

٧٥ ٪ للشركـة . ١٠ ٪ للأعضـاء المؤسسين

(مـادة ٦)

يتم الاتفـاق على تعريفـات رسوم المرور بقناة السويس ما بين الشركة وخديو مصر ، ويجبى عمـال الشركـة هـذه الرسـوم وتكون التعويضات متسـاويـة دائمـا لجميـع الامم ولا يجوز مطلقـا اشتراط امتياز خاص لاحـدى دول دون سواهـا .

(مـادة ٧)

اذا رات الشركـة ضرورة وصل ما بين النيـل وممـر البرزخ بانشاء طريق صالح للملاحة أو اذا سلكت القنـاة البحريـة طريقـا متعرجـا يرويه ماء النيل فتتنازل الحكومة المصريـة للشركـة عن الاراضى الداخلة فى الأملاك العـامة مما لا يزرع اليـوم لتقـوم بربهـا وزراعتهـا على نفقتهـا أو تحت اشرافهـا . وتنتفـع الشركـة بالأراضى المذكورة مـع اعفـائهـا من الضرائب مـدة عشر سنوات ابتداء من يـوم افتتـاح القنـاة وتدفـع ضريبة العشر للحكومة المصريـة خلال التسـع والثمانين سنة الباقيـه لانقضـاء

مدة الالتزام وبعد ذلك لا يجرى لها المضى فى الانتفاع بالأراضى المذكورة الا اذا ادت للحكومة عنها ضريبة تعادل ما هو مفروض على الأراضى المماثلة من الضرائب ٠

(مادة ٨)

تلافيا لكل صعوبة تتصل بالأراضى التى ستتركها الحكومة للشركة الملتزمة يضع المسيو لينان بك المهندس المنتدب من قبلنا لدى الشركة رسما يبين الأراضى الممنوحة سواء لانشاء القناة البحرية ومؤسساتها وقناة التغذية المتفرعة من النيل أو للاستغلال الزراعى وفقا لأحكام المادة ٧ ٠

وفضلا عن ذلك فمن المتفق عليه ان كل مضاربة تتعلق بالأراضى الداخلة فى الاملاك العامة التى ستمنح للشركة محظورة من الآن ٠٠ وان الاراضى التى كانت تخص الأفراد ويريد ملاكها فى المستقبل ريها من مياه قناة التغذية المنشأة على نفقة الشركة يدفعون اتاوة عن كل فدان يزرعونه تحدد بالاتفاق بين الحكومة المصرية والشركة ٠

(مادة ٩)

واخيرا تمنح الشركة الملتزمة الحق فى ان تستخرج من المناجم والمحاجر الداخلة فى الأملاك العامة بجميع المواد اللازمة لأعمال القناة والمبانى التابعة لها مع اعفائها من الرسوم كما أنها تنتفع بهذا الاعفاء فيما يتعلق بالآلات والمواد التى تستوردها من الخارج لاستغلال التزامها

(مادة ١٠)

عند انتهاء الالتزام تحل الحكومة المصرية محل الشركة فتنتفع بكافة حقوقها دون تحفظ وتستولى على قناة البحرين وجميع المنشآت التابعة لها وتؤول اليها ملكيتها الكاملة ٠ ويحدد مقدار التعويض الذى يمنح الى الشركة فى مقابل تنازلها عن المهمات والأشياء المنقولة باتفاق ودى او بطريق التحكيم ٠

(مادة ١١)

بعرض مدير الشركة علينا ميما بعد نظام الشركة ويجب ان يحوز موافقتنا ولا بد من اقرارنا مقدما اى تعديل يدخل عليه فى المستقبل ويجب ان يذكر نظام الشركة اسماء المؤسسين على ان تحتفظ بحق اعتماد قائمتهم ويراعى ان يتضمن هذه القائمة أسماء الاشخاص الذين سبق ان ساهموا فى تنفيذ مشروع (قناة السويس) الكبير سواء باعمالهم او بأبحاثهم او بجهودهم أو بأموالهم .

(مادة ١٢)

وفى الختام نعد بطيب تعضيدنا الخالص وكذا جميع موظفى الحكومة المصرية لتسويل تنفيذ واستغلال هذا الترخيص .

القاهرة فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٥٤ .

وفى نهاية الفرمان يكتب (محمد سعيد) الرسالة التالية الى صديقه دبلسبس الى صديقى المخلص كريم المحتد رفيع المقام المسيو فردينان ديلسبس .

بما انه تلزم موافقة عظمة السلطان على الرخصة الممنوحة للشركة العامة لقناة السويس فانى ابعث اليكم بهذه النسخة لحفظها لديكم . اما الأعمال الخاصة بحفر قناة السويس فلن يبدأ فيها الا بعد الحصول على ترخيص الباب العالى .

٣ رمضان سنة ١٢٧١ . (محمد سعيد باشا والى مصر)

وفى ٥ يناير ١٨٥٦ أصدر سعيد باشا فرمان الامتياز الثانى ، وهو تأييد لما جاء فى الفرمان الاول وتكملة له ، اذ نص فيه على وجوب استخدام اربعة اخماس العمال اللازمين للمشروع من المصريين ، وذكر فى كلا الفرمانين أن يكون نصيب الحكومة المصرية ١٥٪ من صافى الارباح السنويه للشركة .

ونص الفرمان الثانى على ما يلى :

نحن محمد سعيد باشا والى مصر بعد الاطلاع على الفرمان الصادر منا بتاريخ ٣٠ نوفبر سنة ١٨٥٤ الذى رخصنا فيه الى صديقنا فرديناند ديلسبس ترخيصا خاصا فى تأسيس وادارة شركة عامة لشق برزخ السويس واستغلال طريق صالح للملاحة الكبرى وانشاء واعداد مدخلين ذوى اتساع كاف احدهما على البحر الابيض المتوسط والآخر على البحر الاحمر وبناء مرفأ او مرفاين ·

ولما كان جناب المسيو فرديناند ديلسبس قد عرض علينا ان تأسيس الشركة المذكورة وفقا للاوضاع والشروط التى تتبع بوجه عام فى تأسيس الشركات من هذا النوع يحسن ان يسبقه النص مقدما بصورة اشمل واوفى على التكاليف بالالتزامات والاتاوات التى تفرض على هذه الشركة من ناحية، ومن ناحية اخرى على الامتيازات والاعفاءات والميزات التى تختص بها الشركة وعلى التسهيلات التى تمنح لادارتها ·

لذلك قررنا ان تكون شروط الالتزام المشار اليها بهذا الفرمان كما يلى:

الباب الأول

الالتزامات

(مادة ١)

على الشركة التى اسسها صديقنا المسيو فرديناند ديلسبس وفقا لترخيصنا المؤرخ ٣٠ نوفمبر عام ١٨٥٤ ان تقوم على نفقتها ومسئوليتها بجميع الاشغال واعمال البناء اللازمة للانشاء·

١ - قناة صالحة للملاحة البحرية الكبرى بين السويس على البحر الاحمر وخليج الطينة (بورسعيد) على البحر الابيض المتوسط ·

٢ - قناة للرى صالحة للملاحة النهرية فى النيل تصل هذا النهر بالقناة البحرية المذكورة ·

٣ - فرعين للرى والشرب مستقيين من القناة الاخيرة لجلب المياة فى اتجاهى السويس والطينة اليهما ·

وتجرى الاعمال بحدث تنتهى فى ميعاد غايته ست سنوات الا اذا طرات دوافع وأسباب تأخير ناشئة عن قوة قاهرة ٠

(مـــادة ٢)

للشركة ان تنفذ بذاتها الاعمال المكلفة بها أو ان تعهد بها الى مقاولين بطريق المناقصة أو الممارسة ويجب فى جميع الاحوال ان يكون أربعة اخماس العمال المستخدمين فى هذه الاعمال - على أقل تقدير - من المصريين ٠

(مـادة ٣)

تحفر القناة البحرية المعدة لمرور السفن الكبرى بالعمق والاتساع المحددين فى برنامج اللجنة العلمية الدولية ، ووفقا لهذا البرنامج تبتدىء القناة فى منبعها من ميناء السويس ذاته وتستمر فتجتاز البحيرات المرة فى بحيرة التمساح وتنتهى فى مصبها فى البحر الأبيض المتوسط عند نقطة من خليج الطينة تحددها المشروعات النهائية التى سيضعها مهندسو الشركة ٠

(مـادة ٤)

تبتدىء قناة الرى المعدة للملاحة النهرية وفقا لشروط البرنامج المذكور بالقرب من مدينة القاهرة وتسير فى وادى الطميلات وتنتهى لتصب فى القناة البحرية الكبرى عند بحيرة التمساح ٠

(مـادة ٥)

تتفرع القناة السابق ذكرها قبيل مصبها فى بحيرة التمساح فيتجه فرع من هذه النقطة الى السويس وفرع آخر الى الطينة بمحاذاة القناة البحرية الكبرى ٠

(مـادة ٦)

تحول بحيرة التمساح الى مرفأ داخلى صالح لاستقبال اكبر السفن حمولة ويجب على الشركة فوق ذلك ، عند الاقتضاء :

١ – أن ندنى مرفأ تأوى اليه السفن عند مدخل القنـاة البحـريـة فى خليج الطينة .

٢ – أن تحسن مرفأ وبوغاز السويس بحيث تأوى اليهما السـفن كذلك .

(مـادة ٧)

توالى الشركـة دائمـا القيـام على نفقتهـا بصيانة القنـاة البحريـة والموانىء التابعـة لهـا والقنـاة المتصلة بالنيـل والقنـاة المتفـرعـة عنهـا .

(مـادة ٨)

لمن يرغب من ملاك الأراضى الواقعة على ضفاف الأقنية التى تنشئها الشركة فى رى أرضه بالميـاه المستمدة من هـذه الأقنية أن يحصـل على هذا الامتياز فى مقابـل دفعه تعويضـا أو اتاوة تحـدد قيمتهـا وفقـا للشروط المبينـة بعـد فى المـادة (١٧) .

(مـادة ٩)

نحتفظ بحق انتداب مندوب خاص فى مركز ادارة الشركـة يتقاضى منها مرتبه ويمثـل لـدى ادارتهـا حقوق الحكومـة المصرية ومصالحهـا فيمـا يتصـل بتنفيذ أحكـام هـذا الفرمان وشروطه .

وعلى الشركـة اذا كان مركز ادارتهـا خـارج مصر ان تعين وكيلا أعلى يمثلهـا بمدينة الاسكندرية مزودا بكافة السلطـات اللازمـة لضـمان حسن سير العمـل وعلاقات الشركـة بحكومتنـا .

(مـادة ١٠)

لانشـاء القنوات وملحقاتهـا المشـار اليهـا فى المواد السـابقـة تترك الحكومـة المصريـة للشركـة الانتفـاع بلا ضريبة أو اتاوة بما قـد يلزمهـا من الأراضى غير المملوكـة للأفـراد .. كذلـك تخول للشركـة حق الانتفـاع

بجميع ما ستقوم الشركة بريه وزراعته على نفقتها من الأراضى التى لا تزال بورا حتى اليوم وليست ملكا للأفراد وذلك مع التحفظات الآتية :

١ - تعفى الأراضى الداخلة فى هذه الفئة الأخيرة من كل ضريبة لمدة عشر سنوات فقط ابتداء من تاريخ بدء استغلالها ٠

٢ - بعد انتهاء المدة المذكورة تصبح هذه الأراضى طيلة الباقى من مدة الالتزام خاضعة للالتزامات والضرائب التى تخضع لها فى الظروف نفسها سائر اراضى القطر المصرى ٠

٣ - يمكن للشركة فيما بعد اما بنفسها واما بمن تلقى الحق عنها موالاة الانتفاع بهذه الأراضى واستمداد المياه اللازمة لاستثمارها وذلك فى مقابل توفية الحكومة المصرية الضرائب المفروضة على الأراضى المماثلة لها ٠

(مادة ٢١)

يرجع الى الرسوم الملحقة بهذا البيان فى تعيين مساحة الأراضى الممنوحة للشركة وحدودها طبقا للفقرتين (١ و ٢) من المادة العاشرة السابقة والأراضى الممنوحة لانشاء الأقنية وملحقاتها من الضريبة والاتاوة وفقا للفقرة الاولى ملونة من الرسوم المذكورة باللون الاسود ٠٠ اما الاراضى التى تركت للشركة لتقوم بزراعتها على ان تدفع عنها بعض الرسوم وفقا للفقرة الثانية فقد لونت باللون الأزرق ٠

تعتبر باطلة كل وثيقة لاحقة لفرماننا الصادر فى الثلاثين من شهر نوفمبر سنة الف وثمانمائة واربع وخمسين تنشىء للافراد قبل الشركة ، اما حقا فى المطالبة بتعويض لم يكن قائما اذ ذاك على الأراضى واما حقا فى المطالبة بتعويضات تفوق القدر الذى كان يجوز لهم المطالبة به فى ذاك الحين ٠

(مادة ١٢)

تسلم الحكومة المصرية عند الاقتضاء الى الشركة الأراضى التى يملكها الأفراد والتى تلزم الشركة حيازتها لتنفيذ الأعمال واستغلال الالتزام على أن تدفع الشركة التعويضات العادلة لمستحقيها ·

تسوى التعويضات عن الاستيلاء المؤقت أو نزع الملكية النهائية تسوية ودية بقدر الامكان وفى حالة عدم الاتفاق تحدد التعويضات هيئة تحكيم تباشر عملها باجراءات مختصرة تؤلف من :

١ ـ محكم تختاره الشركة ·

٢ ـ محكم يختاره اصحاب الشان ·

٣ ـ محكم ثالث معين منا ·

وتكون قرارات هيئة التحكيم هذه نافذة وغير قابلة للاستئناف ·

(مادة ١٣)

ترخص الحكومة المصرية للشركة الملتزمة طيلة مدة الالتزام فى أن تستخرج من المناجم والمحاجر الداخلة فى الأملاك العامة جميع المواد اللازمة لاعمال البناء ولصيانة المنشآت والمبانى التابعة لها دون أن تدفع عن ذلك اى رسم أو ضريبة او تعويض ·

ـركة فوق ذلك من اداء الرسوم الجمركية ورسوم الدخولية وغيرها عن الآلات ·· والمواد التى تستوردها من الخارج سدا لحاجة مختلف اقسامها خلال مدة الانشاء او الاستغلال ·

(مادة ١٤)

نعلن رسميا باسمنا وباسم خلفائنا أن القناة البحرية الكبرى من السويس الى الطينة والمرافق التابعة لها مفتوحة على الدوام بوصفها ممرا محايدا لكل سفينة تجارية عابرة من بحر الى آخر دون تمييز أو

حرمان او تحصيل من الأشخاص او الجنسيات فى مقابل دفع الرسوم ومع مراعاة الأنظمة التى تفرضها الشركة العامة الملتزمة فيما يتعلق باستخدام القناة المذكورة وملحقاتها وذلك بشرط اقرار الباب العالى .

(مادة ١٥)

يترتب على المبدا المقرر فى المادة السابقة انه لا يجوز للشركة العامة الملتزمة فى اى حال من الأحوال أن تمنح اية سفينة او شركة او فرد اية فوائد أو امتيازات لا تمنح لغيرها من السفن أو الشركات او الأفراد فى نفس الأحوال .

(مادة ١٦)

مدة الشركة محددة بتسع وتسعين سنة تبتدىء من تاريخ انجاز الأعمال وافتتاح القناة البحرية للملاحة . وتستولى الحكومة المصرية لدى انقضاء هذه المدة على القناة البحرية التى انشأتها الشركة . وتتسلم الحكومة فى هذه الحالة جميع الآلات والمشئون المخصصة للخدمة البحرية للمشروع مع توفية الشركة قيمتها محددة وديا او بواسطة الخبراء . على انه اذا احتفظت الشركة بالتزام لمدد متتالية كل منها تسع وتسعون سنة ، رفع الاستقطاع المشترط لصالح الحكومة المصرية فى المادة الثامنة عشرة المذكورة بعد الى عشرين فى المائة فى المدة الثانية والى خمسة وعشرين فى المائة فى المدة الثالثة وهكذا على التوالى بزيادة خمسة فى المائة لكل مدة دون أن يتجاوز هذا الاستقطاع بحال من الأحوال خمسة وثلاثين فى المائة من صافى ارباح المشروع .

(مادة ١٧)

تعويضا للشركة عن نفقات البناء والصيانة والاستغلال التى كلفت بها بمقتضى هذا الفرمان نرخص لها من الآن وطيلة المدة التى تتمتع فيها بالالتزام وهى المدة المبينة فى الفقرتين الأولى والثالثة من المادة السابعة فى أن تفرض وتتقاضى عن المرور فى الأقنية والمرافىء التابعة

لهـا رسوما لملاحـة والارشـاد والقطـر والسحب والرسـو وفقـا لتعويضـات لهـا ان تعدلها فى كل وقت مـع مراعـاة الشروط الصريحـة الآتية :

١ - تحصـل هـذه الرسـوم دون استثنـاء أو تمييز على جميـع السفن بشروط مماثلة .

٢ - ننشر التعريفـات قبل ثلاثة اشهر من العمـل بهـا فى عواصـم البلدان التى يعنيها الامر وفى مراغئيـا التجاريـة الرئيسية .

٣ - لا يزيـد رسـم الملاحـة الخاص على حـد اقصى قدره عشرة فرنكات عن كل طن من حمولة السفن وعن كل فـرد من المسـافرين .

ويجوز للشركـة ايضـا فى الحالات التى تمـد الافـراد فيهـا بالميـاه بناء على طلبهم طبقـا لنص المـادة الثامنة المتقدمة ان تتقـاضى منهم وفقا لتعريفـات تحـددهـا رسـما بتناسـب وكميـة الميـاه المستهلكـة ومساحة الاراضى التى يتم ريهـا .

(مـادة ١٨)

على انه فى مقابـل الاراضى المتنازل عنهـا والامتيازات الاخـرى الممنوحـة للشركـة بمقتضى المـواد السـابقـة نحتفظ لصـالح الحكومـة المصريـة بحق استقطـاع ١٥ فى المـائة من صافى الارباح السنوية التى تحددها وتوزعهـا الجمعيـة العموميـة للمساهمين .

(مـادة ١٩)

يجب ان تعتمد بقرار منا قائمة الاعضاء المؤسسين الذين اشتركـوا باعمالهم وبحوثهم واموالهم فى تحقيق المشروع قبـل تاسيس الشركـة . وبعـد استقطاع الحصـة المنصوص عليهـا لصالح الحكومـة المصريـة طبقـا للمـادة (١٨) المتقـدم ذكرهـا يخصص جزء من صافى اربـاح المشروع السنوية قدرهـا ١٠ فى المـائة للأعضـاء المؤسسين او لورثتهم أو لمن يحـل محلهم فى حقهم .

(مادة ٢٠)

بغض النظر عن الوقت اللازم لتنفيذ الاعمال يراس صديقنا ووكيلنا المسيو فردينان ديلسبس الشركة ويديرها بوصفه مؤسسا أول لهـا وذلك لمدة عشر سنوات تجرى من اليوم الذى تبدأ فيه مدة التمتع بالالتزام وقدرها تسع وتسعون سنة وفقا للمادة (١٦) .

(مادة ٢١)

تعتمد الأنظمة المرافقة للشركة المنشاة تحت اسم (الشركة العامة لقناة السويس الكبرى) ويعتبر هذا الاعتماد بمثابة ترخيص لتاسيس الشركة فى شكل الشركات المساهمة اعتبارا من اليوم الذى يتم فيه الأكتتاب فى كامل راس المال .

(المادة ٢٢)

واظهارا لرغبتنا الأكيدة فى نجاح المشروع فاننا نعبد الشركة بتعضيد الحكومة المصرية لها تعضيدا خالصا . ونحث صراحة بمقتضى هذا جميع الموظفين والمامورين والعمال فى اقسام ادارتنا على امدادها بالمساعدة وحمايتها فى كل مناسبة .

ولما كنا قد وضعنا مهندسينا (لينان بك) و (موجل بك) نحت تصرف الشركة فيما يتعلق بادارة وتسيير الاعمال التى تأمر بهما فاننا نعهد اليهما كذلك بالاشراف الأعلى على العمال وعليهما تنفيذ اللوائح الخاصة بمباشرة الأعمال .

(المادة ٢٣)

تلغى جميع الأحكام الواردة فى فرماننا الصادر فى ٣٠ من نوفمبر سنة ١٨٥٤ وغيرها من الأحكام التى تتعارض مع نصوص واحكام شروط الالتزام هذه . وهى التى تعتبر وحدها قانونا للالتزام المنصوص على حدوده وشروطه فيها .

صدر بالاسكندرية فى ٥ يناير سنة ١٨٥٦ .

الى صديقى المخلص الكريم المحتد والرفيع المقام المسيو فردينان ديلسبس ٠

بما انه يجب تصديق عظمة السلطان على الالتزام الممنوح للشركة العامة لقناة السويس فانى أرسل لكم هذه الصورة الرسمية لتتمكنوا من تأسيس الشركة المذكورة من الناحية المالية ٠

أما اعمال حفر البرزخ فتستطيع الشركة مباشرتها حالما يصدر ترخيص الباب العالى لنا ٠

القاهرة فى ٢٦ ربيع الثانى ١٢٧٢

الموافق ٥ من يناير ١٨٥٦

وفى ١٥ ديسمبر تأسست الشركة العالمية لقناة السويس البحرية شركة مساهمة مصرية برأس مال قدره ٢٠٠ مليون فرنك فرنسى مقسم على ٠٠٠ ر ٤٠٠ سهم كل منها قيمته ٥٠٠ فرنك ٠ وكان نصيب مصر من الاسهم ١٧٦٦٠٢ سهما قيمتها ٨٨٫٣ مليون فرنك ، أى ما يساوى نصف رأسمال الشركة ٠ أما باقى الاسهم فقد وزع على عدد من الدول ٠

وفى ٢٥ ابريل ١٨٥٩ بدأ حفر القناة من مدينة فرما (موقع بور سعيد الحالية) وتقدمت الأعمال بسرعة على أيدى المصريين المسخرين لهذا العمل ، وفى ظروف قاسية منها نقص الماء والغذاء وحرارة الشمس ، فضلا عن انتشار الأمراض والاوبئة ، حتى يقدر بعض المؤرخين ان هناك رفات ١٢٠ الف مصرى طوتهم رمال الصحراء على طول القناة فى سنوات حفرها أى حتى عام ١٨٦٩ ٠

وفى ١٨ نوفمبر ١٨٦٢ تم وصل البحر المتوسط ببحيرة التمساح التى تقع فى منتصف المسافة تقريبا بين بور سعيد والسويس ٠

وفى ٦ يوليو ١٨٦٤ طالب الخديو اسماعيل بتعديل فرمانى الامتياز الممنوحين للشركة على عهد سعيد باشا ، وذلك بالغاء

السخرة فى اعمال القناة وتخفيض مساحة الاراضى الممنوحة للشركة واسترداد قناة المياه العذبة التى تم حفرها فى ٢ فبراير ١٨٦٢ لتوصيل المياه من النيل الى مواقع العمل • فوافق ديلسبس على مطالب الخديو مقابل منح الشركة تعويضا قدره ٨٤ مليون فرنك ، وذلك بناء على تحكيم نابليون الثالث امبراطور فرنسا •وكانت الشركة وقتئذ فى مسيس الحاجة الى المال لتمويل الاعمال الجارية فى المشروع •

وفى ١٨ مارس ١٨٦٩ تم وصل البحر المتوسط بالبحيرات المرة وسط مهرجان كبير حضره الخديو اسماعيل وولى عهد انجلترا •

وفى ١٨ اغسطس ١٨٦٩ تدفقت مياه البحرين المتوسط والاحمر ، وتالف منهما قناة السويس • وهكذا انتهت الاعمال فى هذا المشروع الضخم الذى استغرق تنفيذه عشر سنوات • وقد بلغت تكاليف المشروع ٣٦٩ مليون فرنك أى ما يزيد قليلا على اربع عشرة مليون جنيه وضعف المبلغ الذى كان مقدرا لانجازه •

ومع بدايات شهر نوفمبر ١٨٦٩ بدات الاستعدادات لاحتفالات افتتاح القناة •

وبدأ مركب الملوك والامراء وكبار الشخصيات (نحو ٦٠٠٠ من دول العالم كله) يدخل ميناء بور سعيد يوم ١٦ نوفمبر • وكانت آلاف المصريين فى انتظار الموكب لحظة دخوله للقناة ، وكانت الباخرة (ايجل) وعلى سطحها امبراطورة فرنسا اوجينى تدخل القنطرة ثم التمساح وهى تلوح بمنديلها للمستقبلين •

وقد شيد اسماعيل من اجل رفاهية ضيوفه قصرا فخما على شاطىء بحيرة التمساح و ١٢٠٠ خيمة لاقامتهم ، وانشا طريقا من القاهرة الى اهرام الجيزة ، اتمه عشرة آلاف عامل فى شهر واحد ، واقام دارا للأوبرا •

وفى ليلة ١٦ نوفمبر ، حين اكتمل وصول سفن المدعوين الى بورسعيد بدأت مراسم الحفل العظيم ، وأخذت الموسيقى تعزف بين دوى المدافع •

وانفق اسماعيل على هذه الاحتفالات أكثر من مليون جنيه ، وهو رقم ضخم جدا بقيمة العملة فى ذلك الوقت ٠

وفى يناير ١٨٧٥ لم تتمكن الشركة من سداد الفوائد المستحقه على الاسهم للمساهمين بسبب ضعف حركة الملاحة ٠ وهنا لجأ الخديو اسماعيل لحاجته الماسة الى المال الى بيع اسهم مصر فى القناة الى انجلترا بمبلغ مائة مليون فرنك (٠٠٠ ر ٨٥٨ ر ٣ جنيه) وكانت انجلترا تهدف من هذه العملية وضع قدم لها فى الشركة ٠

وتوالت الامور بسرعة ، وأحست انجلترا بالقيمة الكبرى للقناة ٠٠ ورأت أن تستولى عليها بل على مصر كلها تأمينا لطرق مواصلاتها مع جوهرة التاج البريطانى (الهند) ٠ وهكذا تنتهز انجلترا الفرصة ابان الثورة العرابية (١) وتدعى انها حامية للخديو ضد عرابى وتحتل مصر كلها تأمينا لمواصلاتها الامبراطورية ٠

---

(١) انظر الفصل الخامس ٠

الفصل الخامس

الثورة العرابية

تميزت الفترة السابقة للثورة العرابيــة بسيطرة الاتراك والشراكسة على الحيــاة المدنيــة والعسكريــة فى مصر ، بـل ان رياض باشــا رئيس الوزراة فى الفترة الســابقــة للثورة كان لا يميل الى ترقية الضباط المصريين ليفسح المجال لأصدقائه من الاتراك والشراكسة للترقى الى أعلى المناصب (١)

ويصف الزعيم احمد عرابى هذه الحالة فى مذكراته « ٠٠٠ لقد تحملت مدة ولاية اسماعيل الجائرة بكل صبر وثبات تحت ضغط الظلم والاستبداد ، ومكثت برتبة القائمقام مدة تسـع عشرة سـنة أنظـر الى صغار الضباط الذين كانوا تحت ادارتى فى عهـد سعيـد واسماعيل باشــا وهم يترقون دونى ، فترقى بعضهم الى رتبة أميرالاى وبعضهم الى رتبة أمير اللــــواء وبعضهم الى رتبة الفريق ، لا بعلم علموه من دونى ولا بفهم خــارق للعادة ولا بشجاعــة أبرزوهــا فى ميادين القتــال ، ولكن لكونهم من مماليك أو أبناء مماليك العائلة الخديويــة ، فاصطفاهم الخديو بالرتب والنياشين والجوارى الحســان والاراضى الواســعة الخصبة والبيوت الرحبة وحباهم باموال الكثيرة والحلى الثمينة من دم المصريين المساكين وعرق جبينهم » (٢) ٠

وينتج من هذا الوصف أمران ٠٠٠ اولهما مــا كان يلاقيه المصريون من عنت حتى ان ضابطا مصريا ظل تسعة عشر عاما فى رتبة واحدة ، وثانيهما سوء توزيع الارض الزراعية ٠ فقد كانت هذه الارض توزع كما ذكر عرابى على المماليك ، او أبناء مماليك العائلةالخديوية بينما كان المصريون يتضورون

---

(١) Newman - Great Britain in Egypt p. 53.

(٢) احمد عرابى ، مذكرات عرابى ، الجزء الاول صفحة ٤٥ ٠

جوعا ، بل انهم كانوا يروون الارض بعرقهم ، ودمائهم لتنعم بخيراتها تلك الطبقة المسيطرة المستغلة ·

ولعلنا نتساءل كيف ان هذا المجتمع ظل بهذه الصورة بعد ان ارسل محمد على البعثات التعليميه فى مختلف فنون المعرفة الى أوربا منذ اكثر من خمسين عاما ، وهل ساعدت البعثات التعليمية على ايجاد فئة تحس بالمظالم الواقعة عليها ام لم تساعد ·

وما من شك فى أن هذه النهضة التعليمية ، كان لابد وأن تؤتى ثمارها فى امداد المجتمع بطائفة من المثقفين والفنيين اللازمين لتطوير المجتمع ، كما ساعدت هذه النهضة التعليمية على خلق تيارات فكرية عصرية اشعرت المصريين بمدى الظلم الواقع عليهم (١) ·

وكان من اهم مظاهر اليقظة العلمية الجديدة ، تاسيس الصحف على يد طائفة من العلماء والادباء المصريين ، وقد كان لهذه النهضة الصحفية أثرها الفعال فى تغذية الرأى العام بالآراء والافكار المصرية ·

وبدات اسباب الاحتكاك بين الراى العام فى مصر والحكومة منذ بدات أحوال الخزانة تسوء كنتيجة حتمية لسياسة البذخ والاقتراض التى التزمها اسماعيل ، مما مهد الطريق للتدخل الاجنبى فى شئون البلاد ·

وتوالت الاحداث بسرعة ، واصبح التدخل الاجنبى فى شئون البلاد يتفاعل تفاعلا طرديا مع سوء احوالها الاقتصادية ، فبعد أن رهن اسماعيل كل موارد الدولة لضمان سداد الديون ، قام ببيع أسهم مصر فى القناة لانجلترا بثمن بخس ، ثم اقترح اسماعيل نفسه حضور بعثة تحقيق انجليزية لفحص المالية المصرية ، وجاءت بعثة « كيف » بالفعل لانجاز هذه المهمة ووضعت هذه البعثة تقريرا اقترحت فيه ان تخضع المالية المصرية للمشورة الاوربية ، وذلك بانشاء هيئة رقابة يراسها انجليزى على أن يحترم الخديوى قراراتها · الا ان فرنسا عطلت تنفيذ هذا الاقتراح بعد ان رات فيه استئثارا من جانب انجلترا بالسيطرة على مصر ·

---

(١) انظر التعليم فى عصر محمد على وعصر اسماعيل فى الفصلين الثانى والثالث ·

ثم اسندت الازمة الماليه . ومن ثم أصدر اسماعيل نفسه مرسوما سنة ١٨٧٦ بانشاء صندوق الدين ، وكان هذا الصندوق أول هيئة أوربية رسمية لفرض التدخل الاجنبي في شئون مصر .

واضطر اسماعيل تحت الضغط الانجليزى الى قبول نظام المراقبه الثنائية وهكذا خضعت المالية المصرية للرقابة الاجنبية واصبح هنـــاك مراقبـان أحدهما انجليزى للايرادات والثانى فرنسى للمصروفات .

ورغم ذلك ازدادت الحالة سـوءا ، فاضطر اسماعيل الى اصدار مرسوم بتأليف لجنة أوربية عرفت بلجنة التحقيق العليا لدراسة أسباب العجـز ووسـائل اصلاح الماليـة المصريـة . ورأت اللجنـــة ان يحـل محل الرقابة الثنائية وزارة مختلطة فيها وزيران أوربيان أحدهما انجليزى للمالية والثانى فرنسى للأشغال ، وقد قبل اسماعيل هذا الاقتراح .

وقد تقلد نوبار هذه الوزارة ، وهو ارمنى متمصر عرف بولائه للأجانب والسير فى ركابهم .

وقد استقبل الشعب هذه الوزارة بالسخط الشديد ، وقد سـاعد على اذكاء شعور الاستنكار تلك التيـارات الفكرية الواعية والخصبة ، وتلك الطائفة الفذة من قواد الرأى والفكر الذين شـحنوا الأذهان بأفكار القومية والحرية ويكفى أن نذكر أسـماء جمال الدين الأفغانى ورفاعة الطهطـاوى والشيخ محمد عبده ، وغيرهم ، حتى نتبين شعور الشعب نتيجة لتشـكيل هذه الوزارة الأجنبية .

وقد قامت وزارة نوبار عن عمد باهمال الجيش المصرى اهمالا شديدا ، وكانت سياسة الأجانب تقوم على اضـعافه حتى لا يقف فى طريقهم حينما تأتى ساعة التدخل العسكرى فكانوا بذلك يمهدون الطريق للاحتـلال .

وكان من جملة التدابير التى قامت بها وزارة نوبار ازاء الجيش تسريح عدد كبير من الجنود تحت ستار الاقتصاد فى النفقات ، كما أحـالت ٢٥٠٠ ضابط دفعة واحدة الى الاستيداع .

وهكذا كان هناك المثير المباشر لحركة عسكرية ضد السلطة القائمة وان كانت هذه الحركة العسكرية تمثل سخط الشعب كله على الوزارة الأوربية ، وعلى ازدياد التدخل الاجنبى فى شئون البلاد . وفى ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ عقد نحو ٦٠٠ ضابط اجتماعا فى ثكنات العباسية وخرجوا فى مظاهرة ضخمة انضم اليها طلبة المدرسة الحربية ونحو ٢٠٠٠ جندى ، وساروا فى شوارع القاهرة بهذا الموكب قاصدين وزارة المالية ، وفى الطريق قاموا بالقبض على نوبار رئيس الوزراء وكذلك على وزير المالية البريطانى واتجهوا بهم الى وزارة الخارجية وسجنوا رئيس الوزراء والوزير فى احدى غرفها .

وقد قدمت الوزارة النوبارية فى ١٠ مارس سنة ١٨٧٩ استقالتها بعد الاهانة التى لحقت بها ، وعهد الخديو الى نجله محمد توفيق تاليف الوزارة الجديدة (١) .

« ولقد كانت مظاهرة ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ أول عصيان عسكرى من نوعه ضد السلطة السياسية (٢) » . وقد استغل الاجانب نقمة الشعب المصرى على الخديو فسعوا لخلعه ، وكانوا أيضا مشتركون فى النقمة عليه لاعتقادهم بعدم اخلاصه للوزارة الأوربية واسراعه فى قبول استقالتها وتاليفه وزارة برئاسة نجله تحل محلها .

وهكذا أرسل الأجانب يقترحون عليه التنازل عن الحكم ، فاجاب اسماعيل بانه مستعد لاعادة المراقبة الثنائية الى ما كانت عليه ، فرفضوا وعرضوا عليه فى حالة التنازل مرتبا ضخما على أن يتولى السلطة ابنه توفيق فطلب اسماعيل مهلة يومين للتفكير ، وجاءه القنصلان الانجليزى والفرنسى يطلبان الرد فى الأجل الموعود ، فاخبرهم اسماعيل بانه نقل المسالة الى السلطان .

---

(١) أمين سعيد : سلسلة كتب تاريخ مصر السياسى الحديث (١٢) ص ٤٤ — ٤٥ .

(٢) د . محمد فؤاد شكرى — مصر والسودان ص ١٦٧ .

وفى ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ أصدر السلطان مرسوما بخلع اسماعيل وتولية توفيق بدلا منه ، ومن ثم غادر القاهره فى ٣٠ يونيو الى ايطاليا (١)

وفى مدى ثلاثة اشهر توالت ثلاث وزارات هى وزارة شريف ، ثم الوزارة التى رأسها الخديو توفيق بنفسه ، ثم وزارة رياض باشا التى تألفت فى ٢١ سبتمبر سنة ١٨٧٩ .

وقد تأكد لدى المواطنين أن حكومة رياض باشا قد قبلت المراقبة التى تحولت الى أداة تفوض سيطرة انجليزية - فرنسية على مصر عندما شاهدوا التعاون الوثيق بين رئيس الوزراء والمراقبة . ومن ثم انتشر التذمر ضد « العهد الجديد » وكره الشعب نظاما اعتبره امتدادا للظلم الذى تحمله لصالح الأجانب وسار المصريون بخطى سريعة فى طريق الثورة ضد حكومة الخديو الضعيفة المستسلمة للنفوذ الأجنبى ، ولم يجد الساخطون وسيلة لانهاء هذه الحالة (سوى المطالبة) « بتأسيس الحكومة على قواعد الشورى ، ومنح بعض المنتخبين من الأهالى حق المشاركة فى كليات أعمال الحكومة » . ومعنى هذا تقييد السلطة التنفيذية كاجراء ضرورى لأنهاء النفوذ الاجنبى المسيطر عليها ، وكان بسبب هذا التذمر ان نشأ حزب سرى من المثقفين والأغنياء سموا أنفسهم بالحزب الوطنى وجعلوا مركز حزبهم فى فى حلوان . ولم يكن هؤلاء هم المتذمرين فقط من الحكومة ، بل انتشر التذمر كذلك بين رجال الجيش نتيجة للغبن الواقع عليهم واستئثار الطبقة التركية بالمناصب العليا فى الجيش (٢) .. وهكذا ولد الاحساس بالظلم والشعور بالثورة .

وقبل أن نسترسل فى الكلام عن الثورة العرابية ، يجب أن نتحرى بايجاز شديد العوامل التى دفعت الى قيام هذه الثورة .

ولاول وهلة ، توصف ثوره عرابى بانها ثورة عسكرية ، لان زعيمها والقائمين عليها هم من ضباط الجيش ، ولانها قامت وتحركت بقوة الجيش ، ولكن مما لا ريب فيه انها ليست ثورة عسكرية فحسب،

---

(١) أمين سعيد (المصدر السابق) ص ٩٧ - ٩٨ .

(٢) د . محمد فؤاد شكرى - مصر والسودان ص ١٩٨ - ٢٠٠ .

بـل هى ايضـا ثوره وطنية اشتركت فيهـا طبقـات الامـة كافـة ، واذا اردنا ان نحلل اسبابها وجدناها على نوعين : اسباب خاصة مباشرة ، وهى المرتبطة بفئة الضباط والجنود وموقفهم من الحـكومة وموقف الحكومة منهم ، وأسباب عامة وهى التى تتصل بحالة الشعب والعوامل التى دفعته الى مناصرة الثورة وتاييدها (١) ٠

الأسـباب المباشرة :

ترجع الأسباب الى الشعور بالظلم بين ضباط الجيش نتيجة لاستئثار الجراكسة ـ والأتراك ـ كما قلنا ـ بالمناصب العليا فى الجيش ، ولاستئثار هذه الفئة ايضـا بالمرتبات الضـخمة والترقيات فى حين ظل الضـباط المصريون محرومين من هـذا كله ٠

كما يرجع تذمر الضباط المصريين الى ايام حملة الحبشة سنة ١٨٧٦، وذلك لسوء تصرف القيادات واهمالها الذى أودى بحياة الألوف من الجنود، فتكونت من هؤلاء عند عودتهم جمعية سرية ، كان من رجالها أحمد عرابى وعلى فهمى وعلى الروبى ، وكان غرضهم فى هـذا الوقت المبكر الى جانب التخلص من الفئة الشركسية التركيـة فى الجيش وفتـح باب الترقـى للمصريين ، القضـاء على حكومـة الخديو اسماعيل وعزل الخديو نفسه ثـم تعرف أحمـد عرابى بالشيخ محمـد عبده ومحمود سامى البارودى ويعقوب سامى وغيرهم ، وحدث أول تآزر بين العسكريين والوطنيين فى حـادث مظاهرة ١٨ فبرايـر سنة ١٨٧٩ (٢) ٠

ولا شك أن وجود عثمان رفقى وزيرا للحـربية فى عهد وزارة رياض باشا ـ التى شبت الثورة فى عهدها ـ كان سببا فى حد ذاته من أسـباب الثورة ٠ فقد كان شركسيا متعصبا للضـباط الذين هم من أصل شركسى او تركى . على ان المظالم التى عانى منهـا الضباط المصريون ، لم تكن تتوقف

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ـ الزعيم الثائر احمد عرابى ـ الطبعة الثالثة ص ١٥ ـ ١٦ ٠

(٢) د ٠ محمد فؤاد شكرى ـ مصر والسودان ص ٢٠٠ ٠

عند حد حرمانهم من حقوقهم فى الترقى ، بل كانوا هدفا للاضطهاد كذلك . اذ كان يكفى أن تلصق بأحدهم تهمة ما ولو كانت كاذبة ليكون جزاؤه العزل أو النفى ، فالثورة العرابية كانت ثورة مشروعة للدفاع عن الحق والدفاع عن الحياة . ولا جدال فى أن ظهور أحمد عرابى على مسرح الحوادث ، كان من الأسباب المباشرة للثورة ، فهو الذى بث فى نفوس الضباط روح التضامن والاتحاد للمطالبة بالحقوق المهضومة .

الأســـباب السياسية :

ترجع تلك الاسباب الى تذمر المصريين بصفة عامة من سوء نظام الحكم القائم ورغبتهم فى التخلص منه ، فقـد كان قوام هذا النظام استبداد الحكام واضطهادهم للمواطنين .

فالمصريون اذن كانوا يتطلعون الى التخلص من نظام الحكم القائم ، وقد أدرك المثقفون من الأمة أن اصلاح هذا النظام انما يكون بقيام الدستور وانشاء مجلس نيابى يرطد مبادىء العدل والحريـة ويتحـقق فيـه معنى الرقابة على الحكام ، ويحول دون ارتكاب المظالم ... ومن هنا اتحـدت الفئة المثقفة من الامة مع الضباط والوطنيين فى الشعور والميول واجمع الكل على المطالبة بالمجلس النيابى ، فالثورة العرابية من هذه الوجهة كانت ثورة على المظـــالم .

وبينما كانت فئة المثقفين ترتقب اعلان الدستور على يد الخديو توفيق اذا بهم يرون شريف باشا يستقيل لمعارضة توفيق تشكيل مجلس النواب واصراره على الحكم المطلق ، ثم تكليفه رياض باشا بتأليف وزارة كان من مبادئها الأساسية حكم البلاد حكما مطلقا ، وهكذا عارض رياض فى انشاء مجلس النواب وانحاز للنفوذ الاوربى ، واصر على قمع كل معارضة بالشدة ، كما انذرت الصحف المعارضة وعطلت بعضها . ولقد كان للصحف المعارضة دورها البارز ، فما كانت تبثه من روح التبرم بنظام الحكم والتطلع الى الحرية والدستور وما لقيته من اضطهاد ، كل ذلك كان من الأسباب الممهدة للثورة والمحرضة عليها .

الأسـباب الاقتصـادية :

كانت الأحوال الاقتصادية فى ذلك الوقت شديدة الوطأة على المواطنين، فان الديون التى امترضها الخديوى اسماعيل ، القت على البلاد عبئا جسيما من الأثقال الفادحـة ، وأضطرت الحكومة الى تخصيص نصـف موارد الميزانية لسـداد فوائد الديون ، فكان ذلك سـببا لتذمر المواطنين ، لأن تخصيص هذا المبلغ الضخم الذى يجبى كل عام من عرق الفلاح وكده معناه حرمان المواطنين من ثمرة جهودهم واضاعتها لحساب الدائنين ، هذا فضـلا عن فداحة الضرائب فى مجموعها ، وعدم توزيعها توزيعا عادلا واقتضـائها بوسائل القهر والارهاق ، فانضم المواطنون الى الثورة وشايعوها آملين أن تخفف عنهم أعباء الضرائب .

وكان استفحال نفوذ الاجانب عـامة واستحواذهم على مرافق البلاد الاقتصادية قد أدى الى تبرم الأهالى بنظام الحكم ، فان الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها والمزايا التى نالها التجار والمرابون منهم اكسبتهم الأموال الطائلة ، فاثروا على حساب الخزانة المصرية وعلى حساب المواطنين .

ومن مظاهر سياسة الحكومة الاقتصادية انقاص عدد الجيش توفيرا للنفقات وسواء كان هذا الانقاص بسبب الأحوال الاقتصادية أو لاضعاف الجيش عمدا ، فمما لا شك فيه أن احالة الكثير من الضباط الى الاستيداع ، قد أدى الى مشاركة هؤلاء للموظفين الذين رأوا مظاهر اتساع سلطة الأوربيين وازدياد نفوذهم فى دور الحكومة وتمييـزهم بالرواتب الضـخمة مما ملأ نفوسـهم بروح السخط والتبـرم .

الأسـباب الاجتمـاعية :

ان حالة المجتمع المصرى كانت تؤهله فى ذلك الوقت لتلبية نداء الثورة وذلك كما قلنا - نتيجة لشعور المواطنين بالمظالم الواقعة عليهم ، فانتشـار التعليم فى عصر محمـد على والبعثـات التى اوفـدهـا هـذا الوالى ، والنهضـة الادبية التى صاحبت النهضـة العلمـة ، والصحافـة التى ادلت بدلوها فى ترقية الأفكار ، وتاثير جمـاعة من المفكرين على رأسهم السـيد جمال الدين الأفغانى فى المجتمع المصرى ، كل ذلك ادى الى زيادة الشـعور

بالظلم والى ضرورة التغيير (١) ٠

أحــداث الثــورة :

منذ مظاهرة ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ تفشى السخط والقلق فى صفوف الجيش المصرى وبعد خلع الخديو اسماعيل أصرت لجنة التصفية على صدور مرسوم خديوى بخفض عدد الجيش وترتب على ذلك تسريح نحو ١٣٠٠ ضابط بحيث لم يبق فى الخدمة سوى ٥٠٠ ضــابط ، أمــا المسرحون فقــد أصبحوا يتقاضون ما بين ربع مرتباتهم ونصفها ٠ ويضــاف الى ذلك ان وزير الحربية عثمان رفقى الشركسى الأصل أمرا عســكريا بقفـــل بــاب الترقية فى وجه الضباط الوطنيين (٢) ٠

وفى وسط هذه المظالم ، تطلع ضــبـاط الجيش الى رجل منهم يتولى زعامتهم وتوحيد كلمتهم للمطالبة بحقوقهم ، فوجدوا فى أحمد عرابى ذلك الزعيم ٠٠ ويمكن تحديد سنة ١٨٨١ لبدء زعامته العســكرية على معظم ضباط الجيش ، وفى هذه السنة كان عثمان رفقى يتولى وزارة الحربية وكان وحده من أسباب ظهور الثورة العرابية ، وآخر ما وقع منه ، مما عجل بالثورة أنه أصدر أمرا بنقل الأميرالاى عبد العال حلمى - حد زعماء الثــورة فيما بعد - قائد آلاى طره الى ديوان الجهادية (وزارة الحــربية) وجعله معاونا بها ، وفى هذا انتقاص من درجته ومركزه ٠

وكانت هذه الحادثة البسيطة هى القطرة التى أفاضـــت الاناء ، أو الشرارة التى أوجدت الثورة اذ سرعان ما اجتمع الضباط المصريون فى دار احمد عرابى واتفقوا على كتابة « عريضة » الى رئيس الوزراء رياض باشا يطلبون فيها عزل وزير الحربية عثمان رفقى ٠

ويعد هذا الاجتماع فاتحة الثورة العرابية ، لأن تعاهد كبار الضباط على مقاومة تنفيذ الأوامر العسكرية والجهر بمناصبة وزير الحربية العداء والمطالبه بعزله واختيارهم عرابى زعيما لهم فى هذه الحــركة ٠٠ كل ذلك معناه الخروج على النظام وتحدى الحكومة ٠

---

(١) عبد الرحمن الرافعى - الزعيم الثائر أحمد عرابى ص ١٦ - ٣١٠
(٢) د ٠ أحمد عبد الرحيم مصطفى - مصر والمسالة المصرية ص ١٣٥٠

وفى ١٧ يناير سنة ١٨٨١ قدم الضباط الثلاثة أحمد عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى العريضة الى رياض باشا الذى وعدهم بالنظر فى الأمر . وبعد اسبوع من هذه المقابلة ذهبوا الى داره وقابلوه ثانية وسألوه عما تم فى أمر العريضة فأجابهم مهددا متوعدا . فلم يتراجع عرابى وصاحباه أمام هذا التهديد وأصروا على طلباتهم ، وانتهى الحديث بأن أخبرهم بأنه سينظر فى الأمر ، وانصرفوا على ذلك .

اجتمع مجلس الوزراء يوم ٣١ يناير سنة ١٨٨١ فى سراى عابدين برياسة الخديو وبحث فى أمر هذه العريضة .. فاستقر الرأى على وجوب محاكمة الضباط الثلاثة والقبض عليهم لتقديمهم الى المجلس العسكرى ، وأخذ عثمان رفقى على عهدته تنفيذ القرار وأن يكون مسئولا اذا حدث ما يخل بالأمن . ولم يعرف الضباط الثلاثة ما قدره مجلس الوزراء فى شأنهم ، ولم يخطرهم عثمان رفقى بأمر القبض عليهم .. بل نفذه بطريقة ملتوية لا تدل على شعور الحكومة بهيبتها وسلطانها ، وذلك أنه تحايل عليهم وأرسل اليهم مساء ذلك اليوم بطاقات يدعوهم فيها الى الحضور لديوان الوزارة - بقصر النيل - صباح اليوم التالى بحجة المداولة معهم فى ترتيب الاحتفال بزفاف الأميرة جميلة هانم شقيقة الخديوى (١) .

وفى أول فبراير سنة ١٨٨١ عقد مجلس عرفى فى ثكنات قصر النيل ، ولكن أنباء المؤامرة تسربت الى الضباط الثلاثة عن طريق زوجة رياض - وكانت مصرية - فاستعد الجيش للموقف ، وحين بدأت محاكمة الضباط الثلاثة تصدت كتائب الجيش لاطلاق سراحهم ، ثم توجهت الى ميدان عابدين حيث كررت المناداة بمطالب الضباط . وكان موقف الحكومة ميئوسا منه ، بعد أن انضم الجيش بأسره - باستثناء حفنة الأتراك والشراكسة - الى الضباط الثلاثة . وحين اعترف الخديو لقنصلى انجلترا وفرنسا بأنه لا نصير له فى الجيش ، نصحاه باقالة عثمان رفقى تفاديا لحدوث كارثة ، وتم تعيين محمود سامى البارودى - وكان قد قام بدور الوساطة اثناء هذه الحادثة وحصل على ثقة الضباط الوطنيين رغم أصله الشركسى - وزيرا

---

(١) عبد الرحمن الرافعى - الزعيم الثائر أحمد عرابى ص ٣١ - ٣٦ .

للحربية بالاضافة الى منصبه السابق كوزير للأوقاف (٢) .

ولم يكن لواقعة قصر النيل اثرها فى الجيش فحسب ، بل كان لها أثر بالغ فى الأمة . اذ جعلت لعرابى مكانة كبيرة فى البلاد ، والواقع ان الحادثة وما تنطوى عليه من الجرأة على الحكومة واطلاق سراح المسجونين وعـزل وزير الحـربية وتعيين وزير يؤيد الجيش فى مطالبه ، كل هذه الأعمـال جعلت من عرابى زعيما قوميا اتجهت اليه الأنظـار لتحقيق أمـانى الشعب .

وكانت المظالم التى شكا منهـا زعمـاء الجيش ، تشبه المظالم التى كانت البلاد تشكو منهـا ، ولـم يكن الناس راضين عن الحكومة وسـياستهـا ، فلا غرو ان اغتبط الناس لتحقيق مطالب الجيش ، وذاع فى البلاد اسـم عرابى كمنقذ للأمـة من المظالم .

ولما اطمأن عرابى الى أن الجيش فى قبضة يده والأمـة تناصره شرع فى احداث الانقلاب الذى كان يرجوه فى نظـام الحكم ، أو بعبارة أخرى أخذ يتأهب لمتابعة الثورة التى بدأها يوم أول فبراير سنة ١٨٨١ .

وكانت الحكومة من ناحيتهـا تدفعه الى الثورة دفعـا ، بمـا بـدا منهـا من الحركـات العدائيـة التى قصدت منهـا تفريق شمـل زعمـاء الجيش وضباطه تمهيدا للتنكيل بهم ، وأخذ الخديوى ينفذ خطته وقوامها تفريق وحدات الجيش ، ونقل الفرق المواليـة للحركـة الثوريـة من العاصمة لكى يستبدل بهـا فرقـا أخـرى موالية لـه ... وهكـذا قـرر عرابى تحـريك الجيش والسير به الى سراى عابدين فى شكل مظاهرة عسكرية لأملاء ارادته على الخديوى ولكى يضـع حدا للحالة القلقة التى وصلت اليهـا البـلاد ولاحداث الانقـلاب الذى اراده .

وفى ٩ سبتمبر سـنة ١٨٨١ احتشدت جميـع آلايات الجيش الرابطة بالقاهرة فى ميدان عابدين لتقديم طلبات الامة الى الخديو ، وقوامهـا اسقاط الوزارة وتأليف المجلس النيابى وزيادة عدد أفـراد الجيش .

---

(١) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى - مصر والمسـألة المصرية - ص ١٣٥ - ١٣٦ .

وفى هذا اليوم المشهود ، دارت تلك المنافسة الشهيرة بين عرابى والخديو ووصلت المناقشة ذروتها عندما تساءل الخديو عن مطالب الجيش والأمة فأجابه عرابى « هى عزل رياض باشا وتشكيل مجلس النواب وابلاغ عدد الجيش الى العدد المعين فى الفرمانات السلطانية » فقال الخديو ، كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا خديو البلد وأعمل زى ما أنا عاوز ، فقال عرابى جملته التاريخية « ونحن لسنا عبيدا ولا نورث بعد اليوم » .

وهكذا تراجع الخديو ، وأبدى موافقته على مطالب الجيش والأمة ، وسقطت وزارة رياض ، وكلف شريف باشا برئاسة الوزارة بعد أن وافق عرابى على هذا التعاقب .

وتعد وزارة شريف « وزارة الأمة » وقد ابتهجت الأمة ابتهاجا كبيرا بتأليفها .

وفى مجال الاصلاح الدستورى ، عمدت وزارة شريف الى اجراء الانتخابات العامة ، طبقا لنظام مجلس شورى النواب القديم الذى يجعل انتخاب النواب موكولا الى عمد البلاد ومشايخها فى المديريات وجماعة الأعيان فى القاهرة والاسكندرية ودمياط . وتم افتتاح مجلس النواب فى يوم ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ .

ومن اهم اصلاحات الوزارة بعد الاصلاح الدستورى هو انشاء المحاكم الأهلية ووضع نظامها الجديد ، ففى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٨١ صدر القانون المعروف بلائحة ترتيب المحاكم الأهلية ، وهى تتضمن معظم القواعد العامة للنظام القضائى الحالى (١) .

ثم اعد شريف اللائحة الأساسية ، او الدستور لعرضه على مجلس النواب وكان هذا الدستور يتضمن مبدأ المسئولية الوزارية امام المجلس، ومراقبة أعمال السلطة التنفيذية ، ويعطى للمجلس حق اقرار القوانين ،

---

(١) لمزيد من التفصيلات أنظر :
عبد الرحمن الرافعى ـ الزعيم الثائر احمد عرابى ص ٥٣ ـ ٨٧ .

والميزانيـة والضرائب ، بحيث تعـذر على الحكومـة فرض اى ضرائب ، او استصدار القوانين الا بعـد تصديق المجلس • وكان معنى هذا اعطاء مجلس النواب حق النظـر فى الترتيبات اللازمـة او المتصلة بالتسوية المالية ، وذلك فى وقت اشتد فيه السخط على أعمـال المراقبة الثنائية التى تأسـست كمـا عرفنـا سنة ١٨٧٩ بل على التدخل الاوربى بصفة عامة •

وازعج فرنسـا اعداد هـذا الدستور الجديد ، وخصوصـا لأن الصحف المصرية مثل الحجاز والمحروسة ومصر كانت تحمـل آنئذ حملات عنيفـة على التدخل الأجنبى ، وعلى الانجليز والفرنسيين على السواء ، فصـار الخوف عظيمـا من ان تشتد المعارضـة ضد هـذا التدخـل عندمـا يجتمـع مجلس النواب (١) •

وفى اليوم الثامن من ينايـر سنة ١٨٨٢ ، توجه السير ادوارد مالت معتمـد انجلترا والمسيو سنكفكس المعتمـد الفـرنسى مجتمعين الى قصر عابدين وقدما الى الخديو مذكـرة مشتركـة من الدولتين بتاريخ ٧ ينـايـر سنة ١٨٨٢ قوامهـا انهمـا حيال الحوادث الأخيرة قد اجتمعـا على تأييد سلطة الخديو ، وفحوى المذكرة أن الدولتين انتحلتـا لنفسيهمـا حق القوامة والرقابة على مصر واقرار الأمن والنظـام فيهـا ، والتدخل فى شئونهـا الداخلية ••• وظاهـر من عباراتهـا ان فرنسـا وانجلترا كانتا تنظـران بعين الاستياء الى تاليف مجلس النواب ، وقيـام النظـام البرلمانى فى مصر ••• ولـم تكتمـا الاعراب عن هـذا الاستيـاء صراحة فى المذكرة اذ جعلتـا من الحوادث الموجبة للتدخل « صدور الأمـر الخديوى باجتمـاع مجلس النواب » (٢) •

ولقد ثارت ثائرة الرأى العام فى مصر على هذه المذكرة بسبب ما انطوت عليه من معانى التحدى لمجلس النواب اولا ، اى محاولة تعطيل الحركـة الدستوريـة ، وثانيا تشجيع الخديو على معارضة كل اصلاح • واعتبـر

---

(١) د• محمد فؤاد شكرى ـ مصر والسودان ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦

(٢) عبد الرحمن الرافعى ـ الزعيم الثائر احمد عرابى ص ٨٨ ـ ٨٩

المدنيون والعسكريون ان المذكرة تعبر عن خطة عدائية صريحة ضد مجلس النواب لأنها صدرت وقت انعقاده ٠

وكانت المذكرة تهديدا بالتدخل فى وقت لاتدعو فيه حالة البلاد الداخلية الى اتخاذ أية خطوة من هذا القبيل ما دام زعماء الحركة من مدنيين وعسكريين لا يبغون التعرض للاتفاقات الدولية التى حددت وضع البلاد السياسى ، أو تلك التى قامت على اساسها التسوية المالية ، وما دام الغرض من حركتهم الدستورية تقييد سلطة الحكومة بأن تصبح مسئولة امام مجلس النواب ٠

ولم يلبث أن ظهر التآزر واضحا بين المدنيين والعسكريين ، أو بين الحزبين الوطنى والعسكرى داخل مجلس النواب لمناوأة التدخل الانجليزى الفرنسى ، واصطدم النواب مع وزارة شريف المتعاونة مع المراقبة المالية ، وذلك عندما أصر النواب على أن لهم الحق فى تقرير الميزانية على أن لا يتعرضوا للجزء المخصص من الايرادات للدين العام ٠ وهذا على خلاف ما كان يراه محمد شريف من ضرورة التريث وارجاء البحث فى الميزانية حيث أن هذه كان قد صدر مرسوم باعتمادها فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٨١ اى قبل انعقاد مجلس النواب باسبوع ، ولن يكون هناك بحث للميزانية الا فى ختام عام ١٨٨٢ عند النظر فى اعداد ميزانية السنة الجديدة (١٨٨٣) ٠

وكان شريف قد ارتبط بوعد وعد به المراقبة المالية بعدم تخويل المجلس الحق فى تقرير الميزانية بسبب اصرار المراقب المالى الانجليزى والمراقب الفرنسى على حرمان المجلس من هذا الحق بدعوى انه ولو كان مقصورا على المصالح التى لم تخصص ايراداتها للدين العام ، فانه يضر بالضمانات المقررة للدائنين ، اذ انه كنتيجة حتمية سوف يحل مجلس شورى النواب محل الوزارة فى ادارة شئون البلاد فيبطل بذلك عمل (المراقبة) وهو ابداء ملاحظات على تصرفات وزراء مسئولين امام الخديو وفى وسعه عزلهم اذا أساءوا التصرف ، بينما لا يكون للاحظات المراقبة أية قيمة عملية أمام مجلس شورى النواب ٠

وخشى بعض المدنيين مثل الشيخ محمد عبده من أن يؤدى الصدام بين العرابيين وبين الوزارة الى اصرار فرنسا على تنفيذ ذلك التعهد بتأييد الخديوية الذى ذكرته المذكرة المشتركة ، مما يخشى منه احتلال البلاد ٠ وكان الخوف من هذا الاحتلال منتشرا من آثار ارسال هذه المذكرة(١) ٠

وهكذا استقالت وزارة شريف فى ٢ فبراير سنة ١٨٨٢ وتألفت وزارة برئاسة محمود سامى البارودى ، وكان من اعضائها أحمد عرابى وزيرا للجهادية والبحرية ، فجاء تأليفها انتصارا ظاهرا للحزب العسكرى(٢) ، واقصاء تاما لسلطة الخديوى وتحديا سافرا للمراقبة الثنائية والتدخل الاجنبى ٠

ولا شك أن الثورة العرابية بدأت تسلك سبيلا بعيدا عن الحكمة من يوم أن اتفق عرابى وصحبه على اسقاط وزارة شريف وبدأت بذلك مرحلة الشطط ، فان شريف كان بلا نزاع اقدر من البارودى على حسن تدبير الامور فى تلك الاوقات العصيبة ، اذ كان له من ماضيه السياسى ما يجعل له كفاية خاصة فى الاضطلاع بالمهام السياسية ٠

وقد عظم شأن عرابى بتقلده وزارة الحربية ، فانها الوزارة الوحيدة التى كانت تتطلع اليها الانظار فى ذلك الحين ٠٠ وفيها كانت تتمثل سلطة الحكم ، فاصبح عرابى الرئيس الفعلى للحكومة ، وزاد من مكانته تقلده رتبة اللواء ولقب الباشوية لما للالقاب والرتب من الاثر الكبير فى ذلك الوقت وصار له الامر والنهى لا فى وزارة الحربية فحسب بل فى كل وزارات الحكومة ٠

وقد اقر مجلس النواب الدستور ، وصدر به المرسوم الخديوى فى ٨ فبراير سنة ١٨٨٢ وكانت مدة انعقاد المجلس فترة تقدم ونشاط تمتعت مصر خلالها بالهدوء والسكينة ، ولم تكد تنتهى الدورة النيابية حتى اكفهر جو الصفاء ، واخذت الاحداث تتوالى على البلاد ٠٠ فكان انفضاض المجلس بالانتكاس ٠

---

(١) د٠ محمد فؤاد شكرى - مصر والسودان ص ٢٢٥ - ٢٢٦

(٢) John Marlowe op. cit., p. 119.

وأولى الاحداث الداخلية التى انتابت البلاد بعد انفضاض مجلس النواب هى مؤامرة الضباط الشراكسة ... وهى حادثة خطيرة كان لها تأثير كبير فى التطور للثورة العرابية بل فى مصير البلاد قاطبة(١) . فعندما زادت الوزارة من مرتبات رجال الجيش ، ورقت عددا كبيرا من الضباط الوطنيين ، استاء الضباط الاتراك والشراكسة فتآمروا على حياة أحمد عرابى ورؤساء الحزب العسكرى ، ومن ثم تم القبض على ٤٨ من هؤلاء المتآمرين ومن بينهم عثمان رفقى نفسه وحوكموا امام مجلس عسكرى محاكمة سرية ، وفى ٣٠ ابريل سنة ١٨٨٢ صدر الحكم على أربعين منهم بالنفى الى اقاصى السودان (٢) مع تجريدهم من الرتب العسكرية والامتيازات والنياشين ورفع الحكم الى الخديو للتصديق عليه ، فرآه بالغا منتهى القسوة ، فامتنع عن اقراره ، وحدث من اجل ذلك خلاف كبير بينه وبين الوزارة اذ اصر على تعديل الحكم وتمسكت الوزارة باقراره ، وانتهى الأمر بان اصدر الخديو (ارادة سنية) فى ٩ مايو سنة ١٨٨٢ بتعديل الحكم الى النفى من القطر المصرى والسماح للمحكوم عليهم بالتوجه ان شاءوا خارج القطر مع عدم حرمانهم من رتبهم ونياشينهم ، وقد وقع الخديو هذه الادارة بحضور السير ادوارد والمسيو سنكفكس قنصلى بريطانيا وفرنسا .

على ان هذا التعديل لم يحسم الخلاف بين الخديو والوزراء ، فقد ذهب البارودى الى الخديو عقب توقيعه امر التعديل ، ولامه فى لهجة شديدة لنزوله على ارادة قناصل الدول واهماله راى الوزراء ، وطلب اليه اضافة عقوبة التجريد من الرتب العسكرية الى امر التعديل (٣) .

وقد استاءت الوزارة من تصرف الخديو الذى أجاز تدخل الدول الأجنبية لمحاولة الاستفادة من تعهد فرنسا وانجلترا الذى تضمنته مذكرتهما المشتركة فى ٧ يناير سنة ١٨٢ بتأييد الخديوية وقررت الوزارة دعوة مجلس النواب للاجتماع لتعرض عليه الخلاف بينها وبين الخديو .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى الزعيم الثائر احمد عرابى ص ٩٥ - ٩٩ .
(٢) د . محمد فؤاد شكرى - مصر والسودان ص ٢٣٣ .
(٣) عبد الرحمن الرافعى - الزعيم الثائر احمد عرابى ص ٩٩ - ١٠١

وذاعت الأنباء عن تصميم العرابيين على خلع الخديو ٠٠ وأخير امكن الوصول الى تسرية ظاهرية فحسب وبعد جهد ومشقة ٠ وذلك على اساس بقاء الوزارة وتعديل الاحكام العسكريه طبقا لما رآه الخديو (١) ٠

وكان يجمل بعرابى وصحبه أن يقبلوا هذا التعديل من بادىء الامر بغير حاجة الى ايجاد هذه الازمة ، وكان الانفع للبلاد ما داموا قد قبلوا التعديل فى النهايه الا يثيروا من أجله حربا بينهم وبين الخديو فى وقت كانت الأخطار نكتنف مصر فيه من كل جانب ، ولم يكن الخلاف الذى شجر بينهم وبين الخديو مما يستوجب عقد مجلس النواب لان عقد المجلس بصفة مستعجلة وبغير الاوضاع القانونية معناه اعلان الثورة على الخديو، ولم يكن بقى من أوجه الخلاف بعد ان اتفقت وجهة نظر الفريقين على تعديل الحكم سوى تجريد الضباط المحكوم عليهم من الرتب العسكرية أو عدم تجريدهم ٠٠٠ والمجالس النبابية لا تعقد بصفة غير عادية من أجل خلاف صغير كهذا ٠

وفى اثناء الخلاف بين الوزارة والخديو ، تواترت الأنباء عن اعتزام فرنسا وانجلترا ارسال اسطوليهما الى الاسكندرية ، وقد تحققت هذه الأنباء ٠٠ فقررت الدولتان على اثر ما بلغهما من اشتداد الخلاف بين الخديو والوزارة دعوة مجلس النواب بدون امره ، ارسال اسطوليهما الى مصر ، اذ عدتا هذه الحالة ثورة تستدعى التدخل ، وقد افضى اللورد جرانفيل وزير خارجية انجلترا بهذه الفكرة يوم ١٢ مايو سنة ١٨٨٢ الى المسيو تيسيو سفير فرنسا فى لندن قائلا ان الحاجة ماسة الى القيام بمظاهرة بحرية فى مياه الاسكندرية ٠ وقد صادفت هذه الفكرة قبولا من الحكومة الفرنسية ٠ وسوغت الدولتان هذا العمل بأن الغرض منه حماية رعاياهما من الأخطار التى يستهدفون لها ، ولم يكن ثمة خطر ولا خوف من هذه الناحية وانما هى حجة مصطنعة ووسيلة باطلة تستر الغرض الحقيقى وهو خلق الذرائع للتدخل المسلح فى شئون مصر (٢) ٠

---

(١) د ٠ محمد فؤاد شكرى ـ المصدر السابق ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥ ٠

(٢) عبد الرحمن الرافعى الزعيم الثائر احمد عرابى ص ١٠٣ ـ ١٠٤

وقد هز تتابع وصول البوارج الانجليزية الى الاسكندرية الرأى العام المصرى هزا شديدا ، وقام القنصل الفرنسى فى يوم ٢٢ مايو اى بعد وصول الأسطول الانجليزى بيومين اثنين بزيارة محمد سلطان رئيس مجلس النواب حاملا اليه مطالب الحكومتين الانجليزية والفرنسية وهى ٠

١ — استقالة وزارة البارودى ٠

٢ — اخراج عرابى من القطر المصرى على أن تضمن له انجلترا وفرنسا راتبه ورتبته وأوسمته ٠

٣ — تحديد اقامة على فهمى وعبد العال حلمى فى ريف مصر وتضمن الدولتان رتبهما ومرتباتهما ٠

٤ — تسريح الجيش المصرى فلا يبقى منه سوى عدد قليل للمحافظة على الحدود الجنوبية (١) ٠

وقد رفضت الوزارة هذه المذكرة على اساس انها قد تضمنت مطالب فيها اعتداء على الفرمانات والمعاهدات الدولية ، ولأن الوزارة ترى ان هذه المطالب متعلقة بمسألة داخلية ، فاذا كانت الدولتان تريان أنها متلعقة بمسالة سياسية عمومية ، فالواجب عرض هذه المسالة على تركيا صاحبة السيادة الشرعية على مصر (٢) وقام رئيس مجلس النظار ومعه وزير الخارجية بزيارة الخديو وابلغاه قرار المجلس برفض المذكرة وطلبا منه ان يتضامن مع حكومته فى رفضها (٣) فأجابهما الخديو انه قد قبل مطالب الدولتين بالفعل ، ومن ثم استقالت وزارة البارودى احتجاجا على مطالب الدولتين وعلى قبول الخديو اياها ، فقبل الخديو استقالتها (٤) وقد ادى هذا الموقف بين الحكومة التى تدافع عن حقوق مصر ومكانتها وبين الخديو الى هياج الرأى العام واشتداد السخط على الخديو ، وارتفعت الأصوات

---

(١) أمين سعيد — تاريخ مصر السياسى (١٢) ص ١٤٤ — ١١٥ ٠

(٢) د ٠ محمد فؤاد شكرى — مصر والسودان ص ٢٥٤ ٠

(٣) أمين سعيد — المصدر السابق ص ١١٥ ٠

(٤) عبد الرحمن الرافعى — أحمد عرابى ص ١٠٧ ٠

كل مكان بالدعوة الى خلعه (١) .

وبالرغم من استقالة الوزارة ، فان عرابى بقى على اتصال دائم بضباط الجيش لكى يضمن أن لا يقبل الجيش وزيرا للحربية سواه .. وهذا ظاهر من الخطاب الذى أرسله بتاريخ ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ الى انصاره من الضباط ، فقد أخبرهم فيه انه مع استقالته من وزارة الحربية فانه لم يستقل من رياسة الحزب الوطنى ، ويطلب اليهم أن يأتمروا بأوامره وأن يحافظوا على الأمن ويقول عرابى فى مذكراته انه أرسل هذه الرسالة تلغرافيا الى جميع المراكز العسكرية . بعد أن قابله قناصل الدول وطلبوا اليه تأمين رعاياهم . ولم يكن من الميسور فى هذه الظروف تأليف وزارة جديدة تخالف الوزارة المستقيلة فى خطتها وتنال ثقة النواب والضباط (١) واضطر الخديو الى ابقاء عرابى فى منصب وزير الحربية ورئاسة الجيش حتى يأمن على حياته (٢) وأصدر امرا اليه هذا نصه « ولو أنكم استعفيتم ضمن هيئة النظار التى استعفت ولكن مراعاة لحفظ الراحة والأمنية ، استصوبنا بقائكم على نظارة الجهادية والبحرية . وأصدرنا أمرنا هذا لكم لتعملوه وتبادروا باجراء ما فيه انتظام أحوال العسكرية بالطريقة الكاملة لحفظ الأمنية العمومية على الوجهة المرغوب كما هو مقتضى ارادتنا » (٣) .

وقد بقيت البلاد بلا وزارة منذ استقالة البارودى فى ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ . ومنذ منتصف يونيو اتجهت الأنظار الى وجوب تأليف وزارة تضطلع بأعباء الحكم . وكان الخديو قد بارح القاهرة الى الاسكندرية ، فسعى قنصلا النمسا والمانيا لديه للتقريب بين الخديو وعرابى وترغيبه فى تأليف وزارة جديدة يبقى فيها عرابى وزيرا للحربية . فأخذ الخديو يستشير بعض رجال الدولة فى أمر تأليف الوزراء الجديدة ، فاستدعى شريف باشا ثم مصطفى فهمى باشا ثم عمر لطفى باشا وغيرهم وكلف

---

(١) أمين سعيد - المصدر السابق ص ١١٥ - ١١٦ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى - أحمد عرابى ص ١٠٧ .

(٣) د . محمد فؤاد شكرى - المصدر السابق ص ٢٥٥ .

(٤) عبد الرحمن الرافعى - أحمد عرابى ص ١٠٩ .

كلا منهم بتأليف الوزارة فأبوا جميعا لما كان بينهم وبين عرابى من جفاء • وتدخل قنصلا ألمانيا والنمسا ، واتصلا بعرابى وتفاوضا معه فى هذا الشأن ، واستقر الرأى على النصح للخديو باختيار اسماعيل راغب باشا لتشكيل الوزارة ، وعلى ذلك الف راغب باشا الوزارة وفيها عرابى وزيرا الحربية كما كان • وقد قابلت السياسة الانجليزية هذه الوزارة بجفاء وعدم ثقة ، وبارح السير ادوارد ماليت قنصل بريطانيا العام الاسكندرية يوم ٢٧ يونيو ، وغادر المدينة ايضا المستر كوكس القنصل البريطانى • واوعزت الحكومة البريطانية الى السير اوكلن كولفن الرقيب المالى الانجليزى بالامتناع عن حضور جلسات مجلس الوزراء ، وكانت هذه علامات تنذر وتنبىء بما كانت تبيته السياسة الانجليزية من اثارة الحرب والقتال (١) •

ومنذ ٢٩ مايو ١٨٨٢ بدات انجلترا تعلن عن نيتها فى الانفراد بالتصرف فى شئون مصر ، ففى ذلك التاريخ ابلغ قائد اسطولها فى الاسكندرية حكومته بأن المصريين ينشئون بطارية تجاه احدى البوارج البريطانية ، وطالب بارسال قطع بحرية بريطانية اخرى ، وقد اجابته الحكومة الانجليزية الى طلبه ، وكان هذا بالفعل اعدادا لعملية الاحتلال •

وقد اثارت هذه العملية شكوك فرنسا ، ومن ثم دعا المسيو دى فريسينيه رئيس الوزراء الفرنسية الدول الاوربية الكبرى الى عقد مؤتمر للنظر فى المسألة المصرية ، فلبى هذه الدعوة كل من انجلترا والمانيا والروسيا وايطاليا والنمسا •• اما تركيا ومصر فانهما رفضتا الاشتراك فيه ، وكان من المهازل السياسية ان يجتمع مؤتمر دولى فى الأستانة دون أن تشترك فيه حكومة الآستانة ذاتها ودون ان تشترك فيه مصر •

وليس هذا المظهر وحده هو الذى يدل على اضطراب السياسة العثمانية فى المسألة المصرية ، بل أن مسلكها كله كان مجموعة من المتناقضات ••• فبينما كانت تتظاهر بتاييد سلطة الخديو ، اذا

---

(١) عبد الرحمن الرافعى - أحمد عرابى ص ١٢٦ - ١٢٧ •

بالسلطان عبد الحميد يعلن عطفه على عرابى ويمنحه نيشانا رفيعا ، ثم اذا جد الجد ونشبت الحرب بينه وبين الانجليز يطعنه فى الصميم باعلان عصيانه ، فكان هذا الاعلان من اكبر اسباب هزيمته وخذلانه ، فهذا التناقض والاضطراب جعل السياسة التركية عامل فساد استخدمته بريطانيا لتحقيق اطماعها فى مصر ٠

وفى ٢٥ يونيو سنة ١٨٨٢ أبرم المؤتمر العهد المشهور بميثاق النزاهة وقد وضعه المسيو دى فريسينية وعرضه على اللورد جرانفيل فقبله وهذا نصه « تتعهد الحكومات التى يوقع مندوبوها على هذا القرار بأنها فى كل اتفاق يحصل بشأن تسوية المسألة المصرية لا تبحث عن احتلال أى جزء من أراضى مصر ولا الحصول على امتياز خاص بها ولا على نيل امتياز تجارى لرعاياها لا يخول لرعاياها الحكومات الاخرى ٠ وقد وقع عليه أعضاء المؤتمر جميعا » (١) ٠

واستمر المؤتمر يعقد جلساته على غير طائل ، وانجلترا تعد المعدات للقتال ٠ ولم يكن اسهل على القوة الغشوم من أن تخترع الوسيلة لاثارة القتال ٠٠ فقد ارسل الاميرال سيمور فى ٦ يوليو سنة ١٨٨٢ بلاغه الأول الى طلبه عصمت قومندان موقع الاسكندرية بالكف عن اعمال التحصين الجارية فى الحصون ٠ فأجابه طلبه فى اليوم ذاته بأنه لم يوضع اى مدفع جديد فى الحصون ولم يجر فيها أى عمل جديد (٢) ٠ وقد ذاع بلاغ الاميرال سيمور فى المدينة وتناقله الناس ، فايقن العارفون بحقائق الأمور انه نذير الشر وان الحرب واقعة لا محالة ٠ واوعز قنصلا انجلترا وفرنسا الى رعاياهما الباقين فى المدينة بالمبادرة الى الرحيل عنها ، فتسابقوا الى الهجرة والنزول الى السفن الراسية بالميناء ، وبلغ عدد المهاجرين الاوربيين من الاسكندرية قبل ضربها نحو ٩٩ ٪ من عددهم الاصلى ، وهاجر كثير من اغنياء المدينة الى داخل البلاد على أن معظم السكان الوطنيين بقوا بها (٣) ٠

---

(١) عبد الرحمن الرافعى — احمد عرابى ص ١٣١ — ١٣٢ ٠
(٢) د ٠ محمد فؤاد شكرى — المصدر السابق ص ٢٥٤ ٠
(٣) عبد الرحمن الرافعى — أحمد عرابى ص ١٤٤ ٠

وفى ٩ يوليو استمرت التحصينات المصرية فى الطوابى ، وركبت مدافع جديدة فى طابية السلسلة • وفى اليوم التالى ارسل سيمور انذارا نهائيا الى طلبه عصمت بتسليم الطوابى المقامة على بوغاز الاسكندرية الجنوبى والا ضربها بعد أربع وعشرين ساعة • وفى صبيحة ١١ يوليو ، عندما لم يجب سيمور الى طلبه ، بدأ ضرب الأسكندرية (١) •

ويقول عرابى عن موقعة الاسكندرية - « فاجاتنا مراكب الانجليز واخذتنا على غرة منا وضربت المدافع مدينة الاسكندرية ، ولما تم عدد الطلقات ٢٠ طلقة ، وكانت المدافعة واجبة شرعا قابلناهم أيضا بالضرب واستمرت الحرب بين الفريقين نحو ١٠ ساعات دمروا فى غضونها أغلب طوابى الثغر المذكور واحرقوا مساكنه ففر جميع الأهالى من المدينة ولما حصلت المخابرة على الأميرال فى الصلح والاكتفاء بما حصل ابى وتجبر وتوعدنا بحرق المدينة وتدميرها بعد ساعة ونصف ان لم تسلم اليه جميع الطوابى • هذا وقد حصل الخذلان ودب الفشل بين قلوب العساكر فتركوا مراكزهم وفروا الى داخل البلاد ، ولذلك توجهنا بمن أمكن حجزهم من العساكر الى كفر الدوار واتخذناه مركزا للدفاع عن البلاد ، وأمرنا بسرعة جمع العساكر الفارين فحضروا عاجلا بواسطة السكة الحديد • ثم أرسلت القطارات الخديوية لنقل الخديو ومن معه الى عاصمة البلاد فما كان منه الا أن التجأ بمن معه من الخدم والذوات وعساكر الحرس الى الاسكندرية • وعند وصولهم الى راس التين استقبلهم الانجليز بالترحاب ، وفى الحال جردوا عساكرنا الذين كانوا حرسا على الخديو من السلاح واخذوا خيولهم واستخدموهم خدما لهم ومرشدين فى أنحاء المدينة التى ضربوها وكانوا يقتلون كل من قابلوه من الوطنيين ثم صدر أمر الخديو الى رئيس مخبز اسكندرية بارسال الخبز الى عساكر الانجليز ومنعه عن العساكر المصرية » (٢) •

وبضرب الاسكندرية انتقل تاريخ الثورة العرابية الى دور جديد هو الحرب ، ففى ذلك الوقت تطلع عرابى الى الاستعداد العسكرى ، كما دعا

---

(١) د • محمد فؤاد شكرى - المصدر السابق ص ٢٦٤ - ٢٦٥ •
(٢) أحمد عرابى - مذكرات عرابى الجزء الأول ص ١٨٨ - ١٨٩ •

الى خلع الخديو ، ولكن السياسيين خذلوه فى ذلك ، وكشفت هذه الفرصة عن ظهور القوى الرجعية تسير فى طريقها المرسوم ارضاء للقصر • وبادر عرابى فارسل الى جميع المديريات والمحافظات يخبرهم بانضمام الخديو الى الانجليز ويحذرهم من طاعة أوامره ويدعوهم الى الاستعداد وجمع ما يلزم للقتال •

وعلى أثر ذلك أذاع الخديو منشورا علق فى شوارع الاسكندرية يقضى بعزل عرابى من منصبه وقد فصل المنشور الأسباب التى دعت الى عزل عرابى ، وأعاب عليه اخلاء الاسكندرية دون مقاومة ، ثم دافع عن نيات الانجليز واحتلالهم الاسكندرية وسوغه بأن الغرض منه المحافظة على الأمن • وكان عرابى مرابطا فى معسكره بكفر الدوار حين أصدر الخديو امره بعزله من منصبه ، فلم يكترث له واستمر يعد عدة الدفاع ليصد تقدم الانجليز (١) •

ولم تحفل الأمة بأمر الخديو توفيق القاضى بعزل عرابى وانما زادها ذلك تمسكا به والتفافا حوله • ومن المواقف المشرفة لشعب مصر حقا تبرع البلاد لهذه الحرب التى لم ينفق فيها قرش واحد من خزانة الدولة التى وضعها المراقب المالى الانجليزى كلفن تحت تصرف الانجليز فى الاسكندرية ، وانما قامت هذه الحرب على ما بذله الشعب من قوته وماله ، وفى هذا يقول عرابى فى مذكراته « •• جادت الأمة على اختلاف مذاهبها وتحلها بالمال والغلال والدواب والفاكهة والخضروات ، وذلك فضلا عما مدوا به الجيش من الأقمشة والأربطة اللازمة لتضميد جراح العساكر ، ومن الأهالى من تبرع بنصف ما يملكه ومنهم من خرج عن جميع مقتنياته » •

ولقد وجه عرابى كل عنايته الى تحصين مواقعه فى الميدان الغربى وأهمل الميدان الشرقى اهمالا تاما مما كان السبب الأكبر فى الهزيمة ، وقد نصحه البعض استكمالا لاسباب الدفاع أن يردم قناة السويس ، الا أن فرديناند ديلسبس غرر بعرابى وأكد له ان انجلترا لن تستطيع استخدام

---

(١) عبد الرحمن الرافعى - احمد عرابى ص ١٦٥ •

القناة لأنها دولية ، وانخدع عرابى بوعود ديلسبس ، هذا بالاضافة الى أنه لم يشأ أن يردم القناة لعدم اغضاب الدول الاوربية الأخرى ، ولكن انجلترا لم تعبأ بالقوانين الدولية وكانت القناة هى الجانب الذى دخلت منه الجيوش البريطانية وقد ساعدها فى ذلك بعض الزجعيين ممن أرادوا الاخلاص للقصر ، ودخلت القوات الانجليزيةالقاهرة بعد عدة معارك ، وبارك الخديو توفيق عرضا عسكريا لهذه القوات أقيم فى ميدان عابدين فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، وعلى هذا النحو احتل الانجليز مصر ليسطروا فى تاريخها صفحة مظلمة استمرت أكثر من سبعين عاماً .

موقف الدولة العثمانية من الثورة العرابية

يمكن ان نتساءل عن موقف السلطان الفعلى بالنسبة للصراع بين الخديو توفيق وعرابى حتى نتفهم خطوات السلطان التالية فى هذا الصدد . وطبقا لآراء دافرين الممثل البريطانى فى الآستانة فى ٢٥ مايو ١٨٨٢ فان السلطان قد يحاول أن يكسب هو شخصيا بضرب الاثنين ، فهو رغم أنه مؤخرا أصبح غير متعاطف مع عرابى ، فانه لم يخاصمه كلية ، و على الاقل لم يتخذ موقفا عنيفا معه وهو - السلطان - يحتفظ بالامير حليم بين يديه كورقة قد يلعب بها ضد الاثنين اذ ما سمحت له الظروف بذلك » .

ويبدو أن السلطان كان يتصور امكانية الدعم الالمانى له فى هذه المرحلة من العلاقات الوثيقة بين السلطان وبسمارك ولكن الحكومة الالمانية آثرت الوقوف على الحياد بالنسبة للمسالة المصرية وأرسلت للسلطان توضح بانها سوف توافق بان يكون له صوت عند تسوية هذه المسالة مع بقية القوى الأخرى (١) . مما حدا بجرانفيل الى ان يرسل شكرا فائقا لبسمارك عن طريق السفير البريطانى فى برلين لرأيه الخاص بالنسبة للمسالة المصرية (٢) . وقد ارسل السفير التركى فى برلين فحوى هذا

---

(١) F.O. 407 - 20 No. 524 p. 225 The Earl of Dufferin toEarl Granville No. 102 Telegraphic. Constantinople, may 24— 1882

(٢) F.O. 407 - 20 No. 497 p. 214 Earl Granville to Lord Ampthill (No. 64) Telegraphic F.O. may 23, 1882

الشكر الى الباب العالى (١) ٠

ويبدو ان الباب العالى قد اصيب بخيبة أمل من سلوك بسمارك تجاه المسالة ، فآثر أن يتصرف وحده عن طريق ارسال بعثه من لدنه الى مصر لتقصى الحقائق برئاسة أحمد عزت افندى ، والمهم أن نسخة من تقرير أحمد عزت هذا السرى (بالفرنسية) وصلت الى دافرين بطريقة ما ، وقد حوله هو بدوره الى جرانفيل فى ١٤ يونيو (٢) ٠ ويعتبر دافرين أن هذه الوثيقة فى غاية الاهمية لأنها توضح غموض سياسة الباب العالى تجاه الانجليز ، فطبقا لهذا التقرير فان السلطان يحاول الاعتماد على اتباعه انصار (السياسة الاسلامية) كما يمثلها عرابى وضد الخديو توفيق الذى يمثل المصالح لاوربية (٣) ٠

ورغم توالى الاحداث ٠٠٠ ونزول القوات الانجليزية الى الاسكندرية، فان دافرين داب على الضغط على الباب العالى حتى ينال موافقته على هذه الاجراءات الجديدة ، ففى ١٦ يوليو ١٨٨٢ استقبل السلطان دافرين فى مقابلة خاصة حيث دار بينهما حديث سرى للغاية ، بخصوص مبدأ السيادة العثمانية على مصر ٠ وقد اوضح السلطان ان غالبية السياسيين فى انجلترا يؤيدون الخديو توفيق واقامة حكومة وطنية (عربية) منسلخة عن السلطة العثمانية ٠ كما أورى دافرين انه لسلبية الحكومة العثمانية أمام « الفوضى القائمة فى مصر » فانه يمكن ان ينتهى الامر بزوال السيادة العثمانية على مصر ٠ واخذ السلطان فى المناورة مع دافرين مذكرا اياه بأنه رغم اعترافه بخطورة الحالة ، فان قيام حكومة وطنية عربية (مصرية) فى مصر سيكون لديها الفرصة لاقلاق السلطات الانجليزية فى الهند ٠٠٠ وانه تحت

---

(١) F.O. 407-20 No. 498 p. 214 Earl Grannville to Lord Ampthill (No. 212, conf. Extender) F.O. may 23, 1882

(٢) F.O. 407 - 20 No. 978 p. 388 The Earl of Dufferin to Earl Granvill. (No. 427 Conf.) Constantinople, June 9, 1882.

(٣) F.O. 407-20 Inclosure in No. 978 p. 388 Report by Ahmed Essad Effendi (Traduction de L'Arabe) 15 Rodjeb, 1299 (Le2 Juin, 1882)

هذه الظروف ، فانه توصل الى نتيجـــة ... هى انه ما دامت لانجلتـــرا وتركيا مصالح مشـتركة ، فانه من المرغوب فيه للحـــكومتين الدخول فى اتفاق ودى وسرى ، ليس فقط لتهدئة الاحوال فى مصر ، ولكن أيضا لمنع القوى الاجنبية الاخـــرى - التى اسســـت لها مواقع فى مصر لا يمكن تجاهلها - من تدعيم مواقعها او المطالبة بحقوق جديدة للتدخل ، وبطبيعة الحال كان السلطان يقصد فرنسا .

وبعد ان صور السلطان بحماس المزايـا التى سوف تعود على كل من انجلترا وتركيا من مثل هذا التفاهم المشترك أوضح سبب تردده فى ارسال قوات عسكرية الى مصر ... فقد عادت بعثته للتو من الاسكندرية ، والتى كان على راسها احمد عزت ولبيب أفندى ، وهما قد أعطياه صورة واضحة عن عدم كفاءة وضعف توفيق باشا ، واقنعاه بانه لا يمكن اعتباره حاكمـا معقولا لانه بطبيعته ليس فى امكانه الاحتفاظ بالسلطة ، لانه ، عندمـا رفع عرابى سيفه فى حضوره ، فان أحد الضباط الجراكسة اراد ضرب عرابى فورا بالرصاص ، ولكن توفيق الضعيف منعه من ذلك ، وتساءل السلطان عما هو متوقع من شخص هذا هو حاله ؟ وانه حتى لو ارسلت القوات لتدعيم مكانته ، فانه فور انسحابها ، فانه لعدم كفاءته سوف تقوم أزمة أخرى ، وأوضح السلطان ان شخصية الخديو يجب أن تكون موضوعا لا خـــلاف عليه بالنسبة للحكومتين العثمانية والانجليزية . واضاف السلطان ان توفيق ليس هو الوريث الشرعى لمنصب الخديوية ، فان احتـــلاله للمنصب يعد منافيا للتقليد الاسلامية حيث ان حليم باشا هو اكبر افراد أسرة محمـد على سـنا ، وأنه هو الحـــاكم الشرعى لمصر ، وأوضح السـلطان بحماس شديد أن حليم سيكون حاكما ممتازا ، وأنه معجب به تماما وباخته الاميرة زينب (١) . ولم يوضح السلطان أن حليم كان مستعدا لان يحـكم مصر باعتباره واليا بسيطا طبقا لفرمان ١٨٤١ ، بل انه لم يكن يستنكف ان يحكم مصر لمدة خمس سنوات فقط (٢) .

---

(١) F.O. 407 - 21 No. 848 p. 335 The Earl of Dufferin to Earl Granville (No. 611, Conf.) Therapia, July 17, 1882.

(٢) دكتور احمد عبد الرحيم مصطفى - المصدر السابق ص ١٤٩ .

وعلى اية حال اضاف السلطان انه اذا كانت انجلترا خائفة من ان حليم قد يؤيد المصالح الفرنسية ، فان هذا هو الخطر الحقيقى الذى يجب على الحكومتين الانجليزية والعثمانية تحاشيه ، وان كلا من الحكومتين يجب ان تبلغ الاخرى اذا ما حدث ذلك ، وانه بعملها المشترك يمكنها المحافظة على سير الخديو الجديد فى الطريق السليم • كما طالب السلطان بسرعة حسم المسالة المصرية ، وان حليم يمكنه القضاء على كل الصعوبات، لان تعيينه سيرضى الجميع ، ويمنع المزيد من اراقة الدماء ويؤدى الى سحب القوات غير الضرورية ، ويمنح الامان للمستقبل • كما أورى السلطان بأن الفرنسيين فى مرحلة سابقة لم يوافقوا على هذه الخطة ، وانه لا يعرف حاليا رأى فرنسا بالنسبة لمبدأ تغيير الخديو ، الا انه لو وافقت حكومتا لندن والآستانة على تغيير الخديو ، فان كل القوى الاخرى لن تستطيع معارضة هذا الترتيب •

وقد قدم السلطان طلبه هذا على أنه طلب شخصى منه للحكومة الانجليزية وأنه يرجو بحماس موافقتها عليه (١) •

وفى هذا السياق نشير الى مذكرة درويش (٢) باشا - مبعوث السلطات الى مصر - والتى جاء فيها انه حاول اغراء عرابى باشا بالرحيل على ظهر سفينة عثمانية الى الآستانة (٣) ليمهد الجو لتعيين حليم فى منصب الخديوية فى ظروف هادئة •

على اية حال اجاب دافرين على السلطان بانه ولو انه سينقل هذه الرغبة لحكومته ، فانه متيقن من أن حكومتى انجلترا وفرنسا لا ترغبان فى خلع توفيق ، فهما قد وعدتاه بالمساعدة ، وهو قد تصرف طبقا لتوصايتهما،

---

(١) F.O. 407. 21 No. 848 op. cit.

(٢) F.O. 407 -22 p. 255 Inclosure in No. 589 memorandun by Dervish Pasha (Conf.) Traduction Le 15 Juillet. 1882.

(٣) F.O. 407-22 No. 589 The Earl of Dufferin to Earl Granville (No. 791 conf.) Therapia, August 18, 1882

F.O. 407- 23 Inclosure in No. 262 p. 128 Abstract of report fromDervish Pasha to the Sultan, dated July 6, 1882.

وهما قد دخلتا فى ارتباطات معه لا يمكن تجاهلها ، وأكثر من ذلك فان تغيير فرمان التوالى على منصب الخديوية سوف يلغى الفرمان القائم ومن ثم تغيير الوضع الراهن Status quo . جذريا • فاجاب السلطان بأن مثل هذه الترتيبات لا ترتبط بتوفيق الذى اثبت عدم كفاءته ، وان بقاءه فى السلطة سيؤدى الى خراب مصر ، وعبر السلطان عن اعتقاده بانه لو وافقت انجلترا ، فان التغيير سيتم بدون صعوبة ••• « فان درويش باشا سيضع توفيق على ظهر سفينة ، ويتم وضع حليم على ظهر سفينة اخرى، وان السفينتين سوف تسيران فى اتجاهين متضادين ؛ وانه بهذه الطريقة تتم تسوية المسألة » والح السلطان كثيرا على وجوب موافقة انجلترا على هـــذا الترتيب (١) •

الا أن دافرين أوضح — فى نهاية المقابلة — لرشيد بك الذى كان يعمل كمترجم اثناء هذا اللقاء أن السلطان اذا ما استمر فى تردده ، فسوف تخـرج المسألة من يديه وكان حلها بين يدية فعلا • واضاف دافرين انه اذا ما استمر السلطان فى رفضه لممارسة الواجبات المسؤول عنها بصفته صاحب السيادة على مصر ، فان البديل الوحيد هو تدخل اجنبى ، وانه فى هذه الحـــالة سيكون من المحتمل تغيير وضعيه مصر السياسية وضد مصالح السلطنة •

ولاحظ دافرين أن السلطان ولمدة طويلة كـان يحتفظ بحليم فى يـده كورقة يلعب بها حين تحين الفرصة • كما أوضح دافرين شكوكه فى ان السلطان قد علم من مبعوثيه الى مصر ان الخديو توفيق ليس مستعدا لأن يكون ألعوبة فى يد السلطان وان يسمح له بمد سـيطرته على مصر ، بل انه على النقيض من ذلك سيمنع اى محاولة من جانب السلطان لالغاء الامتيـازات والحقوق التى يحوز عليها فى حكم مصر (٢) • ومن نـاحـية أخـرى ، فان حليم وعـد بأن يكون عبدا مطيعا طاعة كاملة (٣) •

(١) F.O. 407 - 21 No. 848. p. 335 op cit.,

(٢) op. cit.

(٣) دكتور احمد عبد الرحيم مصطفى — المصدر السابق ص ١٤٩ •

ويمكن أن نضيف الى ما سبق ان عرابى نفسه كان على صلات سرية بالسلطان والصدر الاعظم منذ مارس ١٨٨٢ ، فهو يتودد الى السلطان ، ويطلب معاونته ٠٠٠ ففى تقرير لعرابى (١) بتاريخ ١٨ مارس ١٨٨٢ موجه للسلطان - وقع فى يد دافرين - عرض عرابى زيادة جزية مصر السنوية الى ١٥٠,٠٠٠ جنيه واقترح ايضا خلع الخديو توفيق ٠ كما اخبر عرابى السلطان ان القنصل الفرنسى اخبره بأن حكومته تعلم تماما بمخططات انجلترا فى مصر ، وان فرنسا رغم اضطرارها فى تلك المرحلة للعمل فى تنسيق مع انجلترا فانها ستعمل فى النهاية على معاونة عرابى ٠٠٠ واقترح عرابى تعيين حليم باشا بدلا من توفيق ، ووضع مصر مباشرة تحت حكم السلطان ، وابعاد الاجانب تدريجيا (٢) ٠ وقد اجاب الصدر الاعظم على عرابى فى ١٩ ابريل بالموافقة بطبيعة الحال على اقتراح عرابى بزيادة جزية مصر السنوية وتحديد سلطة الخديو ٠ اما بالنسبة لابعاد الاجانب فى مصر ، فان ذلك يجب ان يتم بكل حذر ٠ كما اضاف الصدر الاعظم ان الحكومة العثمانية سوف تسعى لمساعدة عرابى لتنفيذ مقترحاته الخاصة بعزل توفيق ، وان القرار سوف يتخذ طبقا للظروف (٣) ٠

وقد اعتبر دافرين ان اقتراح عرابى زيادة الجزية السنوية كان مفاجأة له تماما ، وان عرابى قصد من ذلك ان ينال فى المقابل تدعيما كاملا من الباب العالى فى مواجهته للخديو توفيق (٤) ٠

---

(١) — F.O. 407 - 22 No. 297 p. 129 The Earl of Dufferin to Earl Granville (No. 324). Constantinople, August 10, 1882 Telegraphic.

(٢) — F.O. 407 - 22 Inclosure in No. 298 p. 129 Report from Arabi Pasha to His Majesty the Sultan. dated 10 Djemaz. el-Ewel, 1299 (March 18, 1882 Traduction)

(٣) — F.O. 407-22 Inclosure 2 in No. 298 p. 130 The prime Minister to Arabi Pasha (Traduction). Telegraphic 22 Djemaz-ul-Akhir, 1299 (19 Avril 1882)

(٤) — F.O. 407 - 22 No. 297. op. cit

وواضح من العرض السابق أن هناك نوعا من الاتفاق بين السلطان وعرابى فى هذه المرحلة على خلع توفيق وتعيين حليم بلا منه ، فحليم اكثر انصياعا للباب العالى من توفيق الذى وقع فى قبضة الاجانب كلية • كما ان الباب العالى سينال زيادة فى الجزية السنوية التى تدفعها مصر ، وفى المقابل سينال عرابى رضاء السلطان خليفة المسلمين مما يعطيه مكانة كبرى فى مصر ، وكذلك سيتخلص هو ايضا من توفيق ، وهذا هو ما احدث نوعا من التقارب بين السلطان وعرابى فى هذه المرحلة • ولكن هل كانت الدولة العثمانية حرة فى اتخاذ قرارها ؟ ام ان القرار سيكون انجليزيا بالدرجة الاولى ، وانه على الدولة العثمانية ان تعمل فى اطار تحدده لها السياسة الانجليزية ؟

مسالة المشاركة العسكرية العثمانية فى مصر •

اذا كانت الحكومه الانجليزية قد اعارت طلب السلطان بتغيير الخديو آذانا صماء ، فان هذه الحكومة - من ناحية اخرى - ظلت تسعى الى تأييد السلطان لها فى اجراءاتها بمصر • وكذلك ظلت تحاول ان يشارك السلطان بقوات رمزية فى مصر متعاونة مع الانجليز ، مما يعطى لانجلترا الشكل المشروع بالنسبة لوجودها فى مصر باعتبار ان السلطان هو صاحب السيادة على مصر • وهكذا بدأت مفاوضات مطولة بين السفير الانجليزى دافرين وبين المسئولين الاتراك بدءا بالسلطان والصدر الاعظم وباقى المسئولين ، وذلك لتنظيم ارسال وتمركز القوات العثمانية المزمع ارسالها الى مصر
وذلك لتنظيم ارسال وتمركز القوات العثمانية المزمع ارسالها الى مصر
على النظام وتحقيق الامن فى قناة السويس •

وكما سنرى من سير الحوادث اثناء المفاوضات بين الجانبين الانجليزى والعثمانى فى الآستانة فان هناك تحديدات انجليزية قاطعة بالنسبة لاعداد القوات العثمانية المزمع ارسالها الى مصر ، وكذلك تحديدات بالنسبة لتمركز هذه القوات فى مناطق بعيدة عن جماهير الشعب المصرى وكذلك تحديدات بالنسبة لتوقيت انسحاب القوات العثمانية بعد تسوية الازمة المصرية •

ففى ١٨ أغسطس بحث دافرين مع الصدر الاعظم مسالة عقد اتفاق بين حكومتى لندن والآستانة خاص بمسالة ارسال القوة العثمانية الى

مصر للمشاركة فى اقرار النظام وتحقيق أمن القناة • وقدم دافرين مسودة هــــذا الاتفــاق • واقتــرح الصــدر الاعظــم انــه بالنســبة للعــلاقة بين القوتين العثمـــانية والانجليـــزية فى مصر ، ان لا تكون تعـــاونا Cooperation بل ان تعمل القوتان طبقا لاتفاق d'accord avec

كما وافق سعيد باشا على المادة الاولى مع تعيدل الصيغة الى ان الحكومة الامبراطورية (العثمانية) لديها الرغبة فى أن ترســـل الى مصر جزءا من الجيش يتحدد ما بين ٥٠٠٠ و٦٠٠٠ جندى ، وان التوصـل للعدد النهائى سيكون موضوعا لاتفاق لاحق مع الاطراف المعنية •

المادة الثانية : تخصص موانىء الاسكندرية وبورسعيد والسويس لنزول القوات العثمانية وقد علق دافرين على ذلك بان هذا مستحيل ، وانه يمكن تخصـــيص موانىء (أبو قير) ودمياط ورشيد لنـــزول القوات العثمانية فى مصر • وقد وافق سعيد باشا على ذلك •

المادة الثالثة : ينسق القائدان الانجليزى والعثمانى تحركات وعمليات القوات العثمانية •

أما بالنسبة للمادة الرابعة ، فقد ارتأى الصدر الأعظـــم ان يضيف عبارة ••• هى انه عند جلاء القوات الانجليزية عن مصر فانه من المرغوب فيه مد فترة بقــاء القوات العثمانية هناك بعض الوقت • الا أن دافرين علق على ذلك بان مجىء هذه القوات الى مصر هو لاقرار النظام ، وانه بعـــد انتهاء الأزمة ، فانه ليس من المستحب بقاء هذه القوات العثمانية فى مصر •

أما المادة الخامسة ، فقد اراد الصدر الأعظم بمقتضاها ارسال ضابط تركى بنفس رتبة القـــائد العام الانجليزى لينضم الى قيـــادة القوات الانجلـــيزية (١) •

وقد علق دافرين على ذلك بانه رغم هذه التعديلات العثمانية ، فان الاتفــاق مناسب من وجهــة النظر الانجليزية ••• لانه بالنســـبة للمادة

---

(١) — F.O. 407-22 p. T.V No. 477 p 203 The Earl of Dufferin to Earl Granville (No. 350) Telegraphic. Constantinople, August 19, 1882.

الأولى فان القوات العثمانية لن تزاد عن الاعداد المذكورة ، ولن يتم امداد القوات العثمانية بالرجال الا بعد الموافقة الانجليزية المسبقة . وبالنسبة للمادة الثالثة فان القوات العثمانية لا تســتطيع القيام باى حركات أو عمليات حربية الا بعد موافقة القائد العام الانجليزى .

كمــا وافق دافرين على المادة الرابعة ، رغم ابلاغه الجــانب التركى بأن الموافقة النهائية ستكون من طرف الحكومة الانجليزية (١) .

ولكن المسئولين الاتراك ظلوا فى ترددهم فى اتخــاذ القرار ... هل يوافقون على العمل تحت الوصاية الانجليزية بالنسبة للمسالة المصرية أم يحاولون فرض وجودهم باعتبار أن الباب العالى هو صاحب السيادة على مصر ، أم يرفعون يديهم كلية عن هذه المسالة ، حتى أن دافرين هدد سعيد باشا فى ٢٧ اغسطس بانه نتيجة للطريقة غير المريحة التى تسير بهــا المفاوضات من أجل التوصل الى الاتفــاق بين الدولتين ، وتلك التعديلات الكثيرة على مسودة الاتفاق « فان الحكومة الانجليزية قد تصل الى نيتجة مؤداها ان الوقت قد مضى بالنســبة للدخول مع الحكومة العثمانية فى اتفاق « وانى لن أدهش اذا ما وصل قرار بهذا المعنى فى بضع ساعات » (٢) .

مسالة نزول القوات العثمانية (ابو قير - بورسعيد)

كان المسئولون العثمانيون قد وافقوا فى ٢٧ أغسطس على (أبوقير) كميناء لنزول قواتهــم ، الا ان الصعوبات بدأت - بالنســبة لدافرين - عندما عبر البــاب العالى عن رغبته فى أن تكون الاسكندرية والســويس وبورسعيد هى الموانى المخصصة لنزول القــوات العثمــانية . الا أنه فى

---

(١) — F.O. 407 - 22 p. T.V
No. 478 p. 204 The Earl of Dufferin to Earl Granville (No. 796 Conf. Ext. 350) Thorapia, August 19, 1882.

(٢) — F.O. 407 -22 p. T.V No 590 p. 257 the Earl of Dufferin to Earl Granville (No. 372 A.) Telegraphic. Constantinople, August 26, 1882. No. 591 The Earl of Dufferin to Earl Granville (No. 830 Conf. Ext 372 A) Tharapia, August 26,1882

النهاية وافق المفاوضون العثمانيون على (أبو قير) (١) على أن تصل تلك القوات الى بو قير عبر الاسكندرية · وقد تساءل دافرين عما اذا كانت هذه الاضافة هى على شكل شرط ام طلب · وفى النهاية اتفق الجانبان على أنها ليست شرطا ولا طلبا ولكنها رغبة (٢) · الا أن نورد جرانفل أبلغ دافرين ان التعديل المقترح ليس مناسبا ، وان القوات التركية يجب أن تنزل فى (أبو قير) التى سبقت الموافقة عليها من الجانب التركى (٣) · ومن ثم أبلغ دافرين سعيد باشا بهذا المضمون ·

وواضح ان السلطان ليس فى امكانه مجرد اختيار الميناء الذى سوف تنزل فيه قواته فى مصر ، بل ان انجلترا خصصت لهذا الغرض ميناء صغيرا منزويا ، حتى لا يحدث لقاء بين العرابيين وبين هذه القوات ، فلا أحد يعرف عاقبة ذلك ، والمطلوب فقط هو تدعيم موقف انجلترا فى مصر ، وحيث أن السلطان هو الخليفة ، وطاعته واجبة على المسلمين ، فان هذا السلطان اذا ما تحالف مع الانجليز ضد الثورة ، فسوف تنفض الجماهير من حولها · فالقصد الرئيسى من الحاح دافرين على وجوب ارسال قوات عثمانية الى مصر - وفقا للشروط الانجليزية - هو لتدعيم موقف انجلترا فى مصر ، وليس القضاء على الاضطرابات ، ولا التامين قناة السويس فانجلترا لم تكن فى حاجة الى هذه القوات لتحقيق هذه الامور ·

على اية حال استمرت المفاوضات بين الجانبين الانجليزى والعثمانى، وتسلم دافرين طلبا فى ٢٩ أغسطس لمقابلة سعيد باشا لمراجعة مسودة الاتفاق والتأكد من ادخال التعديلات المقترحة · وقد تم هذا الاجتماع بحضور ارتين افندى وكيل الوزارة للشئون الخارجية وقد وقع دافرين بالاحرف الاولى على مسودة الاتفاق · ولكن لدهشة دافرين ، فان المسؤولين العثمانيين رفضوا التوقيع المبدئى قبل احاطة مجلس الوزراء بالتعديلات التى دخلت فعلا على مسودة الاتفاق · وهكذا انسحب سعيد

---

(١) — F.O. 407-24 No. 34 p. 13 Earl Granville to Earl of Dufferin 5, (No. 596 A.) F.O. Octobre 5, 1882.

(٢) — FO. 407 - 23 No. 264 op. cit.

(٣) — F.O. 407 - 24 No. 34 op. cit.

باشا ومعة ارتين افندى بعض الوقت ، وبعد عودتهما ابلغ سعيد باشا بأن هناك اعتراض على بعض النقط فى هذا الاتفاق المبدئى . وقد ابدى دافرين آسفة لأن عملا له اهمية حيوية للباب العالى يستمر هكذا دون انهاء فترة طويلة ، وتناول دافرين ورقة أوضح فيها أنه نتيجة لحدوث عراقيل غير معقولة المفاوضات فان « حكومة جلالة الملكة لها مطلق الحرية فى العمل » .

وقد انزعج سعيد باشا لذلك ، وانسحب مرة أخرى من الاجتماع ، ثم عاد بعد نصف ساعة ، وابلغ دافرين بأنه رغم عدم استطاعته التوقيع على الاتفاق المبدئى ، فان ذلك التأخير هو لبعض الامور الشكلية ، وأنه يتعهد بأن يرسل الوثيقة موقعا عليها بالاحرف الاولى فى اليوم التالى . ونتيجة لذلك سحب دافرين مذكرته التى كان يرى رفعها للباب العالى على شكل انذار .

الا انه بعد مضى يومين (٣١ أغسطس) ابلغ سعيد باشا دافرين بأن التوقيع سيتأخر بعض الوقت ، فأن مجلسا أعلى قد عقد فى القصر شارك فيه المستشارون البحريون للسلطان . وانهم اوضحوا صعوبات انزال القوات العثمانية فى (ابو قير) مما حدا بالسلطان الى ان يطلب دراسات أكثر عمقا بالنسبة لهذه المسألة ... وان الاسكندرية يجب أن تخصص لنزول القوات . وقد صاحب هذا الكلام ابراز النيات الحسنة والعلاقات الودية مع انجلترا ، وان هناك فقط رغبة فى الموافقة على طلب السلطان بجعل الاسكندرية هى نقطة نزول القوات .

ولكن ما هى العلاقة التى ستكون بين الجيشين الانجليزى والعثمانى فى مصر ؟ .

أوضح دافرين رأية فى بضع نقاط منها :

١ — « ان عدد افراد القوات التركية التى سوف ترسل الى مصر يجب ان تتحدد فى الوقت الحاضر ما بين الفين وثلاثة آلاف رجل ، وذلك طبقا لرغبة الحكومة الانجليزية » .

٢ — « ان القائد العام التركى يجب ن يعمل طبقا لرغبات القائد العام الانجليزى بالنسبة للتحركات والعمليات ، اسوة بما كان متبعا اثناء حرب القرم » .

وعندما نقل دافرين هذه الاراء الى سعيد باشا ، علق هذا الاخير عليها بقوله « انه يمكن القول ان القائد العام الانجليزى اذا ما رغب فى ارسال الف جندى الى هنا فسوف يحضرون ، واذا ما اراد ارسال الف جندى آخرين الى هناك فسوف يذهبون » .

٣ — « يعين بكير باشا قائدا ثانيا للقوات العثمانية المزمع ارسالها الى مصر ، ويلحق بدرويش باشا ، ويكون لبكير باشا مطلق الحرية فى اختيار بعض المستشارين من الضباط الانجليز طبقا لرغبته » .

ولا ندرى لماذا هذه الرغبة الانجليزية لتعيين بكير باشا بالذات قائدا ثانيا للقوات العثمانية فى مصر ، اللهم الا اذا كان بكير باشا على علاقات وثيقة بهم .

كما أبلغ دافرين جرانفيل أن السلطان تعهد بالدخول فى علاقات ودية مع انجلترا وأن يستبعد بعض مستشاريه الذين وقفوا فى طريق تحسين العلاقات بين الحكومتين (١) .

كما أبلغ دافرين السلطان أيضا أن حكومته لم تنس بعد قرار السلطان بعدم تزويد الجيش الانجليزى بالمؤن والدواب اللازمة له من آسيا الصغرى وسوريا (٢) . وهكذا دأب دافرين على الضغط على السلطان وكذلك على محاولة تحسين العلاقات بين حكومته وحكومة الاستانة لتحقيق الغرض الاساسى وهو اشتراك الدولة العثمانية مع انجلترا فى احتلال مصر ، ولكن على ن يكون الوجود التركى فى مصر وجودا شكليا . وحتى يزيل دافرين العقبة الخاصة بطلب السلطان نزول القوات العثمانية فى الاسكندرية بدلا من (أبى قير) عرض على سعيد باشا — بعد موافقة جرانفيل — انزال هذه

(١) — F. O. 407 - 23 No. - 264 op. cit.

(٢) — F.O. 407 - 24 No. 34 op. cit.

القوات بمنطقة القناة بـدلا من (ابو قير) وذلك لأن الحكومة الانجليزية وضعت فى اعتبارها الاعتراضات المرفوعة من جانب قيادة البحرية التركية بالنسبة لميناء (ابو قير) باعتبار ان السفن لا يمكنها الرسو بأمان فى هذا الميناء الصغير ، وان التعليمات الاخيرة تسمح لقائد القوات التركية بالتقدم الى بورسعيد ثم الى قناة السويس وقد بدأ على وجه سعيد باشا بعض الابتهاج امام هذا الكرم البريطانى ... وهنا ابلغ سعيد باشا دافرين عن رغبة السلطان فى مقابلته .

وهكذا توجه دافرين الى (يلدز) حيث استقبله السلطان استقبالا وديا الا انه تبين لدافرين ان السلطان قد تصور ان القوات العثمانية سوف تتمركز فى بورسعيد والسويس ، وليس كما ذكر دافرين من أن القوات العثمانية سوف تتقدم من كريت الى بورسعيد ومنها الى قناة السويس ، فقد اسقطت كلمة « القناة » من الحساب . وهكذا ودائما يضغط دافرين ويراوغ السلطان حتى يكون هناك معنى واحدا لارسال قواته الى مصر ، وذلك بتمركزها وسط الشعب المصرى ، والواقع ان السلطان هو ايضا كانت له اهدافه البعيدة من ذلك .

على اية حال ، توقع دافرين بين لحظة واخرى أن يستدعيه سعيد باشا لانهاء الاتفاق ، وبالفعل تم الاستدعاء ، وتوجه دافرين فى أول سبتمبر الى منزل سعيد باشا ومعه ثلاثة من معاونيه من اعضاء السفارة . كما كان سعيد باشا هو الآخر محفوفا بمساعديه (١) . ولما سأل دافرين عن الاتفاق ، أبلغه سعيد باشا بانه سيتم نشره فى الصحف صباح اليوم التالى .. وقد اندهش دافرين تماما ، فالوثيقة كانت لا تزال تحت المناقشة، وهى لا تزال موضوعا للمفاوضات بين الحكومتين ، وكان المفروض ان ترسل الى السفارة الانجليزية قبل نشرها فى الصحف . ولكن دهشة دافرين اصبحت بلا حدود عندما تبين له ان الاتفاق المرسل للصحف يختلف كلية عن الوثيقة المرسلة الى لندن (٢) .

---

(١) — F.O. 407 - 23 No. 264 op. cit.

(٢) — F.O. 407 - 24 No. 34 op cit.

وعندما بحث دافرين عن الترجمة الفرنسية قرأ عليه ارتين افندى وكيل الخارجية التركية الجزء الذى تمت ترجمته من الاتفاق لأنه لم يكن قد اكمل الترجمـــة بعـــد ٠

وعندما تبين لدافرين ان الاتفاق الجديد يختلف عما سبق الاتفاق عليه، لم يخف عدم رضـــائه واوضح أن لديه تعليمات من حكومته بالتوقيع على الاتفاق الاصـــلى الذى اختيرت كلماته وصيغت عباراته بكل دقة من جانب الحكومتين ، وانه لذلك يصعب عليه المضى قدما فى المفاوضات قبل ارســـال النص الجديد الى لندن ٠

واوضح سعيد باشا لدافرين انه يمكنه التوقيع بالاحـرف الاولى على الاتفاق الجديد ٠٠٠٠ فاجاب دافرين انه رغم عدم موافقته على بعض المقاطع، فانه للظروف مستعد لذلك ، وهكذا بدات الاستعدادات لذلك التوقيع ٠

ولكن مرة اخـــرى طالب المسئولون الاتراك بتعديل مينـــاء (أبو قير) المشار اليه كنقطة لنزول القوات التركية ٠ فاستخدم دافرين الصيغة التالية « أن القوات التركية سوف تدخل القناة ثم تتقدم الى المراكز المتفق عليهـا بين القادة الانجليز والاتراك » ٠ ولكن المفاوضين الاتراك اعترضوا على هذه الصيغة ، وابلغوا دافرين بأن السلطان قد امرهم بالتوقيع مع ذكر بورسعيد كمكان لتمركز القوات التريكة ٠ ومـــع ثم اقترخ دافرين الصيغة الجديدة التالية « أن القوات التركية سوف تتقدم الى بورسعيد ومنها الى مراكزهـا على القناة طبقا لاتفاق التادة » ٠ وقد وافق سعيد باشا على هذه الصيغة ٠ وشعر دافرين بأن كل العراقيل قـد انتهت ٠

الا ان سعيد باشا سرعان ما دافرين بأن السلطان لم يوافق على هـذه التعديلات ٠٠٠ وقد علق دافرين على ذلك ، بان هـــذا الرفض سـيؤدى الى عراقيل اخرى فى سبيل توقيع الاتفاق ، كما ابلغ سعيد باشا بأنه ســـينقل الموضـــوع كلية الى لندن (١) ٠

---

(١) — F.O. 407 - 24 No. 264 op. cit.

ولكن ما هو راى جرانفيل بالنسبة لهذا التعديل الخاص بتمركز القوات التركيــــة ؟ .

لقد ابلغ جرانفيل دافرين لابلاغ المسؤلين الاتراك ان حكومة لندن لاتوافق على تمركز القوات التركية فى بورسعيد ، وأن هـذه المادة من الاتفاق يجب أن تصاغ بحيث لا يعتريها أى غموض ، وأن الاشارة الى بورسعيد يجب ان يكون مفهوما معها ان القوات التركية تعبر بورسعيد فقط لدخول القناة وليس للتمركز فيها ، لأنه يجب التنسيق طبقا للخطة العامة للحملة (١) .

وهكذا اتصل دافرين بسعيد باشا مرة أخرى لابلاغه ذلك ، شــارحا له انه رغم ان الاتفاق يشير الى القناة بصفة عامة كنقطة تتقدم منها القوات التركية ، فان نُقط تمركز القوات سوف تحدد طبقا لترتيبات بين القادة وطبقا للاوضاع الحربية عند نزول القوات .

الا ان ســعيد باشا عاد فابلغ دافرين أن الباب العالى ليس مستعدا للموافقة على الصيغة المقترحة وانه يفضــل كلمــة « نزول » القوات الى بورسعيد se renderont à port-Said فأجاب دافرين انه يجب أن لا يكون هناك أى شك أو لبس بالنسبة للصيغة التى ستكتب بهـا هـذه المادة من الاتفاق ... وانه عندما ذكر بورسعيد لم تكن هناك مشكلة انزال القوات التركيـة بها ، فهى افضــل فقط من ميناء (ابو قير) الصغير ، ولكن على أن تتقدم القوات منها الى القناة ، وان سعيد باشا نفسه قد رحب بذلك . الا ان سعيد باشا اجاب بأن هذه هى رغبة الباب العالى (٢) . وبعد بعض المناقشات ، اقترح دافرين تعديلا جديدا على المادة ينص على انه « يجب أن تتجه القوات التركية الى بورسعيد من اجــل دخول القناة » . وقد قوبلت هذه الصيغة بترحيب من جانب سعيد باشـــا (٣) .

وهكذا وبعــد تخطى عقبة نزول القوات العثمانية ، وبعد استبعــاد تعبير « التدخل الاجنبى » والمقصود به القوات الاوروبية — من الاتفــاق ،

(١) — F.O. 407 - 24 No. 34 op cit.
(٢) — F.O. 407 - 23 No. 264 op cit
(٣) — F.O. 407 - 24 No. 34 op cit.

اقتنع دافرين بان كل الصعوبات قد انتهت · وانتظر بقلق دعوة سعيد باشا له للحصول على الاتفاق موقعا عليه من الباب العالى ·

وفى ١٤ سبتمبر ابلغ سعيد باشا دافرين استعداده للتوقيع على الاتفاق فى صورته النهائية · وهكذا ارسل دافرين احد اعضاء السفارة وهو السير ساندسون Sandiston الى الباب العالى للتأكد من توقيع الاتفاق · الا انه بعد يومين ، ابلغ ساندسون دافرين بأنه لم تصله اجابة من سعيد باشا ·

وهكذا توجه دافرين الى « القصر » ، وعلم ان التوقيع لم يتم « رغم التنازلات الكبيرة التى قدمتها الحكومة الانجليزية » واعتقد دافرين ان هناك استحالة للتوصل الى اتفاق مع الحكومة العثمانية ··· ولكنه رغم ذلك ورغم تعليمات جرانفيل له ، فانه – طبقا لكلماته – حاول الاقتراب من خط سعيد باشا (١) ·

كما ارسل سعيد باشا برقية لدافرين يوضح فيها التعديل الثانى فى الاتفاق بخصوص سلطات المارشال (الفريق) درويش باشا – قائد القوة المزمع ارسالها الى مصر – وأن منير بك سيحمل اليه التفصيلات فى القريب العاجل (٢) ، وانه أيضا سيرسل الاتفاق كاملا الى دافرين للتوقيع عليه ·

ولكن تبين لدافرين ان الاتفاق قد اصبح بعيدا مرة اخرى عما تم الاتفاق عليه ··· فقد جاء فى المسودة ان اعداد القوات التركية ستكون نحو ثلاثة آلاف رجل · وتم حذف عبارة « انزال القوات التركية » · كما حذفت المادة الثالثة الخاصة بأن تحركات وعمليات القوات التركية هى طبقا لتعليمات القائد العام الانجليزى ، وحلت محلها عبارة توضح ان قائد القوات العثمانية يقيم علاقات ودية مع القوات الانجليزية فى مصر · كما حذفت عبارة « وتتجه القوات العثمانية الى المراكز المحددة

---

(١) F.O. 407 - 23 No. 264 op. cit.

(٢) F.O. 407 -Inclosure in 23 No. 264 op. cit., P. 136 Said Pasha to the Earl of Dufferin (Telegraphique) Constantinople le 16 Sep. 1882.

لهـا طبقـا لتعليمـات القـائد العـام الانجليزى فى مصر » وحلت محلهـا « وتتجه القوات العثمانية الى النقط الملائمـة لهـا فى حالة الحرب » .

وهكذا اضطر دافرين الى عـدم الموافقة على التوقيـع على هـذه الوثيقـة . وهنـا طلب السلطان مقابلة دافرين ... وقـد تمت المقابلة فعـلا ، وقـد كرر دافرين على مسمع السلطـان انه يرغب فى ارضـاء الباب العالى ، ولكنـه كسفير فانه يعمل طبقا لتعليمات حكومتـه . وقبـل انتهاء الاجتمـاع اشار دافرين الى ان سير الحوادث يتم بطريق سريعـة جـدا ، فقـد تغير الموقف جذريـا فى مصر بعـد اسر عرابى وتسريح الجيش المصرى . كما اضاف دافرين بأنه « متاكـد من ان لندن تود التصرف بطريقـة ودية مع السلطان رغم انه ليست هنـاك ضرورة ملحـة للتعاون العسكرى التركى ، وانه من الافضل للحكومـة العثمانية ان تلبى المطالب الانجليزية . وقـد اجاب الباب العالى اجابه وديـة ، ولكنهـا خاليـة من اى مضمون بالنسبة لوجهـة النظـر الانجليزيـة (١) .

وقبل انهاء هذه النقطة ، يمكن لنا أن نتساءل لماذا تمسكت السلطات التركية بالتمركز فى بورسعيد ، بينما تمسك الانجليز بوجوب تقدم القوات العثمانية من بور سعيد ــ بعد دخولها القناة ــ الى مراكز أخـرى يعينهـا الانجليز فى مصر ... كان درويش باشـا قـد اوضـح فى تقـريره للسلطان (٢) أن هناك مركزا حصينا للعرابيين قرب بور سعيد ، وأن هذا المركز سوف ينضم الى القوات العثمانية فور وصولها الى بورسـعيد ، وهكذا تنضم بقية المراكز العرابية للعثمانيين .

والواقع أن دافرين كان متلهفا على انهاء الاتفاق مع العثمانيين » لاننا لو تركنا القوات العثمانية تنفرد بحل المسالة فسوف تنضم تركيا لعرابى، وأن اللهجة المعادية للصحافة التركية تجاه الانجليز توضـح ان تركيـا ليست ضـد (العصيان) ولكنها ضد الانجليز والاجانب . وقد أوضـح قناصل انجلترا فى جهات كثيرة التحمس الدينى الاسـلامى ضد الانجليز ،

(١) — F.O. 407 - 23 No. 264 op. cit.

(٢) — F.O. 407 - 22. Incloure in No 589. op. cit

ويكفى العراقيل التى بثها الباب العالى أمام امداد الجيش الانجليزى بالمؤن والدواب . وانه يمكن فقط للمحافظة على الشكل - أن تتمركز قوة تركية صغيرة فى (أبو قير) وترفع العلم التركى (١) وواضح أن دافرين كان يرمى من وراء ذلك عدم انضمام العرابيين للقوات العثمانية .

- انجلترا تنفرد بمصر -

على أية حال ظلت المفاوضات بين انجلترا والدولة العثمانية بطيئة متعثرة ، الى أن استقر الامر لانجلترا فى مصر بعد قضائها على الثورة العرابية واستيلائها على قناة السويس وهكذا انفردت انجلترا بمقدرات مصر ، خصوصا لعدم رغبة فرنسا فى المشاركة الفعلية فى غزو مصر ، الا اذا كان هناك خطر فعلى يهدد قناة السويس ، كما انها حددت عملها عند الضرورة بالعمليات البحرية فقط .

وعندما طلب الباب العالى من الحكومة الانجليزية أن تذكر له الموعد المحدد لانسحاب القوات الانجليزية من مصر طبقا لما اعلنته هذه الحكومة ، ابلغ جرانفيل دافرين لابلاغ السلطان ، بأن الباب العالى « يعلم جيدا بالتضحيات التى بذلتها الحكومة البريطانية من أجل المحافظة على النظام فى مصر » (٢) واضاف جرانفيل « أن هذه التضحيات منحتنا القوة ... وان هذه القوة وضعت على كاهلنا مسئوليات كبرى ... لأن الجيش (المصرى) قد تم تسريحه ، ونحن ليست لدينا الرغبة فى البقاء فى مصر فترة اطول مما تحتمه الظروف » (٣) . واستمر جرانفيل موضحا وجهة نظره للسلطان فان « العمل المنفرد الذى اضطرت الحكومة الانجليزية الى اتخاذه لم يكن مخططا منذ اللحظة الاولى ... الا أنه عندما اصبح واضحا انه لا يمكن اعادة النظام الى مصر بدون تدخل خارجى ، فانه كان على السلطان ان يقوم بذلك بنفسه بصفته صاحب السيادة على مصر ، وقد

(١) — F.O. 407 - 23 No. 264 op. cit.

(٢) — F.O. 407 - 23 No.. 34 op. cit.

(٣) — F.O. 407 - 24 No. 36.

p. 20. Earl Granville to the Earl of Dufferin (No. 602) F.O. October 5, 1882

اقترحت الحكومة الانجليزية ذلك الحل ، والسفير الانجليزى فى الاستانة لم يتوان عن حث السلطان ومستشاريه على ذلك ، الا أن كل مجهوداته ذهبت أدراج الرياح وعندما بدا ضروريا التحرك بسرعة لضمان أمن القناة ، اقترحنا أن نتعهد بهذا الواجب بالتعاون مع فرنسا وأى قوى أخرى مستعدة للتعاون معنا ، وذكرنا ايطاليا للمشاركة فى الترتيبات . أن نجاح (العصيان) حطم سلطة الخديو ، وحول مصر الى حالة من الفوضى ... وقد دعونا فرنسا وايطاليا للعمل معنا للقضاء على (العصيان) وعندما تقاعست هذه القوى عن العمل معنا ، ظللنا نضغط على الباب العالى لارسال قواته ، ولكن قبل أن توافق الحكومة التركية على الاتفاق العسكرى ، فان نجاح قواتنا قد وضع نهاية (للعصيان) فى مصر » (١) .

وهكذا ونتيجة الضغوط والقيود التى فرضتها انجلترا على تصرفات الباب العالى تجاه المسألة المصرية وكذلك لتقاعس بسمارك عن معاونة حليفة السلطان ، وكذلك لاخفاق فرنسا عن تفهم المرامى البعيدة للمخططات الانجليزية فى المنطقة ، فان بريطانيا انفردت بمقدرات مصر فترة امتدت اكثر من سبعين عاما .

أسباب اخفاق الثورة :

يرجع فشل الثورة العرابية الى عوامل متعددة خارجية وداخلية وأول العوامل الداخلية هو الانقسام الذى وقع فى الصفوف بين العرابيين والخديو توفيق ، فان هذا الانقسام جعل فى مصر معسكرين متحاربين معسكر الثورة ومعسكر الخديو فوقع الصدام بينهما وتفاقم أمره وانتهز الانجليز فرصة وجوده وتذرعوا الى هذا الاحتلال بدعوى تاييد سلطة الخديو وحماية العرش (١) .

فالانقسام هو أول العوامل فى اخفاق الثورة ، يليه تاثير الزعماء فى تطور الحوادث ، فلقد كانت تنقصهم الخبرة السياسية ، وهذا النقص وحده يكفى لاخفاق أية ثورة ، وقد امتلأت نفوس زعماء الثورة بالحماس

---

(١) F.O. 407 - 23 No.. 34 op. cit. —

(٢) عبد الرحمن الرافعى — أحمد عرابى ص ١٦٥ .

والايمان والاخلاص ، وهذه الصفات على اهميتها ليست كافية ، اذ لابد أن يتمتع الزعماء والقادة بسعة اطلاع وحسن ادراك وتقدير سليم للأمـور والظروف الداخلية والخارجية ، وقد بدا واضحا افتقار زعماء الثورة العرابية لهـذه الصفـات (١) .

ويتضح مما سبق أن الثورة العرابية كانت تفتقر الى القيادة الواعية، هذا الى انها ايضا لم تكن لها الشعبية الكامبه ، حقيقة لقد التف الكثير من أفراد الشعب حول هذه الثورة خصوصا وقت الخطر وابان الغزو البريطانى، الا أن زعماء الثورة لم تكن لديهم البصيرة ليشركوا معهم فى مغامرتهم تلك الفئات الاجتماعية : العمـــال والفلاحين (٢) حتى يكـونوا صـمـك الضمان . فقد اعتمد عرابى فى المقام الاول علىّ الجيش والاعيان والمثقفين

« كما كان للعوامل الخارجية أثر كبير فى اخفاق الثورة العرابية ، واهمها المطامع الاستعمارية الاوربية وبخاصة الانجليزية ، ففرنسا وانجلترا كانتا تطمعان فى توسيع نفوذهما فى مصر ، ومن هنا جاء سخطها على الثــورة وكراهيتهما قيام حكومة دستورية فى البلاد . واعقب ذلك انسحاب فرنسا من الميدان وانفراد انجلترا بالتدخل لتحقيق مطامعها الاستعمارية فى مصر. هذا بالاضافة الى سلبية أوربا حيال الاعتداء البريطانى ، وسوء نية تركيا نحو مصر منذ قيام الثورة ، وسعيها الاخـرق فى استرداد الاستقلال الذى نالته مصر ، وما ظهر منها من التذبذب والتظاهر تارة بمناصرة العرابيين وتارة بتاييد الخديو ، وانضمامها أخيرا الى جانب الانجليز باعلانها عصيان عرابى والحرب قائمة .. فكان هذا الاعلان ضربة شديدة للثورة وعضـــدا كبيرا للحملة البريطانيـــة » .

الا أنه انصافا للحق ، فانه يمكن القول انه رغم كل الاخطاء الفادحة ، فانه لم يكن من السهل على أمة تثور للحرية أن تتغلب على كل هذه العوامل

(١) عبد الرحمن الرافعى — احمد عرابى ص ٢١٨ .

(٢) هارولد لاسـكى — تأملات فى ثورات العصر — ترجمة عبد الكريم أحمـــد ص ٥٨ .

مجتمعة ، فالثورة الامريكية لم تدرك ما نالته من النجاح ولم تحقق استقلال الولايات المتحدة الا بعد ان عاونتها فرنسا بجيشها واسطولها وايطاليا لم تتحقق استقلال الولايات المتحدة الا بعد ان عاونتها فرنسا عن تركيا وتحقق استقلالها الا بمساعدة اوربا ٠

اما مصر فانها لم تحرم المعاونة الخارجية فحسب ، بل تالبت عليها العوامل الخارجية وعاونت انجلترا على تحقيق اطماعها الاستعمارية (١) ٠

النتائج التى ترتبت على فشل الثورة العرابية :

(أ) لقد كانت النتيجة الاليمة لفشل الثورة العرابية هى الاحتلال البريطانى الذى ظل جاثما على صدر الامة اكثر من سبعين سنة ، ولا شك أن هذا الاحتلال كان نجاحا للثورة المضادة الخارجية ضد الثورة التحررية وهكذا شهدت السنوات الاولى للاحتلال الغاء الدستور وحل مجلس شورى النواب ، وشهدت فوق ذلك استسلام كبار رجال مصر والاعيان لارادة المعتمد البريطانى وتقرب أكثرهم اليه ٠

وقد عملت بريطانيا على توطيد مركزها فى مصر بالنسبة للمصريين من ناحية وبالنسبة للدول الاوربية الاخرى من ناحية ثانية ، وساعدها على ذلك وجود جيش تستمد منه القوة الفعلية لتحقيق أغراضها ٠

وكانت مصر تعانى افلاسا فى ماليتها ، ومع ذلك فقد تكبدت نفقات جيش الاحتلال واتجه الانجليز الى السيطرة علىمالية البلاد ، وضمنوا لمصر قرضا جديدا يسد تلك النفقات ، كما اتجهوا الى الغاء المراقبة الثنائية، واتبع اللورد كروهر المعتمد البريطانى فى مصر عدة وسائل لزيادة الميزانية ، منها تحريم صناعة التبغ ، وزيادة العوائد الجمركية على الدخان الوارد والتوسع فى مشروعات الرى وتقرير البدل النقدى عن الخدمة العسكرية ٠

---

(١) عبد الرحمن الرافعى — أحمد عرابى ص ٢٢١ — ٢٢٢ ٠

(ب) محاكمة العرابيين :

عقب الاحتلال مباشرة ، تم اعتقال زعماء الثورة العرابية ، واعتقل ايضا كثيرون من الضباط ، والقوا فى السجن رهن التحقيق والمحاكمة ، وكثرت الوشايات حتى امتلأت السجون بالمتهمين ، وبلغ عدد المقبوض عليهم أكثر من ٣٩٠٠٠ شـــخص ٠

واستقر رأى الانجليز على أن يقـــدم عرابى وصحبه أمام المحكمة العسكرية بتهمة عصيان الخديو ، وحكم على عرابى وســـتة من رفاقه بالاعدام ، مع صدور الامر الخديوى ، بابدال الاعدام بالنفى المؤبد ٠ كما اصدر الخديو امرا آخر فى ١٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢ بمصادرة ممتلكات الزعماء السبعة وتجريدهم من جميع الرتب والالقاب وعلامات الشرف التى كانوا حـــائزين لهـــا (١)

ونتيجة لاحكام النفى والتشريد أمنت بريطانيا من اى ثورة تتهددها فى مصـــر ٠

(ج) سيطرة الانجليز على الجيش المصرى :

بادر الانجليز الى الغاء الجيش الوطنى منذ الساعات الاولى للاحتلال واستعاضوا عنـــه بجيش هزيل وضع تحت اشراف ضباط انجليز ليكون اداة مسخرة فى أيدى الاحتلال ٠ ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل حرص الانجليز على أن يعرقلوا أى سبيل للنهوض بالجيش من جديد ، فبادروا الى الغاء المدارس الحربية العليا ، كما أغلقت المصـــانع الحربية وبيعت سفن الاسطول المصرى ، وهبط عدد الجيش الى أقل من عشر آلاف جندى

وكان الضباط المصريون لا يضمنون البقاء فى مناصب الجيش الا اذا ابدوا ولاءهم للمحتل ، أما اذا بدت منهم روح وطنية ، كان جزاؤهـــم الاحالة الى الاستيداع ، وبذلك مسخ الاحتلال روح الجيش ، ونزل به الى مستوى شنيع من الضعف ٠

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ـ احمـد عرابى ص ٢٠١ ـ ٢٠٤ ٠

« ومنذ عام ١٨٨٦ وضع نظام البدل النقدى للاعفاء من التجنيد . وأدى هذا النظام الى امتهان الجيش واعتبار التجنيد تكليفا تختص به الطبقات الفقيرة التى لا يستطيع الفرد منها أن يفتدى نفسه بدفع البدل العسكرى ، وهذا النظام خرج بالجندية فى عهد الاحتلال من معناها السامى فى أنها فرض واجب على كل مواطن للدفاع عن بلاده الى اعتبارها عبئا يقع على كاهل الفقراء ، وبذلك حرمت البلاد طيلة عهد الاحتلال روح الجندية الاصيلة المبنية على الشجاعة والتضحية ، كما حرم الجيش من الفئة المثقفة التى تستطيع ان تنهض بالجيش » .

(د) الغاء الدستور وحل مجلس شورى النواب :

الغت بريطانيا الدستور عقب الاحتلال ، وحلت مجلس النواب ، وحرصت على تشكيل هيئات مزيلة مثل مجالس المديريات ومجلس شورى القوانين ، وكان الغرض من انشاء تلك المجالس مجرد التنفيس ، اذ أن الحكومة لم تكن فى الواقع تلتزم بقرارات تلك المجالس .

أما فى الوزارات والمصالح الحكومية ، فقد عينت الحكومة عددا من المفتشين الانجليز ولم يكن هؤلاء من طراز ممتاز فى العلم أو فى الكفاية . وكانت كلمة المستشار البريطانى أقوى من كلمة الوزير المصرى ، وكان لكل وزارة مستشارها ، وقل نصيب المصريين فى الوظائف الكبيرة ، واصبحت الوزارات المصرية تأتمر باوامر الانجليز ، واستمر ذلك تقريبا بالنسبة لجميع الحكومات المصرية التى تعاقبت فى سنوات الاحتلال ، وذلك منذ أرسل اللورد جرانفيل وزير الخارجية البريطانية برقيته المشهورة فى عام ١٨٨٤ بشأن ازمة السودان وجاء فيها « مادام الاحتلال قائما فلا بد من اتباع النصائح التى ترسلها حكومة جلالة الملك الى الخديو ويجب على الوزراء والمديرين المصريين ان يكونوا على بينه من ان الحكومة الانجليزية تصر على اتباع السياسة التى تراها ومن الضرورى أن يتخلى عن منصبه كل وزير يعارض هذه السياسة » .

(هـ) انجلترا والاستغلال الاقتصادى :

كان من أهم أهداف الاحتلال البريطانى الاستغلال الاقتصادى فكان أول ما جاهر به أن مصر بلد زراعى ولا يمكن أن تنهض فيه الصناعة ، ومن

اجل ذلك اغلق الانجليز المصانع التى كانت موجودة بالفعل ، حتى تظل مصر فى حاجة دائما الى المصنوعات البريطانية · ونظرا لاهمية القطن بالنسبة لمصانع الغزل والنسيج فى لا نكشير ، اهتم الانجليز بزراعته فى مصر حتى أصبح عمود اقتصادها القومى ، ثم جعلوه فى أيديهم باعتبارهم المستوردين له ، وبذا صار اقتصاد البلاد بين أيديهم تماما ·

كما عمل الانجليز على ايجاد طبقة من الملاك ترتبط مصلحتهم بمصلحتهم وشجع الانجليز انشاء الملكيات الكبيرة ، وفعلا ارتبطت مصالح هؤلاء بالاحتلال لان مصالحهم أضحت فى ايدى سلطات الاحتلال · وكان يؤخذ من هؤلاء الملاك ممثلو البلاد فى مجلس شورى القوانين وفى الجمعية العمومية لانهم كانوا هم المسيطرين على الحياة فى الريف ، وبذلك اختل البناء الاجتماعى فى الريف المصرى اختلالا شديدا ، اذ اصبحت غالبية الارض الزراعية فى يد قلة من كبار الاقطاعيين ، وهناك بعض الفلاحين ممن يمتلكون مساحات ضئيلة ، بينما الغالبية منهم لا يمتلكون شيئا ·

(و) اضمحلال التعليم :

كان هدف التعليم فى عهد الاحتلال هو المحافظة على الاوضاع السياسية التى قامت ، ومعنى هذا اقرار الامن وجعل النظام مستتبا بحيث لا تستشرى روح الوطنية فى النفوس ، ولذلك كان التعليم فى بداية عهد الاحتلال تابعا لنظارة الداخلية ، ولا شك أن هذه التبعية توضح ما كان يريده الانجليز من التعليم ، وهو ابعاده تماما عن دائرة التعليم الوطنى الذى يرمى الى تكوين المواطن الحر الصالح ·

والهدف الثانى للسياسة التعليمية فى عهد الاحتلال ، كان تخريج الموظفين الصغار الذين تحتاجهم وزارات الحكومة ، وقد انعكس هذا الهدف فى السياسة التعليمية ، بحيث اننا نلاحظ أن المدارس كانت تفتح أبوابها وتغلقها بطريقة موسمية وحسب حاجة وزارات الحكومة الى الموظفين ·

أما الهدف الثالث فهو تعميق الفوارق الطبقية بين ابناء الوطن واتخاذ تعدد نظم التعليم وسيلة لتحقيق ذلك ، فقد شجع الاحتلا المدارس الاجنبية والخاصة لتحقيق هـــذا الهدف ٠

أمـــا الهدف الرابع ، فكان نشر الثقافة الانجليزية وجعلهـــا أدوات الاستعمار ٠

« وكان مجموع ما انفقه الانجليز على التعليم فى الخمسة وعشر الاولى لعهد الاحتلال لم يتجاوز من ١ ــ ٣ ٪ من الميزانية ٠ والغيت وزيدت مصروفات المدارس الثانوية ، وبذلك خلق الانجليز ما يد بالارستقراطية العلمية ، بل جعلوا من التعليم فجوة بين المتعلمين الشعب واصبحت اللغة الانجليزية لغة الدراسة فى المدارس حتى فى الابتدائية ، امــا الكتب الدراسية فكانت خالية من كل نزعة وطنيـة الاهتمام بتاريخ أوربا وجغرافيتها اكثر من الاهتمام بتاريخ مصر و حتى يفصـــل الانجليز بين حاضر البلاد وماضيها الثقافى » ٠

« ومما يدل على عدم اهتمام كرومر بالتعليم انه حين احس عهده بالمناداة باستعمال اللغة العربية والاهتمام بالتعليم العــالى ابواقه تذيع أن نشر التعليم الاولى بين طبقات الشعب أجدى على ا انشاء الجامعة وأن الحكومة حينئذ أخذت تشجع انشاء الكتاتيب بالمال ، وترتب على هذا ان ابناء الاثرياء وحدهم هم الذين كان تلقى التعليم الفنى والعالى بالسفر الى الخارج » ٠

الفصل السادس
يقظة مصر بعد الاحتلال

من خلال كفاح الوطنية المصريـة منذ الحركـة العرابية ، يبرز التيار القومى المصرى الذى ترجع بدايته للمفكـر المصرى رفاعـة الطهطاوى الـذى وهب نفسـه لتجديـد الحياة فى مصر حتى تلحق بحضارة الغـرب التى شاهدهـا اثنـاء رحلته الى اوربـا ، فقـد تناول بشـكل بارز تاريـخ مصر الخاص بحضارتهـا فى كتابه « مناهج الالباب » .

وتصدى هـذا المفكر لتحليل مقومات الحضارة الاوربية وخاصـة فى وضعهـا السياسى والاجتماعى فى مؤلفه « تخليص الابريز » بشرعية مبادىء الديمقراطيـة الليبرالية التى تقـوم على الديمقراطية ، وحريـة الفكـر والتعبير ، مـع اتجاهه المقارن بين الاوضـاع السياسـية والاجتماعيـة فى فى فرنسـا والاوضـاع السياسبة والاجتماعبـة فى مصر (١) .

واذا تأملنـا دعـوة الطهطاوى من خـلال اعمـاله نجدهـا ترتكز على ثلاث دعائم ، القوميـة المصريـة والديمقراطية الليبراليـة ، والدعـوة الى الأخـذ بأسباب الحضارة الغربيـة فى مصر (٢) .

وعندما جاء الافغانى الى مصر وجـد الطهطاوى قـد هيأ لـه التربـة الفكرية والسياسية بأولئك الذين شبوا فى مدرسته .

---

(١) رفاعـة الطهطاوى : تخليص الابريز فى تلخيص باريز تحقيق وتعليق مهـدي عـلام وآخرين ص ١٧٠ .

(٢) رفاعة الطهطاوى : مناهج الالباب المصرية فى مناهج الآداب المصرية ص ٩٧ .

واذا كانت مدرسه الافغانى قد اعقبت مدرسة الطهطاوى الا ان المدرستين تختلفان كلية فى المنهج والاسلوب والغاية وما يسيطر على كل منها من طبيعة رائدها ٠

وبلورت دعوة الافغانى الاتجاه الثورى الذى كان يتأجج فى صدره عن غريزة طبيعية صقلتها وانضجتها سياحة طويلة فى الاقطار الاسلامية ، واكسبته تجارب عملية واسعة وخبرة بحياة الشرق (١) ٠

فدعوة الطهطاوى تجديد حضارى ، اما دعوة الافغانى فدعوة تكتنفها ظروف استعمارية مسيطرة من دول الغرب ، ولذلك اتسمت دعوته بأساس ومنهج فكرى يمتد فى الجامعة الاسلامية التى كان يعتبرها السلاح البتار امام هؤلاء الطامعين ٠

ومن هذه المدرسة الأخيرة نجد الفكر العربى يتخذ طريقه وتتشع منه الافكار التى انتشرت خلال نهاية القرن التاسع عشر ، والنصف الاول من القرن العشرين فى العالم العربى ٠

ولا شك ان المثقفين كانوا ابرز الفئات فى الحياة السياسية فى مصر منذ نهاية القرن التاسع عشر ، فقد تالفت هذه الفئة منذ مطلع القرن التاسع عشر نتيجة للاحتكاك الفكرى والحضارى بين المجتمع المتخلف فى مصر والحضارة الغربية ، ونتيجة ايضا لحركة النقل والترجمة من الفكر الغربى فى صورة المختلفة (٢) ٠

ولم تكن الفرصة مواتية لنمو الحركة الوطنية من خلال السطوة الاستعمارية الكاملة من جهة وللذهول الذى أصاب المصريين من جهة أخرى من جراء فشل ثورتهم ــ العرابية ــ واحتلال بلادهم ، وادى هذا بالتالى الى فتور الحركة الوطنية ٠ ولكن الشعب بعد ذهوله ونكسة ثورته بدأ

---

(١) أحمد امين ــ زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ص ٩٧ ٠

(٢) أ ٠ د ٠ محمد أنيس ــ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وأصولها التاريخية ص ١٢٢ ٠

يفيق من الصدمة على يد صحيفة المؤيد التى تحريرها الشيخ على يوسف ٠

وتضافرت عدة عوامل لابتقاظ الشعب من جديد ، فكانت ما أحدثته السياسة الاستبدادية وما اثاره الحكم المطلق الذى كان يزاوله ممثل الاحتلال من الاستئثار بالسلطة دون الخديو من رد فعل بين المصريين من الاحتلال الى جانب تفاضى سلطات الاحتلال عن منح المصريين النظام النيابى على نمط النظام البريطانى ، وتقاعس الاحتلال عن منح المصريين قسطا) من التعليم العالي ، ومحاولة جعل اللغة الانجليزية لغة التعليم ٠

مصطفى كامل :

وفى وسط هذه الظلمة الحالكة ، ظهر من بين المصريين طراز جديد من المثقفين الذين رفعوا راية الكفاح ضد الاحتلال ٠

وكان على رأس هذه الجموع الثائرة شاب متوقد الذكاء شديد الحماسة هو مصطفى كامل ، درس المحاماة وتلقى المحاضرات فى مدرسة الحقوق المصرية - ثم أتمها فى مدرسة الحقوق الفرنسية ٠ وكان مصطفى كامل خطيبا مؤثرا يستطيع ببلاغته ان يخاطب قلوب الجماهير ، وأخذ يعبىء شعور المصريين بالمقالات والخطب (١) ٠

ولا شك أن مصطفى كامل هو باعث الوطنية المصرية بعد الاحتلال ، وهو الذى أعاد الى المصريين ثقتهم بأنفسهم بعد فشل الثورة العرابية ٠ وكان اول ما واجهه من الصعاب هو اليأس الذى ران على نفوس الكثيرين ممن صدمتهم كارثة الاحتلال ٠ لذلك كان اول ما يجب ان يتجه اليه زعيم الحركة الوطنية فى تلك الآونة أن يذكر المصريين بماضيهم وجلال تاريخهم وما فعله اجدادهم فى القريب والبعيد من ايامهم (٢) ، فهو يقول « ان ثقة الأمة بنفسها هى الاساس الذى يبنى عليه مجدها ويشاد غدها وسؤددها ٠ ترى الامة اذا اعتنقت الحرية والقدرة فى مجموعها وافرادها تغلبت على

(١) د ٠ جاد طه - الصراع الاستعمارى فى حوض النيل ص ٨١ ٠
(٢) د ٠ أحمد عبد الرحيم مصطفى - المصدر السابق ص ٣٠ ٠

الحادثات والايـــام وقهرت ألد أعدائها واجتـــازت المصـــاعب غير هيابة ولا وجلة (١) .

وقد ولد مصطفى كامل فى ١٤ غسطس ١٨٧٤ بدرب المبيضة بشارع شبخون بالصلبية بقسم الخليفة بالقاهرة . ونال شهادة الدراســة الثانوية فى عام ١٨٩١ ، والتحق فى نفس العام بمدرسة الحقوق الخديوية، كما التحق فى عام ١٨٩٢ أيضـا بمدرســـة الحقوق الفرنسية فجمع بين المدرستين وحصل على شهادة الحقوق من كلية تولوز الفرنسية فى عـــام ١٨٩٤ .

وقد بدأ مصطفى كامل كفاحه الوطنى وهو طالب بالمدرسة الثانوية ، ولم يكن قد تجاوز بومئذ السادسة عشرة من عمره ، اذ أسس فى عام ١٨٩٠ جمعية ادبية وطنية أطلق عليها (جمعية الصليبة الأدبيـة) .

وبعد تخرجه من الحقوق الفرنســبة والمصرية ، بدأ مصطفى كامل يستغل موهبته الفذة فى الخطابة والكتابة فى بعث الروح الوطنية ... بدأ يكتب فى الصحافة المصرية والعالمية ، منددا بالاحتلال البريطانى . كما أن موهبته الخطابية شدت اليه الآذان فى عصر كان المصريون فيه يعشـــقون اللغة العربية ويفهمون دقائقها ، وفى هذه المرحلة الاولى أرسل خطابات الى كبار زعماء العالم والى البرلمـــانات يعـرض عليهم تجاوزات بريطانيا فى مصر . واستغل مصطفى النزاع بين فرنسا وانجلترا ليكتب فى الصحافة الفرنسية .

وســعى مصطفى سنة ١٨٩٥ للتعرف بمدام جوليت آدم ، وكانت من أعظم الشخصيات الفرنسية فى السياسة والأدب ، وكان مشاهير أدباء العالم يرحلون اليها ويجتمع بدارها العلماء والأدباء والشعراء (٢) .

---

(١) د . جاد طه – الصراع الاستعمارى فى حوض النيل ص٨٢ .

(٢) ولدت مدام آدم سنة ١٨٣٦ وتوفيت سنة ١٩٣٦ ، فظلت موضع احترام مواطنيها طـــوال سن حياتها ، وقـد وضعت ســنة ١٩٢٢ كتابا بعنوان (انجلترا فى مصر) وقد سعى مصطفى كامل تضم مدام آدم فى صف =

وقـــد فتحت مدام ادم الباب على مصراعية لمصطفى كامل كى ينـــدد بالاستعمار البريطانى فى الصحافة الفرنسية ٠

ولم يتوقف نشاط مصطفى كامل فى هده المرحلة المبكرة من جهاده على مهاجمة انجلترا فى الصحافة الفرنسية بل انه راسل السياسة الانجليزية ، وسافر الى برلين ليرفع صوت مصر فى المانيا ، وكذلك فعل فى فينا عاصمة النمســا ، كما سافــر الى الآستانة عاصمه الدوله العثمانية ، باعتبار ان هذه الدولة كانت الدولة الوحيدة التى كانت لا تفتئا تطالب انجلترا رسميا بالجلاء عن مصـــــــر ٠

مصطفى كامل وحادثة فاشودة :

فى سنة ١٨٩٨ وقعت حادثة خطيرة كان لهـا وقـع شديـد فى النفوس ، واثـر بالغ فى مصير المسالة المصريـة ، ونعنى بهـا حادثه فاشودة التى اهتزت لهـا أوربا بأسرهـا ٠

كانت بعثة مارشان هى المظهـر الوحيد الاكثر جدارة بالنظر والاكثر شـهرة بين مظاهر النشـــاط الفرنسى فى أفريقية فى السنوات من ١٨٩٧ - ١٨٩٨ (١) وكان مارشان أحد مساعدى موننى المتحمســين لفكرة الوصــــول الى النيل ، والذين عملوا معه منذ شهر مايو ١٨٩٥ فى باريس ٠

وفى ٢١ سبتمبر من نفس السنة كتب شوتان Chautemps وزير المستعمرات الفرنسى الى زميله وزير الخارجية شارحا أنه قد طلب من الكابتن مارشان دراسة امكانية امتداد النفوذ الفرنسى فى اتجاه النيل ، وكتابة تقرير

= الامانى الوطنية المصرية لمـا لها مكانة كبرى فى عالم الصحافة والأدب والسياسة فى فرنسا ، وأرسل لها خطابا فى ١٢ سبتمبر ١٨٩٥ يطلب منها فيـه مؤازرة الحركـه الوطنيـة فى مصر ضـد الاحتلال ، ملبت مدام آدم نداء مصطفى كامل ، وكتبت اليه ترحب بدعوته ، فجاء وقابلها ، واصبحت مدام آدم بمثابة الأم الروحية لمصطفى ، وعرفته بكبار السياسيين والصحفيين الفرنسيين ٠ وقد زارت مدام آدم مصر سنة ١٩٠٤ بناء على دعوة مصطفى كامل ، واستقبلت بكل الحفاوة والتكريم ٠

(٢) Mekki Shibeika — British policy in the Sudan p.p. 347-348

عن ذلك ، وتابع شوتان خطابه الى هانوتو ذاكرا أنه قد أمر كابتن مارشان بأن بشرح له تخصصنا هذه الحطة ، ولكن سترط زرارة زيبو Robot تسبب فى احباط المشروع ، وان كان مارشان قد ذكر بأن هانوتو قد وافـق عليـه ٠

وفى وزارة ليبرجرا Leon Bourpeois طلب كيس Quieysse وزير المستعمرات من مارشان كتابة مذكرة عن الموضوع ، وذكر مارشـان فيها أنه يجب تعبئة كل الامكانيات لمد النفوذ الفرنسى تجاه النيل ٠ كما كان يعتقد بضرورة تدخل وزارة الخارجية الفرنسية مادام الامر سيؤدى الى حـادثة دوليـة ٠

ولما كان من غير المعقول أن تعمد فرنسا ، وهى التى تخدم حقـوق خديو مصر ، الى محاولة ضم السودان المصرى ، فان بريطانيا ستضطر الى الموافقة على التدخل الاوربى لبحث مسـالة وادى النيـل على مستوى دولى ٠٠٠ وقد ينتج عن ذلك مباحثات تتعلق بحالة الجلاء عن مصر نفسها ، ولذلك فانه يجب ارسال حملة الى النيل على أن لا يكون لها الطابع الحربى، وأن يقتصر واجبها على مجرد رفـع العلم الفرنسى هناك ، اما اذا واجهت حملة خرى معادية فعليها أن تتحاشى وقوع اى صدام بين القوتين أثنـاء هذه المواجهة وان تطلب الاتصال بالحكومتين صاحبتى الأمر (١) ٠

ولم يكن غرض مارشان كما يقول رنوفان هو احتلال السودان المصرى ومنـه الى فرنسـا ولكن

Prendre des gages de restitution collective a l'Egypte de sterritoires ayant formés le Sudan Egyptien

وكـذا وضـع انجلترا فى

Dans la necessité d'accepter. sinon de provoquer elle, même, la reunion, d'une conférence europeeune, au dein de laqusile serait disauté et fiscé le sort réoervé su Souden. (٢)

---

(١) Langer The Diplomacy of Imperialism. p. 540.

(٢) المجلة التاريخية المصرية المجلد الثالث العدد الاول مايـو ١٩٥٠ ص ٢٢٣ مقالة الدكتور محمد مصطفى صفوت عن نقد مقالة الاستاذ بيير رنوفان عن أصـول فاشـودا ٠

ولم يكن مقصد الفرنسيين هو احتلال وادى النيل بل خلق وقت يستطيعون عن طريقة اجبار انجلترا على مفاوضتهم ، وعقد اتفاقية عامة كل الامــور المعلقة بينهما دون أن تفقد فرنسا كرامتها باستحداء هذه المفاوضات . وكان من شأن اتساع النفوذ الفرنسى فى اعالى النيل ، ان يضع حكومة باريس فى مركز أقوى ويجعلها قادرة على استمالة الرأى العام بتعويضــه عن فقدها لمركزهــــا فى مصر (١) .

وكان كيبيس وزير الخارجية الفرنسية يرى فى مذكرته فى ٣٠ نوفمبر ان هدف هذه البعثة غير الحربية هو محاولة الوصول الى النيل ، وأن وجودها هناك سيجعل فرنسا فى موقف يسمح لها بالتدخل بنجاح فى حل مســـــألة الســــــودان المصرى (٢) .

كما أن الجنرال مانجن Mangin الذى كان احد أعضاء الحملة صرح قائــلا بأن الغرض من الحملة هو ازالة كل ادعاءات من جانب الانجليز لاحتلال مصر ، ووضع حد لاحلام أصدقائنا الاعزاء الذين يرغبون فى ربط مصر بالكاب وممتلكاتهم فى شرق افريقية بممتلكات النيجر الملكيــة .

كما ان هانوتو نفسه قال لــارشان عنــد مغادرته باريس « اذهب الى فاشودة .. أن فرنسا سوف تطالق مسدسها (٣) » .

هذه اذا هى المناورات الاستعمارية فى وسط افريقية ... لقد اندفعت هذه القوى تريد كل منها أن تقتطع لنفسها أكبر مساحة ممكنة من هذه المنطقة ولكن بريطانيا كانت الجانب الاقوى من جميع النواحى ، ورغم ذلك فانها لم تكن تود اشعال حرب فى ذلك الوقت ، حيث كان سالسبورى يرى أنه من المستحسن لبريطانيا وهى متشبكة فى اجزاء اخــــرى من العالم وفى حرب جنوب افريقية أن تتجنب اشتباكات اخـــرى .

---

(١) Hoit p. M. The Mahdist State 410

(٢) Shibeika op. cit., p. 348.

(٣) Langer p. op. cit 538

وكان سالسبورى يعلم أن الفرنسيين سيصلون الى النيل قبل أن تعيد القوات المصرية فتح الخرطوم . وقد ردى سالسبورى على خطاب لانسدون Lansdowne الذى نبهه الى هذا الخطر قائلا :

« لست شديد التأثر من هذا الخطر لاننا سوف نقابله بطريقة ما » وأضاف سالسبورى قائلا : « يجب أن نتذكر اننا ، بتحطيم قوة الدراويش سنقتل مدافعا يحافظ لنا على الوادى الآن » كما كتب سالسبورى ايضا الى اللورد كرومر على هذا المنوال قائلا : « اننا اذا ما وصلنا الى فاشوده ، فان الأزمة الدبلوماسية ستصبح شيئا لا ينسى ... وان ما يلى ذلك سوف يكون شيئا مسليا جدا » .

وفى تلك الاثناء حدثت بعض التطورات التى ارغمت الحكومة البريطانية على الاسراع فى عملياتها .والتقدم الى الخرطوم قبل أن يتم استعدادها لهذا الغزو (١) وليس من شك فى ان أولى هذه العوامل انما يرجع الى ان بريطانيا بعد ان كانت تنظر الى احتلالها لمصر على انه اجراء مؤقت لم تجد غضاضة بعد ذلك — من التلميح بأنه امر قد يطول به الزمن (٢)

ولما كان السودان هو مفتاح مصر من الجنوب فلابد من الاطمئنان على الحدود الجنوبية لمصر (٣) اذ ان اى دولة قوية معارضة لانجلترا تستطيع السيطرة على السودان يمكنها تهديد سلامة مصر بسيطرتها على مياه النيل (٤) . اما اذا حكمت السودان دولة ضعيفة فان هذا القطر سيصبح فريسة للدول الاستعمارية تنهشها بلا رحمة ولا شفقة خصوصا ونحن هنا فى عصر التسابق على تقسيم افريقية (٥) .

ولا ريب أن بريطانيا قد ارتكنت الى ذريعة الاطمئنان على الحدود الجنوبية لتنفيذ مآربها الاستعمارية تجاه السودان . وقد قاه بارنج فى

---

(١) Philip Magwis — Kitchener p. 81.

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى مصر والسودان ص ٤٧٧ .

(٣) Philip Magnus p. 81

(٤) Alford The Egyptian Sudan p. 40

(٥) دكتور محمد فؤد شكرى ص ٤٧٧ .

رسالته الى سالسبورى فى ١٥ ديسمبر ١٨٨٩ « ان اى دولة تملك حوض النيل الاعلى لابد ان تملك السيطرة على مصر بحكم الموقع الجغرافى فحسب ولم يحدث اطلاقا انى انكرت كما لا انكر اليوم ان التخلى عن السودان امر يدعو للاسف الشديد وان هذه البلد انما هى ملك بالطبيعة لمصر . وان الحكومة التى لها الحكم فى دلتا النيل يجب كذلك ان تملك شاطىء النهر وان لم يكن الى مصبه فعلى اية حال الى مسافة بعيدة على طول مجراه » ان منطق بارنج فى هذه الرسالة انما هو منطق استعمارى محض اذ يحتم ان تكون لمصر والسودان حكومة واحدة ... وما دامت مصر حينئذ محتلة بقوات الانجليز الذين كانت لهم السيطرة على كل شئونها ، فمعنى ذلك ان السيطرة على السودان ستكون لانجلترا ولكننا نستطيع ان نقول ايضا انه ما دامت انجلترا تحتل مصر احتلالا فعليا ، فان احتلال السودان هو المكمل الطبيعى للاحتلال البريطانى فى مصر (١) .

وكان الرأى العام البريطانى شديد الرغبة فى وجوب التقدم الى اعالى النيل . ولا ريب ان فى استعادة السودان ستكون انتقاما للطريقة التى قتل بها جوردون (٢) . الذى كانت الحكومة المصرية قد كلفته باجلاء مواتها من الخرطوم اثناء ثورة المهدى (٣) . ولم يكن فى وسع احد ان يغفل ان مصر اضطرت فى عهد الاحتلال البريطانى لها الى ان تفقد املاكها ، بل وطغت موجة من التأخر والفوضى فى هذه الاملاك المفقودة ... الأمر الذى اعتبر الانجليز انفسهم مسئولين عنه (٤) . حتى ان لورد سالسبورى صرح فى شهر يونيو ١٨٩٨ فى مجلس اللوردات قائلا : « اننا لن نكون قد اعدنا الى مصر مكانتها التى تسلمناها بها ولن نكون قد رفعناها فى المركز الآمن الذى تستحق ان تكون فيه حتى يرفرف العلم المصرى على الخرطوم .

ويبدو هنا المنطق الاستعمارى ايضا اذ ان الدولة صاحبة السيطرة على مصر وهى انجلترا سوف تسيطر بالتبعية على السودان كما قلنا ...

(١) Magnus, p. 82
(٢) Holt, The Mahdist State p. 205
(٣) Pedmore Britain's Third Empire p. 246
(٤) دكتور محمد فؤاد شكرى ص ٤٨٥ .

ان سالسبورى لن يعيد الى مصر مكانتها التى تسلمها بها الا بالجلاء عن مصر ذاتها وهو ما كان يأباه ، ان الحقيقة ان سالسبورى كان يعمل على مدالنفوذ الانجليزى من مصر الى السودان •

وهكذا تقدمت حملة مصرية بريطانية بقيادة الضابط الانجليزى كتشنر، واعكنهما ان نسحق مقاومة المهديين وان تصل الى اعالى النيل ، ولكن بعد وصول البعثة الفرنسية اليها •

وصلت حملة مارشان الى فاشوده فى العاشر من يوليو عام ١٨٩٨ (١) وعملت منذ ساعة وصولها على تثبيت اقدامها ••• عرفعت العلم الفرنسى واعدت المواقع وابرمت الاتفاقيات مع قبائل الشلك وحصلت على وعود بالاحتلال الدائم • ثم أرسلت الباخرة الصغيرة فيدايرب **Faidherbe** مسافة ٢٥٠ ميلا اعلى النهر الى اقرب محطة تموين فى مشرع الرق فى اقليم بحر الغزال لاحضار مواد التموين الضرورية (٢) وكان معنى هذا ان الفرنسيين قد عملوا على اقامة قاعدة حربية يستندون اليها فى عملياتهم المقبلة •

كان كرومر قد اقترح على سالسبورى لمواجهة القوى المتنافسة على اعالى النيل فى مذكرة بتاريخ ١٥ يونيو ١٨٩٨ (٣) ارسال حملتين بحريتين نحو اعالى النيل وبمجرد هزيمة الخليفة فى ام درمان ، احداها الى النيل الابيض والاخرى الى النيل الازرق على ان تكون الحملة الاولى اقوى من الثانية • وتساءل كرومر فى مذكرته عن واجب قائدى الحملتين فى حالة رفع العلم الفرنسى على اى نقطة على النيل ؟ هل يطالبان بالارض بأسم الخديو ؟ ام بأسم الحكومة الانجليزية ؟ ام باسمهما معا بالاتحاد ؟ واشار الى انه يجب وضع تعليمات واضحة بخصوص هذه النقطة الحساسة •

---

(١) Theobald, The Mahdiya p. 240

(٢) Giffen The Fashoda Insident p. 6

(٣) دكتور محمد فؤاد شكرى ص ٥٢٩ •

وفى اول يوليو ارسل سيرادموند مونسون السفير البريطانى فى باريس آراءه عن الحكومة الفرنسية الجديدة الى لورد سالسبرى · وكان يعتقد ان مسيود لكاسيه Delcassé وزير الخارجية الجديد (١) معروف بقوة شكيمته وان مواطنيه المعادين لانجلترا كانوا يأملون فى أن تثار المسألة المصرية بقوة كبيرة فى عهده · وفى نفس الوقت كان من المتوقع ان تلقى فرنسا معاونة الروسيا اذا ما حدث صدام بينهما وبين انجلترا بسبب هذه المسألة · فقد توقع الانجليز ان يعمد الفرنسيون الى التمسك بهذه الاراضى التى رفعوا عليها العلم الفرنسى على أساس ان هذه الاراضى ملك مباح Res Nullius منذ ان اخلاها المصريون ·

وعلى ذلك اتخذت الحكومة الانجليزية من مقترحات اللورد كرومر السالفة الذكر فى ١٥ يونيو اساسا للتعليمات التى اصدرتها الى كتشنر فى ٢ اغسطس (٢) · وقد تسلم كتشنر هذه التعليمات مشمعة ومغلقة وصدرت اليه الاوامر بالايفض المظروف الذى يحوى هذه التعليمات الا بعد استيلائه على الخرطوم ··· وتبعا لذلك فقد فتح كتشنر هذا المظروف فى ٣ سبتمبر فوجد ان التعليمات تشير عليه بأن يقود بنفسه حملة الى اعالى النيل الابيض كى يصل الى معقل الفرنسيين فى فاشوده ·

ووجه نظر كتشنر بوجه خاص الى الكلمة التى القاها جراى Sir Edward Gray فى مجلس العموم فى ٢٨ مارس سنة ١٨٩٥ (٣) ·

وتأكيدا لنص كلمات سيرجراى فقد أرسل سيرادموند مونسون مذكرة فى ١٠ يسمبر ١٨٩٧ الى مسيو هانوتو تتضمنوجوب فهم موقف حكومة جلالة الملكة التى لن تسمح لاية أخرى غير بريطانيا بأية مطالب لاحتلال اى جزء من وادى النيل · وان حكومة جلالة الملكة تتمسك بنفس اللهجة التى اعلنها سير ادوارد جراى بصراحة بخصوص نفس الموضوع والتى ارسلتها الى الحكومة الفرنسية فى ذلك

---

(١) Shibeika p. 392-393

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى ص ٥٢٩ ، ٥٣٠

(٣) Magnnus p. 138

الوقت (١) .

وكذلك تضمنت التعليمات المرسلة الى كتشنر ضرورة بذل ما فى وسعه لابعاد الفرنسيين او الاحباش فى حالة وجودهم فى اى جزءمن وادى النيل .. وكان على السردار ان يبلغ اى مائد فرنسى أن وجوده فى وادى النيل يعتبر تعديا على حقوق كل من مصر وبريطانيا وانه ليس لملك البلجيك أية حقوق فى اى جزء من وادى النيل سوى اقليم لاود وبصفة استئجار فقط (٢) وكذلك فقد كان على كتشنر فى حالة مفاوضته مع السلطات الفرنسية او الحبشية التى قد يقابلها ان لا يشير فى مناقشاته الى اى كلمة يستشف منها اى اعتراف من جانب بريطانيا باى حق لاية دولة اخرى غير بريطانيا فى احتلال اى جزء من وادى النيل (٣) .

وكان على كتشنر ان يتلافى اى صدام مع قوات الامبراطور منليك بل يترك ذلك للحكومات المختصة (٤) .

رأى كتشنر أنه من الضرورى التصرف فى الحال وفقا لهذه التعليمات(٥) وكان يعلم تماما ان اقرار السلم أو اعلان الحرب يتوقف عليه فى هذه اللحظة وان عليه ان يتصرف بحكمة حتى يحول دون مقوع الحرب التى تكون حربا محلية بل سيمتد اتونها وتصبح حربا عالمية (٦) .

وكان كتشنر لا يزال فى ام درمان فى ذلك الوقت وعلى نحو ٥٠٠ كيلومتر شمالى فاشوده ... ولكنه كان يستطيع قطع هذه المسافة فى عشرة ايام او اقل اذ ان النهر كان صالحا للملاحة ... وهكذا وضح ان موقع مارشان فى فاشوده والذى كان يظن بأنه بعيد جدا بعد رحلته

---

(١) Shibeika p. 393-394
(٢) Arthur Sir George life of Lord Kitchener p. 246
(٣) Magnus, p. 139
(٤) Shibeika p. 394
(٥) Langer p. 551
(٦) Mangus p. 139

التى استغرقت عامين من الاطلنطى ، اصبح لا يبعد عن العالم الخارجى بأكثر من اسبوعين او ثلاثة فى رحلة سريعة من اتجاه جديد من الشمال (١)

وفى العاشر من سبتمبر ١٨٩٨ توجه كتشنر الى اعالى النيل ومعه ونجت واسطول من خمس سفن مسلحة تحمل كتيبتين سودانيتين وبطارية مدفعية مصرية وكمية من المدافع الرشاشة (٢) • وضرب كتشنر معسكر الدراويش عند الرنك وأسر سفينتهم صفية (٣) ثم واصل تقدمه حتى اصبح فى ١٨ سبتمبر على بعد بضعة اميال من فاشوده (٤) وحاول ان يتلاقى عامل المفاجأة الذى قد يؤدى الى عواقب وخيمة (٥) فارسل رسالة بأسم رئيس البعثة الاوربية يخبره فيها بانتصاره فى أم درمان وبقرب وصوله الى فاشوده (٦) •

وفى اليوم التالى سارت الحملة بحذر نحو فاشوده ، وكانت مستعدة لكافة الاحتمالات والتقت بقارب صغير يحمل علما فرنسيا كبيرا ، وجاء منه احد الوطنيين برتبة (رقيب) الى سفينة السردار وسلم السردار رد الماجور مارشان على خطابه • وجاء فى هذا ان الماجور مارشان يهنىء السردار بانتصاره على الدراويش (٧) ويحيطه علما بأن القوات الفرنسية قد احتلت فاشوده منذ العاشر من يوليو عام ١٨٩٨ باسم الجمهورية الفرنسية •• وانه بناء على اوامر حكومته قد احتل بحر الغزال الى مشرع الرق والى ملتقى بحر الجبل وبلاد الشلك على يسار النيل الابيض حتى فاشوده (٨) • ثم اخذ يقص قصة اشتباك الدراويش معه فى يوم ٢٥ اغسطس وانتصاره عليهم وذكرانه قد

---

(١) Giffon p. 7
(٢) Magnus p. 138
(٣) Giffen p. 8
(٤) Arthur Sir George, Life of Lord Kitchener p. 246
(٥) Theobaid p. 239
(٦) Arthur Sir George; Life of Lord Kitchener p. 246.
(٧) Arthur Sir George Life of Lord Kitchener p. 247.
(٨) Giffen p. 8

وقع معاهدة مع ملك الشلك عبد الفاضل يوم ٣ سبتمبر وضع فيها هذا الملك بلاده الواقعة على يسار النيل الابيض تحت الحماية الفرنسية بشرط التصديق على هذه المعاهدة من الحكومة الفرنسية (١) • واضاف انه قد أرسل الباخرة الصغيرة فيدايرب الى الجنوب لاحضار الامدادات فى الوقت الذى انتظر فيه معاودة الدراويش للهجوم ولكن وصول انباء انتصارات كتشنر اعدت احتمال الحرب مع الدراويش (٢) •

المقابلة بين كتشنر ومارشان :

وصل كتشنر الى فاشوده فى ١٩ سبتمبر حيث وجد العلم الفرنسى مرفوعا على مبنى الحكومة القديم هناك •

وقرر كتشنر ان يطالب فقط برفع العلم المصرى على المديرية لتاكيد المطالب المصرية على كل السودان ولذلك فانه أمر برفع العلم المصرى على كل سفن الحملة الصغيرة • وقرر ان يقابل مارشان وهو مرتد زى لواء فى الجيش المصرى ولابسا الطربوش الاحمر على راسه •

وتم اول لقاء بين قائدى الحملتين ، ففى نفس اليوم جاء مارشان الى سفينة كتشنر (٣) بناء على طلب الاخير اذ السردار كان اعلى فى الرتبة العسكرية من الماجور مارشان (٤) • واستقبل مارشان بحرس شرف من القوات المصرية البريطانية (٥) •

وبعد المقدمات اظهر كتشنر تقديره العميق للرحلة الشاقة المضنية التى قام بها الماجور مارشان وبعثته (٦) واجتمع لورد كتشنر وكولونيل ونجت وماجور مارشان وكابتين جيرمان حول المائدة فى سفينة السردار (٧) • وكان على كل مفهوم ان يكون لبقا وحذرا فى مناقشاته

---

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى ص ٥٣٥

(٢) Shibeika p. 396

(٣) Magnus p. 139

(٤) دكتور محمد فؤاد شكرى ص ٥٣٥

(٥) Churchill The river War p. 309

(٦) George Arthur p. 247

(٧) Theobald p. 240.

والفاظه نظرا لاهمية الموضوع والموقف ، فبين فرنسا وبريطانيا منافسة تقليدية فى وادى النيل ... وقد حدثت هذه المواجهة الخطرة بينهما فى هذه البقعة النائية واى كلمة او عمل متهور قد يؤدى الى وقوع الحرب ، ليس فقط فى فاشوده بل فى مبادين وجبهات فى مناطق اخرى من العالم .

ويقول كولزنيل ونجت نفسه عن هذه الحادثة « وبعد المحن التى لاقوها فى رحلتهم الطويلة الشاقة فان السردار ابلغ مارشان ان لديه تعليمات لابلاغه ان وجود الفرنسيين فى فاشوده وفى وادى النيل ، يعتبر تعديا مباشرا على حقوق كل من مصر وبريطانيا ... ولذلك وطبقا للتعليمات الصادرة اليه فانه يحتج اشد الاحتجاج على احتلالهم فاشوده ، وعلى رفع العلم الفرنسى على ممتلكات صاحب السمو الخديو » (٦) .

فأجاب مارشان ايضا انه بطيع الاوامر والتعليمات الصادرة اليه من حكومته (٢) والتى تامره باحتلال بحر الغزال ومديرية فاشوده على وجه التحديد ... وقد أمكنه ان يحقق ذلك ، وعليه ان ينتظر التعليمات من حكومته بصدد اى تحركات او عمليات مستقبلة .

فرد كتشنر بأن لديه تعليمات من الحكومة بأعادة اقامة الحكم المصرى فى فاشوده ... وتساءل ان كان ماجور مارشان (٣) مستعدا لمقاومة هذه التعليمات ، وان عليه ان يختار قراره الاخير بمهارة بالنسبة لهذه المسألة حتى لا تنشأ حالة من العداء . واشار كذلك انه يسعده جدا ان تصنع احدى سفنه الحربية تحت امرته كى تنقله هو ورجاله سالمين الى القاهرة (٤) ولم يتردد مارشان فى الاجابة مبينا انه اذا استخدم السردار القوة ، فانه سوف يضطر الى قبول ما يمليه عليه الموقف (٥) ... وكان يعنى بهذه الاجابة انه هو ورفاقه سوف يموتون

---

(١) Theobald p. 241

(٢) H.D. Traille - Egypt , The Sudan p. 198

(٣) Theobld p. 241

(٤) Magnus p. 140

(٥) Theobaid p. 241

وهم فى مواقعهم (١) ولهـذا فانه يرجو السردار ان يقـــدر موقفه كجندى لا يستطيع البت فى الامور دون الرجوع الى حكومته (٢) ، وان يســـمح لمشكلة بقائه فى فاشوده ان تنتقـل الى حكومته ، لانه بدون تعليمـات منها ، فانه لا يستطيع ان يترك فاشوده ، ولا ان ينزل العلم الفرنسى من عليهـا . واضـاف مارشان انه متأكـد من ان حكومته - تحت هـذه الظروف - لن ترجىء الاوامـر بانسحاب بعثته لوصبر كتشنر قليـلا ، وانه يأمـل حينئذ ان يتمكن من قبول عرض السردار شاكرا .

فتساءل السردار « هل افهم من ذلـك ان الحكومـة الفرنسية أمرتك بان تمنـع مصر من رفـع العلم المصرى واستعادة سلطاتهـا فى ممتلكاتها السـابقة مثـل مديريـة فاشـوده ؟ (٣) .

فأجاب مارشـان بعـد تردد بانه لا يمانـع فى رفـع العلم المصرى على فاشوده وقـال « دعنـا صرحـاء ... كيف استطيع ذلـك وانت تملك من الرجال اكثر منى ؟ » ... ومن ثم كتشـير ان يرفـع العـلم المصرى فى احتفـال كبير ، وان يترك العلم الفرنسى مرفوعـا ايضـا حتى يتم حـل المسـألة بالطرق الدبلوماسـية عن طريق الحكومتين (٤) .

ولم تكن لفرنسـا ولا لانجلترا اى احقيـة فى التحكم فى مصر أو السودان أو اى جزء من وادى النيـل ، فاذا جردت مناقشـاتهم من الدبلوماسـية والدعاية الصحفية فهى لا تنطوى على شىء الا على روح الاستعمار والاستغلال وهـذه لا تستند الى حق بل تؤيدهـا القوة .

ومن الواضح ان حجج الانجليز والفرنسيين ومناقشاتهم كانت لا دخل لهـا فى الوضع النهائى للمسالة ، فكمـا ذكرنـا كان سالسبورى مصممـا على عـدم الرضوخ أو بحث امتيازات للفرنسيين ... وازاء هـذه الحالة اصبحت المسالة مسالة قـوة ، وكان من الميسور طـرد بعثة مارشـان بقـوة كتشنر

---

(١) Rose Holland p. 505

(٢) نعوم شـقير ص ٦٥٢ .

(٣) Theobald p. 242

(٤) Magnus p. 140

التى تبلغ ٤٠٫٠٠٠ جندى ... ولكن ذلك كان يعنى وقوع الحرب بين انجلترا وفرنسا ، وكانت انجلترا تفهم ذلك جيدا ، ولكن الحكومة البريطانية لم تتراجع وكتبت التيمس بعد ان انتهت الازمة فأشارت الى ان البريطانيين قد غنوا فى عام ١٨٧٨ قائلين بشجاعة « لقد حصلنا على السفن كما اننا قد حصلنا على المال ايضا » واضافت الصحيفة اللندنية الكبرى تقول انه لم يكن هناك اى غناء فى عام ١٨٩٨ اذ ان البريطانيين لم يكونوا محتاجين الى رفع الروح المعنوية وكانت هذه هى المرة الاولى التى تواجه فيها انجلترا ازمة كبيرة دون خوف او فزع

وكانت لهذه الثقة ما يبررها ... فالسنوات الاخيرة شاهدت زيادة عامة فى الاسطول ، وتمت لبريطانيا السيادة على جميع البحار بل واصبحت فى موضع لا يقبل المنافسة ، اذ كان لانجلترا من السفن الحربية التى يقل عمرها عن عشر سنوات وسرعتها ١٦ عقدة على الاقل ٣٤ سفينة فى مقابل ١٣ لفرنسا و ١٧ لروسيا ، وكانت بريطانيا متخلفة فقط فى الطرادات والنسافات . وقد كتب سير توماس براسى عشية الازمة قائلا ان الاسطول البرطانى كان مساويا فى عدد السفن الحربية لاساطيل كل من فرنسا وروسيا والمانيا مجتمعة ، هذا علاوة على ان السفن البريطانية كانت متجانسة ومتشابهة ولذلك فهى اكثر انسجاما . كما عبر ناقد ايضا عن رأيه قائلا انه بصرف النظر عن عدد السفن ، فان الاسطول البريطانى كان يعادى فى القوة اربعة امثال الاسطول الفرنسى واقوى من كل اساطيل اوربا مجتمعة (١) .

وكانت حادثة فاشودة رمزا للمنافسه الاستعمارية والعداوة الكامنة بين فرنسا وانجلترا (٢) . فقد عبأ الغدر لانجلترا أن ترث فرنسا فى مشروعاتها واعمالها ... فبونابرت هو الذى وضع مصر على مائدة السياسة الاوربية ، وقد استعان محمد على بالخبراء الفرنسيين فى كل الميادين وجعل من مصر دولة حديثة بمساعدة هؤلاء الخبراء . وكذلك قام

---

(١) Langer p. 559-560

(٢) Theobald p. 245

المهندس الفرنسى ديلسبس بشق قناة السويس،وقد قاومت انجلتراكلا من نابليون ومحمد على وديلسبس ... وبعد ذلك نجد ان انجلترا هى التى اصبحت لها السلطة الادارية فى القناة - وليست فرنسا - وذلك بشرائها لنصيب الخديو عام ١٨٧٥ فى اسهم تاسيس القناة . وانجلترا ايضا هى التى قامت باحتلال مصر منذ عام ١٨٨٢ وأصبحت تدير دفة السياسة المصرية من القاهرة (١) وهى تخدع فرنسا بمماطلتها فى مسألة الجلاء عن مصر ، وتفعل مثل ذلك ايضا فى بحر الغزال ، والفرنسيون قد قاوموا الاحتلال البريطانى ' ،روهم الآن يقاومونه فى بحر الغزال (٢) .

وكان من الصعب اقناع الرأى العام الفرنسى بان الانسحاب من فاشوده لا يشتمل على امتهان للكرامة الفرنسية (٣) ولعبت الصحافة دورا كبيرا فى تعبئة الرأى العام الفرنسى تجاه الحادثة حتى انه لم يكن من السهل التخلى عن فاشوده (٤) . وقال دلكاسيه فى محادثة مع مونسون « ان كل فرنسا سوف تقاوم هذه الاهانة الموجهة الى شرف البلاد اذا ما قامت اى محاولة لاستدعا مارشان » (٥) .

وكان دلكاسيه يعتقد ان انجلترا لا تفضل الدخول فى حرب من اجل هذه المسألة ولكن فرنسا كانت على النقيض من ذلك تفضل الحرب على التسليم . فرد مونسون على هذه المحادثة بان حكومته قد أوضحت وجهة نظرها وانه لا يتصور كيف يمكنها التراجع عن ذلك .

وردا على اللهجة التى تكلم بها الفرنسيون فان حكومة جلالة الملكة اصدرت تعليماتها الى كتشنر بان يزيد موقف مارشان حرجا على قدر الامكان ... وترى حكومة جلالة الملكة من ناحيتها انه يجب ان يكون

---

(١) H.A.L. Fisher p. 1069
(٢) Theobald p. 245
(٣) Fisher p. 1072
(٤) Shibeika p. 399
(٥) Shibeika p. 400

معلوما لدى الفرنسيين انهـا بموافقتهـا على ايصـال الرسائل الى مارشان فان ذلك لا يعنى تعديل وجهـة نظرهـا السـابق تقديمها فى عـدة منـاسبات » (١) ٠

وتهيأ الاحوال بين الدولتين واقتربت نحـو حافـة الحرب (٢) ٠ وسـارت الاستعدادات البحرية البريطانيـة على قـدم وسـاق طـوال شـهر اكتوبـر ٠ ففى بورتسموث اعـدت كل الترتيبات حتى تتمكن القوات الثقيلة من ان تبحـر فورا وقت اللزوم استعدادا لحصـار السفن الحربية الفرنسـية عنـد برست ٠ كمـا راقبت قـوى اخـرى مضيق جبل طـارق لتمنـع الاسطول الفرنسى فى البحر المتوسـط من الخروج منه ٠ امـا فى البحـر المتوسط نفسـه فقـد وضعت قـوة كبيرة بين مالطـه وجبل طارق ، وكانت على استعداد لمحصارة بنزرت (٣) كما ارسلت قوة اخرى الى ارسلت قوة اخـرى الى الاسكندرية لحراسة قناة السويس (٤) ٠

وهكـذا شعر البريطانيون انهم مستعدون لكافة الاحتمالات ، ولكن الفرنسيين استولى عليهم ذعـر شـديد ٠٠٠ حقيقة ان الاسـطول الفرنسى كان يلى الاسطول البريطانى اعظم اساطيل العالم ، ولكن الاسطول الفرنسى كان آخـذا فى التدهور على مـر السنين بسبب النزاع الدائم بين قـادة البحـرية نفسـها ٠٠٠ وكـان للسـياسة ايضـا دخـل كبـير فى اضمحلال الاستعدادات البحريـة الفرنسية ، وليس هناك - اشـد واقسى على قوة حربيـة او بحرية من ان تنكب بالانقسـام بين افرادهـا ، فالعسكرية - طاعة ونظـام ، وعـدم توفرهمـا يؤدى الى الاخلال بالضبط والربط وحسن الانتظـام العسكرى الذى هـو اساس الفوز فى اى معركـة ٠

وعلى اية حال كان واضحا ان الحالة فى فرنسـا فى عـام ١٨٩٨ لا تسمح لهـا بالاشتراك فى حـرب دوليـة ٠ فالاسطول الفرنسى فى بحـر المانش

---

(١) Shibeika p. 400

(٢) Theobald p. 245

(٣) Langer p. 560

(٤) Theobald 245

كان مؤلفا من سفن حربية صنعت عام ١٨٨٥ وغير متجانسة وتصميماتها مختلفة ، ولم تكن هناك خطة للقتال ٠٠٠ فالموانىء البحرية فى فرنسا نفسها وفى المستعمرات كانت تعانى نقصا كبيرا فى الرجال ، بينما كانت ورش صيانة السفن غير مجهزة تجهيزا كافيا ٠ ولم يكن من السهل امداد فرق المدفعية فى برست وغيرها الا بثلث الرجال فى اليوم الاول لاعلان التعبئة العامة ٠ وكانت حكومة باريس على تام باخطار الموقف ٠ فبعد ان اشعل الفرنسيون الثقاب فى مستودع البارود فى فاشودة استيقظوا مذعورين مندهشين وعاجزين

وانحدت لهجة الصحافة البريطانية الروح المشجعة للحرب ، وكانت هناك فكرة سائدة فى انجلترا بأن الوقت ملائم لتصفية الحساب مع فرنسا ٠٠٠ بل كان من الواضح ان الاصوات قد ارتفعت فى مجلس الوزراء نفسه مؤيدة هذا الحل ، وقد قال لورد اشر Esher ان لورد سالسبورى نفسه ابلغه بأنه « يميل الى الاعتقاد بان الحرب مع فرنسا ستبسط المشكلات فى المستقبل » ٠ وليس هناك من شك فى ان الاوساط الحكومية كان يسودها شعور بالحرب الوقائية Preventive War وقد وصلت تقارير عن كل ذلك الى باريس خلال شهر اكتوبر ١٨٩٨ ٠

وكانت وزارة البحرية الفرنسية تعتقد ان الانجليز قد يثيرون حربا ليتخلصوا من الاسطول الفرنسى ٠ وكان الضباط الفرنسيون على راى واحد وهو انه لا يمكن للاسطول الفرنسى ان يصمد أمام الاسطول البريطانى ولا ان يهدد بايقاف التجارة البريطانية باغارته على السفن التجارية البريطانية ٠ وكان البعض يعتقد ان شرف فرنسا يتطلب منها الحرب حتى ولو كانت الهزيمة مؤكدة الا ان وزير البحرية الفرنسية نفسه كان مقتنعا بان الحرب ضرب من اليأس ٠ واتفق معه فى ذلك رئيس الوزراء بريسون Brison ورئيس الجمهورية فور Faure ٠

ويبدو ان سياسة دلكاسية كانت تتركز فى اكتساب الوقت حتى تتمكن فرنسا من عمل شيئين : أولهما اتمام الاستعدادات البحرية الهامة وثانيهما محاولة ضم روسيا الى مساعدتها ولذا طلب دلكاسيه من مونسون

مقابلة معه امهاله بعض الوقت حتى دأتيه تقرير من مارشان (١) ... وكان واضحا ان ذلك سيستنفذ وقتا قبل ان يصل هذا التقرير الى باريس . « ولكن حكومة الجمهورية ستكون ممتنة لو انه سمح بارسال برقية من الممثل الفرنسي في القاهرة الى الخرطوم لحملها الى مارشان تأمره بارسال نسخة من تقريره على جناح السرعة عن طريق النيل الادنى » (٢) . وكذلك طلب دلكاسيه امهاله وقتا آخر حتى يحصل على تقرير شفوى من الكابتن براتييه Bartier الذى استدعى الى باريس .

واخذت فرنسا فى تحصين سواحلها فى نفس الوقت ، حتى تكون فى مركز يسمح لها بالدفاع على الاقل (٣) فصدرت الاوامر للاسطول الفرنسى بالتحرك الى شربورج Cherbeurg ... وكانت هناك حركة دائبة فى اوانىء الفرسية الشماليه ، وعملت الترتيبات لاستقبال الجرحى والقتلى (٤) . ففى برست كان العمل يجرى ليل نهار ، كما الغيت جميع الاجازات واعد كل الاسطول الموجود فى البحر المتوسط ووضع قيادة الادميرال فورنييه Feurnier

ولكن سرعان ما تبين عجز فرنسا عن مواجهة انجلترا ، هذا بالاضافة الى ان الروسيا حليفة فرنسا وقفت محايدة طيلة الصراع ، وهكذا لم يكن امام الفرنسيين سوى الرضوخ للامر الواقع . وهكذا تم استدعاء مارشان من فاشوده ... تلك المنطقة التى لا تستحق خوض حرب من اجلها من وجهة النظر الفرنسية .

ورأى البريطانيون ان يوجهوا نشاطهم نحو ميدان آخر ، فكان من الضرورى ان تعمل حكومة لندن على تسوية مسألة حقوق المصريين فى السودان قبل كل شيء . ويجب ان نشير هنا الى ان استناد بريطانيا الى حق « الفتح » ومطالبتها بمساواتها بالحقوق فى السودان مع مصر قد

---

(١) Langer 560-562

(٢) Shibeika p. 398

(٣) Langer p. 562

(٤) Theobald p. 245

افادها كثيرا باعتبار ما سيكون عليه السودان الدولى بعد الاستعادة • فقد نص البند الثانى عشر من اتفاقية ١٩ يناير ١٨٩٩ بين مصر وبريطانيا على ان يرفع العلمان المصرى والبريطانى معا على السودان ، وان السلطة الحربية والرئاسة المدنية تكون فى يد حاكم عام يصدر قرار تعيينه بمرسوم خديوى وموافقة الحكومة البريطانية ، وان لقراراته سلطة القانون (١) •

وقد قبل هذا الوفاق الثنائى فى مصر بعاصفة استنكار شديدة • وهاجمت الصحف العربية ما اعتبرته سلبا لحقوق مصر الادارية فى السودان وقالت انه ليس الا مقدمة لاستيلاء الانجليز على السودان ذاته اما الصحف الفرنسية فى مصر فقد حملت حملة عنيفة على هذه الاتفاقية واخذ كثيرون من رجال السياسة والقانون يبحثون فى مشروعية هذا الوفاق الثنائى نفسه (٢) • وكان من المحتمل ان تناقش بعض الدول الاخرى حق بريطانيا فى هذه الحكومة الثنائية وان تتساءل عن مدى صحة هذه الاتفاقية من ناحية القانون الدولى ، ولكن استعداد احدى هذه الدول لمقاومة هذه الترتيبات التى تمت كان امرا مستحيلا (٣) •

وكان المصريون اثناء ازمة فاشوده يظنون ان فرنسا ستتمسك بموقفها وتفتح باب المسألة المصرية وتضطر انجلترا الى الجلاء عن مصر مقابل جلاء الفرنسيين عن فاشودة • واعتقدوا ان آمالهم فى الجلاء ستتحقق اذ كانوا يظنون ان فرنسا لم تتقدم على هذا التحدى لانجلترا الا وهى مصرة على المضى فى سياستها الى النهاية • قويت آمال المصريين اذا فى الاستقلال ••• ولكن فرنسا تخاذلت وتراجعت آخر الامر، فكان هذا التخاذل صدمة سياسية اصابت الحركة الوطنية فى مصر لانه دل على أن فرنسا لا تنوى معارضة انجلترا فى احتلال وادى النيل والتصرف فيه كما تشاء ••• واصبح على الوطنين المصريين ان لا ينتظروا من فرنسا اى مساعدة فى اخراج الانجليز من مصر فازداد تعلقهم بالدولة

---

(١) Theobald p. 247-248

(٢) دكتور فؤاد شكرى ص ٥٩١ - ٥٩٢

(٣) Langer p. 565

العثمانية ، الدولة ذات الحق الشرعى فى حكم مصر وعلى اعتبار أنها أهون الشرين ، وان كان الواجب عليهم ان يعتمدوا على انفسهم قبل كل شىء لتحقيق حرية بلادهم .

فقد كان انسحاب مارشسان من فاشوده انتصارا كبيرا للسياسة الانجليزية ، وايذانا باصرارها على البقاء فى مصر والسودان ، وتجاهل وعودها فى الجلاء ، فجنح بعض المصريين الى كسب ود الاحتلال البريطانى اذ رأوا فى حادثة فاشوده برهانا واضحا على رسوخ أقدامه فى البلاد .

كتب مصطفى الى اخيه على بك (وكان وقتئذ من ضباط حملة السودان) كتابا قال فيه :

« ... ان الاحوال السياسية سيئة للغاية بعد مسالة فاشودة ، وقد أظهر بعض الكبراء الجبن وكادوا يخونون بلادا احسنت اليهم بمالا يحلم به غيرهم ، ولكننى ثابت على خطتى حتى الممات ، لان اعتقادى ان ثمر الدفاع وان لم يجنه الدافع الاول و الثانى فلسوف يجنيه مصرى على مدى الايام ، واننا اذا لم نقتطف ثمر عملنا وجهادنا فى حياتنا فاننا على الاقل نضع الحجر الاول لمن يبقى بعدنا » .

وكتبت مدام آدم كثيرا عن حادثة فاشودة ، ومنها قولها فى مقالة لها فى فبراير سنة ١٩٠٤ عن اغلاط السياسة الفرنسية :

« فاشودة انها العزبة القاضية ، لقد قلت فى رسائلى قبلا ان غير واحد من ساسة فرنسا قد أفهم الخديو والوطنيين المصريين أن فرنسا ستتدخل لصالح مصر سريعا وبصفة حاسمة وابانوا لهم ان بعثة مرشان هى الحاملة لراية استقلال مصر فصاروا جميعا يعتقدون أن تحرير وطنهم سيأتى من السودان . ولكن حادثة فاشودة قضت على آمال الوطنيين المصريين » .

وقد كان لها كذلك تاثير كبير فى موقف الخديو ، اذا أخذ يذعن للامر الواقع ، ويتودد الى الاحتلال ، وكان اول مظهر لهذه السياسة الجديدة

زيارته للندن سنة ١٩٠٠ ، وفى ذلك يقول مصطفى كامل فى رسالته الى مدام جولييت آدم فى ٢ يونيه سنة ١٩٠٠م : « أبعث اليك مع هذا بمقالة تنصح لك عن شعورى والشعور الاهلى نحو سياحة الخديو فى لندن ، تلك السياحة التى آلمتنا كثيرا ، وما ذلك وأسفاه الا نتيجة فاسدة » .

وواصلت انجلترا مساعيها السياسية حتى تم عقد الوفاق الودى مع فرنسا فى ٨ يناير سنة ١٩٠٤ ، وبه حصلت على اطلاق يدها فى مصر على الا تجرى اى تغيير فى نظام مصر السياسى . واقرت المانيا والنمسا الاتفاق ، وبذلك انهار ركن من اركان سياسة مصطفى كامل ، بل انهار المجهود الذى بذله من قبل فى المجال الدولى حين كان همه التجوال فى عواصم اوربا لاستفزاز دولها كى تضغط على انجلترا وتحملها على تنفيذ وعودها بالجلاء عن وادى النيل . ويبدو أثر الوفاق الودى على مصطفى كامل من خطاب بعث به الى جولييت آدم فى ١٠ مايو سنة ١٩٠٤ جاء فيه « ليس فى وسعى ان اتعزى امام هذه الاتفاقية الانجليزية ـ الفرنسية المشئومة التى ستجلب اسوأ النتائج على وطننا التعس .. كما انه ليس فى وسع جميع مدارس المعمورة ان تربط المصريين بفرنسا بعد الآن . ان مواطنى يكرهون اليوم فرنسا اكثر من انجلترا نفسها . انك لا تدرين مبلغ تعاظم الانجليز فى الوقت الحاضر . انهم يسخرون منا نحن ذوى العقول الصغيرة ، الذين اعتمدنا على فرنسا ، ولهم الحق أن يسخروا . ان موقفى الشخصى يعد من أصعب المواقف واخطرها ، فان جميع أصدقائى المصريين والفرنسيين الذين كانوا يناضلون بجانبى أصبحو اما اصدقاء للانجليز او يائسين من الكفاح » (١) .

مصطفى كامل وجريدة اللواء :

كانت الاهرام اكثر الصحف ترحيبا بمقالات مصطفى كامل ، يليها المؤيد . وقد رأى باعث الحركة الوطنية ان لابد له من جريدة يومية يغذى بها عقول القراء ، ثم تكون علما للحركة الوطنية ، وقد اختار لهذه الجريدة اسم اللواء بمعنى الراية التى التف حولها الوطنيون .

---

(١) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى ـ المصدر السابق ص ٣٥ ، ٣٦ .

وقد صـــدر العدد الاول من اللواء فى ٢ يناير ١٩٠٠ ٠ وكان الزعيم يكتب افتتاحية اللواء فى أكثر الايام ٠ وكان من الكتاب فى اللواء محمد فريد وأمير الشعراء أحمد شوقى واسماعيل صبرى باشا وخليل مطران ومحمـد فريـد وجدى وعبد القادر حمزة وويصا واصف وغيرهم كثيرون ٠

فاللواء اذن جريدة سياسية وادبية ، ولكن مصطفى كامل أهتم بالاقتصاد أيضـا ، فقد دعـا فى عدد ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٠٥ الى احياء الصناعة ونشر التعليم الصناعى ، وقـــال :

« فايجاد روح الصناعة فى البلاد هو بلا مراء اسمى خدمة تقدم اليها وأكبر سعادة تجهز لرجال الغد ، وقد الكثير من فضـــلاء مصر هـــذه الحقيقة وهذا الواجب ، فتبادلوا الحديث فى أمر تأسيس مدرسة صناعية، ولكنهم لم يتعدوا ذلك الى العمل ، واشد المصريين اهتماما بهذا المشروع هم أعضاء جمعية العروة الوثقى الذين برهنوا بأعمالهم المشهورة على أنهم رجال عمل يعرفون لمصر حقوقها عليهم ولا يقصرون فى تأدية هذه الحقـوق فوضع لهم صاحب الهمة الحديدية « حسبوبك محمد » مشروع تأسيس مدرسة صناعية لا يكلفهم من المال كثيرا ولكنه يعود على البلاد وأبنائها بالخير الجزيل » (١) ٠

كما كتب فى عدد ٩ مارس ١٩٠٤ من اللواء مطالبا بالمجلس النيـابى قائلا « لعل قراء اللواء وغيرهم من افراد الامة المصرية يذكرون ما قلنـاه من فوق المنابر وكتبناه فى هذه الجريدة وغيرها عن وجوب انشـاء مجلس نيابى منذ عشر سنوات كاملات ، ويسرهم كما سرنا أن هذا المطلب العزيز صار على ألسنة الكثيرين من أهل القطر ، لانه الانشودة التى يجب أن يترنم بها المصريون بعد طلب الاستقلال ، **وسواء كان ســـابقا أو لاحقا لتخلص البلاد من رق الاحتلال** ، فانه الضمانة الوحيدة والكفالة الصحيحة لســـلامة القوانين والحرية الخاصة والعامة ، الى أن قال :

(١) عبد الرحمن الرافعى – مصطفى كامل باعث الحركة الوطنيـــة ص ١٥١ ٠

« ليس للاحتلال مصلحة فى ايجـــاد مجلس نيابى لهذه البلاد ، ولكن صوت الامة يعلو على صوته اذا تمسكت به ودعت اليه وطالبت وجاهـدت بقوة الرأى والفكر والثبات التى هى كبر القوى الفعالة فى حيـاة الامـم ، فلتفعل فانما هى نخطو بالوصول اليه أكبر خطوة فى طريق الاستقلال » (١)

مصطفى كامل وحادث دنشـــواى :

فى يوم ١١ يونية سنة ١٩٠٦ تحركت قوة بريطانية قوتها ١٥٠ جندى من القاهرة قاصدة الاسكندرية وذلك عن طريق البر وبعد يومين وصلت الى منوف ، وقام خمســـة من ضباط الكتيبة بابلاغ مأمور المركز برغبتهم فى الصيد فى بلدة (دنشواى) • وانفصلوا عن الكتيبـــة فى كمشوش متجهين الى سرسنا ومنها الى دنشواى • وكان بصحبتهم عريف (امباشى) من بوليس نقطة الشهداء وترجمان مصرى ، وذهب (الامباشى) ليبلغ العمـدة خبر قدوم الضباط لكى يتخذ الاحتياطات التى تكفل عدم احتكاكهم بالاهالى، ولكن العمدة كان غائبا فلم ينتظره الضباط وانقسموا فريقين ، فريق وقف على السكة الزراعية لصيد الحمام من خلال الاشجار الملتفة هناك وهؤلاء لم يصبهم أحـد بسـوء •

أما الفريق الآخر فتوجه مباشرة الى اجران القمح فى دنشـــــواى وكانت تقف حمامتان على جرن ملك لمؤذن القرية ، فصوب أحد الضباط الانجليز بندقيته على الحمام فصاح به أحد الشيوخ الطاعنين فى الســـن محذرا اياه من أن اطلاق البندقية قـد يؤدى الى اشتعال الجرن وكذلك صاح فيه أخو مؤذن القرية صاحب الجرن ولم يعبأ الضابط وأطلق عيارا فاصاب امرأة تدعى أم محمد وهى زوجة المؤذن فسقطت جريحة تتخبط فى دمائها ، كما أصاب الجرن فاشتعلت به النيران ، وهنا صـاح أخو المؤذن مستغيثا وهجم على الضابط وحاول جذب البندقية منه ، فى حين اقبل الرجال والنسوة والاطفال وهم فى حالة هياج ومرددين أن الخواجه قتل امرأة وحرق الجرن، وأحاطوا بالضباط وجاء بقية الضباط لانقاذ زميلهم وكانت جموع الاهالى قـــد تكـاثرت •

---

(١) عبد الرحمن الرافعى — المصـدر السابق ص ١٦٧ •

ووصل فى نفس الوقت شيخ الخفر ومعه الخفراء لتفريق الجموع وانقاذ الضباط ، فتوهم الضباط أنهم جاءوا يريدون بهم شرا فأطلقوا عليهم الاعيرة النارية فأصاب واحد منها شيخ الخفر فى فخذه فسقط على الارض وأصاب عيار آخر أحد الخفراء فصاح الجمع شيخ الخفراء قتل .

وحمل الاهالى على الضباط بالطوب والعصى فاصيب واحد منهم بكسر فى ذراعه واثنان آخران بجروح طفيفة وأحاط بهم الخفراء وجردوهم من اسلحتهم وحجزوهم حتى جاء ملاحظ بوليس النقطة وأوصلهم الى المعسكر الخاص بالقوة فى كمشوش .

اما الباقون وهم الكابتن بول والطبيب البيطرى الانجليزى ففرا من المكان وكان الاول قد أصيب فى رأسه وأخذا يعدوان قرابة ثمانية كيلو مترات فى شدة القيظ فقد كانت الحادثة وقت الصيف .

فلم يكد الكابتن بول يصل الى باب سوق سرسنا حتى سقط من الاعياء ومات متأثرا من ضربة الشمس متركه زميله الطبيب البيطرى واخذ يعدو حتى وصل معسكر القوة بناحية كمشوش على ضفة ترعة الباجورية (١) .

هذا وقد سارع افراد القوة بالتوجه الى دنشواى بمجرد أن علموا بالخبر عند سرسنا - وقد ظنوا بادىء الامر دنشواى - ووجدوا الكابتن بول ملقى على الارض واحد الفلاحين يقدم له بعض الماء فظنوه من المعتدين . فطعنوه وهشموا رأسه بالبنادق ولم يحاكم احد بعد ذلك على قتله ووصلت انباء الحادث الى رجال الاحتلال فى القاهرة وعرفوا أن احد الضباط قد مات عقب الحادث واصيب ضباط آخرون فأقسموا على الانتقام من أهل القرية انتقاما يبث الرعب فى قلوب كل من تسول له نفسه مقاومة الاحتلال .

جرى التحقيق بمنتهى السرعة يوم وقوع الحادث على يد مستر متشل مستشار وزارة الداخلية فى ذلك الوقت .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى - مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ص ١٩٩ .

وتم القبض على أعداد ضخمة من الاهالى وكانت الاوامر قد صدرت باعداد المشانق وارسالها الى مكان الحادث قبل انتهاء التحقيق وهذا دليل على أن المحاكمة ستكون صورية لاعدل ولا قانون بها وأصدار بطرس باشا غالى قرارا بتشكيل هيئة المحكمة برئاسته وأن تكون المحاكمة فى شبين الكوم يوم ٢٤ يونييـــه ٠

وبلغ عدد من قدمتهم الادارة لمحاكمتهم فى هذه الحادثة أثنين وخمسين متهما قدموا جميعا مقبوضا عليهم ، وسبعة من الغائبين ٠

وانعقدت المحكمة وسط جو من الخوف والرهبة وذلك بمدبرية شبين الكوم ٠ وثبت من سماع أقوال الشهود ومنهم شهادة الطبيب الشرعى وكان انجليزيا أن وفاة كابتن بول كانت بسبب اصابته بضربة شمس وانه لا يوجد تاثيرا للاصابة التى كانت فى راسه على وفاته ٠

وقد كان هناك تحامل على المتهمين من قبل المحكمة منذ البداية وقد استمرت المحاكمة حتى يوم ٢٦ يونية وفى يوم ٢٧ صدرت الاحكام باعدام اربعة اشخاص والاشغال الشاقة المؤبدة لاثنين ، وواحد لمدة خمسة عشر سنة ، والاشـــغال الشـــاقة سبع سنوات على ستة أفراد ، وعلى ثلاثة بالاشغال الشاقة لمدة سنة مع جلد كل واحد ٥٠ جلدة ، وبالجلدة ٥٠ جلده على خمســـة ٠

وقد قوبل الحكم بالدهشة لما فيه من تحامل على المتهمين ولخـلوه من العدل والانصـــاف وذلك لان الاعتداء كان فى بادىء الامر من الانجليز وأن الاهالى لم يعتدوا عليهم الا بعد أن اصيبت أحدى نسـائهم وأشتعل جرن لهم وأن الضابط الانجليزى قد مات أثر ضربة شمس كما هو موضح فى تقرير الطبيب الشرعى الانجليزى ٠

وقد اظهر هذا الحكم ان العـــدالة الانجليزية لا يمكن الوثوق بها فى حالة اذا كانت الخصومة تمس المصالح البريطانية وزاد على الحكم طريقة تنفيذه التى فاقت التصورات فى وحشيتها فقد جىء بالمحكوم عليهم سواء بالاعدام والجلد الى دنشواى وكانت قد نصبت المشانق ٠ وعند ظهيرة يوم

٢٨ يونيو ، نفذ الحكم فى المشنوق الاول علنا وعلى مرأى ومسمع من أهله وذويه وبين صياح النساء وبقى معلقا بينما نفذ حكم الجلد فى اثنين ، ثم شنق الثانى بهذه الطريقة ، يليه جلد اثنين آخرين وهكذا حتى تمت المجزرة فى منتصف الساعة الثالثة مساء .

وقد اثرت هذه الطريقة التى نفذت بها الاحكام تاثيرا كبيرا على جميع أفراد الامة وأثارتها بكافة فئاتها على الاحتلال واشعلت فيها روح الوطنية التى كانت قد خمدت . ورغم أن مصطفى كامل كان فى أوربا للاستشفاء ونصح اطباؤه له بالراحة الكاملة فانه لم تكد تصله انباء المحاكمة حتى نهض بكل قوته لكى يسمع العالم صوت مصر ، فكتب فى جريدة الفيجارو الفرنسية الشهيرة عدد ١١ يوليو ١٩٠٦ مقالا مطولا للامة الانجليزية والعالم المتحضر ما ترجمته :

« لقد حدثت حادثة مؤلمة فى قرية من قرى الدلتا بمصر تدعى دنشواى تحركت بسببها عواطف الانسانية فى العالم كله وقام رجال احرار الفكر مستقلو الاخلاق والاطوار فى انجلترا رافعين اصواتهم سائلين عما اذا كان يوافق كرامة الدولة البريطانية وشرفها ومصلحتها أن تسمح بأن يرتكب باسمها أمر ظالم قاس ؟ .

« وانه لمن الواجب على الذين يشغفون حقيقة بالانسانية والعدل أن يدرسوا هذه المسألة ويصدروا فيها حكمهم العادل ، وهى المسألة الشاغلة لامة بأسرهـــا ! .

« فقد ترك ضباط من الانجليز فى يوم ١٣ يونيـــه الماضى معسكرهم بالقرب من دنشواى بمديرية المنوفية ، وقصدوا صيد الحمام فى الاملاك الخصوصية للاهالى ، فانذر شيخ فلاح المترجم المرافق لهم بأن الاهالى قد استاءوا فى العام الماضى من صيد الضباط الانجليز لحمامهم ، وانهم ربمـا زادوا من غضبهم وسخطهم لو عادوا الى الصيد فى هذا اليوم ! .

« ورغما من هـــذا الانذار فان الضباط أخذوا يصطادون ، وأطلقت العيارات النارية ، وجرحت امرأة وحرق جرن ، فاجتمع الفلاحون من كـل مكان ، ووقعت مشاجرة بينهم وبين الانجليز ، جرح هؤلاء فيها ثلاثة ن

المصريين وجرح المصريون ثلاثة من الضباط الانجليز ، وقد تخلص أحد المجروحين وهو الكابتن « بول » من المعركة ، وقطع بكل سرعة مسافة خمسة كيلو مترات ، حيث كانت حرارة الشمس بالغة ٤٢ درجة ، وسقط بعد ذلك ميتا بضربة الشمس ، وما علم العساكر الانجليز بما وقع لضباطهم حتى هجموا على قرية سرسنا المجاورة لدنشواى ، وقتلوا فلاحا بدق رأسه ! .

« هذه هي الوقائع ، وما علمها أصحاب الامر من الانجليز حتى فقدوا الرشد ، وثاروا من قيام المصريين بالمدافعة عن أنفسهم وعن أملاكهم ! وبدلا من أن ينظروا الى الحادثة بسكون جاش ككل المشاجرات والمعارك ، بالغوا فيها وجسموها ، وأعلنت الصحف المخلصة للاحتلال قبل المحاكمة بأن العقوبات والعبرة التى ستضرب للناس ستكون هائلة ! فلم يكن العدل هو المنشود فى المسألة ، بل الانتقام الفظيع ! .

« ونشرت نظارة الداخلية بأمر المستر متشل المستشار الانجليزى ، قبل المحاكمة بأسبوع بلاغا رسميا أثقلت فيه كواهل المتهمين بالتهم ، وقصدت صراحة التأثير فى المحكمة والرأى العام ! وبلغ من احتقار احدى الصحف القائمة بخدمة الاحتلال للعدالة انها نشرت خبر ارسال المشانق الى دنشواى قبل المحاكمة ، وقد راع الشعب كل ذلك ، فأخذ يتساءل عن الحكم الذى ينتظر صدوره بعد مظاهرة كهذه المظاهرة .

« وقد اجتمعت المحكمة فى يوم ٢٤ يونية ، وأى محكمة ؟ محكمة استثنائية لا دستور يقيدها ولا قانون يربطها ! لقضائها ان بحكم بكل العقوبات التى تخطر على البال ! محكمة أغلبيتها للانجليز ولا تستأنف أحكامها ، ولا تقبل العفو ! وأن المرسوم الذى صدر بتشكيلها فى عام ١٨٩٥ — بناء على ضغط اللورد كرومر — ذلك الضغط الذى لا يسمح للحكومة الخديوية مطلقا باظهار أى مقاومة — يحمل قارئه على الظن بأن الجيش الانجليزى الذى القت اليه انجلترا أمر تأييد الامن فى مصر ، فى خطر مستمر، جعله فى حاجة الى محكمة كهذه المحكمة أو لآلة ارهاب .

« قضت هذه المحكمة ثلاثة أيام فى نظر القضية ، وتبين ن الضباط الانجليز هم الذين هاجموا الفلاحين بصيدهم فى ممتلكاتهم ، وبجرحهم احدى نسائهم ، وأن الفلاحين هجموا على الانجليز بوصف أنهم صيادون يختلسون الصيد ، لاضباط بريطانيون ! واعترف أمام المحكمة اطباء انجليز بينهم الدكتور نولن الطبيب الشرعى للمحاكم بأن الكبتن « بول » مات بضربة الشمس ، وأن جراحه لم تكن كافية وحدها لاحداث الوفاة ! .

« ولم تترك المحكمة الا ثلاثين دقيقة لاكثر من خمسين متهما ليقولوا ما عندهم ، وأبت سماع أقوال أحد رجال البوليس ، حيث أكد أن الضباط الانجليز أطلقوا العيارات النارية على الاهالى ، وبنت حكمها على تأكيدات الضباط الذين كانوا السبب فى المعركة ، والذين يعتبرهم العدل فى كل بلد خصوما للمتهمين ! .

« وفى يوم ٢٧ يونيه صدر الحكم بشنق أربعة من المصريين ، وبالاشغال الشاقة المؤبدة على اثنين ، وبالاشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عاما على واحد ، وبها لمدة سبع سنوات على ستة ، وبالحبس مدة عام مع الجلد على ثلاثة ، وبالجلد على خمسة ، وقد جلد كل واحد من هؤلاء خمسين جلدة بكرباج له خمسة ذيول !! .

« وقررت المحكمة فى حكمها تنفيذ الحكم فى اليوم التالى ! بحيث لم يمض الا خمسة عشر يوما بين الواقعة وتنفيذ الحكم .

« ففى الساعة الرابعة بعد نصف الليل من يوم الاربعاء ٢٧ يونيه جىء بالاربعة المحكوم عليهم بالشنق ، والثمانية المحكوم عليهم بالجلد (عفت المحكمة عن واحد من المحكوم عليهم بالجلد لان الطبيب قرر ضعف بنيته وعدم استطاعته تحمله) من شبين مقر مديرية المنوفية الى قرية (الشهداء) التى تبعد ربعة كيلو مترات عن دنشواى ، ولبثوا هناك تسع ساعات ينتظرون الانتقام المروع ! وفى الساعة الاولى بعد ظهر يوم الخميس ٢٧ يونيه جىء بهم الى دنشواى ، وكان أصحاب الامر من الانجليز قد أصروا على تنفيذ الحكم فى محل الواقعة وفى الساعة التى وقعت فيها ! .

« نصبت المشانق ، ووضعت آلات الجلد والتعذيب فى وسط دائرة مساحتها ٢١٠٠ متر ، واحاطت عساكر « الدراجون » الانجليزية بالمحكوم عليهم ، والتفت الخيالة المصرية حـــول الانجليز ، تولى المستر متشـــل مستشار الداخلية ومعه مدير المنوفية أمر التنفيذ ! وقد تقدم اليهما ابن أول المحكوم عليهم بالشنق ســـائلا مقابلة والده ليتلقى وصـــاياه الاخيرة ، فرفضا قبول هذا الرجاء الذى هو أعز ما يرجوه الانســـان ويحتمه الشرع والعـــدل ! .

« وفى منتصف الساعة الثانية امتطت الجنود الانجليزية خيـــولها وشهرت سيوفها وبدىء بعد ذلك بدقيقة فى الشنق

« فشنق رجل ، ولبث أفراد عائلته وأقاربه وكل أهـالى القرية وهم عن بعد يملأون الفضاء بصراخهم المزق للقلوب ، وجلد اثنان أمام الجثة !

« وتكرر هذا المنظر ثلاث مرات ، واستمر ســـاعة من الزمن ! منظر وحشى مهيج للعواطف ، بكى منه بعض الحاضرين الاوروبيين بدموع الحنان، وأبدوا النفور الشديد مما رأوا ! وذهب كل واحد يكرر كلمة أحد المشنوقين:

« لعنة الله على الظالمين ! لعنة اللـه على الظالمين ! » .

« أن يوم ٢٨ يونيه من عام ١٩٠٦ ، سيبقى ذكره فى التاريخ شؤما ونحسا ! وهو خليق بأن يذكر فى عداد أيام التناهى فى الهمجية والوحشية!

« عمت مصر كلها عواطف الانفعال والسخط عندما استفاضت أنباء تنفيذ الحكم فى دنشـواى ، ولقد كان من المستحيل على أعداء انجلترا أن يصلوا الى النتيجة الحالية بعد جهاد خمسين عاما ! ولكن من العجيب أن يكون الموجدون لها هم رجال من الانجليز ! وقد أنشأ الشعراء المصريـون عن حكم دنشواى اشعارا تخلد ذكرى المناظر الوحشية التى أهينت فيها المدنية والانسانية والعدل باقسى الصور المهيجة للضمائر والنفوس ! .

« وانى جئت اليوم اســـأل الامة الانجليزية نفسها والعالم المتمدن ، اذا كان يصح التسامح فى اغفال مبادىء العدل وشرائع الانسانية الى هذا الحـــــد ؟

« جئت اســـال الانجليز الغيورين على سمعة بلادهم وكرامتها أن يقولوا لنــا اذا كانوا يرون بسط النفوذ الادبى والمادى لانجلترا على مصر بالظلم والعسف وصنوف الهجمبــة ؟

« جئت اسأل الذين يجاهرون فى كل آن ذاكرين الانسانية ، مالئين الدنيا بعبارات الانفعال والسخط اذا حدثت فظائع فى بلاد اخـــرى دون فظيعة دنشواى ألف مرة ان يثبتوا صــدقهم واخلاصهم بالاحتجاج بكل قوة وشدة على عمل فظيع يكفى وحده لان يسقط الى الابد تلك المدنيـــة الاوروبية فى اعين العالم كافة ! .

« جئت اســال الامة الانجليزية اذا كان يليق بها ان تترك الممثلين لها فى مصر يلجأون بعـــد احتـــلال دام أربعـة وعشرين عــاما الى قوانين استثنائية ووسائل هجمية بل واكثر من هجمية ، ليحكموا مصر ويعلموا المصريين ماهية كرامة الانســـان ؟

« انى معجب بكل اخلاص وشكر وإعتراف بالجميل بالنواب والكتاب الانجليز الذين نادوا باعلى صـــوت معلنين مزيد غضبهم من هذه الرواية المحزنة الشـــنيعة التى مثلت فى مصر ! ولكن لمـــا رأى الســـير ادوارد جراى (وزير الخارجية) أن الراى العام انقاد لهم وانه قضى على سياسة اللورد كروّمر ، وقف فى مجلس العموم ونكلم عن التعصب الاسلامى المزعم فى مصر ، وساه النواب بكل رجاء والحاح الا يشتغلوا بمسائل مصر ، حتى لا يضعفوا سلطة الحكومة المصرية ، او بعبارة اخرى ســلطة اللورد كرومر الحاكم المطلق فى مصر ، امــا خطــر اصرح انا علنــا بانه موهــوم ! .

« ان هذا الخطر الموهوم ليس فى أيدى أصحاب الامر من الانجليز الا وسيلة لتسويغ هذه الفظيعة المستنكرة ، وفظائع أخرى تقع فى المستقبل !!

« انه لا وجود لهذا الخطر ! وما الغرض من هذه الفظائع الا احداثه !

« وانى اؤكد بحق اقدس شىء فى الدنيا انه لا وجود للتعصب الدينى فى مصر ، نعم ان الاسلام سائد فيها لانه دين الاغلبية العظمى ، ولكن الاسلام شىء والتعصب شىء آخر ، لقد انخدع السير ادوارد جراى فى هذه المسألة !

وانى أرجوه أن يفكر لحظة فيما يأتى : هل لو كان فى مصر تعصب حقيقة أكانت تستطيع انجلترا أن تحاكم ٥٢ مسلما أمام محكمة استثنائية مؤلفة من أربعة قضاه مسيحيين وواحد مسلم ؟

« هل تنفيذ الحكم فى دنشواى بتلك الصورة الهمجية لم يكن كافيا وحده لاشعال نار التعصب المدمرة الصاعقة لو كان له وجود ؟

« ألم تكن كل هذه التحريضات كافية لاخراج الشعب المصرى عن أطواره وانفجار ذلك التعصب المزعوم لو كان هناك تعصب حقيقة ؟

« ولماذا لم يثر ذلك التعصب الذى تكلم عنه السير ادوارد جراى معارك كمعركة دنشواى اى اثناء مسألة طابة ، حيث كانت الاغلبية الكبرى من المصريين فى جانب تركيا ، مع أن الجنود الانجليزية كانت تمر دائما فى كل جهة بكل أمان واطمئنان ؟ .

« لقد أثبتت المرافعات فى قضية دنشواى بكل افاضة وبيان انه لادخل للاسلام فيها ، وأن الضباط الانجليز وجدوا عند بعض الفلاحين المسلمين مساعدة وتعضيدا !

« انه يحق للمصريين أن يطلبوا تحقيقا دقيقا كاملا فى المسألة ، وان مصر على بعد يومين من أوروبا فليأت اليها الانجليز المحبون للعدل الراغبون فى عدم ثلم الشرف البريطانى ، وليذهبوا الى المدائن والقرى وليروا بأعينهم كيف يعيش المسيحيون من كل جنس مع الفلاحين والمصريين كافة ، وليقتنعوا بانفسهم بان الشعب المصرى ليس متعصبا أبدا ولكنه شعب كريم أبى ، ينشد العدل والمساواة ، ويطلب أن يعامل كشعب حر لا كقطيع من الاغنام وانه يعمل بكل عزيز لديه لتحقيق هذا المطلب الاسمى ، مطلب الحرية والاستقلال ! .

« اجل ، أن الشعب المصرى شاعر الان بكرامته ، وذلك امر لا يمكن انكاره بأى حال ، انه يطلب معاملة ابنائه اسوة بالاجانب ، وهو طلب عادل وغير مبالغ فيه أبدا ! .

« لقد تكلم السير ادوارد جراى فى موضوع حماية الاوروبيين ضد المصريين ! ولكن هل له ان يبين لنا الخطر المهدد للأوروبيين القاطنين مصر ؟ ألا يعيشون فى اتم صفاء مع المصريين ؟ ألا تحميهم الامتيازات الاجنبية ؟ ولكن من يحمى المصريين ؟ ألا نرى فى بعض الاحيان مجرمين من الاجانب — يحتج النزلاء جميعا على جرائمهم — يعتدون على المصريين ويقتلونهم ثم يفلتون من عقاب المحاكم المصرية ؟ وأى عقاب ستعاقب به الجنود الانجليزية التى قتلت الفلاح على مقربة من دنشواى وكذلك الضباط الذين جرحوا امرأة وثلاثة رجال ؟

« ان اللورد كرومر دافع عن نفسه فى تقريره الاخير ضد الذين يطعنون على السلطة المطلقة التى يتصرف بها فى أمور مصر قائلا : ان البرلمان والرأى العام فى انجلترا يراقبان اعماله كما ن الصحافة المصرية تراقبها ايضا .

« ولكنها مراقبة باطلة لانه ما كاد البرلمان البريطانى يعترض ويحتج على اعمال وحشية كهذه ، حتى قال اللورد كرومر للسير ادوارد جراى بان التعصب مخيف على شواطىء نهر النيل ، وإنه يجب على البرلمان ملازمة الصمت ! وبذلك لا يوجد مانع يمنع اللورد كرومر من حكم مصر بأشد القوانين مخالفة للعدل والانصاف !!

« لذلك يقضى شرف الامة الانجليزية عليها بان توازن بين الاقوال الرسمية واقوالنا ، وتقوم باجراء تحقيق دقيق ودراسة القضية المطروحة امامها الآ بكل استقلال !

« لقد قضى اللورد كرومر الاعوام الطوال وهو يؤكد بان الامراء والكبراء فى مصر هم وحدهم المبغضون للاحتلال ، لانه سلبهم سلطتهم ، اما الفلاحون فانهم يحبونه حبا جما ويدعون بدوام العصر الحاضر !!

« وبناء على ذلك فانه لم يكن اعتداء فلاحى دنشواى على الضباط الانجليز الا لانهم رأوا احدى نسائهم مجروحة ، فالحكم والتنفيذ يكونان قد بلغا إقصى درجات البشاعة . ويحق للعالم كله أن يتابلهما بمزيد

السخط ! واذا كان الامر على العكس وأتى الفلاحون ذلك طوعا لعاطفة حقد دينى أو وطنى فيتحتم على اللورد كرومر ان يعترف بأنهم يمقتون الاحتلال وأن ادارته أدت الى اخفاق ليس له مثيل ! وبحق عندئذ للمستر « ديلون » أن يقول مؤكدا : « ان خطبة السير ادوارد جراى هى أتعس شرح لمركز انجلترا وسياستها فى مصر » .

« على أن الذين يقطنون مصر كافة ويحبون الصدق والحقيقة ، يعترفون بأن حادثة دنشواى لم تكن مطلقا نتيجة حركة عدائية ضد الاوروبيين ، وأن المصريين هم أكثر أمم الارض اعتدالا وتسامحا !

« ان الخطة الوطنية التى يجرى عليها أصحاب النفوذ والتأثير فى الرأى العام المصرى واضحة جلية ، فنحن نريد بفضل التعليم ونور التقدم انهاض شعبنا وتعريفه حقوقه وواجباته ، وارشاده الى المقام اللائق به فى العالم ، وأننا أدركنا من كثر من قرن أنه لا يمكن للامم أن تعيش عيشة كرامة اذا لم تسلك طريق المدنية الغربية. وأننا أول شعب شرقى صافح أوروبا واننا مستمرون على السير فى الطريق الذى سلكناه واننا بالتعليم والتقدم والاعتدال والفكر الحر الراقى ننال احترام العالم وحرية مصر ، ومقصدنا الذى نرمى اليه هو استقلال وطننا ، ومحال أن يوجد شىء ينسينا ذلك المقصد الاسمى !

« ان عطفنا على الشعوب الاسلامية لامر طبيعى ولا تعصب فيه ، وانه لا يوجد مسلم مستنيرواحد يظن لحظة واحدة انهمن الممكن اجتماعالشعوب الاسلامية فى عصبة واحدة ضد أوروبا ، والذين يقولون ذلك اما جاهلون أو راغبون فى ايجاد هاوية بين العالم الاوروبى والمسلمين !

« انه لا سبيل لنهضة الشعوب الاسلامية بغير حياة اسلامية جديدة تستمد قوتها من العلم والفكر الواسع الراقى !

« وان لمصر مكانا خاصا بها فى الشرق ، فهى التى وهبت العالم قناة السويس ، وفتحت السودان للمدنية ، وفيها طبقة راقية الفكر ، وتتقدم الامة بالامة يمشى فيها سراعا ، ومن المستحيل ان تحكم مصر وهذا حالها

كما تحكم بلاد بعيدة مختبئة فى أعماق أفريقية وليس بينها وبين وروبا اتصال ! الم ير الناس الانجليز ينفعلون ويهيجون ضد ما يجرى فى جهات الكونجو وغيرها من البلاد ؟ فكيف يسمحون اذن بحدوث أفظع الجرائم فى مصـــــر ؟

« انه من الواجب على أوروبا كلها أن تهتم بمصر فان صوالحها فيها جسيمة والكثيرون من رعاياها جمعوا ثروات كبيرة فيها ، وان القوانين الاستثنائية والاعتساف لا يؤديان الا الى هياج الشعب المصرى وخلق عواطف عنده مخالفة بالمرة لعواطفه الحاليـة ·

« اننا نطالب بالعدل والمساواة والحرية ، نطالب دستورا ينقذنا من السلطة المطلقة ، ولا شك أنه لا يمكن للعالم المتمدن وللرجال المحبين للحرية والعدل فى انجلترا الا أن يكونوا معنا ويطلبوا مثلنا الا تكون مصر - تلك التى وهبت للعالم أجمل وأرقى مدنية - أرضا تمرح الهمجية فيها ، بل بلادا تستطيع المدنيـة والعدالة ان يبلغا فيها من الخصوبة والنمو مبلغ خصوبة أرضها المباركة (١) ·

« مصطفى كامل »

كان للحادث أثره البليغ فى تطور الحركة الوطنية وذلك لما كان له من نتائج قوية الاثر فى نفس الوطنين ومركز الاحتلال فى مصر ·

ويمكن القول أن الفضل الاكبر لتحقيق هذه النتائج فى صالح الامة كان لمصطفى كامل ونتيجة لجهاده ·

وقد كان الانجليز يقصدون بما فعلوه فى محاكمات دنشواى وكذلك تنفيذ الحكم بث الرعب فى نفس الامة وارهاب كل من تسوله نفسه بمقاومة الاحتلال ·

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ص ٢٠٩ ، ٢١٦ ·

وهكذا نجد أن الحادث قد أتى بنتائج عكس ما توقع الانجليز فقد عرس الحادث الحقد تجاه الاحتلال ومن ثم نمت الروح الوطنية ٠

النتـــائـج

١ - اشتداد ســـاعد الحركة الوطنيـة :

كان من نتائج حادث دنشواى اشتداد ســـاعد الحركة الوطنية فقد سرى شــعور بمســاوىء الاحتلال ٠

ولا مراء فى أن سريان هذا الشعور هو فوز كبير للحركة الوطنية ٠
وكان الاحتلال يدعى بأنه مؤيد من قبل الفلاحين ٠

وجاءت أحداث دنشـــواى لتكشف كذب مزاعم الاحتلال وأظهرت ان الامة المصرية لا ترضى بالذل والمهانة والتنكيل بأبناءهـا ٠

٢ - اهتمام الصحف العالمية بالمســألة المصرية :

أهتمت الصحف الاوروبية بما فيها الانجليزية بالمسالة المصرية فكتبت المقالات والبحوث عن مصر ومطالبها بالاستقلال ٠

فقـد كان سائدا أن مصر بلد متخلف لا يعى معنى الاستقلال ولكـن بعد الحادث وارتفاع صوت مصطفى كامل مطالبا بالاستقلال تغيرت نظرة الاوربيين لمصر وعرفوا ان الاحتلال لم يستقر بهاوان المصريين ساخطون على نظام الحكم الذى وضعه لورد كرومر ، وقد كبر شـأن المصريين فى اوروبا نتيجة عدم رضاهم بالاحتلال ومطالبتهم بالاستقلال ٠

٣ - تأسيس الجـامعة المصرية :

اتفقت الاراء على حادث دنشـواى من الاسباب الرئيسية فى تأسيس الجامعة المصرية فقد نبهت الحادث الى وجوب المساهمة فى كل ما يعلى من شــأن الامـة ٠

فظهرت بعد الحادث بثلاثة اشــهر جماعة تدعو لتأسيس الجامعة المصرية وكان على راسهم سعد زغلول وقاسم أمين ، وبعد أن تحددت الفكرة كان مصطفى كامل اول المتبرعين للمشروع وداعيـا لـه ٠

٤ ـ تعيين سـعد زغلول وزيرا للمعـارف :

كان تعيين سعد زغلول وزيرا للمعارف من النتائج المباشرة لحـادث دنشـواى ، وكانت الحكومة البريطانية قد رأت أن تعدل سياستها فى مصر لتخفيف حدة السخط على الاحتلال ، فأسندت بعض المناصب الكبيرة الى الاكفاء من المصريين ٠

وكان لورد كرومر هو الذى اقترح تعيين سعد زغلول وزيرا للمعارف وقد صدر الامر بالتعيين فى ٢١ أكتوبر سنة ١٩٠٦ اى بعد نحو اربعة أشهر من وقوع الحادث ٠

٥ ـ اسـتقالة للورد كرومر :

كما كان للحادثة وأظهار سياسة الاحتلال صدى عميق فى الرأى العام الاوروبى والبريطانى وما ألقى من تبعات على كاهل لورد كرومر بسـبب الحادث وذلك من الوجهة السياسية والانسـانية معا ٠

فرأت الحكومة البريطانية اعفـاءه من منصبه انقاذا لسمعتها أمـام العالم المتمدن وتخفيفا لهياج الشعور الوطنى فى مصر ٠

وقد قدم اللورد كرومر استقالته فى ابريل ١٩٠٧ وعقب تقديمه آخـر تقرير له عن شـئون مصر سنة ١٩٠٦ (١) ٠

مصطفى كامل وتاسيس الحزب الوطنى :

شهد عام ١٨٧٩ أول جمعية اتخذت من الحزب الوطنى اسما لهـا ، حيث تجمع بعض كبار المصريين وكونوا هذه الجمعية ، وكان من اعضائها بعض المدنيين وعلى راسهم محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب آنذاك، ثم انضم اليهم بعض العسكريين مثل احمد عرابى وآخرون ثم أصبح عرابى بعد حادثة قصر النيل فى سبتمبر ١٨٨١ لسـان حال الحـزب ٠

وثانى حزب حمل هذا الاسـم هـو الحزب الوطنى الحـر الـذى تأسس فى ٢٦ يوليو ١٩٠٧ برئاسة محمد وحـيد بك الايوبى ، وكـان

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ـ المراجع السابق ص ٢٣٧ ـ ٢٣٩ ٠

مواليا للاحتلال البريطانى وضد الحركة الوطنية بزعـامة مصطفى كامل ٠ كمـا ان هنـاك حزب ثالث تم تشكيله فى اغسطس ١٩٠٧ واتخذ نفس الاسم برئاسة حافظ عـوض . كمـا انه كان أيضـا مواليا للاحتـــلال ٠

اما الحزب الوطنى ــ حزب مصطفى كامـل ــ فهـو رابع حـــزب سمى بهـذا الاسم (١) ونرجع نشأة الحزب الى عدة عوامـــل دفعت مصـطفى كامل ليعلن تأسيسه فى ٢٧ ديسمبر ١٩٠٧ ، فلقد ظل مصـطفى كـامل يعتقـد ان تعدد الاحزاب يشتت العمل الوطنى ٠ ولكن ربمـا لاعـتلال صحة الزعيم فكـر فى جمع الوطنيين فى هـذا الحزب المتطرف فى عدائه مع الانجليز ٠

ولم يكن الاعلان عن تأسيس الحزب الوطنى مفاجأة للقـوى السياسية الاخرى فى مصر ٠٠٠ حيث ان هذه القوى كانت قـد احيطت علمـا بحركات مصطفى كامل واتباعه وبرنامجه الى ذلك ٠ اذ كـــان قـد نشر مبادئه العشرة فى اكتوبر ١٩٠٧ ، وكان ذلك مقدمة للاعـلان عن تأسيس الحـزب رسـميا فى ٢٧ ديسمبر ١٩٠٧ الذى اعلن فيه مصطفى كامـل أن هـدفه الرئيسى سيكون تحقيق جلاء الانجليز عن مصر ٠ واعلن اســتقلال الحزب عن كل الدول والحكومات والملوك وقرر ان الامـم لا تنهض الا بنفســـــها ولا تسترد استقلالها الا بجهوداتها (٢) ٠

وعقدت أول جمعية عمومية للحزب الوطنى يـوم الجمعة ٢٧ ديسمبر ١٩٠٧ بدار اللواء ، وكان عـدد الاعضـاء الحاضرين ١٠١٩ ، كمـا بلـغ عدد المعتذرين عن الحضور ٨٤٦ وافتتح مصطفى كامـل الجمعيـة العموميـة بخطبة نوه فيهـا بوجود الحزب الوطنى من قديم ، ثـم أشـار الى ضرورة تنظيمـه ، وقال عن اغراض الحزب « اننـا لسنا حزبا سـياسيـا فقط بل نحن قبل كل شىء حزب حياة للأمة وانهاض لهـا ، فلا نغفـل التعليم بين سـائر الطبقات لحظة واحدة ، وهو يرمى الى الاستقلال أس كل سعادة ،

---

(١) دكتور زكريا سليمان بيومى ــ الحزب الوطنى الفاروقية لتوكيلات الطباعـة والنشر ١٩٨١ ص ١٩ ــ ٢١ ٠

(٢) المصدر السابق ص ٤٣ ــ ٤٤ ٠

ويعمل لنشر التعليم حتى لا يبقى مصّرى جاهلا تحت سماء مصر ، ويسعى للوفاق بين الأمة وتقريب المسافة بينها وبين الشعوب الاخرى ، وهو يرمى قبل كل شىء الى ان يكون المصرى انسانا بأسمى معانى الكلمة ، واقصد بالمصرى ليس فقط ذلك الذى نراه فى المدائن يجد ويعمل ، بل اقصد بنوع خاص ذلك الفلاح الذى قضى القرون من السنين وهو يعتقد أنه ملك للحاكم ومتاع لا ارادة له ، فأسمى عمل نقوم به هو انهاض ذلك الفلاح العزيز واعلاء مكانته ، فهو هو ممثل النشاط المصرى ، ومصدر كل خير ونعيم ، فليحى عصر ينطق فيه التاريخ بأن الفلاح ألقى اثقال القرون الماضية وصار رجلا حرا بفضل ابناء وطنه المتعلمين المجاهدين فى سبيل حريته وسعادته » .

« اننا اذا دعونا الناس للدخول فى هذا الحزب لاندعوهم باسم سلطة عالية او حاكم نافذ الكلمة ، بل ندعوهم باسم وطنيتهم ، باسم شرفهم ، باسم حقوق وطنهم ، باسم كرامة الانسان ، باسم ذكريات آبائهم وأجدادهم ، باسم مصالح ابنائهم واحفادهم » .

وبعد المناقشات صدق الحاضرين على القرارات واهمها ان رئيس الحزب هو مصطفى كامل مدى الحياة (١) .

ولم يمض اكثر من شهر على تأسيس الحزب الوطنى حتى أصيب بفقد مؤسسة مصطفى كامل الذى مات فى ١٠ فبراير ١٩٠٨ وهو فى الرابعة والثلاثين .

ولا أجد فى هذا المقام سوى بعض الابيات من رثاء أمير الشعراء لباعث الحركة الوطنية :

باصب مصر ويا شهيد غرامها **هذا ثرى مصر فنم بأمان**

اخلع على مصر شبابك غاليا والبس شباب الحور والولدان

فلعل مصرا من شبابك ترتدى مجدا يتيه به على البلدان

(١) عبد الرحمن الرافعى - المصدر السابق ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

فلو ان بلبرمين من عزمـــاته	بعض المضاء تحرك البرمـــان
علمت شـــبان المدائن والقـــرى	كيف الحيـــاة تكـــون فى الشـــبان
مصر الأسـيفة ريفيـا وصعيدهـا	قبر أبر على عظـامك حـــانى
أفسـدت منك فى التراب طهـارة	ملك يهـاب سؤالـه الملكـــان

محمـد فريـد :

ولد محمـد فريـد بالقاهرة فى ٢٠ ينايـر ١٨٦٨ ، وهو من اصـــل تركى ، وكرس فى مدرستى الالسن والحقوق ، وتولى نيـــابة الاستئناف سنة ١٨٩٤ . وفى نوفمبر ١٨٩٨ أنشأ مجلة الموسوعات .

وترجع صلة محمـد فريـد بالزعيم مصطفى كامـل الى سـنه ١٨٩٣ .

وعقب وفاة مصطفى كامـل ، اجتمعت الجمعية العموميـة للحـــزب الوطنى بدعوة من اللجنة التنفيذية يوم ١٤ فبرايـر ١٩٠٨ بـدار اللواء لانتخـاب رئيس للحزب وانتهى الحاضرون الى انتخـاب محمـد فريـــد رئيســا للحزب الوطنى لمـدة ثلاث سنوات .

ويرى البعض ان الزعيم لـم يكن ينتمى الى فئة كبار اعلاك - فى ذلك الوقت - فقـد كان كل ما ورثه هو واخوته ٣٠٠ فدان منها ١٥٠ موقوفة وقصرا كبيرا فى شبرا . ورغم ذلك فقـد كان فريـد مضطرا للانفـاق عـلى الحركـة الوطنيـة وعلى الحزب من ماله الخاص ، حتى لا يبدو الحـــزب فى صورة هزيلة بعد وفاة موسسة ، وعندما عرض الخديو استعداده لمسـاعدة الحزب بالمـال رفض فريـد حتى لاتكون الحـركة الوطنية طـــوع أمـر الحكومة (١) .

وفور انتخـاب محمـد فريـد رئيســا للحزب الوطنى ارسـل الى السير ادوارد جراى وزيـر خارجية انجلترا برقية نصهـا :

---

(١) مذكرات محمـد فريـد - كراسـة (١) ص ٤ .
انظر د . زكريـا سليمان بيومى - المصدر السـابق ص ٨: ولمزيـد من التفصيلات نظر أيضا أوراق محمد فريد - المجلد الاول .
مذكراتى بعـد الهجرة ١٩٠٤ - ١٩١٩ مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر - سلسلة المذكرات التاريخيـة ص ٥٨ وما بعدهـا .

« الجمعية العمومية للحزب الوطنى انتخبتنى رئيسا بدل المرحوم مصطفى كامل باشا ، وكلفتنى بأن اجدد احتجاجها على احتلال القطر المصرى بلا حق ، وتعلن عزمها على السير فى خطة المرحوم الرئيس حتى تفى انجلترا بوعودها » .

محمد فريد

رئيس الحزب الوطنى

ولم يتوقف محمد فريد عن المطالبة بالدستور ، وعندما اجابت الحكومة على طلب الحزب الوطنى بانشاء المجلس النيابى فى ٨ فبراير ١٩٠٨ بأن الوقت لم يحن بعد لتشكيل مجلس نواب يرجى منه النفع العام « الذى ينتظر من المجالس النيابية ، ولكنها تشتغل الآن فى توسيع اختصاص مجالس المديريات » علق فريد بانها حجة واهية يلجأ اليها الحكام الذين يشتهون استمرار السلطة فى أيديهم .

ومن الغريب ان تتمسك انجلترا بالديموقراطية فى بلادها فقط وتمنع هذه الديموقراطية فى المستعمرات والبلاد التابعة لها ، حتى لا تستيقظ الشعوب وتطالب بالحرية وتسير بالديموقراطية فى طريق الرخاء والتقدم . ان الاستعمار بصفة عامة يتمسك بحاكم ديكتاتورى فى الدولة التابعة على ان يكون مواليا لهذا الاستعمار والامثلة كثيرة على ذلك .

على اية حال أجاب محمد فريد على اهانة الأمة واتهامها بعدم كفايتها للنظام الدستورى فى جريدة اللواء فى ٢٦ فبراير ١٩٠٨ مبينا ان الحزب الوطنى سيجمع توقيعات المواطنين على طلب الدستور حتى جمع ٦١ الف توقيع .

ثم كتب فى اللواء ....

« والواجب على حضرات اعضاء مجلس شورى القوانين ان يقرروا فى أول اجتماع لهم طلب الدستور ، وان لا يجتمعوا مرة اخرى الا اذا حصلوا عليه » .. ، وانهم يفضلون ترك كراسيهم على ان يشغلوها بلا عمل .

حتى لا ينـال فيهم انهم لا يرغبون فى هـذه المراكـز الاسميـة الا طمعـا فى الظهور ، والا فما داموا ودمنـا على هـذا الجمود وهـذه الاستكانة ولم نغير ما بأنفسنـا ، فلن يغير الله ما بنـا ، فقـد قال تعـالى (ان اللـه لا يغير ما بقـوم حتى يغيروا ما بأنفسـهم) .

المؤتمـر الوطنى للحزب .

وفى ٢٥ ديسمبر ١٩٠٨ تكلم الزعيم فى المؤتمـر الوطنى للحـزب مبينا جهـود الحزب فى العـام الاخير والتى تتلخص فى :

١ - الاحتفاظ بوحدة الحزب وتضامن اعضـائه ، واحباط المسـاعى التى كانت تبذل لحله والتخلص منه .

٢ - انشـاء اللجان الفرعية للحزب فى اقسـام العاصمة وفى البنـادر والاقاليم .

٣ - تأليف مدارس الشعب الليليـة لتعليم الصنـاع مجانـا .

٤ - وضع تقرير سنوى مفصـل عن حالة البلاد .

٥ - الدعـاية للقضية الوطنيـة فى أوروبا وبخاصـة فى انجلترا .

وبالفعل انتشرت مدارس الشـعب الليلية لتعليـم من فاتهم قطـار التعليم والعمـال مجانـا ، وانشئت ببولاق اول مدرسـة من هـذا النوع . وتطوع الشباب من اعضـاء الحزب لتدريس المواد المختلفـة . وبلغ عـدد المدارس التى انشـأهـا الحزب سنة ١٩٠٩ وحدهـا لتعليم العمـال اربـع مدارس فى أقسام الخليفـة وبولاق وشبرا والعباسية (١) .

ثم انتشرت هـذه المدارس فى عواصـم المحافظـات . وكان محمـد فريد ينادى دائمـا بوضع التشريعـات لحمايـة العمال .

فكتب يقول .. « الى الآن لا يوجـد بمصر قوانين خاصـة بحمـايـة العمـال ، ولا قوانين تحديـد سنهم ، ولا عـدد السـاعات التى يجب ان يقضـوها فى العمل . فتجـد العمـال مثقلى الكواهـل بـلا رحمـة ،

---

(١) . أحمد عبد الرحيم مصطفى - ص ٤٤ - ٤٦ .

خصوصا فى معامل الدخان ومعامل حلج القطن ، حيث يشتغل الأطفال ذكورا واناثا ، فى وسط أردأ الاوساط ، من الوجهة الصحية والادبية وقد كتبت الصحافة المصرية كثيرا عن هذه المسائل ، بلا جدوى ولا تأثير فى الدوائر الرسمية » .

وسرت فكرة تأسيس النقابات فانشئت نقابة للعمال بالقاهرة أولا ثم انتشرت الفكرة فى باقى عواصم المحافظات .

وفى المؤتمر الوطنى للحزب ، والذى عقد فى ٧ يناير ١٩١٠ ، أوضح محمد فريد كيف ان الوطنيين يتعرضون للارهاب من جانب الحكومة ، ثم طالب بمجانية التعليم وهو مطلب فريد من فريد فى ذلك الوقت .

وفى نفس المؤتمر صرح :

« ... أما تعديل نظام مجالس المديريات واعطاؤها الحق فى وضع ضرائب على الأطيان لا يزيد مجموعها على خمسة فى المائة من مجموع الضرائب الاصلية ، وصرفها كلها او جلها فى التعليم ، فيعود على البلاد بالنفع العميم ، فان نشر التعليم الابتدائى بين جميع طبقات الشعب ، من أقوى الوسائل لترقية الامة ، واقرب السبل لانالتها الحرية والاستقلال ، ويجب ان يكون قصدنا جميعا الوصول الى جعل التعليم الابتدائى الزاميا ومجانيا ، لكل مصرى ومصرية ، اقول مجانيا لأنه لا يمكن التوفيق بين الالزام ودفع اجرة على التعليم ، ولان جعله مجانيا للفقراء وبأجرة للأغنياء ، فيه جرح لعواطف الفقراء من التلاميذ ، الذين يرون أنفسهم محتقرين فى نظر اخوانهم ومعلميهم ، فالدمقراطية الحقة ، والمساواة الحقيقية ، يقضيان بأن يكون التعليم الابتدائى مجانيا لجميع طبقات الامة ، فقيرها وغنيها ، بلا تمييز ، حتى يشب التلاميذ على حب المساواة ، ويعرفون منذ نعومة أظفارهم أن لا تفاوت بين الناس الا بخدمة الامة ، وأن اقربهم الى الله اتقاهم ، لا اغناهم » .

« ولا ننس أن التعليم الابتدائى وحده غير كاف لحاجات الأمة ، فان الأمم لا ترقى الا بالتعليم الثانوى والعالى ، اللذين يخرجان الطبقة الراقية التى عليها المعول فى ادارة أمور العامة والاخذ بيدها الى طريق السعادة . طريق النور ، طريق الحرية الابدية ، فيجب أن نسعى

فى أن يكون بكل عاصمة مديرية أو محافظة مدرسة ثانوية على الاقل ، وأن يكون بها محال مجانبة لتعليم النابغين من أولاد الفقراء ، لا أن يكون المبلغ المقرر لهم ١٦٠٠ جنيه فى كل سنة من سنى التعليم الثانوى الأربعة ، من ميزانية تربو على الستة عشر مليون جنيه ، أى بنسبة جنيه واحد على كل عشرة آلاف جنيه ، وهو ما لم يسمع به الا فى مصرنا الاسيفة ، أما التعليم العالى فيجب ان يكون أضعاف ما هو عليه الآن ، حتى يتخرج للبلاد العدد الكافى من المحامين والاطباء والمهندسين والعلماء والماليين وغيرهم ، فتصبح الأمة فى غنى بابنائها عمن يقصدها من علماء الاجانب أو الآفات منهم » .

كما تكلم الزعيم عن فداحة الضرائب التى تقع على كاهل الفلاحين فقال :

« وهناك مسالة اخرى يجب على نواب الامة الاشتغال بها ، وهى تحمل الفلاح المصرى أكبر جزء من الميزانية المصرية ، فكلكم تعلمون ان لجان تعديل الضرائب جعلت اساس تقديرها أن تكون الضريبة بنسبة ٢٨ فى المائة من الايجار ، بحيث لا يزيد ما يدفع عن الفدان عن ١٦٤ مرشا سنويا ، وتعلمون أن اصحاب الاملاك المبنية فى المدن المقرر فيها دفع عوائد أملاك كانوا يدفعون جزءا من ١٢ من ايجار املاكهم اى ٨ ٪ تقريبا ، ثم زيدت بمقدار الربع من اول عام ١٩٠٩ ، ولكن من الغريب ان ألتجار لا يدفعون شيئا ، وكذلك المصارف وأصحاب الأموال المنقولة على العموم ، فمن اشترى بجميع أمواله اسهما من البنك العقارى أو الاهلى مثلا لا يدفع للحكومة شيئا ، فى حين أن الفلاح الصغير الذى يملك قيراطا او قيراطين يدفع ثلث ايراده ، واذا نقص المحصول او اتلفته الدودة باع ماشيته لدفع غائلة الصراف ، ومنعه من بيع ملكه تسديدا لمال الحكومة ، الذى يبذر باليمين والشمال ، فيجب على الكتاب والخطباء ان يطرقوا هذا الباب ، ويشرحوه شرحا وافيا ، حتى يقف الرأى العام على ما يصيب الفلاح من الظلم الفادح بتحمله ما يقصم ظهره من اهتمامهم وقت درس الميزانية للعام المقبل (١٩١١) ، ويجب على

المشتغلين بتشكيل النقابات الزراعية أن يهتموا بايجادها حتى تشتغل بتخفيف الضرائب عن الاطيان وتحسين حالة الفلاح المسكين الذى يكد طول سنته هو وزوجته وأولاده ولا يحصل الا على القوت الضرورى من الذرة ، واذا نقص محصول القطن عن سداد ما عليه من الايجار أخذ منه محصول الذرة كله أو بعضه ، فانظروا الى هذا التعس الذى عليه أساس العمران بمصر ، والذى لم تتغير حالته المعاشية بل هى هى حياة بؤس وشقاء ، وجهل لا يماثله فيها فلاح آخر ، الفلاح المصرى اتعس فلاح فى العالم ، اتعس من الفلاح الروسى ، الذى يضرب بشقائه المثل، ولا خلاص له من هذه الحالة الا بنشر التعليم الابتدائى وجعله اجباريا ، وبتشكيل نقابات زراعية للدفاع عن حقوقه امام الحكومة وامام الملاك الذين يزيدون عليه الايجارات بمناسبة وبغير مناسبة ، وامام المرابين الذين يأخذون منه ما يبقى لهم بين جشع الملاك وظلم الحكومة » (١) ٠

كما تكلم الزعيم فى نفس المؤتمر الوطنى للحزب (٧ يناير ١٩١٠) عن مشروع مد امتياز السويس مهاجما ، كما أن (اللواء) كان قد هاجم ذلك المشروع فى ٢٥ اكتوبر ١٩٠٩ موضحا أن هذا المشروع هو عبارة عن تنازل مصر عن ملكية القناة لاربعين عاما زيادة على عقد الامتياز (من عام ١٩٦٩ الى عام ٢٠٠٨) مقابل الحصول على أربعة ملايين جنيه ٠

وارسل محمد فريد برقيات الى الخديو والى رئيس الوزراء يحملهما مسئولية ذلك العمل المتنافى مع المصلحة المصرية ٠

وكان لنداءات الزعيم اثر فى تراجع الجمعية العمومية عن قرارها بمد اجل امتياز القناة ثم رفض المشروع تماما رغم دفاع سعد زغلول نفسه عن وجهة نظر الحكومة ٠

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ـ محمد فريد ص ١٤٨ ـ ١٤٩ ٠

(٢) د ٠ جاد طه ـ ثورة ٢٣ يوليو بين النظرية والتطبيق ١٩٦٩ ص ١٠١ ٠

أنظر ايضا د٠ جاد طه ـ الصراع الاستعمارى ص ٨٤ ٠

مقالات الزعيم فى اوربا .

مع اوائل مايو ١٩١٠ ، سافر الزعيم محمد فريد الى اوربا للدفاع عن القضية المصرية ، فذهب الى باريس ، وكتب فى الصحف الفرنسية مقالات هامة لضم الرأى العام العالمى الى جانب الحركة الوطنية المصرية ، كما القى العديد من الخطب فى المدن الفرنسية الكبرى كما الم بلندن ذاتها ، وهاجم الانجليز فى عقر دارهم غير مبال بالنتائج، ثم خطب الزعيم فى مؤتمر السلام باستوكهلم فى ٩ اغسطس ١٩١٠ باللغة الفرنسية ليعرف الاعضاء بالقضية المصرية ، مما ادى بالمؤتمر لان يصدر قرارات مؤيدة لمصر .

وعاد محمد فريد من الخارج وهو محاط بسهالات الحب من الشعب المصرى ، مما ادى الى بغض أعدائه فى ذلك الوقت : الاحتلال - الخديو - الوزراء ، وبدأ عام ١٩١١ وهو ينذربما سينال فيه الزعيممن العنت والمكاره .

الزعيم فى السجن

ففى ٢٣ يناير ١٩١١ حوكم الزعيم على تقريظه لكتاب وطنيتى للشيخ على الغاياتى وكتابته مقدمة له ، وانتهت المحكمة الى قرار بحبس الزعيم ستة اشهر مع النفاذ .

وقد تلقى فريد حكم المحكمة بهدوء ، وقررت لجنة الحزب الوطنى أن تطلب الى الإمة مقابلة هذا الحكم بالثبات . وفى ١٨ يوليو وبعد مضى أشهر الحبس الستة ، تم الافراج عن محمد فريد .

وعند خروجه قال : « مضى على ستة أشهر فى غيابات السجن ، ولم أشعر أبدا بالضيق الا عند اقتراب اجل خروجى ، لعلمى انى خارج الى سجن آخر هو سجن الامة المصرية الذى تحده سلطة الفرد ويحرسه الاحتلال » (١) .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى - محمد فريد ص ٢٨٨ .

وهكذا انتشرت الانباء بان الحكومة مصممة على ادخال الزعيم الى السجن كلما خرج منه ، وانتهى الامر باقامة الدعوى على الزعيم بتهمة التحريض على كراهية الحكومة . ثم حكمت المحكمة المكلفة بالنظر فى هذا الادعاء على الزعيم بالحبس مع الشغل سنة غيابيا .

وهكذا نصح رفاق الزعيم له بالسفر ، فسافر فى ٢٦ مارس ١٩١٢ سرا الى الآستانة وأخذ يتنقل من بلد الى بلد داعيا للقضية المصرية .

أما أحوال مصر بعد هجرة الزعيم فسوف نناقشها فى الفصل التالى .

أما الزعيم نفسه ، فقد توفى فى ١٥ نوفمبر ١٩١٩ فى ظروف بالغة التعاسة والفقر ، وهو الغنى صاحب الفدادين والقصور ... وقال قبل وفاته مباشرة « انى انا واولادى وكل عزيز لدى فداء لمصر ، لقد قضيت بعيدا عن مصر سبع سنوات ، فاذا مت ، فضعونى فى صندوق واحفظونى فى مكان امين ، حتى تتاح الفرصة لنقل جثتى الى وطنى العزيز الذى افارقه وكنت اود أن اراه (١) .

وفى ١٦ نوفمبر ١٩١٩ شيعت جنازة الزعيم فى برلين فى احتفال مهيب سار فيه المصريون هناك وعدد كبير من الالمان تقديرا منهم لزعيم مجاهد أحب وطنه وقاسى من أجله .

وظلت فكرة نقل رفات الزعيم الى مصر تجول فى خواطر الكثيرين دون ان ينفذها أحد ، الى أن قام تاجر من الزقازيق يدعى خليل عفيفى بالحصول على ترخيص من الحكومة المصرية بنقل رفات الزعيم على نفقته الى مصر .

وفى ٨ يونيو وصل جثمان محمد فريد بالباخرة الى الاسكندرية حيث شيعت جنازته من جديد فى موكب مهيب الى محطة الاسكندرية

---

(١) المصدر السابق ص ٤٤٤ .

لنقل رفات الزعيم الى القاهرة .. وفى محطات دمنهور وطنطا وبنها احتشدت الجماهير لتحية روح الزعيم .

وفى ٩ يونيو بدأت جنازة جديدة للزعيم الخالد من محطة القاهرة الى ميدان الاوبرا فشارع محمد على الى مدافن العائلة بجوار السيدة نفيسة .. وأخيرا آن لمصر الأم أن تحتضن رفات ابنها البار محمد فريد . وتبارى شعراء وكتاب مصر العظام فى ذلك الوقت فى تابين الزعيم .

فقد القى حافظ ابراهيم قصيدة مطولة منها .

آثر النيل على أمواله ... وقواه وهواه والولد
يطلب الخير لمصر وهو فى ... شقوة تحلى من العيش الرغد
ضارب فى الأرض يبغى مأربا ... كلما قاربه عنه ابتعد
لم يعبه أن تجنى دهره ... رب جد حاد عن مجراه جد
يستجم العزم حتى ان بدت ... فرصة شد اليها وصمد
فهو لا يثنى عنانا عن منى ... وهو هجيراه (من جد وجد)
فأياديه اذا ما انكرت ... انما تنكرها عين الحسد

* * *

فقدت مصر (فريدا) وهى فى ... موطن يعوزها فيه المدد
فقدت مصر (فريدا) وهى فى ... لهوة الميدان والموت رصد
فقدت منه خبيرا حولا ... وهى والايام فى أخذ ورد
لم يكد يمتعها الدهر به ... فى ربوع النيل حيا لم يكد
ليته عاش قليلا فترى ... شعب مصر عينه كيف اتحد
ويح مصر بل فويحا للثرى ... انه أبلغ حزنا واشد
كم تصدى وتمنى أهله ... لو يوارى فيه ذياك الجسد

* * *

جهف نفسى هل (ببرلين) امرؤ … موق ذاك التبر صلى وسجد
هل بكت عين فرت تربه … هل على احجاره خط احد
ماهنا قبر شهيد فى هوى … ادة ايقظها ثم رقد

كما كتب الامير شكيب رسلان قصيدة طويلة أيضا منها ٠

قد عشت فذا فى الرجال فريدا … فقضيت فذا فى البلاد فريدا
جاهدت عمرك ثم مت مغربا … فغدوت من كل الجهات شهيدا
كانت حياتك حفظ مصر لاهلها … ما غير ذلك مطلبا منشودا
جاهدت نصف العمر فى ارجائها … علما ونصفا فى الغروب شريدا
لله وفيت الأمانة حقها … وبذلت فيها طارفا وتليدا
واذبت فى حسراتها كبدا بها … اوديت تحرق من ذويك كبودا
لم تدخر فى حب مصر واهلها … وسعا ولا جهدا هناك جهيدا
ما عز عندك ان تركت لأجلها … وطنا وقصرا كالسدير مشيدا
ولذائذا ونفائسا اورثتها … عنها صرفت وعيلا ووليدا
غادرته طفلا وطال بك النوى … فحرمت منظره وصار رشيدا
لخلاص مصر قد تركت ماثرا … بيضا سهرت لها ليالى سودا
كنت المتيم والعميد بحبها … فلذا لفتيتها غدوت عميدا

أما أمير الشعراء أحمد شوقى فقد كتب قصيدة تليت على ضريح الفقيد سنة ١٩٢٠ ٠

ثم عاد شوقى سنة ١٩٢٤ ليكتب شعرا رائعا عن محمد فريد فى مناسبة الذكرى الخامسة لوفاته نقتبس منها ٠

نجدد ذكرى عهدكم ونعيد … وندنى خيال الامس وهو بعيد
وللناس فى الماضى بصائر يهتدى … عليهن غاو او بسير رشيد
اذا الميت لم يكرم بأرض ثناؤه … تحير فيها الحى كيف يسود

ونحن قضـاة الحق نرعى قديمـه — وان لم يفتنـا فى الحقـوق جديـد
ونعلم أنـا فى البنـاء دعـائم — وأنتم اساس فى البنـاء وطيـد
فريـد ضحايانـا كثير وانمـا — مجـال الضحايـا انت فيه فريـد
فمـا خلف ما كابدت فى الحق غاية — ولا فـوق ما قاسـيت فيه مزيد
تغربت عمرا أنسـت فيهن بائس — وانت بافاق البـلاد شريـد
تجـوع ببلدان وتعـرى بغيرهـا — وترزح تحت الداء وهـو عتيـد
الا فى سبيـل الله والحق طـارف — من المـال لـم نبخـل بـه وتليد
وجودك بعد المال بالنفس صابرا — اذا حزع المحضور وهو يجـود

* * *

فلا زلت تمثالا من الحق خالصـا — على سره نبنى العـلا ونشـيد
يعلم نشء الحى كيف هوى الحمى — وكيف يحامى دونه ويذود .

* * *

الفصل التاسع
ثورة ١٩١٩

الحمـــاية البريطـانية على مصر :

عندما قامت الحـــرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، ظلت الأحـــوال هادئة فى مصر باعتبارها بعيدة عن مسرح هذه الحرب ، الا أنه فى ٥ اغسطس سنة ١٩١٤ ، اصدرت الحكومة المصرية قرارا - تحت الضغط البريطانى - بمنع التعامل فى الامور المالية والاقتصادية مع الدول المعـــادية للحكومة البريطانية ، وحث القرار المصريين على تقديم كل عون ممكن لبريطانيا فى هذه الحرب (١) وقد هـــاجم الوطنيون فيما بعد حسين رشـــدى باشا - رئيس الوزراء - على اصدار هذا التصريح دون أن ينتزع من الانجليز فى مقابله وعد صريح يحقق آمال المصريين بعد انتهاء الحرب ٠

وفى ١٨ اكتوبر سنة ١٩١٤ صدر مرسوم بتأجيل جلســات الجمعية التشريعية الى أجل غير مسمى (٢) ، وفى ٢ نوفمبر أعلن السير جون مكسويل قــائد القوات البريطانية فى مصر الاحكام العرفية ، ثـــم صـــدر تصريح بريطانى أعلن أن انجلترا سوف تتكفل بكل أعباء الدفاع عن مصر وأنها لن تدعو الشعب المصرى الى الاشـــتراك الفعلى فى الحرب ، وقد صـــدر هذا التصريح بناء على طلب رشدى باشـــا رئيس الوزراء الذى اعترض بمرارة على اعلان الاحكـــام العرفية ٠

---

(١) John Marlowe, Anglo-Egyptian Relations 1800-1953, p. 212.

(٢) د ٠ أحمد عبد الرحيم مصطفى - المصدر السابق ص ٩٠ ٠

وفى ٦ نوفمبر ١٩١٤ أعلنت الحرب بين انجلترا وتركيا ، وهكذا كان على انجلترا أن تختار لمصر وضعا من ثلاثة أوضاع ، فهى : اما ن تضمها الى امبراطوريتها ، أو تعلن حمايتها عليها ، أو تترك أمورها على ما هى عليه ، أما ضم مصر الى الامبراطورية فانه لا شك سيثير الدول المحايدة ويدفعها الى نقد السياسة الانجليزية ، أما اعلان الحماية فمن شأنه أن يعطى ممثل انجلترا وضعا محددا يفوق وضع ممثلى الدول جميعا فى البلاد (١) ٠ لهذا اختارت انجلترا اعلان الحماية فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ (٢) ٠

واعلان الحماية من دولة على أخرى كان يصحبه عادة اتفاق بين الدولة الاستعمارية والدولة المحمية ، بقصد تبرير وضع الدولة الاستعمارية من الناحية الشكلية أمام الرأى العام العالمى ، وان كان مفهوما أنها حين تعلن حمايتها انما تفرض نفسها فرضا بوسائل الضغط السياسى والعسكرى ، ولكن لا الحكومة المصرية ، ولا أى هيئة مصرية أخرى طالبت بالحماية التى أعلنتها انجلترا من طرف واحد مما جعلها غير متقبولة من المصريين جميعا ، لولا ظروف الحرب التى لم تمكن أحدا من الادلاء برأيه بصراحة ، خاصة وقد أعلنت الاحكام العرفية وتحددت الحريات وانتشرت جيوش الاحتلال فى البلاد (٣) ٠

وبرغم أن فرض الحماية على مصر لا يزيد من فاعلية السيطرة البريطانية عليها ، فان اعلان الحماية من ناحية تذل شعور المواطن المصرى ، ومن ناحية أخرى تثير القلق والغموض فى المستقبل (٤) ، بل أن كلمة « حماية » نفسها كلمة ذليلة لم يكن ليتقبلها الشعب المصرى بسهولة (٥) ٠

وبما ان الحماية - من الناحية الدولية - عمل غير قانونى ، فانه لم يكن مستطاعا احداث أى أثر على الامتيازات الاجنبية ٠ وعلى الرغم من

---

(١) د ٠ أحمد عبد الرحيم مصطفى - المصدر السابق صفحة ٩٠ - ٩١؛

(٢) عبد الرحمن الرافعى - ثورة ١٩١٩ - ص ١٨ ٠

(٣) د ٠ أحمد عبد الرحيم مصطفى - المصدر السابق صفحة ٩١ ٠

(٤) د ٠ جاد طه - الصراع الاستعمارى فى حوض النيل صفحة ٨٦ ٠

(٥) John Marlowe, op. cit., p. 216.

(١) د ٠ جاد طه الصراع الاستعمارى فى حوض النيل صفحة ٨٦ ٠

ان مقتضيات الاحكام العرفيــة لم يكن لهـا أى تأثير فى بادىء الامـر على الحياة اليومية فى مصر ، فان اعلانها كان معناه أن الجيش البريطانى اصبحت له السلطة العليا فى التشريع والادارة فى مصر واستخدمت الاحكام العرفية استخداما شـــاملا فيها .

وكان من الواضح أن المصريين لابد منتظرين نتيجة الحرب التى نشب حتى يحددوا موقفهم من المحتل ويطالبوا بالغاء هذا الاجراء الاستثنائى ، وبحقوقهم فى الحرية والاستقلال ، وبقى وضع مصر شاذا اثناء الحرب كما كان عليه منذ وقوع الاحتلال ، فالحماية لم تلغ السيادة العثمانية ، ولا هى اثرت على الامتيازات الاجنبية (١) ، ومع ذلك فان انجلترا قد افادت من اعـلان الحماية ، فالغت وزارة الخـــارجية المصرية وحولت ملحقاتها الى المندوب الســـامى البريطانى .

وفى نهاية سنة ١٩١٤ ، وصلت الى مصر اقسام من جيوش بريطانيا ومستعمراتها ؛ وفى ديسمبر من نفس السنة بدأت العمليات الحربية فى سيناء وقناة السويس لمواجهة الغزو التركى على القناة من جهة فلسطين . وعنـد بداية عام ١٩١٦ ، كان فى مصر نحو ١٣ فرقة من قوات الجيش البريطانى .

وعلى الرغم من التعهد البريطانى باعفاء مصر من المشاركة فى المجهود الحربى فى هذه الحرب ، فان بريطانيا اخلت بهذا التعهد بعد أيام قليلة من اعطائه بارســـــالها الجيش المصرى كى يســـــاعد فى الدفاع عن قنـــاة الســـــويس (٢) .

ثم ما لبثت السلطات الانجليزية أن بدأت عملية قبض واسعة النطاق، ونفت الكثيرين من الوطنيين الى مالطة ، وكان من هـؤلاء عـدد كبير مـن رجـــال الحزب الوطنى ، واعتقلت وحددت اقامة الكثيرين ، وأخليت بعض المدارس والمستشفيات وأقيمت فيها المنشآت العسكرية ، واستخدمت القوات البريطـانية المرافق العامة - كالســـكك الحديدية لدرجـة تعطيل النقـل

---

(١) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى - المصدر السابق صفحة ٩٢ .
(٢) د . جاد طه - الصراع الاستعمارى فى حوض النيل صفحة ٨٦ .

المـــــدنى (١) ٠

كما زادت مطالب الحرب من الاعباء التى فرضتها السـلطة البريطانية على الشعب ٠ فجندت العمال والفلاحين لمضاعفة العمل فى خط السكة الحديد بين الاسماعيلية والزقازيق ، كمـا زادت طلباتها من المؤن ودواب الحمل ٠ وطلبت السلطات البريطانية من الحكومة المصرية أن تمدها بالجنود المتطوعين فكـان مـدير كل مديرية يطلب من مأمـورى المراكز الذين تحت قيادته أن يمدوه بعدد كبير من المتطوعين لتزويد الجيش ، فيعهد المأمور الى كل عمدة مهـددا اياه بالعقوبات الشــــديدة اذ لم يقدم المطلوب منه ٠ وأخـذت السلطة العسكرية فى الاستيلاء على دواب الحمل ووسائل النقل ومواد العلف غصبا ، وأجبر المصريون على التبرع للصليب الاحمر ولاسر الجنود «الحلفاء» المنكوبين وغيرهم ٠ وصدرت الاوامر لرجال الادارة بجمع هذه الاموال وجار العمد والموظفون على الافراد العاديين ، كما فعلوا حين جمع المجندين والعمال والاستيلاء على الماشية والمواد الغذائية ، مما أدى الى ازدياد الضغط على الفلاحين وتفشى السخط فى الريف ٠

على أنه يلاحظ ن الاموال التى دفعها الجيش البريطانى نظير ذلك لم تكن مجزية ، بل كثيرا ما كانت تتأخر ، بل لم تكن تجد طريقها دائما الى أيدى أصحابها الحقيقيين (٢) ، وعلى أية حال لم يكن قيمة ما يدفع يتكافأ مع فقدان الفلاح لماشيته التى كانت ضرورية تماما لمعيشته

أما سكان المدن فلم يكن ضغط الحرب عليهم باقل منه على مواطنيهم القرويين ، حقيقة أن سنى الجـــرب قد ادت الى انعزال مصر تقريبا عن أسواق التصدير ، مما أتاح للرأسمالية المحلية فرصة محددة للنمو حين قامت بالبلاد بعض الصناعات الصغيرة للوفاء بحاجات الجيوش والسوق المحلية ٠ الا أن الحرب ادت الى الركود الشـــامل فى السوق التجارية بسبب وقف

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى ـ المصدر السابق صفحة ٩٤ ٠
(٢) د ٠ جاد طه ـ المصدر السابق صفحة ٨٧ ٠

تصدير القطن وهبوط اسعاره هبوطا شـديدا وتحديد مســاحة الاراضى المزروعة قطنا ، وتاليف لجنة انجليزية لمراقبة تصدير القطن باسعار مخفضة الى انجلترا وحصر عمليات التصدير فى يد فئة قليلة من البيوت الاجنبية . وارتفعت أسعار السلع الاستهلاكية ارتفاعا متواليا وبخاصة أسعار الحبوب والمنسوجات والوقود ، بينما لم تزد اجور العمال والموظفين أية زيادة تتناسب مع زيادة تكاليف الحيــاة (١) .

وهكذا أصبحت مصر قاعدة للعمليات الحربيـة فى البحر المتوســط ، وخضعت لاوضار حرب لا ناقة لها فيها ولا جمل .

وفى وســط هــذه الظلمة الحالكة ، أخذ المصريون يتطلعون الى نيل حريتهم بعد أن لمست طبقاتهم جميعا مدى العنف الذى تعرضوا له اثنــاء الحرب نتيجة لربط البلاد بعجلة السياسة الاستعمارية :

وبمجـرد أن أعلنت الهدنة بين الدول المتحاربة فى ١١ نوفمبر سـنة ١٩١٨ ، حتى أخذ الســاسة المصريون يتشاورون فى مصير البلاد ، وكان كبار زعماء الحزب الوطنى منفيين و معتقلين ، فتصــدر الموقف المعتدلون ومعظمهم من أعضاء الجمعية التشريعية . ورأى هؤلاء أن يرسلوا وفدا مثل بقية الشعوب التى تاهبت لارسال مندوبيها الى مؤتمر الصلح ، خاصة وأن مصر لم تثر العراقيل فى وجه انجلترا اثناء الحرب ، بل عاونتها تدر طاقتها على احراز النصر ، ومما قوى عزيمتهم صدور التصريح الانجليزى — الفرنسى الذى أذيع فى أوائل نوفمبر سنة ١٩١٨ فيما يتعلق بسوريا والعراق ، وقد جاء فيه « ان بريطانيا العظمى وفرنسا تنويان تحرير الشعوب التى أنتذت من الظلم العثمانى تحريرا تاما وان ننشىء لها حكومات وطنية تستمد سلطاتها من القوانين التى يسنونها من تلقــاء أنفسهم ومطلق اختيارهم » (١) . وكانت مسالة ارسال هذا الوفد هى النقطة التى اندلعت منها الثورة .

---

(١) د . احمد عبد الرحيم مصطفى — المصدر السابق صفحة ٩٥ .
(٢) المصدر الســابق ٩٩ — ١٠٠ .

أسباب ثورة ١٩١٩ :

قد يكون السبب المباشر لثورة سنة ١٩١٩ هو اعتقال سعد زغلول وصحبه ، ولكن أسبابها الحقيقية ترجع الى عدة سنوات مضت ، ولا يمكن القول بأن اعتقال سعد هو السبب الوحيد للثورة ، فقد اعتقل للمرة الثانية فى ديسمبر سنة ١٩٢١ ، وكانت منزلته عند الشعب قد عظمت وعلت ، ومع ذلك لم تقم فى البلاد ثورة للافراج عنه ، فاعتقاله فى المرة الاولى لم يكن السبب الوحيد لثورة سنة ١٩١٩ ، وانما كان بمثابة الشرارة التى اشعلت النار فى بركان الثورة ·

ولم تكن ثورة ١٩١٩ ثورة دينية ولا ثورة اجتماعية ، بل كانت ثورة سياسية بكل معانى الكلمة ، فأهدافها سياسية وتطوراتها السياسية ، ومن هنا كانت أسبابها العامة أيضا سياسية ،على أن لها إلى جانب ذلك أسبابا أخرى اقتصادية واجتماعية ·

الأسباب السياسية :

« ترجع الثورة الى تذمر الشعب من حالته السياسية وتطلعه الى ما يصبو اليه من حرية واستقلال · وكان الشعب يسمع من الحكومة البريطانية بين حين وآخر وعودا وعهودا بالجلاء عن البلاد ، ولكنه شهد على مر السنين نقض هذه الوعود والعهود ··· شهد الاحتلال على تعاقب الاعوام يوطد أقدامه ، ويتغلغل فى شئون الحكومة كبيرها وصغيرها ، شهد الغاء الجيش المصرى والبحرية وتجريد البلاد من كل قوة حربية ، شهد مصرع الحكومة الاهلية ، واهدار الاستقلال ، شهد الغاء مجلس النواب ، وابطال النظام الدستورى الذى نالته من قبل » ·

تعاقبت هذه الاحداث على البلاد ··· وبينما كانت الامه ترتقب أن تنجز انجلترا وعودها وعهودها فى الجلاء . اذا باحتلال يتفاقم ويزداد رسوخا باعلان الحماية على مصر سنة ١٩١٤ فصار احتلالا مقترنا بحماية· وبعد أن قامت مصر من ويلات حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل ، جحدت

الحكومة البريطانية المعاونات المصرية لها فى هذه الحرب ، فوقفت من الاهداف الوطنية - بعد انتهاء الحرب - موقف التحدى والخصومة ، وتحدت الشعب ما تضمر له ، اذ صمت آذانها عن الاستماع الى مطالبة ، ورفضت الترخيص لممثليه بالسفر الى الخارج لرفع صوت مصر الى مؤتمر الصلح ، ولم تكتف بالرفض ، بل حتمت ان يقدم الشعب مقترحاته فى شأن نظام الحكم الى المعتمد البريطانى فى مصر ، على أن لا تخرج عن حدود الحماية ، فى حين توالت الانباء بالترخيص لوفود الهند والحجاز وسورية ، وأرمينيا وغيرها بالسفر الى المؤتمر ، وتمثيل بعض هذه البلاد رسميا فى ساحته ، وتمكينها جميعا من الدفاع عن حقوقها واعلان مطالبها امامه ، ولقد ظهر من هذه المقارنة مبلغ ما بيتته انجلترا لمصر من أسوأ النيات ؛ فلما يئس الشعب من الطرق السلمية فى الوصول الى اهدافه لجأ الى الثورة ، يعلن بها سخطه على الحماية والاحتلال ... فثورة سنة ١٩١٩ هى اذن ثورة على الاحتلال والحماية ووثبة على نظام الحكم الذى تفرع عنهما .

وقد أحدثت المبادىء التى اعلنها الدكتور ويلسون الرئيس الاسبق للولايات المتحدة عند دخول أمريكا الحرب تأثيرا كبيرا فى النفوس قاطبة . وقد أعلن الرئيس الامريكى هذه المبادىء فى خطبة العديدة ، فاستمع الناس الى قواعد ومعان جديدة فى حكم الشعوب وتقرير العدل العالمى ، اذ نادى بحرية الشعوب كبيرها وصغيرها ، والاعتراف بحقها فى تقرير مصيرها . كما اعلن فى المبدأ الاخير من مبادئه الاربعة عشر التى نادى بها وجوب انشاء جمعية أمم لوضع الكفالات لضمان الاستقلال السياسى وسلامة اراضى جميع البلاد صغيرها وكبيرها على السواء .

وقد كانت هذه المبادىء بمثابة دستور او ميثاق عالمى يحق لكل امة أن تتمسك به ، وقد استثارت هذه المبادىء روح الاستقلال والحرية فى الشعوب، وكانت الامة المصرية بذكائها وبصيرتها أسبق الامم الصغيرة الى تمسكها بحقها فى تقرير مصيرها ، وزادها تمسكا به أن الحلفاء ومنهم بريطانيا وافقوا على مبادىء ويلسون ، فاستقر فى الاذهان أنها بوقوفها ضد الاحتلال والحماية لابد واصلة الى تقرير مصيرها ، وهو الحق المعترف به من

الجميع (١) .

الأسباب الاقتصـــادية :

ان ثورة سنة ١٩١٩ كانت من الوجهة الاقتصادية هى رد فعل ضد النظم المالية التى عانتها البلاد قبل الحرب وأثنائها ، فقبل الحرب أخذت الامة تشعر على مر السنين بأن المصالح والمرافق الاجنبية نمت وازدهرت وطغت على الاقتصـــاد القومى فى ظل الاحتلال وتحت كنفه ورعابته ، وأن النفوذ الاجنبى فى البنوك والشركات والمصانع والبيوت الاجنبية عامة قد تغلغل فى حياة البلاد الاقتصـــادية مما أفضى الى استعباء الشـــعب ماليا واقتصاديا الى جانب ما عناه من الاستعباد السياسى (٢) .

ثم جاءت الحرب العالمية الاولى . فزادت الناس تذمرا من هذه السياسة وأول ما ظهر من هذا التذمر ، الشكوى العامة من موقف الحكومة حيال هبوط أسعار القطن هبوطا جسيما فى موسم سنة ١٩١٤ على أثر نشوب الحرب . فلقد نزل سعر القطن تدريجيا الى حوالى عشرة ريالات ، وكان سعره قبل الحرب أربعة جنيهات فعم الكســـاد واشـــتد الضيق بالمزارعين من مـلاك وفلاحين (٣) .

ثم أخذت اسعار القطن فى السنين التاليـــة تصعد تدريجيـــا ، حتى وصل سعر القنطار الى ٣٩ ريالا ، وهكذا اندفـــع الزراع الى زراعـــة القطن ، ومن ثم قل انتاج الحاصلات الغذائيـــة ، هذا بالاضـــافة الى ان قوات الاحتلال كانت تستولى على غالبية هذه الحاصـــلات وأصبح من العسير على الفقراء من أهل المدن الحصول على حاجاتهم الضرورية (٤) . واشتدت وطأة الغلاء على الطبقات الفقيرة والمتوســـطة ، وهم السواد الأعظم من الشعب ، فناضـــت

---

(١) عبد الرحمن الرافعى — ثورة سنة ١٩١٩ — الطبعة الثالثة ص ٤٠ — ٤٤ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى — مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتـــلال ص ٢٠٦ .

(٣) عبد الرحمن الرافعى — ثورة سنة ١٩١٩ جـ ١ ص ٥٤ .

(٤) John Marlowe, Anglo-Egyptians Relations 1800-1953, p. 224.

نفوسهم سخطا وحنقا ، وفى ذلك يقول اللورد ملنر فى تقريره عن اسباب ثورة سنة ١٩١٩ : « .. ان اسعار الأشياء ارتفعت فى مصر ارتفاعا متواليا لم يسبق له مثيل ، ولا سيما اسعار الحاجيات كالحبوب والأقمشة والوقود ، فثقلت وطأتها على الفقراء ، ولا سيما ان اجورهم لم تكن لتكفى النفقات التى يقتضيها غلاء المعيشة ، فى حين انهم كانوا يرون عددا من مواطنيهم ومن الأجانب غير المحبوبين عندهم يجمعون الثروات الكبيرة ، فان عائلة مكونة من أربعة أشخاص ، رجل وزوجته وطفلين ، لم تكن تستطيع فى أوائل سنة ١٩١٩ الحصول على ما يكفيها من القوت الا بثمن يفوق بكثير متوسط الاجر وقتئذ . فهذه العوامل المختلفة فضت ولا ريب فى أواخر سنة ١٩١٨ الى الاستياء والقلق بين معاشر الفلاحين » .

واحتكرت الحكومة البريطانية بذرة القطن جميعها من محصول سنة ١٩١٧ بسعر أقل من سعرها الحقيقى ، كما اصيبت مصر بخسارة اقتصادية فادحة فى موسم سنة ١٩١٨ ، اذ احتكرت الحكومة البريطانية محصول القطن جميعه فى ذلك العام . واصدرت الحكومة المصرية بلاغا فى ١٣ مارس سنة ١٩١٨ عن هذا الاحتكار سوغته بقولها : « نظرا الى الأحوال الاستثنائية الناجمة عن الحرب والمتأثرة بها الآن تجارة القطن المصرى ولا سيما قلة بواخر النقل ... و مراعاة لضرورة الاحتفاظ بما للامبراطورية البريطانية ولما للحلفاء من المواد الطبيعية سدا لحاجتهم الضرورية ، رأت حكومة صاحبة الجلالة والحكومة المصرية بالاشتراك ان تتخذ التدابير اللازمة لاحراز محصول القطن ابتداء من اول اغسطس سنة ١٩١٧ » .

ويدخل فى سياق الاسباب الاقتصادية للثورة ، مصادرة السلطة العسكرية لارزاق الناس وحاصلاتهم ومواشيهم ، ثم تخفيض مساحة الاراضى المنزرعة قطنا طيلة ايام الحرب توفيرا لمؤونة الجيوش البريطانية وجملة القول أن الاسباب الاقتصادية كان لها دخل كبير فى قيام ثورة سنة ١٩١٩ (١) .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى — ثورة ١٩١٩ جـ ١ ص ٥٧ — ٥٨ .

الأسباب الاجتماعية :

لا شك ان المجتمع المصرى سنة ١٩١٩ ، كان - رغم الاحتلال - اكثر تطورا عنه فى السنوات السابقة ، فان النهضة الأدبية والعلمية والصحفية والنهضة النسوية ، كل ذلك جعل المجتمع أكثر تطلعا الى المثل العليا واشد تبرما بالنظم الاستعمارية . وتجدر الاشارة الى ما كان للأدب والصحافة من فضل كبير فى بث الروح الوطنية فى نفوس الشعب ، فان الأدباء عامة ، والشعراء بوجه خاص ، ناصروا الحركة الوطنية وغذوها بقصائدهم ومقالاتهم ، وسجلوا حوادثها البارزة ، وعبروا أصدق تعبير عن آمال هذا الشعب وآلامه ، ومن هنا صار المجتمع اكثر استعدادا لقبول الدعوة الى الثورة ، فان دعوة مصطفى كامل ومحمد فريد لاقت صدى لها فى بيئات محدودة ، فقد استجاب لها بعض الشباب المتحمس وفريق من المثقفين والأعيان ، ولكن غالبية الشعب ظلت بمنأى عن الحركة الوطنية . أما فى سنة ١٩١٩ ، فقد انضمت الى الحركة الوطنية فئات كانت من قبل بمعزل عنها كالموظفين والفلاحين ، وهذا لا شك راجع الى التقدم الاجتماعى .

حقا قد يكون الباعث المباشر لانضمام الموظفين الى ثورة ١٩١٩ هو استياؤهم من احتكار الانجليز للمناصب الحكومية الكبرى ، ولكن هذا لا يحول دون اعتبار هذه البواعث الشخصية من العوامل التى اذكت الروح الوطنية فى نفوس المصريين .

حقا ان اعيان البلاد كانوا - الا النادر - لا يميلون من قبل الى معارضة الحكومة بل كان همهم توطيد علاقتهم بالحكومة والحكام ، ثم جرفهم التيار ، فانضموا الى الحركة فى سنة ١٩١٩ ، ومهما قيل من ان انضمامهم اليها لم يخل من قصد الانتفاع الشخصى ورعاية مصالحهم عن طريق مسايرة التطور السياسى الجديد ، فان انضمامهم الى الحركة كان على اى حال مظهرا من مظاهر التقدم الاجتماعى للأمة .

أما عن الفلاحين ، فلم يكن احد يتوقع ان الفلاح البعيد بفطرته عن السياسة يندمج فى الثورة الى درجة خلع قضبان السكك الحديدية وقطع المواصلات وبذل الروح فداء للوطن .

وبلغ النضج السياسى والاجتماعى خلال الثورة حدا جعل المتظاهرين يحرصون على رعاية مصالح الاجانب حتى لا يستهدفوا لعدواتهم فكانوا يدعون دائما الى عدم التعرض لهم بسوء ٠ ومن مظاهر التقدم الاجتماعى مساهمة النساء فى هذه الثورة ، واشتراكهن بأقلامهن فى اذكاء الروح الوطنية ، وحثهن الرجال على التضحية ، وتأليفهن المظاهرات والجمعيات للتعبير عن شعورهن والمساهمة فى النهضة الوطنية ٠

وصفوة القول ان التقدم الاجتماعى كان له اثره فى اندلاع ثورة سنة ١٩١٩ (١) ٠

احداث الثورة :

لقد خرجت انجلترا منتصرة من الحرب الاولى ، وتزعمت العالم الاستعمارى ولم يكن من المتوقع ان يحقق المتطرفون الكثير من المطالب المصرية عن طريق العنف ، فكان من دواعى الحكمة ان يتقدم الصفوف المعتدلون ، وبخاصة من كان منهم على صلة طيبة بالسلطات الانجليزية قبل الحرب ، ومن هنا كان انفرد سعد زغلول بالزعامة فى أوائل الحركة وتمكنه من جعل الوفد المصرى هو الجبهة الوحيدة التى تبنت القضية الوطنية فى اعقاب الحرب العظمى ، وتسليم الجميع لسعد بالزعامة لم يكن أمرا عارضا ، بل هو نتيجة لاعتبارات كثيرة تتصل بحياة سعد اتصالها بقوة شخصيته وسابق مراسه بالامور السياسية ٠

نشأ سعد نشأة مصرية صحيحة فى الريف ودرس فى الازهر أيام الافغانى ومحمد عبده ، واشترك فى الثورة العرابية وعمل اثناءها محررا للوقائع المصرية مع محمد عبده ، وقد تقلد منصب وزير المعارف منذ عام ١٩٠٦ ، وفى عام ١٩١٠ تولى وزارة الحقانية (العدل) الا ان معارضته الصريحة الواضحة للسياسة الانجليزية لم تبدأ الا بعد انتخابه وكيلا للجمعية التشريعية بعد انتخابه عن دائرتين

لمزيد من التفصيلات أنظر :

(١) عبد الرحمن الرافعى - ثورة سنة ١٩١٩ جـ ١ ص ٦٤ - ٨٥ ٠

من دوائر القاهرة لعضوية الجمعية فى عام ١٩١٣ (١) .

وعندما اعلنت الهدنة بين الدول المتحاربة فى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، قدم سعد زغلول وكيل الجمعية التشريعية وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى عضوا الجمعية التشريعية بوساطة وموافقة رشدى رئيس الوزارة حينذاك ، قدم هؤلاء طلبا لمقابلة المندوب السامى البريطانى فى يوم ١٣ نوفمبر (٢) ، وذلك للتحدث اليه فى طلب الترخيص لهم بالسفر الى لندن لعرض مطالب البلاد على الحكومة الانجليزية .

وفى ١٣ نوفمبر جرت المقابلة الشهيرة (٣) ، بين سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى من جانب والسير ريجنالد وينجت المندوب السامى البريطانى من جانب آخر ، وقد طلب المندوبون المصريون - بصفتهم نواب الأمة - اعتراف انجلترا باستقلال مصر ، ولم يشأ ونجت أن يلزم نفسه بشىء ، ولهذا لم يصدر عنه سوى التاييد لسياسة بلاده الاستعمارية والتهوين من امر المصريين والقول انهم غير جديرين بالاستقلال ، ثم ابدى لرئيس الوزراء حسين رشدى عدم اقتناعه بصفة الوكالة التى خلعها سعد زغلول وزميلاه على أنفسهم رغم كونهم جميعا اعضاء فى الجمعية التشريعية التى لم تزل قائمة قانونا .

لهذا طلب « الوفد » بعد المقابلة توكيلا من الأمة لمتابعة السعى للاستقلال بالطرق السلمية ، وكان المقصود فى أول الامر أن يوقع هذا التوكيل اعضاء الجمعية التشريعية ، ولكن لما كان الشعب كله مهتما بالقضية الوطنية فقد ارسلت نسخ التوكيل (١) الى شتى ارجاء البلاد ليوقعها

---

(١) د . احمد عبد الرحيم مصطفى - تاريخ مصر السياسى ص ١٠٥ - ١٠٦ .
(٢) د . جاد طه - الصراع الاستعمارى فى حوض النيل ٨٧ - ٨٨ .
(٣) نص الحديث - عبد الرحمن الرافعى - ثورة سنة ١٩١٩ ص ٦٦ - ٦٩ .
(٤) نص التوكيل عبد الرحمن الرافعى - ثورة سنة ١٩١٩ ص ٧٣ .

المواطنون جميعا . وساعد حسين رشدى على توقيع نسخ التوكيل حين أصدر التعليمات الى مديرى المديريات بعدم التعرض لها ، دون أن ينحنى أمام محاولة السلطات الانجليزية احباط الحركة ، بعد أن تبينت انها توشك أن تكون أساسا لحركة عامة للمطالبة بالاستقلال التام . لهذا كان موقف حسين رشدى من العوامل التى ساعدت على التفاف الشعب حول « الوفد » .

وكان رشدى قد اعتزم ان يسافر الى لندن مع زميله عدلى يكن ليطرح المسألة المصرية على بساط البحث فى العاصمة الانجليزية ، وكان رشدى على تفاهم تام مع الوفد حول الخطة السياسية الواجب اتباعها فى ذلك الظرف ، وهى تقضى بتوجه ممثلى الحكومة المصرية القائمة الى لندن ، وتوجه أعضاء الوفد الى حيث شاءوا (١) .

وعندما طلب سعد من القيادة العسكرية الانجليزية فى مصر الترخيص له بالسفر الى لندن مع وفده - فقد كان السفر الى الخارج لا يسمح الا باذن من السلطة العسكرية - كى يناقش مع الحكومة البريطانية المطالب المصرية ، ما كلت السلطات البريطانية فى قبول مطالب زعماء الوفد وأشارت عليه بتقديم مقترحاته الى المندوب السامى البريطانى .

فاقترح رشدى رئيس الوزراء ان يسافر هو وعدلى الى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية حول مستقبل مصر السياسى ... فرفضت هذه الدعوة بدورها ، فقضى ذلك على البقية الباقية من صبر رشدى الذى قدم استقالته للسلطات وتبعه عدلى يكن .

وعندما ووجه المندوب السامى باستقالة رشدى وعدلى ، قام بالاتصال بالحكومة البريطانية وحصل على موافقتها على ذهاب رشدى الى لندن ، وقد تحقق رشدى من أن أية امتيازات يستطيع الحصول عليها من لندن ستجعل الفرصة ضعيفة لتهدئة عاطفة الوطنيين ما لم يشترك سعد

---

(١) د . احمد عبد الرحيم مصطفى - تاريخ مصر السياسى ص ١٠٧ - ١١٠ .

فى مباحثاته مع الحكومة البريطانية (١) ، ولذلك أوصى المندوب السامى بوجوب السماح لشعراوى فى مرافقة رشدى الى لندن ، وأن الحكومة البريطانية تحسن صنعا فى هذه المناسبة فتستمع الى نصيحته ، فلم يجب المندوب السامى الى طلبه ، وعلى ذلك قدم رشدى - الذى كان قد سحب استقالته السابقة مع عدلى - استقالته مرة أخرى مع حكومته فى أول مارس سنة ١٩١٩ .

وكان قبول استقالة رشدى ايذانا بازدياد التوتر السياسى فى البلاد ، فقد شارك رشدى الشعب شعوره وأزر الوفد فى موقفه ، وقد ادى قبول استقالته الى تفشى الاعتقاد بأن مصر مقبلة على وزارة جديدة قد تقبل الحماية البريطانية (٢) .

وقام الوفد فى تلك الاثناء بارسال احتجاجات الى معتمدى الدول الاجنبية فى مصر واشهدهم على المعاملة الجائرة التى تعامل بها مصر ومبلغ الظلم الذى يصيبها من المطامع الاستعمارية . وهكذا رات السلطة البريطانية فى هذه الاحتجاجات المتوالية تشهيرا بها وبتصرفاتها، وفى يوم ٦ مارس سنة ١٩١٩ استدعى الميجر جنرال وطسن قائد القوات البريطانية فى مصر بالنيابة رئيس الوفد وأعضاءه وأنذرهم بالويلات ان هم استمروا فى تقديم هذه الاحتجاجات الى معتمدى الدول . الا أن سعدا لم يتراجع ، بل أرسل فى اليوم نفسه برقية احتجاج على هذه المعاملة الجائرة الى رئيس الوزراء البريطانية (٣) .

وهكذا رات السلطة البريطانية اصرارا من الوفد على موقفه ، فنفذت فى يوم ٨ مارس ما هددت به ، والقت القبض على سعد زغلول وثلاثة من صحبه هم محمد محمود واسماعيل صدقى وحمد الباسل ، وساقتهم الى ثكنات قصر النيل ثم جزيرة مالطة التى اختارتها السلطة منفى لهم ومعتقلا (٤) .

---

(١) د . جاد طه - ثورة ٢٣ يوليو ص ١١٦ .
(٢) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى - المصدر السابق ص ١١١
(٣) عبد الرحمن الرافعى - ثورة سنة ١٩١٩ ص ١١٢ - ١١٤ .
(٤) د . جاد طه - المصدر السابق ص ١١٧ .

وكانت عمليه الاعتقالات هذه هي السبب المباشر في اندلاع الثورة ، ففي اليوم التالي مباشره لعمليه الاعتقالات ، ترك الطلبة مدارسهم وتظاهروا في الشوارع ، وفي ١٢ مارس أصبحت منطقة الدلتا كليا في حالة ثورة شاملة فاقتلعت القضبان الحديدية وقطعت أسلاك التليفون ، واشعلت النيران في المباني ، واضطرت القوات البريطانية الى اطلاق الرصاص على المواطنين في طنطا ٠ وفي ١٥ مارس انتقلت الاضطرابات الى الصعيد ٠ وفي ١٨ مارس قتل ثمانية من الجنود البريطانيين في قطار كان متوقفا في محطة ديروط"(١) ٠

وهكذا عمت الثورة أرجاء البلاد جميعا دون أن تكون هناك لجنة منظمة لها أو جماعة توجهها وتشرف عليها بل أنها شملت البلاد فجأة وعلى غير انتظار ، واشتركت فيها طوائف المصريين وطبقاتهم جميعا. فاشترك فيها الموظفون والطلبة والمحامون والفلاحون والعمال والتجار والوزراء والاعيان ، بل أن نساء المدن اشتركن في المظاهرات وقدمن الاحتجاجات ، مما لم يسبق له مثيل في بلد اسلامي آخر ٠

ونتيجة لاحداث الثورة ، اصدر القائد البريطاني العام انذارا يتوعد فيه كل من يتلف أو يشرع في اتلاف خطوط المواصلات الحديدية أو البرقية او التليفونية بالاعدام رميا بالرصاص ، وأعلن أن كل حادث جديد من حوادث التدمير لمحطات السكك الحديدية سوف يعاقب عليه باحراق القرية التي هي أقرب من غيرها الى مكان التدمير (٢) ٠

وأخذت الداوريات البريطانية المسلحة تجوب البلاد ، كما استخدمت الطائرات الحربية في قصف الشعب الاعزل ، ورغم ذلك ، وفي فترة قصيره ثبتت الثورة أقدامها في كل نواحي القطر ، وأخذت تزداد عنفا يوما بعد يوم ٠٠٠٠ فقد امتدت حوادث الصدام من ابريل الى اغسطس وتجددت من أكتوبر حتى ديسمبر ، وبلغت خسائر المصريين نحو ٣٠٠٠ قتيل و ١٦٠٠ جريح ، كما حكم على ٣٧٠٠ بأحكام مختلفة ٠

---

(١) John Marlowe, op. cit., p. 235.

(٢) د ٠ احمد عبد الرحيم مصطفى — المصدر السابق ص ١١١ — ١١٢

وفى تلك الاثناء انزعج المستر لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية للأخبار القادمة من مصر ، فعين الجنرال السير ادموند اللنبى مندوبا ساميا خاصا بدلا من السير ريجنالد وينجت ، فوصل الى مصر فى ٢٥ مارس مع لجنة للسيطرة على جميع الشئون الحربية والمدنية ، ولاتخاذ جميع التدابير التى يعتبرها ضرورية ومناسبة لاقرار القانون والنظام والاشراف على جميع الشؤون التى تتطلبها ضرورة ابقاء الحماية البريطانية فى مصر (١) .

وفى ٧ ابريل أعلن المندوب السامى الجديد فى تصريح له أن سعد زغلول وزملاءه سوف يفرج عنهم من معتقلهم في مالطه ، وسوف يسمح لهم أيضا بالتقدم بمطالبهم أمام أية جهة يريدونها (٢) .

وهكذا سافر وفد برياسة سعد الى باريس لمحاولة التأثير على الدول الاعضاء فى مؤتمر الصلح ، الا أن الوفد فوجىء بمجرد وصوله الى باريس باعتراف الولايات المتحدة والمانيا بالحماية البريطانية على مصر . ولذلك وجد زعماء الوفد لدى وصولهم الى باريس جميع الابواب مغلقة فى وجوههم خاصة بعد أن اعترف الرئيس الامريكى ويلسون - الذى كان قد اعلن مبادئه الاربعة عشرة وضمنها حق تقرير المصير - بالحماية البريطانية على مصر (١) . ولذلك اقتصرت مهمة الوفد عند حد الدعاية لقضية مصر فى محيط كان كل من فيه مشغولا بمشاكله الخاصة ، وقد ذكر سعد زغلول فى برقية الى عبد الرحمن فهمى - رئيس اللجنة التى كانت قد تالفت فى القاهرة لجمع التبرعات لتغطية نفقات الوفد فى باريس ، ولجمع معلومات عن الموقف فى مصر وارسالها الى الوفد ليستخدمها فى الدعاية للقضية المصرية - يقول فيها « منذ وصولنا الى باريس وجدنا جميع الابواب موصدة فى وجوهنا - كل الجهود والمساعى لم تؤد الى نتيجة » .

---

(١) John Marlowe, op. cit., p. 235

(٢) د . جاد طه - الصراع الاستعمارى ص ٩٠ .

(٣) John Marlowe, op. cit., pp. 236-237.

وكان على الوفـد أن يطرق الأبواب الأخرى غير الموصدة ، كالمجالس والهيئات العـامة والجرائـد والرأى العـام ، كمـا ظل الوفـــد يعـلق الآمال على موقف برلمانات دول الحلفـاء لاسيمـا الكونجرس الأمريكى بسبب موقفه المعـارض بصفـة عامـة لمعـاهـدة فرساى ، ولكن كـان من المؤكـد أن الأمـل فى الموقف الدولى قـد انقطـع تماما ، وأن المسألة المصريـة ينبغى أن تحل فى أرض مصر وحدهـا .

ولم يكن يقلق الانجليز وجود الوفد فى باريس نتيجة للاسباب السابقة، وخاصة بعد أن ضمنوا اعتراف معظم الدول بحمايتهم على مصر ، وانمـا كان مصدر قلقهم الوحـدة الوطنيـة وكيفية ضرب هذه الوحـــدة وتشتيتها

ولما قلت مظاهر العنف التى اتسمت بها الثورة فور قيامها ، رأت انجلترا أن الوقت قد حان لتحقيق الشطر الثانى من التعليمـات التى خلف اللنبى تنفيذهـا أى « استمرار الحمايـة على أساس وطيد مشروع » ولكى يتسنى لهـا ذلـك قررت أن تحقق أسباب سخط المصريين ، فرأت ارســال بعثة يرأسهـا اللورد الفـرد ملنر وزيـر المستعمرات للتحقيق فى أســـباب الاضطرابات التى نشبت ، وأن تقدم تقريرا عن حالة مصر وعن شـــكل القـانون النظامى الذى يعـد ـ تحت الحمايـة ـ خير دستور « لترقيـة أسباب السـلام واليسر والرخـاء فيهـا ، ولتوسيـــع نطاق الحـــــكم الذاتى فيهـا توسيعا دائـم التقدم والرقى ، ولحمايـة مصالـح الأجانب » .

وفى ١٤ نوفمبـر ، نشرت دار الحماية بلاغـا رسميـا اعلنت فيه قرب قدوم لجنة ملنر ، وحددت مهمتها بانهـا لاقتراح النظـام السياسى الذى يلائم مصر تحت الحمايـة ، فـرد الحزب الوطنى على ذلك بمبدئه المشهور « لا مفاوضــة الا بعـد الجـلاء » وأعلن تمســكه بالاستقلال التام .

وعلى إثـر صدور بلاغ دار الحمايـة ، قامت المظاهـرات فى القاهرة ، وما لبثت أن عمت أحياء المدينة هاتفـة بالاستقلال وبسقوط لجنة ملنـر ، وما لبثت المظـاهرات أن عمت أرجـاء القطـر من جديـد متسمـة بطـابع العنف الذى اتســمت به الثورة منذ بدايتهـــا ، ممـا أدى الى ازديـاد

عدد الضحايا ٠

ووصلت لجنة ملنر فى ٧ ديسمبر سنة ١٩١٩ الى بور سعيد ، ثم انتقلت بقطار خاص الى القاهرة يتقدمه قطار كشاف لحراسته ، كما تحرسه أيضا خمس طائرات حربية ٠٠ وكان اجماع الشعب بكل طوائفه وطبقاته رائعا فى مقاطعة هذه اللجنة ٠ ولم تجد محاولاتها فتيلا للتحدث الى المصريين أو الاتصال بهم أو حتى بقادة الرأى من الرسميين الذين وجدوا لانفسهم مخرجا من الاتصال باللجنة بحجة ان سبيل الاتصال الوحيد بالمصريين هو عن طريق وفد مصر برياسة سعد زغلول والمقيم فى باريس ، ومن المستحيل ان يكون هناك اتصال ما بأية هيئة اخرى عداه ٠ ونتيجة لهذه المقاطعه ابحرت اللجنة الى انجلترا فى مارس سنة ١٩٢٠ ، وهكذا عاد ملنر الى انجلترا وهو يؤمن بأن لا سبيل للتفاهم وبحث المسألة المصرية الا مع الوفد المصرى ، وان لم يشأ ان يدلى برأيه علنا وهو فى مصر حتى لا ينقص من هيبة أو كبرياء الامبراطورية فى النزول على رغبة المصريين (١) ٠

وفى محاولة ضرب الوحدة الوطنية ، عمد اللورد اللنبى الى تكليف احد المسيحيين المصريين بتأليف الوزارة فى تلك اللحظات التى اجمعت الأمة رايبها فيها على مقاطعة لجنة ملنر ، ومقصد الانجليز من ذلك ضرب الحركة فى اقوى مراكزها ألا وهى وحدة الامة ، تلك الوحدة التى كانت من اروع مظاهر ثورة سنة ١٩١٩ ، ورد المصريون على ذلك بأن عينوا احد المسيحيين رئيسا بالنيابة للجنة التى كانت تتولى تنظيم الحركة الوطنية ٠ وفى رسالة من عبد الرحمن فهمى الى سعد زغلول فى ٣ ديسمبر سنة ١٩١٩ جاء فيها : « لقد أراد الانجليز باسناد مركز الرئاسة الى يوسف وهبه باشا معللين النفس ان يكون هذا سببا من اسباب نفور العلائق بين عنصرى الامة الأصليين ، ولذلك اجمعنا رأينا على اختيار قبطى تسند اليه مركز الوكيل ليترأس اللجنة

---

(١) عبد الرحمن الرافعى — ثورة سنة ١٩١٩ ج ٢ ص ٩٦ ٠

رادين بذلك كيد المتسلطين الى نحرهم ولنثبت لهم ان هذه السفاسف اصبحت بعيدة عن افكارنا ، وان مبادئنا وطلباتنا القومية لا يمكن ان يقف امامها اى عائق » كما اسرع قادة الحركة الوطنية باتخاذ الكنيسة المرقسية مركزا من مراكز الثورة .

وفشلت مناورات الانجليز فى وضع يوسف وهبه فى الوزارة فى تحقيق آمالهم ، كما فشلت مناورتهم ايضا فى تألف حرب جديد مهمته مقابلة لجنة ملنر يتالف من بعض المرتبطين بهم والمعادين للحركة الوطنية .

وما أن وصل ملنر الى بلاده حتى اتصل بالوفد المصرى فى باريس وابلغه رغبته فى مفاوضته دون قيد او شرط . وكان سعد زغلول هو الشخص الوحيد فى مصر الذى يستطيع الاتصال باللجنة دون ان يعتبر خائنا .

واذا كانت لجنة ملنر قد فشلت فى القاهرة ، فان فشل الوفد المصرى فى باريس اضطره الى قبول مفاوضتها بعد عودتها الى لندن (١)

قام الوفد اذا بتلبية دعوة ملنر لاجراء المفاوضات ، وخلال مجرى المفاوضات اعلن سعد انه غير قادر على الموافقة على اية مقترحات دون استشارة الراى العام فى مصر ، وبناء على ذلك وضعت مذكرة تحتوى على رؤوس الموضوعات التى ستكون بريطانيا مستعدة للمفاوضة على اساسها من اجل عقد معاهدة . وعندئذ غادر لندن اربعة من اعضاء الوفد الى مصر ومعهم المذكرة لعرضها على الراى العام الوطنى .
وكان من المتفق عليه ان تنص المعاهدة المرجوة على النقاط الآتية :

١ - حق مصر فى ان يكون لها تمثيل سياسى فى البلاد الأجنبيه .

٢ - حق انجلترا فى ان تبقى قوات على الأراضى المصرية .

---

(١) John Marlowe, op. cit., p. 241.

٣ - موافقة انجلترا على اختيار مستشار مالى .

٤ - موافقة انجلترا على اختيار مستشار قضائى .

٥ - حق انجلترا فى التدخل لحماية الاجانب من تطبيق القوانين التى كانت الامتيازات الاجنبية تحتم موافقة الاجانب عليها .

٦ - ان يكون لممثل انجلترا مركز خاص فى البلاد .

٧ - موافقة انجلترا على انهاء خدمات الموظفين الانجليز والأجانب خلال عامين من تطبيق المعاهدة (١) .

ارسل سعد مشروع الاتفاق الى الأمة كما ذكرنا ، كما ارسل بيانا ذكر فيه انه مع اعتقاده أن المشروع غير واف بالمطالب المصرية الا أنه « يشتمل على مزايا لا يستهان بها » وان زملاءه فى المفاوضة لم يشاءوا رفضه على اعتبار أن الظروف الدولية قد تغيرت ، وأن مصر لم يشاءوا رفضه على اعتبار ان الظروف الدولية قد تغيرت ، وأن مصر على الهيئات اصر الحزب الوطنى على رفضه رفضا تاما ، ولكن الاتجاه العام كان اميل الى قبوله بعد تعديله على أساس « تحفظات » تحد من تدخل انجلترا فى شئون مصر بعد عقد المعاهدة ، ويلغى كل ما تشتمل عليه من تقييد استقلال مصر بمجرد زوال الاسباب الداعية الى ذلك .

ورفضت لجنة ملنر هذه التعديلات على اعتبار انها فتح لباب المفاوضات من جديد وتمسك الوفد بعدم الدخول فى المفاوضات الا على أساس التحفظات التى ابدتها الامة ، لأن المفاوضين المصريين شاءوا ألا ينتحروا على تعبير سعد نفسه ، وتوقفت المفاوضات عند هذا الحد . وعاد اعضاء الوفد الى باريس حيث لم تلبث ان نشبت بينهم الخلافات التى تطورت الى ما لا تحمد عقباه وتركت انطباعاتها السيئة على الحياة السياسية المصرية .

---

(١) John Marlowe, op. cit., pp. 242-243.

على أن الحكومة الانجليزية لم تشأ أن تتوقف المفاوضات عند الحد الذى انتهت اليه ومن ثم طلبت من المندوب السامى فى مصر فى يناير سنة ١٩٢١ أن يبذل جهده لارسال وفد مصرى الى لندن للمفاوضه حول شروط المعاهدة ، فأجاب اللورد اللنبى أنه من الصعب تكوين وفد دون تصريح خاص عن نوايا الحكومة البريطانية من أن الحماية يجب أن تحل محلها معاهدة تحالف • وفى ٢٦ فبراير سنة ١٩٢١ أبلغت الحكومة البريطانية السلطان فؤاد برغبتها فى تبادل الآراء حول اقتراحات ملنر مع وفد يعينه السلطان للوصول الى استبدال الحماية بعلاقة تضمن المصالح الانجليزية ، وتمكنها من تقديم الضمانات الكافية للدول الاجنبية ، وتطابق الامانى المشروعة لمصر والشعب المصرى • وفى منتصف مارس عرضت الوزارة على عدلى فقبلها على ان يكون هدفه المباشر استئناف المفاوضات •

وبتشكيل وزارة عدلى بدأ الانقسام فى صفوف المصريين ، وهكذا ابتعدت الحركة القومية عن اهدافها ، ودخلت المسألة المصرية فى غمار المنازعات والخصومات الشخصية • وثار الخلاف بين سعد وعدلى على رياسة وفد المفاوضات ، وظلت معركة المهاترة محتدمة بين الوزارة وسعد قرابة شهرين ، انقسمت الامة أثناءهما الى سعديين وعدليين ، ولما كان سعد أقرب الى قلوب الجماهير ، بينما عدلى وزملاؤه تنفصل بينهم وبين الشعب حواجز عدة فقد كسب سعد الجولة وعنت اليه قلوب عامة المصريين ، ولكن يعاب عليه اسرافه فى الخصومة ، ولما كان هو معبود الجماهير وشيخ الساسة المصريين لجيل كامل ، فبامكاننا ان نحمله مسئولية قدر كبير مما شاب السياسة المصرية على يديه من اسفاف كانت له آثاره الوخيمة على الحركة الوطنية •

وأخطأ عدلى فى الاخر فى السفر مع وفد مفاوضات الى لندن فى هذا الجو المشحون بالخلاف ، وتمادى سعد فى خصومته ، فأرسل مكرم عبيد وحامد محمود الى انجلترا لنشر الدعاية فى الصحف الانجليزية ضد المفاوضين المصريين ، وتزويد اعضاء البرلمان الانجليزى بمعلومات تحرج مركز عدلى بقصد اثارتها فى المناقشات البرلمانية • ثم لم يلبث

سعد أن دعا اعضاء البرلمان الانجليزى من العمال للحضور الى مصر والنزول فى ضيافته حتى يتأكدوا من التفاف الشعب حوله (١) ٠

وكان لا بد من فشل مفاوضات عدلى - كيرزون فى هذا الظروف ، فقد استغل الانجليز الخلاف الناشب بين سعد وعدلى واسنطرا فى شروطهم ٠ وكان من الطبيعي أن تنقسم الامة الى سعديين وعدليين ، ولم يتردد سعد فى أن يصف عدلى وزملاءه من أعضاء التفاوض بأنهم « برادع الانجليز » وترددت الهتافات بأن الاحتلال على يد سعد خير من الاستقلال على يد عدلى ٠

وقد استقال عدلى بعد رجوعه من لندن ، وفى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢١ اعتقل سعد زغلول وبعض صحبه ونفوا الى عدن ومنها الى سيشل ٠ وبقيت البلاد بدون وزارة قرابة شهرين حتى وافق عبد الخالق ثروت على قبول الوزارة بشرط أن تعترف بريطانيا بمصر كدولة مستقلة (٢) وانشاء برلمان ، وأن يستبدل بالموظفين الاجانب موظفون مصريون ورفع الاحكام العرفية والدخول فى مفاوضات جديدة بعد تشكيل البرلمان لحل مسألة السودان ٠

اصبح الطريق ممتوحا حينذاك امام الحكومة البريطانية لاعلان انهاء الحماية والتمهيد للحكم الدستورى طبقا للتعهدات المعطاة لعبد الخالق ثروت ٠

وبعد نفى سعد زغلول ، كانت أمام المندوب السامى مشكلة كبرى تقوم على اقناع الحكومة البريطانية بتقبل جميع النتائج السابقة ، وبعد تبادل البرقيات - التى فى احداها عرض اللنبى استقالته - غادر المندوب السامى مصر الى انجلترا لتوضيح الموقف شخصيا لحكومته ٠ وفى آخر فبراير عاد اللنبى الى مصر بعد أن استخلص من الحكومة البريطانية تصريحا وضع نهاية رسمية للحماية وجاء فى تصريح ٢٨ فبراير سنة

---

(١) لمزيد من التفصيلات انظر ٠ د ٠ احمد عبد الرحيم مصطفى - المصدر السابق ص ١٢٤ - ١٣١ ٠

(٢) John Marlowe, op. cit., p. 246.

١٩٢٢ : « حيث أن حكومة جلالة الملك وطبقا لنواياها التى أعلنتها ترغب فورا فى الاعتراف بمصر دولة مستقلة ـ ذات سيادة وحيث أن للعلاقات بين حكومة جلالة الملك ومصر أهمية عظمى للامبراطورية لذلك تعلن المبادىء الآتية :

١ ـ انتهاء الحماية البريطانية على مصر ، وتعلن مصر دولة مستقلة ذات سيادة .

٢ ـ انهاء الاحكام العرفية التى اعلنت فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٤ .

٣ ـ والى ان يحين الوقت الذى يتسنى فيه ابرام اتفاقات بين حكومة جلالة الملك وبين الحكومة المصرية فى الامور الآتى بيانها بالمفاوضات الودية بين الفريقين تحتفظ حكومة جلالة الملك بتولى هذه الامور بصورة مطلقة :

(أ) تأمين مواصلات الإمبراطورية البريطانية فى مصر .

(ب) الدفاع عن مصر ضد اى عدوان اجنبى او التدخل المباشر وغير المباشر .

(ج) حماية المصالح الاجنبية وحماية الاقليات .

(د) السودان .

وحتى تبرم هذه الاتفاقيات يظل الحال فيما يتعلق بهذه الامور على ما هو عليه الآن » .

والف عبد الخالق وزارته فى اول مارس سنة ١٩٢٢ ، وبعد ذلك تالفت لجنة برياسة حسين رشدى لوضع الدستور ، ونتيجة للخلاف بين ثروت من ناحية والقصر والانجليز من ناحية أخرى قدم رئيس الوزراء استقالته وخلفه نسيم فى رياسة الوزارة . وفى ابريل عام ١٩٢٣ صدر الامر الملكى بالدستور فى عهد وزارة يحيى ابراهيم بعد أن افرجت الحكومة البريطانية عن سعد وصحبه (١) .

---

(١) جاد طه ـ المصدر السابق ص ٩٥ ـ ٩٦ .

وهكذا وعلى حد قول الرئيس جمال عبد الناصر « ... ضاعت ثورة سنة ١٩١٩ ولم تستطع ان تحقق النتائج التى كان يجب ان تحققها ، الصفوف التى تراصت فى سنة ١٩١٩ تواجه الطغيان ، لم تلبث الا قليلا حتى شغلها الصراع فيما بينها افرادا وطبقات ، وكانت النتيجة فشلا كبيرا ، فقد زاد الطغيان بعدها تحكما فينا ، سواء بواسطة قوات الاحتلال السافرة أو بصنائع الاحتلال المقنعة التى كان يتزعمها فى ذلك الوقت السلطان فؤاد وبعده ابنه فاروق ولم يحصد الشعب الا الشكوك فى نفسه ، والكراهية والبغضاء والاحقاد فيما بين افراده وطبقاته ، وشحب الامل الذى كان ينتظر ان تحققه ثورة ١٩١٩ (١) . ان ثورة سنة ١٩١٩ ألتى ولدت لجلاء المستعمرين عن أرض الوطن ترضى بدستور ١٩٢٣ بديلا عن اهدافها الكبرى .

تقييم ثورة ١٩١٩ :

اذا كانت ثورة ١٩١٩ قد وقفت عند ذلك الحد من اصدار تصريح ٢٨ فبراير أو وضع دستور شكلى للبلاد ، فانه من الانصاف أن نعرض لبعض النواحى التى تميزت بها تلك الثورة وهى :

١ - كانت ثورة ١٩١٩ أول حركة ثورية فى مصر تتخذ طابعا عنيفا منذ ثورة عرابى ، فقد تميزت الحركة الوطنية منذ الاحتلال حتى قيام ثورة ١٩١٩ باقتصارها على الوسائل السلمية التى شملت برامج الاحزاب السياسية أو عقد الاجتماعات والقاء الخطب وكتابة المقالات أو الدعاية للقضية الوطنية فى أوربا ، ولكن لجأ المصريون فى ثورة ١٩١٩ الى اسلوب جديد تميز بالعنف والثورة لتحقيق الاهداف .

٢ - اجبرت الثورة بريطانيا على ان تسلم للمصريين بحق المفاوضة معها رأسا بينما كانت قبل ذلك لا تأبه بالمصريين ، وتقرر وضعها فى مصر عن طريق التفاوض مع الدول الاجنبية .

---

(١) جمال عبد الناصر - فلسفة الثورة ص ٢٨ .

٣ - كانت الثورة سببا فى التقاء الشعب بكل طوائفه وطبقاته على هدف واحد ، ومن ثم كانت الثورة سبيلا الى الوحدة الوطنية .

٤ - تميزت ثورة ١٩١٩ بانها مست بعض النواحى الاجتماعية فقد خرجت المراة المصريه فى مظاهرات ١٩١٩ ، ١٩٢٠ مما دفع بقضية تحرير المراة دفعة قويه الى الامام وبدات تدخل فى مجال الحياة العامة .

٥ - اسفرت ثورة ١٩١٩ من الناحية الاقتصادية عن أهم حدث اقتصادى فى تاريخ مصر حينذاك وهو انشاء بنك مصر ، وقد تاسس البنك باسهم اسمية لا يحملها سوى المصريين ، وكان ضربة للاحتكارات الاجنبية .

٦ - لقد اثرت ثورة ١٩١٩ فيما يلى مصر من البلاد العربية ، فقد كانت اول ثورة تقوم فى بلد عربى ضد الاستعمار الاجنبى هذا على الرغم من انه لم يكن لتلك الثورة برنامج واضح نحو التعاون مع الحركات الثورية فى غير مصر من البلاد العربية .

٧ - ساعدت ثورة ١٩١٩ على نمو الطاقة العاملة ، فقد تالفت بعد الثورة الكثير من النقابات العمالية التى اسهمت به بدور كبير فى حركات الكفاح الوطنى .

هذه هى الجوانب التى للثورة ، اما ما ناخذه على ثورة ١٩١٩ ، هى انها بدات والبلاد متماسكة الصفوف ، ثم لم يلبث ان دب الشقاق وتكونت فى البلاد احزاب عديدة لا برامج ولا اهداف لها ، وقد تكونت هذه الاحزاب نتيجة لمنازعات شخصية ، فاصبحت عبارة عن جماعات ملتفة حول اشخاص لاهم لهم سوى الوصول الى الحكم باية وسيلة .

٢ - لقد كان من نتائج ثورة سنة ١٩١٩ حقيقة اصدار دستور ١٩٢٣ ، الا ان هذا الدستور كان دستورا شكليا ، وليست العبرة باصدار الدساتير ، ولكن بالروح التى تنفذ بها ، فلم يحدث لاى برلمان أن أكمل دورته البرلمانية . وعلى الرغم من ان صدور الدستور كان يعتبر خطوة تقدمية

هامـة ، الا أن الشعب لـم يستفـد منه شيئا ، بـل استفـاد منه الانجليز ، لانهم خرجوا من المعركـة التى كانت بينهم وبين الشعب مباشرة ، وبداوا من الخلف يراقبون مجرى الامور ، اى أنهم بمعنى آخـر تحولوا من اسلوب الحكم المباشر الى اسلوب الحكم غير المباشر . كمـا استفادت العناصر الجديدة التى كانت تتطلع الى الحكم والى كراسى النيابة فى مجالس النواب والشيوخ أو مناصب الوزارة ، كمـا استفاد الاقطـاع بتثبيت حقـــوق الملكيـة الخاصـة ، واعطائهـا قداسـة دستوريـة تمكنهـا من ممارسـة الاستغلال ، والذى لـم يستفد من هـذا الدستور هو الشعب الذى لم يتحقق له شىء بالرغم من انه هو صاحب الثورة وصانعهـا . ومنذ اصدار الدستور سنة ١٩٢٣ حتى عـام ١٩٥٢ لـم يتح للشعب ان يختار حكومـة شعبية منتخبة الا لفترات قصيرة لا تتجاوز فى مجموعهـا ثمانى سنوات ، امـا المدة الباقيـة فكانت تحكمه خلالهـا أحزاب الاقلية عن طريق تعطيل الدستور أو حتى الغائه أو تزييف الانتخابات .

الفصل الثامن

تطور مصر ١٩٢٢-١٩٥٢

تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢

ظلت مصر رغم اندلاع ثورة ١٩١٩ تحت الحماية البريطانية ، ورغم حوادث العنف والاغتيال والمظاهرات ومقاطعة البضائع البريطانية ، ورغم الانقسامات داخل حزب الوفد نفسه ، فقد ظل الاحتلال والقصر الملكى هما المسيطرين على الموقف لقوة الوسائل التى يمتلكها الطرفان فى ذلك الوقت . فالقدرة على القمع بالنسبة للاحتلال والقصر كانت أكثر فاعلية من حركة الجماهير .

وضع نهاية عام ١٩٢١ ظلت مصر بلا وزارة أكثر من شهرين الى أن فوتح عبد الخالق ثروت فى مهمة تاليفها ، فاشترط لقبولها عدة شروط .

لقد كان صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ثمرة للاتصالات التى أجراها ثروت وزميله صدقى مع السلطات البريطانية فى مصر ، وان كان الاساس فى ذلك يعود الى فكرة طرحها عدلى على كيرزون فى الجلسات الأخيرة من مفاوضتهما وهى أن تسلم انجلترا لمصر بالحقوق التى ابدت استعدادها لأن تسلم لها بها ، وعلى أن يعلق ما بقى من خلاف بين الدولتين لمفاوضات مماثلة ، على أن عدلى وان كان لم يتلق من كيرزون ما يفيد قبولها ، فانه قام بابلاغها الى السلطان وزميله ثروت بعد رجوعه مصر ، فكان أن اقتنع بها الأخير اللنبى وبأنها وحدها سخرة النجاة لمصر وانجلترا من موقف يتعذر الحكم بما يتمخض عنه من نتائج ، اذا لم يعالج بالحكمة والسياسة وبالتسامح من جانب بريطانيا (١) .

---

(١) محمد حسنين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ، جـ ١ ص ص ١٢٧ - ١٢٨ .

وليس هناك من شك فى أن ما ساعد على اقتنـــاع اللنبي والمستشارين الانجليز فى الحكومة المصرية هـو ما لمسـوه من أعراض المستوزرين عن تولى الوزارة الجديدة تحقيقا لما طالبتهم به الأمة ، مما جعل البلاد تبقى بغير وزارة مدة تزيد على شهرين ، حكمت فيها بريطانيا حكما مباشرا تحت ظل الأحـكام العـرفية ، وتحملت بالتالى المســئولية عن أعمال رجال الوفـد وضربات الفدائيين (١) • وفضلا عن ذلك نرى أن تعرض حياة الموظفين الانجليز فى مصر للخطر كان فى حد ذاته يضعف مركز بريطانيا فى مصر أمام الدول ، اذ يدل على عجزها عن حماية أرواح رعاياها فى مصر ، فما بال يكون الامر فيما يتعلق بأرواح الاجانب (٢) ، يضاف الى ذلك أن السلطات البريطانية فى مصر ، قد رأت أن الاعراض عن الوزارة بعد استقالة عدلى بضغط الوطنيين قد امتد ليشمل بعض الزعامات المعتدلة ، فضلا عن رفض عدلى الاستمرار فى الوزارة بعـد فشله فى مفاوضاته مع كيرزون • أعرض ثروت فى بادىء الامر عن قبول تشكيل الوزارة بعد ان كانت السلطات البريطانية قد نفت ســعد زغلول ، ليخلى له السبيل لتحقيق هذه الغاية ، اذ يذكر ابراهيم الهلباوى فى ذلك أن الانجليز قد نفوا سعد زغلول مرة ثانية الى جزائر سيشل مع ثمانية من أصحابه ، ثم نقلوه وحده الى جبل طارق ، ليسعى صاحب الدولة عبد الخالق ثروت باشا لان يشكل وزارة ، فرفض بتاتا وبعد الحاح متكرر ، وتوالى الايام والاسابيع والاشهر عرض شروطا لقبوله الوزارة (٣) • على أن ما نراه هنا أنه اذا كان ثروت قـد رفض فى بادىء الامـر عرض تشكيل الوزارة تحت وطـأة ذلك الضغط الشعبى المناوىء لتشكيل وزارة ، الا أن هـذا الاباء لم يطل به طويلا ، على نحو ما يستفاد من الذى ذكره الهلباوى ، بل ان الامر كان معدا لتوليه الوزارة خلفا لعدلى فاذا كان الاخير قد قدم استقالته فى ٨ ديسمبر . فقد كان الراجح ان خلفه ثروت ، وقد يتأكـد ذلك من تلك البرقية التى بعث بها اللنبى الى كيرزون يشير فيها الى حديث دار له مع عدلى فى ٧ ديســمبر ١٩٢١ بخصوص اعتزام الاخير تقديم استقالته الى السلطان ، وفى اليوم التالى

---

(١) حسين مؤنس : دراسات فى ثورة ١٩١٩ مسلســل اقرأ ع ٤١٨ - دار المعـارف ١٩٧٦ ص ٢٧٦ •

(٢) حسين مؤنس : المرجع السابق ، ص ٢٧٥ •

(٣) مذكرات ابراهيم الهلباوى ، ص ٤٧٠ •

لهذا الحديث عرض السلطان فى هذه الحالة رياسة الوزارة على ثروت ، والذى يقول عنه أنه كان يعانى من صعوبة من حيث البرنامج الذى يستطيع أن يتولى هذا المنصب ويؤلف الوزارة (١) . أى أن الاستعداد ـ كما هو واضح ـ كان موجودا لدى ثروت ، ولكن كان البرنامج الذى يمكنه من تولى المنصب ، هو وجه الصعوبة الوحيد ، ولعل مسألة القاوت العسكرية البريطانية ، ووضع البريطانيين والأجانب فى مصر ، كانت أهم ما يواجهه من عقبات فى سبيل تقديم برنامج يقوم من خلاله بتشكيل الوزارة ، وهو ما قد يتبين مما تذكره جريدة الاجيبسيان مايل فى برقية لمراسل التيمس بالقاهرة والتى يقول فيها « ان ثروت واصدقاءه لا يطلبون الآن تغييرا فى الموقف العسكرى ، أو فى الوضع الحالى للبريطانيين والأجانب فى مصر ، لأنهم يعلمون أنه ليس فى استطاعتهم اعطاء ضمانات يمكن أن ينفذها الشعب المصرى ، اذ أن سعد زغلول باشا نفسه فى عام ١٩٢٠ حينما تحدث من منطلق الشرعية التى كانت له ، شعر بأنه غير متيقن من امكان قبول الشعب المصرى مقترحات لورد ملنر » (٢) ، على أن مشروع كيرزون كما وضع كان على ما يبدو أهم تلك العقبات ، اذ صرح ثروت لوفد من الطلبة بأنه لن يوافق على الاطلاق على مشروع كيرزون كما هو قائم ، ولقد رأت جريدة الاجيبسيان جازيت التى وردت ذلك بأنه كان يتطلع الى ضمان تعديلات مرضية وتضيف بأنه تبعا للشائعات المستقاة من دوائر سياسية وطنية ، فانه يود الغاء الحماية فعلا واقامة برلمان للبلاد (٣) .

وعلى أية حال فان الامر لم يطل بثروت أمام ما كان يواجهه من صعوبات فيما يتعلق ببرنامج وزارته ، اذ لم يلبث أن عرض عليه اللنبى فى ١١ ديسمبر البرنامج الذى صرح باستعداده لتولى الوزارة بناء عليه . ولقد كانت النقطة الجوهرية فيما يقترح من الخطة السياسية كما يشير اليها اللنبى فى برقية بعث بها الى كيرزون كالتالى :

---

(١) 407 /191, No. Allenby to Curzon, December 7, 1921. Tel. No. 659, p. 80

(٢) The Egyptian Mail, No. 2870, February 20 th. 1922, p. 7.

(٣) The Egyptian Gazette 42nd Year, No. 120274, December 19, 1921, p.3

١ — الاقتصار من مذكرة ١٠ نوفمبر التى سلمت الى الوفد المصرى الرسمى على تعهد الحكومة البرطانية بانهاء الحمـــاية والاعتراف بمصر كدولة ذات سيادة ، ومع عدم استطاعة قبول المذكرة أو الاشـــارة على البلاد بقبولها ، فسيكون هم الوزارة معتمدة فى ذلك على موقف البلاد — أن تثبت لبريطانيا العظمى أن لا حـــاجة بها الى زيادة الضمانات ، او كثرتها ، اذ كان حســن نيـــة مصر ومصلحتها التى تتطلب احترام التعهدات المقدمة ، هى خـــير الضمانات للمصالح البريطانية والاجنبية الاخرى ٠

٢ — ولهذا الغرض تعتمـــــد الوزارة — ليس فقط على عـــدل القضية الوطنية — بل كذلك على روح الانصاف بين الام البريطانية ، وعلى التقدير العادل للمصالح المتبادلة بين البلدين ٠

٣ — والوزارة مقتنعة بأنه لن يكون ثمة عقبة فى المسـتقبل القريب فى سبيل اعادة النظام العادى فى مصر ، الذى يسمح بمنح دستور البلاد ، بضمن التعاون الجدى والفعال بين الحكومة وممثلى البلاد المنتخبين ٠

وتنوى الوزارة بفضـــل تاييد عظمتكم أن تضـــع مشروعا للاصـــلاح الدستورى ، لكى تعتمد فى مهمتها السياسية على تمثيل وطنى صحيح ، وتقوم سلسلة من الاصطلاحات الضرورية ٠

٤ — ترى الوزارة أنه قد حان الوقت لاعادة وزارة الخارجية التى عطلتها ظروف الحـــرب مؤقتا ٠

٥ — وأخيرا ، لما كانت الوزارة تدرك التبعية المترتبة على مهمتها ، فستقف نفسها على حمل ذلك العبء وادارة شئون البلاد وفق ما تقتضيه المصالح الوطنية وحـــدها ٠

٦ — واذا كانت الوزارة تعلم من عظمتكم النيات التى تنطوون عليه لخير البلاد ، فهى لا ترتاب فى أنها ستلقى من عظمتكم التاييد فى انفاذ هذا البرنامج وهى تعول كذلك على ثقة البلاد فى مهمة كهذه تدرك كل صعوباتها (١)

(١) F.O. 407/191, No. 45, Allenby to Curzon, December 12, Tel. No. 665, pp. 93,94.

الكتاب الأبيض (الانجليزى) ص ١٤ — ١٦ ٠ ترجمة ابراهيم المازنى. الطبعة الأولى ١٩٢٢ ٠

وإذا كان ثروت قد جعل الاساس الاول لهذا البرنامج الغاء الحماية وأعلان الاستقلال ، الا انه وعلى الرغم من أن مشروع كيرزون قد سمح بهما ، قد حاول أن يجعل من ذلك المطلب أمرا مقبولا للحكومة البريطانية ، وهو ما يتبين مما يذكره اللنبى عن النقطة الأولى من برنامجه من أنه « يرجو ان تجد حكومة جلالة الملك طريقة لالغاء الحماية فى المستقبل القريب ، وان كان لا ينتظر أن تفعل هذا حالا » . وكذلك فيما يتعلق بالنقطة الرابعة لم يبد أى اعتراض على تعيين من يخلف المستر كريج فى وزارة الخارجية ، ولا على أن تكون العلاقات بين الحكومة المصرية وممثل حكومة جلالة الملك على النحو الذى كانت عليه بينها وبين المعتمدين البريطانيين قبل الحرب (١) .

ولقد كان ثروت فيما يتعلق بهذه النقطة الأخيرة - وعلى نحو ما يرى احد الأقوال - على استعداد لقبول ظل من الاستقلال ، وذلك بالعودة للوضع الذى كان سائدا فى العلاقات الانجليزية المصرية المبكرة . ورأى أن فى ذلك يكمن الخلاف الجوهرى بين رؤية سعد زغلول لاستقلال مصر ، كما تطورت بعد عام ١٩٢٠ ، وتلك التى كانت للمعتدلين ، كما مثلت من خلال ثروت ، اذ كان الأول يرغب فى رؤية مصر حرة فى ادارة شئونها الداخلية والخارجية ، بدون أى تدخل من بريطانيا (٢) . على أن ثروت كان يرى مع ذلك أن هناك ما يشوب برنامجه اذ يذكر اللنبى أنه (ثروت) كان واثقا من استطاعته تاليف وزارة على قاعدته ، ويصر على أن توافق عليه حكومة جلالة الملك مقدما (٣) . فكان أن جاء رأى هذه الحكومة بالموافقة ، على أن كيرزون طلب الى اللنبى - فيما يتعلق بالنقطة الأولى ، تفاديا من كل سوء تفاهم - ملاحظة أن الحكومة البريطانية لم تقدم تعهدا بالغاء الحماية والاعتراف بمصر كدولة ذات سيادة ، وانما عرضت فقط انتهاج هذا السبيل باعتبار ذلك جزءا من مساومة رفضها الطرف الاخر (٤) . ولعل هذا الموقف من جانب الحكومة البريطانية فى مسالة الحماية ، من عدم اتخاذ قرار فعال فى شأن الغائها ، قد

---

(١) الكتاب الأبيض ، المصدر السابق ، نفس الصفحات .

(٢) Zayid, M., Egypt Struggle for Independence, p. 106.

(٣) الكتاب الأبيض ، المرجع السابق ، نفس الصفحات .

(٤) الكتاب الأبيض الانجليزى ، المصدر السابق ، ص ١٧ .

يفسر قبولها ما اقترحه عدلى من طريقة توصل الى الغاية المقصودة ، من وراء مشروعهما ، دون ن تتعرض للمسئولية عنه ، ان لم تكن بأزيد منه (١) . ى أنه لم يكن هناك ما يضيرها من وراء انتهاجها هذا السبيل ، بل انها - وكما رأينا - كانت حريصية على اعفاء نفسها من أى تعهد يلزمها .

وعلى أى حال يمكننـا القول أن ثروت قد مضى فى اتصـالاته من اجل تشكيل وزارة جديدة ، وكان الهدف الاساسى له هو أن يكسب لبلاده شروط معينة يحدد بها موقف السياسة البريطـانية من القضية الوطنية تحديدا صريحا . وان كانت هذه الشروط قد نظر اليها من جانب متطرفى الوفد على أنها مساومة غادرة بين الانجليز والسلطان وثروت باشا (٢) .

وكانت الشروط كالتـالى :

أولا : عدم قبول مشروع كيرزون والمذكرة التفسيرية الملحقة .

ثانيا : تصريح الحكومة البريطانية بالغاء الحماية ، والاعتراف باستقلال مصر بداءة ذى بدء .

ثالثا : اعادة وزارة الخارجية وتمثيل خارجى من سفراء وقناصل .

رابعا : انشاء برلمان من هيئتين (مجلس نواب ومجلس شيوخ) تكون له السلطة العامة على أعمال الحكومة وتكون الحكومة مسئولة أمامه .

خامسا : اطلاق يد الحكومة بلا مشارك فى جميع أعمال الحكومة .

سادسا : لا يكون للمستشارين فى الوزارات الا رأى استشـارى ، وان يبطل ما للمستشار المالى من حق حضور جلسات مجلس الوزراء .

سابعا حذف وظائف المستشارين ما عدا مستشار المالية ومستشار الحقانية ، فانهما يظلان الى ما بعد ظهور نتيجة المفاوضات الجديدة .

---

(١) مذكرات سعد زغلول محفظة ٥ كراس ٤٩ ، ص ٢٨٢١ - ٢٨٢٢ .

(٢) Richmond, Egypt 1798- 1952, Her Advance towards. a Modern identity, Great Britain, 1977, p. 186.

ثامنا : استبدال الموظفين الأجانب بموظفين مصريين وأخذ العدة من الآن لتعيين وكلاء مصريين للوزارات (المالية ، والصحة ، والزراعة ، والأشغال ، والمواصلات ، والخارجية) ٠

تاسعا : رفع الأحكام العسكرية ، والسعى من جانب الوزارة اعتمادا على حسن موقف الأمة ، فى سحب كل ما اتخذ من الاجراءات بمقتضى الأحكام العرفية ، بما فى ذلك فك اعتقال المعتقلين واعادة المبعدين ٠

عاشرا : الدخول فى مفاوضات جديدة بعد تشكيل البرلمان مع الحكومة الانجليزية بواسطة هيئة يعتمدها البرلمان ، للنظر فيما لا يتنافى مع استقلال البلاد ، من الضمانات لانجلترا والاجانب ولحل مسالة السودان ، بشرط ألا تكون هذه المفاوضات مقيدة بقيد أو شرط مما جاء فى مشروع كيرزون ، ويكون القول الفصل فى ذلك للأمة الممثلة ببرلمانها ٠

حادى عشر : يكون قبول هذه الشروط ثابتا بمقتضى وثائق مكتوبة من الحروف الانجليزية (١)

ولقد كان وضع ثروت لشروط لتاليف الوزارة ، واشتراط قبولها قبل أن يؤلفها كما يقول الرافعى ، سنة حميدة تدل على التقدم السياسى فى ولاية الحكم ، اذ كانت الوزارات فى عهد الاحتلال والحمايه بل وفى عهد الثورة تؤلف غالبا بغير برنامج ، لمجرد الرغبه فى تولى الحكم ، والتهافت على المناصب ، مما يجعل اشتراط ثروت أن يكون لوزارته برنامج يتقيد به ، ويضمن تحقيقه فى ذاته عمل محمود ، وهو الذى تمثل فيه بخطة عدلى ، اذ كان قد سبقه الى وضع برنامج لوزارته قبل أن يؤلفها (٢) ٠ على أن أحد مصادرنا يطالعنا بما يفيد ان شروط ثروت هى من وضع بريطانيا ، اذ يقول فى ذلك أن الانجليز قالو أنهم هم الذين استدرجوا « المعتدلين » الى هذه الشروط التى يؤلف أحدهم (ثروت) ، على أساسها الوزارة (٣) ٠

(١) الرافعى : فى أعقاب الثورة المصرية ، حـ ١ ص ٤٠ - ٤١ ٠

(٢) المرجع السابق ، والصفحة ٠

(٣) محمد صبيح : كفاح شعب مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، ص ٦٤٩ ٠

ويشير آخر بما يقترب من نفس المعنى حين يذكر أن الشروط التى اشترطها ثروت تكشف عن مدى استعداده للتعـــاون مع الخطة البريطانية ، وأنه بذلك عبر « عن اتجاهاته السياسية ، بما يمثل محور تعبير الرجعية » (١) كذلك رأت جريدة الأمة فى صـــدد تلك الشروط أن جملتها تعطى لانجلترا ما يعطيها مشروع ملنر ومشروع كيرزون ، من القواعد التى تصحح مركزها فى مصر (٢) . امـا جـريدة وادى النيل فقـد لاحظت تأييد اللنبى للوزارة التى كان ثروت يشرع فى تأليفها ، وأن هذا التأييد كان مبنيا على الاتفاق فى الخطـــة والغرض ، وإن غرض اللورد هو اقامة التســـوية على قـاعدة مشروع ملنر (٣) . على أن جريدة الاهرام قـد أطلت بنغمة مغايرة اذ قالت عن الشروط أنها شروط سياسى مصرى محنك ، مخلص لبلاده يريد بالفعـل أن يصـــل الى حل المســـألة المصرية حلا مرضيا اذ عدتها أقل شروط يمكن اشتراطها للمحافظة على كرامة مصر من غير أى مساس بشرف بريطانيــا العظمى وكرامتها (٤) .

وفى صـدد شروطه ، نفى ثروت فى حديث له مع أحد محررى جريـدة الليبرتيه ما قيل عن ابقائه بعض عباراتها طى الكتمان ، والذى أيده بعدم وجود مصلحة له فى ذلك . على أن ما أضافه يؤكد بالفعل صحة ما قيـل ، وهو ما يتبين من قوله أن « كل رجل سياسى يدرك أن التزام الكتمان التام كان أمرا لازما لنجاح المحادثات ، التى كنت قائما بها ، ولقد كنت أعلم أن هذا الكتمان يفرض لشكوك بعض الناس ولحماقة آخرين ، ولكن رغبتى الخالصة فى تحقيق أمانى بلادى جعلتنى أعرض نفسى لتلك الظنون ، ولا أبالى بالمخاطر ، أما الان فاننى أرى أنه قد حان الوقت لايقاف بنى وطنى على ثمار جهودى ولهم أن يحكموا بما يرون »

وعن سؤال للمحرر عن امكان التوفيق بين استقلال مصر التام وبين

---

(١) عبد العزيز رفاعى : ثورة مصر سنة ١٩١٩ ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .
(٢) الامة عدد ٥٧٠ ، فى ٥ فبراير ١٩٢٢ ، ص ٢ .
(٣) وادى النيل ، عدد ٣٧٩٩ ، فى ٣ فبراير ١٩٢٢ ، ص ٢ .
(٤) الاهرام : عدد ١٣٦٥٧ ، فى ٣١ يناير ١٩٢٢ ، ص ١ .

ابقاء الاحتلال ، أحال ثروت المحرر لرجال القانون (١) ، ولاحظ بما يفيد أن الدور الذى تعينـــــه البلاد لا يعدو أن يكون دور انتقال « حتى تنتهى بنا المفاوضات الى ابرام اتفاق » ثم أضـــاف الى ذلك قوله « ولا أخالك تجهل ان الاحتـــــلال من الضمانات التى تطلبها بريطانيا العظمى للمحافظة على مصالحها ومصالح الاجانب · وقد رفضت صراحة ن أرتبط بأى التزام فيما يختص بهذه الضمانات أو بالضمانات الاخرى · واشترطت أن مســـألة الضمانات بحذافيرهـــا تكون محلا للمفاوضــــات بين الحكومة المصرية وبين بريطانيا العظمى ، وأن تكون الكلمة الاخيرة فى نتائج هذه المفاوضات للأمة ولممثليهـــا » ·

« وفوق هذا فانني لم أتردد فى المجاهرة فى كل الاحاديث الرسمية ، بأنه ليس من مصرى يسمح لنفسه أن يوقع اتفاقا يؤيد احتلال البلاد « انني لما اشترطت انشـــــاء برلمان مصرى تنتخبه الامة ، أوضحت بصورة وافيه أن الغرض الذى أرى اليـــه هو أن يكون هذا البرلمان مستقلا تمام الاستقلال ، وان تكون له الرقابة على الحكومة التى تكون مسئولة أمـــامه » · « ومعنى هذا ان تكون حرية البرلمان فى العمل مطلقة من كل قيد ، وأن لا يكون خاضعا لأى نفـــوذ اجنبى » ·

ثم أشار فيما يتعلق بمسالة الامتيازات الى تضمنها مـــع المســـائل التى تتناولهـــا المفاوضــــات المقبلة ، وقال عن المذكرة البريطانية « أمـــا ما يقولون من أنه يلوح أن المذكرة البريطاسة الاخيرة صورة لا تكاد تختفى عن مشروع كيرزون ، فما شأن هذه المذكرة اذا أجيبت شروطى ؟ : » أن مـــا اطلبه صريح جلى ، ماذا سلمت وزارة الخارجية البريطانية فقد زال بذلك اثر المذكرة بطبيعة الحال » وعندى ان سمر اللورد اللنبى قد يؤثر فى السياسة الانكليزية فى مصر ، على ما اظن ، اذ أنه سافر الى لندن مدعوا لابداء رأيه فى الحـــالة الحاضره فى البـــلاد ، ويلوح لى ممـــا نبينته من احاديث فخامه المندوب السامى ، انه يؤيد شروطى ، بل هو فى جانبى تماما ، ولكن لا تخفى

---

(١) اخذت جريدة الامة على ثروت ذلك وهو فى طليعة رجال القانون ·
الامة · عدد ٥٧٤ ، فى فبراير ١٩٢٢ ، ص ٥ ·

عليك أن الكلمة الاخيرة فى هذا الشـــأن للندرة » (١) ٠

وعلى أى حـــال ، يمكننا القول أن ثروت كان مقتنعا تمام الاقتناع بشروطه ، ويرى فيها على ما بدا لنا السبيل الى الخروج من الازمة الوزاريه، اذ يذكر الهلباوى فى مذكراته أنه : قنع مستشـــارى الوزرات الست بمهارته وحسن أساليبه السياسية ، وكانوا قد اتصـــلوا به « بأنه لا يمكن اخضـــاع مصر وسير الحكم فيها على ما يرام بغير اجابة هذه الشروط » فكان أن بذل أولئك المستشارون جهدهم فى اقناع اللورد اللنبى بصحة هذه السياســـة التى يشير بها ثروت باشا ، وطلبوا اليه أن يكتب لوزارة الخارجية الانجليزية بقبولها ٠ (٢) وحينما اقتنع اللنبى بذلك انرأى كتب لوزارة الخارجية التى اثار الحاحه فى القبول استغرا بها (٣) ٠

على أن يفسر موقف اللنبى قول أحمـد شفيق أنه لما رأى أن لا مناص له من الاعتماد على ثروت باشا دعمه وأيده (٤) ، هذا فى الوقت الذى كـان يرى فى شروط ثروت أقل ترضية للأمة المصرية فى ثورتهـــا على الحمـاية والاحتلال » (٥) ٠ وعلى أى حـال انتهى الامر بالخارجية البريطانية الى الخروج من جمودها وأن كانت قد ظلت فى تردد ، اذ طلبت من اللنبى ومن معه أن يضعوا الصيغة التى تعلن بها بريطانيا تصريحا من جانبها ، يحتفظ بكافة مصالحها الجوهرية ، وتبيح لحكومة مصرية أن تقوم بعد أن يتحقق لمصر شىء من مطالبها ، ثم يبقى البـــاب مفتوحا للتفاهم على ما تبقى من مطالب ، وكان كل من ثروت وصدقى على اتصال باللورد اللنبى ومن معه ، فكانا « يعـاونان فى وضــع الصيغة التى تخرج بمصر وبانجلترا من مازق لم يكن له غير هذا المخرج ، الا أن تلجأ انجلترا للقوة المسلحة ، وتعود من جديد لتجربة الوزارات الادارية التى اخفقت من قبل اخفاقا ذريعا » ٠ على

---

(١) أحمد شفيق ، حوليات مصر السياسية ، تمهيد ٢ ، ص ٧٤٦ ـ ٧٤٩ ٠

(٢) مذكرات ابراهيم الهلباوى ، ص ٤٧١ ٠

(٣) المصـــدر الســـابق ، والصفحة ٠

(٤) أحمد شفيق ، المرجع السابق ، تمهيد ٣ ، ص ٧٠١ ٠

(٥) الرافعى : المرجع الســابق ، ص ١٢ ٠

ان الخارجية البريطانية استمرت فى ترددها بعد أن كان قد تم الاتفاق بين اللنبى والمستشارين البريطانيين من ناحية ، وثروت باشا وصدقائه السياسيين من ناحية أخرى « على صيغة التصريح الذى تعلنه بريطانيا » وهنا سافر اللنبى الى لندن وقال لمن كانوا فى توديعه عند سفره : اذا لم أعد بالنتيجة التى اتفقنا عليها ، فلن أعود الى مصر » (١) • ولقد صحب اللنبى فى سفره الى لندن والذى كان فى ٣ فبراير ١٩٢٢ كل من مستشارى الداخلية والحقانية ، جنرال كلبتون وسير شلدون اموس ، وكانا يتفقان معه فى الراى بقبول شروط ثروت ، ثم كان أن قابل اللنبى فى لندن المستر لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية ، واللورد كرزون وزير خارجيتها ، وقد تم تباحثهم فى الاتجاه الذى تتخذه السياسة البريطانية تجاه مصر ، فكان ان انتهت مباحثاتهم الى قبول شروط ثروت واعلان التصريح المعروف فى ٢٨ فبراير ١٩٢٢ (٢) على أن مهمة اللنبى فى هذا السبيل لم تكن على ما بدا لنا بالمهمة السهلة ، وهو ما يتأكد لنا من قول محمد حسين هيكل أنه أى اللنبى قد بقى « أياما فى العاصمة البريطانية ، استطاع فى أثنائها أن يقنع وزارة الخارجية البريطانية » (٣) ولعل ما ساعد اللنبى فى مهمته ما كانت تخشاه لندن من مقاطعة التجارة البريطانية ، فيذكر الرافعى « أن التهديد بمقاطعة التجارة البريطانية ، كان له « الاثر الاكبر فى صدور هذا التصريح ، لأن هذا أزعج أقطاب التجارة والصناعة ورجال السياسة فى انجلترا ، وخشوا اذا عمت حركة المقاطعة أن تصاب التجارة والصناعة البريطانية بالبوار فى مصر ، فعمدوا الى التسليم لمصر ببعض حقوقها المغتصبة » (٤) وليس هناك شك فى أن كافة العوامل السابقة كانت دافعة ببريطانيا الى طريق يوصل الى حل للازمة القائمة فى البلاد ، وهو ما قد يتأكد من قول كازون فى برقية أرسل بها الى اللنبى أن الحكومة أشد ما تكون رغبة فى الوصول الى حل سلمى للأزمة الحاضرة باقامة وزارة مصرية برياسة وزير له وطنية ثروت باشا ، واقتداره ، وهى لا ترى ان هذا يكون مستحيلا اذا كان رائد الاحزاب كلها فى عملها التقدير الواجب

---

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٨ - ١٢٩ •

(٣) الرافعى : المرجع السابق والصفحة •

(٤) محمد حسين هيكل نفس المرجع والصفحة •

(١) الرافعى : المرجع السابق ، ص ٤٣ •

لاحساسات الغير واعتقاداته ، ومع الرغبة الوطيدة فى ايجاد حل شريف لكل من مصر وبريطانيا العظمى على السـواء (١) ٠

وجملة القول أن اللورد اللنبى جينمـا أنهى مهمته فى لندن غادرها فى ٢٢ فبراير ١٩٢٢ الى مصر ، فكان ان وصـلها فى الثامن والعشرين فقابل السلطان عقب وصوله مباشرة ، وقدم له وثيقتين رسميتين ، أولاهما كتاب منه اليه ، والثانية التصريح المذكور سابقا ، موضوع حديثنا والذى بمقتضاه اعلنت بريطانيا انتهاء الحمـاية البريطـانية على مصر ، وأن تكون دولـة مستقلة ذات سيادة ، والغاء الاحكام العرفية التى أعلنت فى ٢ نوفمبر عـام ١٩١٤ ، حالما تصدر حكومة السلطان قانون التضمينات (اقرار الاجراءات التى اتخذت باسم السلطة العسكرية) لينفـذ على جميع سـاكنى مصر ، واحتفاظها بأمور أربعة الى أن يتسنى ابرام اتفاق بشـأنها مـع الحكومة المصرية ، وقد تمثلت تلك الامور فى النص على تأمين مواصلات الامبراطورية البريطانية فى مصر ، والدفاع عن مصر من كل اعتداء او تدخل أجنبى بالذات أو الواسطة ،وحماية المصالح الاجنبية فى مصر ،وحماية الاقليات ، والسودان٠ فرأت ابقاء هذه الامور على ما هى عليه ، حتى تبرم هذه الاتفاقات (٢) ٠ وقد تبين لنـا من بنـود التصريح أنهـا لم تخرج عن المبـادىء التى كانت سياسـة الحكومة البريطانية متمسكة بها اثناء وجـود الوفد الرسـمى للمفاوضات برئاسة عدلى بلندن ، حيث نرى أن الشروط التى طلبت الحكومة البريطانية الوفـاء بها لترفع عن مصر حمايتهـا والاعتراف بهـا دولة ذات سيادة وايجاد البرلمان واعادة وزارة الخارجية قد تم الاحتفاظ بها لمفاوضات مقبلة بين مصر وبريطانيا اللهم ما أضيف من الاعتراف بمصر كدولة مستقلة ذات سيادة ، وليس الاقتصار على القول بسيادتها فقط ، ولقد كان مجىء التصريح على هذا النحو مـا جعل سـعد زغلول يرى فيه مشروع كرزون « ان لم يكن اقل مزية منه للمصريين » ٠

---

(١) الكتاب الأبيض (الانجليزى) : ص ٤١ ـ ٤٣ ٠
(٢) الوقـائع المصرية » العـدد ٢٠ « غير اعتيادى » فى ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، محمد على علوية : ذكريات اجتماعية وسياسية ، ص ١٧٦ ـ ١٨ ٠ انظر نص التصريح ـ الرافعى فى أعقـاب الثـورة المصرية ج ١ ط ٢ ١٩٥٩ ص ٤٣ ، ٤٤ ٠

واكتفى بالقبـــول الضمنى ولبـــس الصريح (١) . كذلــك يــرى سعد زغلول فى صدد انتقاده لما اشتمل عليه التصريح بانه لا يصلح أن تكون نقطة الارتكاز فى المفاوضـــات الغاء الحمـاية والاعتراف بالاستقلال لان التصريح وقد نص على حـرية المفاوضـة بين الطرفين ، مما لا يتأتى معه للمفاوض المصرى أن يتمسك بهذا الالغاء ، ولا بهذا الاعتراف كذلك المفاوض الانجليزى لا يتأتى له أن يتمسك بالتحفظات » (٢) .

أما ثروت فقد كـان يرى التصريح خطوة لهـا مـا بعدها ، واستقلالا يتطلب الاستكمال (٣) . كذلك يرى زميله فى استصداره - اسماعيل صدقى - ان مصر اجتازت بمقتضاه طورا جديدا من اطوار حياتها السياسة ، وقطعت مرحلة من مراحل جهادها الوطنى كان لها اثرها ، وأن الحوادث دلت فيما بعد على أن التصريح ساعد مصر على دخول المفاوضات ، وأتـــاح للوزارة ان تبدأ عهدا جديدا ، وأن تضـــع لنفسها دســتورا على أحـدث المبادىء الدسـتوريـة ، وأن تتصرف فى ادارة شـــئونها كدولـة مسـتقلة ذات ســـيادة (٤) .

على أن الامر كان - بطبيعة الحال - مختلفا فيما يتعلق بحزب الوفد والحزب الوطنى ، اذ استنكره الوفـد وعـده نكبة وطنيـة (٥) ، ولم يكن هذا الموقف غريبا من الوفد بعد أن صدر التصريح فى غيبة زعيمه ، هذا فضلا عن ن الهيئة التى كانت تمثل الوفد فى غياب الزعيم ، والتى كانت مؤلفة من حمد الباسل ، وويصا واصف ، وعلى ماهر ، وجورج خياط ، ومرقس حنا ، وعلوى الجزار ، ومراد الشربعى ، وواصف غالى ، كانت قـد رفضت شروط ثروت مما يعنى أن الوفد « قد رفض مقدما تصريح ٢٨ فبراير » (٦) .

---

(١) المذكرات ، المصـدر السـابق ، ص ٢٨٢٢ .
(٢) المصـدر السابق ، ص ٢٨١٨ - ٢٨٢٠ .
(٣) الاهرام : عدد ١٤٣٤٢ ، فى ٢١ ابريل ١٩٢٤ ، ص ١ .
(٤) اسماعيل صـدقى : مذكراتى ، ص ٢٧ .
(٥) عبد العزيز رفاعى ، المرجع السابق ، ص ٢٧٧ .
(٦) حسين مؤنس : المرجع السـابق . ص ٢٧٨ .

ولقد ظل الوفد على رفضـــه الاعتراف بالتصريح ، كما أن زعيمه بعد الافراج عنه وعودته الى مصر لم ير ما يمنع من دخـول الانتخـابات على أساس الدستور ، الا ان ذلك كان دون قبوله للتصريح (١) .

كذلك لم يكن من الغريب للحـزب الوطنى ، والذى ينتهج سياســة اللامفاوضة الا بعد الجلاء أن يقف موقف الرفض من التصريح ، فيعلن عن هذا الرفض فى ٢ مارس ١٩٢٢ ، ويلتزم مبداه المعروف الذى يقوم على الجلاء أولا ثم المفاوضـات .

كذلك يتعرض ثروت ، وبسبب التحفظات التى اشتمل عليها التصريح، لمناهضة الغالبية الساحقة من الامة (٢) . وتظل تســوية تلك التحفظات مسألة المسائل فى السياسة المصرية ، وتتوالى عليها عدة مفاوضات رسمية يبدأها سعد زغلول فى صيف عـام ١٩٢٩ ، فمصطفى النحـاس فى ربيـــع عام ١٩٣٠ ، وكان ان انتهت الى نتيجة حاسمة بوضـع مشروع محمـــد محمود - هندرسون ، ثم المشروع المعدل له الذى انتهت اليه مفاوضات ربيع ١٩٣٠ ، على ان الاتفاق بشانه لم يتم بسبب الخلاف على تاجيل مســألة الســودان ، وبعض مســائل ثانوية أخرى (٣) . أمـا عن ثروت فيمكننا الانتهاء الى القول بانه قد تطلع من وراء المفاوضات التى اجراها مع الجانب البريطانى وانتهى اليهـا التصريح الى ايجــاد مخرج للمســألة المصرية البريطانية فى مصر ، تحقيقا لهدفين فى آن واحــد : ايجــاد مخرج للأزمة بها بعد فشل مشروع كيرزون ، والاثر السىء الذى أحدثته فى البلاد المذكرة التفسيرية التى الحقت به فى الوقت الذى وجدت فيه الســلطات البريطانية تســعى للاتفــاق خروجــا من الازمة الوزارية التى حدثت بالبـــلاد ، فلعل ثروت قد راى فى تلك الخطوة ، خطوة المفاوضــات مـع الســلطات البريطانية ، من ذلك الجمود الذى تردت فيه ، والذى كان يتوقع له ان يطول

---

(١) حسين مؤنس : المرجع السابق والصفحة .
(٢) احمد شفيق : حوليات مصر السياسية ، تمهيد ٣ ص ٣٠٣ .
(٣) محمد حسين هيكل : السياسة المصرية والانقلاب الدستورى ، ص ٩٠ .

الوزارية بتشكيل وزارة تتولى أمور الحكم والادارة فى البلاد ، ودفع المسألة المصرية البريطانية خطوة الى الامام من خلال ما قد ينتج عن التفاوض ، هذا فضلا عما كان يترتب على تحقيق الهدفين من استتباب الامن والهدوء فى البلاد ، على انه اذا كان الهدف الاول قد تحقق بأن تشكلت وزارة برئاسته بعد أن ظلت البلاد أكثر من شهرين بغير وزارة بعد استقالة عدلى ، واذا كان الهدف الثانى قد حقق لمصر اعتراف انجلترا لها بالغاء الحماية المفروضة عليها واستقلالها فان تقييد ذلك الاعتراف بالمسائل المتحفظ بها قد أفقده قيمته فى أعين غالبية المصريين ، وجعل منه محلا لمطاعن الوفد وحملاته عليه (٥) .

الدستور المصرى ١٩٢٣

اخيرا وبعد محاولات مستمرة صدر الامر الملكى بالدستور فى ١٩ أبريل ١٩٢٣ فى عهد وزارة يحيى ابراهيم باشا .

ولم يكن يتوقع أحد صدور الدستور فى ذلك الوقت لمعارضة الملك فؤاد لهذا الامر ، ولكنه وقعه تحت ضغط الحوادث . وقد لخص الرافعى قواعد ذلك الدستور فيما يلى : -

(١) قرر فى أول مواده أن مصر دولة ذات سيادة وهى حرة مستقلة وملكها لا يتجزأ ولا ينزل عن شىء منه ، وحكومتها ملكية وراثية وشكلها نيابى ، وفى المادة (٣٢) « أن عرش المملكة المصرية وراثى فى أسرة محمد على وتكون وراثة العرش وفق النظام المقرر بالامر الكريم الصادر فى ١٥ شعبان سنة ١٣٤٠ (١٣ ابريل سنة ١٩٢٢) » .

(٢) جميع السلطات مصدرها الامة (المادة ٢٣) .

---

(١) لمزيد من التفصيلات : انظر رسالة ماجستير غير منشورة ومحفوظة بمكتبة كلية الآداب جامعة عين شمس بعنوان عبد الخالق ثروت للباحثة مشرفة محمد أحمد المليجى وتحت اشراف د . جاد طه ١٩٨٤ .

(٣) قــرر مبدأ المساواة بين المصريين فهم لدى القانون ســـواء وهم متساوون فى التمتع بالحقوق المدنية والسياسية وفيما عليهم من الواجبات والتكاليف العامة (المــادة ٣) .

(٤) حق ولاية المناصب مقصور على المصريين ولا يولى الاجانب من هذه المناصب الا ما يعينه القانون فى أحوال استثنائية (المــادة ٣) .

(٥) الحرية الشخصية وحرية الاعتقاد وحرية الرأى مكفولة ولا يجوز القبض على ى انســـان ولا حبسه الا وفق أ-كام القانون (المواد ٤ و ٥ و ١٢ و ١٣ و ١٤) .

(٦) كفل حرية الصحافة وحظر الرقابة على الصحف ، ومنع انذارها او تعطيلها أو الغاءها بواسطة الادارة (المــادة ١٥) .

(٧) لا جريمة ولا عقوبة الا بناء على قانون (المادة ٦) .

(٨) حظر نفى أى مصرى من الديار المصرية (المــادة ٧) وحظر تسليم اللاجئين السياسين (المــادة ١٥١) .

(٩) قــرر حرمة المنــازل (المــادة ٨) .

(١٠) قـــرر حرمة الملكية فلا ينزع عن أحد ملكه الا للمنفعة العامة فى الاحوال المبينة فى القانون بشرط تعويضه عنه وحظر عقوبة المصادرة للأموال (المــادة ٩ و ١٠) .

(١١) التعــليم الاولى الــزامى ومجــانى للمصريين من بنين وبنـــات (المــادة ١٩) .

(١٢) قرر حق الاجتماع وتكوين الجمعيات (المــادة ٢٠ و ٢١) .

(١٣) القضاة مستقلون لا سلطان عليهم فى قضائهم لغير القانون وليس لأية سلطة فى الحكومة التداخل فى القضايا (المــادة ١٢٤) .

(١٤) يتكون البرلمان من مجلسين : مجلس الشـــيوخ ومجلس النواب . ويؤلف مجلس الشـــيوخ من أعضاء ينتخب ثلاثة أخماسهم ويعين الباقون

(الخمسان) ، ويؤلف مجلس النواب من أعضاء جميعهم منتخبون ، وعدد الشيوخ المنتخبين يكون بنسبة عضو عن كل مائة وثمانين ألفا من الاهلين ، وعدد النواب بنسبة نائب عن كل ستين ألفا ، ومدة عضوية الشيوخ عشر سنوات يتجدد نصفهم كل خمس سنوات ، ومدة عضوية النائب خمس سنوات (المواد ٧٤ وما بعدها) .

(١٥) يشترط فى النائب زيادة على الشروط المقررة فى قانون الانتخاب (١) أن تكون سنة ثلاثين سنة ميلادية كاملة على الاقل (المادة ٨٥) ، ويشترط فى عضو الشيوخ زيادة على الشروط المقررة فى قانون الانتخاب أن تكون سنة أربعين سنة ميلادية كاملة (المادة ٧٧) وأن يكون من الطبقات الآتية (أولا) الوزراء ، الممثلين السياسيين ، رؤساء مجلس النواب ، وكلاء الوزارات ، رؤساء ومستشارى محكمة الاستئناف أو أية محكمة أخرى من درجتها أو اعلى منها ، النواب العموميين . نقباء المحامين ، موظفى الحكومة من درجة مدير عام فصاعدا - سواء فى ذلك الحاليون والسابقون (ثانيا) كبار العلماء والرؤساء الروحيين ، كبار الضباط المتقاعدين من رتبة لواء فصاعدا ، النواب الذين قضوا مدتين فى النيابة ، الملاك الذين الذين يؤدون ضريبة لا تقل عن مائة وخمسين جنيها مصريا فى العام ، من لا يقل دخلهم السنوى عن الف وخمسمائة جنيه من المشتغلين بالاعمال المالية أو التجارية أو الصناعية أو بالمهن الحرة ، وذلك كله مع مراعاة عدم الجمع بين الوظائف التى نص الدستور أو قانون الانتخاب على عدم جواز الجمع بينها (المادة ٧٨) .

(١٦) الوزارة مسئولة أمام مجلس النواب فاذا قرر مجلس النواب عدم الثقة بها وجب عليها ان تستقيل واذا كان القرار خاصا بأحد الوزراء وجب عليه اعتزال الوزارة (المادة ٦١ و ٦٥) ، وللملك حق حل مجلس النواب ، واذا حل فى أمر فلا يجوز حل المجلس الجديد من أجل ذلك الامر (المادة ٣٨ و ٨٨) .

(١٧) الملك يتولى سلطته بواسطة وزرائه (المادة ٤٨) .

(١٨) لا يصدر قانون الا اذا قرره البرلمان بمجلسيه وصدق عليه الملك (المادة ٢٥) واذا لم ير الملك التصديق على مشروع قانون اقره البرلمان رده اليه فى مدى شهر لاعادة النظر فيه فاذا لم يرد القانون فى هذا الميعاد عدا ذلك تصديقا من الملك عليه وصدر • واذا رد مشروع القانون فى الميعاد المتقدم وأقره البرلمان ثانية باغلبية ثلثى الاعضاء الذين يتألف منهم كل من المجلسين صار له حكم القانون وأصدر ، فان كانت الاغلبية أقل من الثلثين امتنع النظر فيه فى دور الانعقاد نفسه ، فاذا عاد البرلمان فى دور انعقاد آخر الى اقرار ذلك المشروع باغلبية الآراء المطلقة صار له حكم القانون وأصدر (المواد ٢٥ و ٣٥ و ٣٦) •

(١٩) لا يجوز لأية حال تعطيل حكم من أحكام الدستور الا أن يكون ذلك وقتيا فى زمن الحرب أو أثناء قيام الاحكام العرفية وعلى الوجه المبين فى القانون (المادة ١٥٥) •

(٢٠) يختص كل مجلس بالفصل فى صحة نيابة أعضائه ولا تعتبر النيابة باطلة الا بقرار يصدر باغلبية ثلثى الاصوات (المادة ٩٥) •

(٢١) يدعو الملك البرلمان سنويا الى عقد جلساته العادية قبل يوم السبت الثالث من شهر نوفمبر فاذا لم يدع الى ذلك يجتمع بحكم القانون فى اليوم المذكور (المادة ٩٦) (١) » •

وهكذا وبعد صدور الدستور ، افرج عن المعتقلين وصدر قانون الانتخابات ، وانتهت الاحكام العرفية • واجريت الانتخابات ، وانتهت هذه الانتخابات بفوز حزب الوفد باغلبية كبيرة وكان طبيعيا أن يعرض الملك على سعد زغلول تاليف الوزارة فى ٢٨ يناير ١٩٢٤ •

وتم افتتاح البرلمان فى ١٥ مارس ١٩٢٤ ، واقسم الملك اليمين الدستورى ، والقى سعد خطاب العرش طبقا للدستور •

---

(١) نص الدستور – الرافعى – فى أعقاب الثورة المصرية ص ٣١١ – ٣٢٧ •

أزمة ١٩٢٤ فى مصر والسـودان

كونت جماعة من الشباب المتحمس جمعية سرية أطلقت عليها أسم جمعية الفدائيين ، ورأت أن استقلال مصر لا يمكن تحقيقه الا بالاعمال العنيفة والاغتيالات السياسية ٠ وبدأت هذه الجمعية أعمالها بقتل السير لى ستاك سردار الجيش المصرى (١) الذى توفى فى يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٢٤ متاثرا بجراحه الناتجة عن اطلاق الرصاص عليه ٠

واحس سعد زغلول رئيس الوزراء حينذاك ، بخطورة الموقف فأعلن عن اسفه وأسف حكومته لما حدث ، وفعل الملك فؤاد نفس الشىء (٢) ٠

وقد رأت بريطانيا أن تستغل هذه الحادثة لتنفيذ أدوارها المرسومة فى وادى النيل ٠٠ فرأت أن تتخلص من الوجود المصرى فى السودان على أساس أن هذا الوجود هو الذى سبب المتاعب للبريطانيين فى السودان فى ذلك الوقت ، فمنذ ٨ مايو ١٩٢٤ أرسل حاكم عام السودان الى المندوب السامى فى مصر يخبره بعرامة الدعاية المصرية فى السودان ضد الانجليز حتى أن العناصر الوطنية السودانية نفسها أصبحت تنادى بأن مصر والسودان وطن واحد ٠

وكان على رأس الحركة الوطنية السودانية بعض العسكريين السودانيين كالملازم أول على عبد اللطيف الذى أسس جمعية اللواء الابيض فى بداية سنة ١٩٢٤ فى الخرطوم ، والتى كانت ترمى الى اشتراك السودانيين فى كفاح وادى النيل ضد الاستعمار البريطانى كما كان من زعماء هذه الحركة ايضا اليوزباشى محمد صالح جبريل والملازم أول على زين العابدين وضباط آخرون ٠

---

(١) أحمد شفيق - حوليات مصر السياسية - الحولية الثانية (١٩٢٥) ص ٤١٢ ٠

(٢) المصدر السابق - الحولية الاولى (١٩٢٤) ص ٣٦٦

وقد استثار الحاكم العام الانجليزى للسودان الحركة الوطنية السودانية عندما استكتب بعض الشخصيات السودانية عرائض التأييد للحكم الانجليزى ، وأدى هذا الاستفزاز من جانب الحاكم العام الى قيام جمعية اللواء الابيض بمظاهرات كبيرة فى أم درمان وعطبرة وبور سودان وغيرها . وقد واجهت السلطات البريطانية هذه المظاهرات بالقمع الشديد ، وقدم زعيم الجمعية على عبد اللطيف للمحاكمة ومعه بعض الضباط المصريين بتهمة التحريض على المظاهرات (١) .

وفى يوم ٢٩ يوليو ١٩٢٤ تجمع عدد من الضباط المصريين والسودانيين وهم فى حالة هياج شديد لعدة أسباب منها القبض على الملازم أول على زين العابدين وسجنه فى السجن المدنى ، وفى هذا ما فيه من مخالفه للقوانين العسكرية التى تحتم وضع الضابط المتهم بأى جناية تحت الايقاف فى وحدة عسكرية تحت حراسة ضابط أقدم منه فى الرتبة ، وذلك ، وذلك حفظا للشرف العسكرى .

ومن الاسباب التى أدت الى هياج الضباط أيضا منع الهتاف بحياة ملك مصر ، رغم أن العلمين المصرى والانجليزى كانا يرفرفان فوق مبانى الحكومه السودانية ، مما أرهص الى النية البريطانية المبيتة للانفراد بحكم السودان ، وهو ما كان يأباه الضباط المصريون والسودانيون . كذلك أثار أحد القضاة البريطانيين مشاعر الضباط عندما عرض بالملك فؤاد عند نطقه أحد الاحكام . لكل ذلك قرر الضباط الاحتجاج على هذه التصرفات لدى نائب السردار فى الخرطوم اللواء هدلستون باشا ، واجتمعوا لهذا الغرض فى ليلة ٣٠ يوليو ١٩٢٤ ووقعوا جميعا على هذا الاحتجاج ما عدا القائمقام محمد بك يحيى قائد الكتيبة الرابعة مشاه (٤ جى اورطة) الذى امتنع عن التوقيع . وقدم هذا الاحتجاج القائمقام أحمد بك رفعت قائد المدفعية فى الخرطوم بحرى - والذى سيبرز على المسرح فى السودان كمتزعم للمقاومه المصرية ضد اخلاء السودان بعد ذلك ببضعة شهور - ، وقد نص هذا

---

(١) دكتور عبد العظيم رمضان - الجيش المصرى فى السياسة (١٨٨٢ ١٩٣٦) ص ١٧٢ - ص ١٧٣ .

الاحتجاج الموقع من الضباط على أنه قد تكرر حصول حوادث اخيرا من بعض تصرفات السلطة المحلية أدت الى اهانة الجيش • وعلاوة على ذلك قد حصل أخيرا فى محاكمة أحد المتهمين الذى كان يؤدى شعائره الدينية بالجامع حيث عرض القاضى الانجليزى بجلالة الملك عند النطق بالحكم •

« وبما أن الجيش لا يرضى بهذه الاهانة ، ولا يقبل التعريض بمليكه الذى أدى لجلالته قسما بأن يكون مخلصا له حاميا لعرشه نود أن تتخذ اجراءات عادلة نحو ايقاف تكرار مثل هذه الاهانات » (١) •

لم يتفهم الانجليز عرامة هذه الحركة ، فتركوها تنشد وتمتد •• ففى ٩ اغسطس انفجر الموقف فى السودان حين تظاهر طلبة المدرسة الحربيه بالخرطوم فى شوارع المدينة بأسلحتهم وهم يرفعون العلم المصرى ويهتفون بحياة ملك مصر وبسقوط الاستعمار •• الا أن الانجليز امكنهم الاستيلاء على الذخائر الموجودة فى مخازن المدرسة فى غيبة طلابها ، وانتهى الامر بانهيار المقاومة ودخول الطلاب السجن العمومى فى كوبر •

وفى نفس اليوم الذى تظاهر فيه طلبة المدرسة الحربية ، حدثت ثورة خطيرة اخرى فى كتيبة السكة الحديدية المصرية بالعطبرة ، مما ادى الانجليز الى اطلاق النار على المتظاهرين ، ونتج عن ذلك مقتل أربعة واصابة الاضطرابات تجددت فى اليوم التالى وبشكل أعنف ، مما أدى بالجنود الانجليز الى اطلاق النار على المتظاهرين ، ونتج عن ذلك مقتل أربعة واصابة أحد عشر شخصا باصابات بالغة (٢) • ولم تلبث الاضطرابات أن عمت م درمان وملكال وغيرها ، مما أدى بالساسة البريطانيين الى الاقتناع بوجوب طرد المصريين من السودان والانفراد بحكمه ، بعد أن تأكد لهم ذلك التلاحم المصرى السودانى ضد الاستعمار البريطانى فى وادى النيل •

وهكذا يمكن أن نقول أن حادثة مقتل السردار لم تكن هى السبب الاساسى لتقديم ذلك الانذار المشهور الى الحكومة المصرية وانما هى قد

(١) مذكرتان للواء محمد باشا لبيب الشاهد والاميرالاى أحمد بك رفعت عن اعمال الجيش المصرى فى السودان ومأساة خروجه ص ٢٨ - ٢٩ •
(٢) دكتور عبد العظيم رمضان - المصدر السابق - ص ١٧٥ - ١٧٦

منحت الظروف المناسبة لتقديم هذا الانذار (١) ·

المطالبة باخلاء السودان :

فى يوم ٢٢ نوفمبر ١٩٢٤ اتجه المندوب السامى اللورد اللنبى فى مظاهرة عسكرية الى دار رئاسة الوزراء ، وسلم سعد زغلول نسخة من الانذار (٢) · وقد جاء فى المذكرة الاولى منه طلبات محددة هى : -

١ - أن تقدم الحكومة المصرية اعتذارا كافيا وافيا عن الجناية ·

٢ - أن تتابع بأعظم نشاط البحث عن الجناة ، وأن تنزل بالمجرمين أشد العقوبات ·

٣ - أن تمنع من الآن فصاعدا وتقمع بشدة كل مظاهرة شعبية سياسية ·

٤ - أن تدفع فى الحال غرامة قدرها نصف مليون جنيه الى الحكومة البريطانية ·

٥ - أن تصدر خلال ٢٤ ساعة الاوامر بارجاع جميع الضباط المصريين ووحدات الجيش المصرى المتجهة الى السودان ·

٦ - ان تبلغ المصلحة المختصة ان حكومة السودان ستزيد مساحة الاطيان التى تزرع فى الجزيرة من ٣٠ الف فدان الى مقدار غير محدود تبعا لما تقتضيه الحاجة ·

٧ - أن تعدل عن كل معارضة لرغبات الحكومة البريطانية فى الشئون المتعلقة بحماية المصالح الاجنبية ·

وجاء فى المذكرة الثانية التى قدمت فى نفس اليوم مزيد من الطلبات بتحويل الوحدات السودانية التابعة للجيش المصرى الى قوة سودانية مسلحة

---

(١) Wavell, Viscount - Allenby in Egypt. vol. 2 of Allenby : Astudy of Greatness. p. 116.

(٢) محمد شفيق غربال - تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ج ١ ص ١٥٦ ·

تكون خاضعة وموالية للحكومة السودانية وتحت القيادة العليا للحاكم العام ، وباعادة النظر فى القواعد والرشوط الخاصــــة بخدمة الموظفين الاجــــانب الذين لا يزالون فى خدمة الحكومة المصرية طبقا لرغبات الحكومة البريطانية

وقد اجاب سعد زغلول على مذكرتى المندوب الســـامى فى نفس اليوم بمذكرة وافقت فيها الحكومة المصرية على المطالب الاربعة الاولى ، ولكنها لم توافق على باقى المطالب ، فاجاب المندوب السامى على ذلك فى اليوم التالى (٢٣ نوفمبر) بمذكرة جديدة أبدى فيها تمسكه بكافة المطالب ، وأنه قد أرسل التعليمات الى حكومة السودان لاخراج القوات المصرية من السودان ، ومنحها حرية زيادة الاراضى المروية فى الجزيرة (١) ٠

وفى اليوم التالى (٢٤ نوفمبر) اجابت الحكومة المصرية باحتجاج على تصرفات الحكومة البريطانية ، وارفقت بالخطاب تحويلاً بمبلغ الغرامة٠ وكان سـعد زغلول قد قدم طلباً باستعفاء الوزارة يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٢٤ ، ثم اعاد التماس قبول استقالته فى اليوم التالى فقبلها الملك (٢) ٠

ولكن ما هو صدى هذه المسالة على السودان ؟ وما هو رد الفعل المصرى والسودانى تجاه المد الاستعمارى البريطانى الذى أخذ فى الانفراد بالسيطرة على السودان واحتواء حركته الوطنية الوليدة ؟

لقد وصلت التعليمات بالفعل الى الخرطوم باجلاء القوات المصرية من السودان مساء يوم ٢٣ نوفمبر ، فعقد على الفور اجتماع فى « مكتب الحربية » لوضع خطة الاخلاء ، واثناء ذلك وصلت برقية من المندوب السامى بالسماح بجلاء القوات المصرية بسلاحها ولكن بدون ذخيرتها (١) ٠

---

(١) دكتور يونان لبيب رزق ـ السودان فى عهد الحكم الثنائى الاول (١٨٩٩ ـ ١٩٢٤) ص ٤٧٤ ـ ٤٧٥ ٠

(٢) محمد شفيق غربال ـ المصدر الســابق ص ١٥٨ ٠

(٣) د ٠ يونان لبيب رزق ـ المصــدر الســابق ص ٤٧٧ ٠

ويوضح القائمقام أحمد بك رفعت قائد المدفعية (الطوبجية) فى ذلك الوقت الخطة التى اتبعها الانجليز فى اجلاء القوات المصرية عن السودان ، فيذكر انهم تكتموا الامر الصادر اليهم من المندوب السامى ، حتى يمكنهم السيطرة على الموقف بهدوء وبأقل خسائر ممكنة ، الا أنه منذ ٢٢ نوفمبر جاءت بعض الانباء الى الضباط المصريين بالخرطوم عن ارسال انذار من الحكومة الانجليزية الى الحكومة المصرية بمطالب قاسية . وفى مساء ذلك اليوم ظهر ملحق لجريدة الحضارة السودانية موضح به مواد الانذار .

ويوضح أحمد بك رفعت الخطة التى اتبعها الانجليز فى اجلاء القوات المصرية عن السودان .. فيذكر انهم داهنوا المصريين حتى استولوا على مفاتيح الذخيرة منهم ، ثم حاصروا الوحدات المصرية فى كل مديرية وأفرادها عزل من السلاح والذخيرة ، ثم أجبروهم على الانسحاب الى مصر . وهكذا تم ترحيل معظم الوحدات المصرية فى السودان الى مصر . ولكن الامر كان مختلفا بالنسبة لوحدات منطقة الخرطوم البحرية ، وكانت هذه الوحدات مؤلفة من ثلاث بطاريات مدفعية والكتيبة (الاورطة) الثالثة مشاه . فقد استطاع جنود المدفعية (الطوبجية) المصرية أن يستولوا على الذخيرة من منفذ خاص بعد أن إستحوذ الانجليز على المفاتيح الاصلية لمخزن الذخيرة « وبعد ذلك هددنا ثيربورن بك بحصارنا بالجنود الانكليزية من جميع الجهات ونظرنا ذلك بأعيننا حيث كنا قبل الآن لم نلتفت الى الحصار فاخذته الى المكتب وهو مطمئن بوجود مفتاح الجبة خانة (مخزن الذخيرة) فى جيبه فتم تمكين الجنود من كسر باب المخزن وصرت الاطفة واصبره داخل المكتب وكان قد تم حصول الجنود على الذخيره بأكملها من المخزن دون أن يشعر أحد بذلك من منفذ صغير لم يكن يعلم بمكانه ثيربورن بك ولا يدركه الناظر لبناء المخزن المذكور . وهذا المنفذ ينفذ الى محل المدافع من جهة واحدة مرتفعة ، وسرعان ما تسلحت البنادق والمدافع واصبح القشلاق خارجا وداخلا موزعا فيه جماعات من الجنود كأنهم نظموا تنظيما بترتيب سابق .

وفى الحقيقة كان هذا النظام صادرا من تلقاء أنفسهم وقد رأوا بأعينهم امتداد الحصار حولهم بالعساكر الانجليزية والمدافع الماكينة العديدة (١) .

(١) مذكرتان - مصدر سبق ذكره صـ ٣٢ ، ٣٣ .

ومن موقف القوة الناجم عن تسليح هذه الوحدات المصرية وحصـــولها على ذخيرتها - على قلتها - رفضت هذه الوحدات المصرية الانسحاب من السودان بأمـــر صـــادر من حكومة الســـودان ، وكان هدلستون باشـــا نائب السردار - ونائب الحاكم العام قد أصدر أمرا كتابيا الى قادة وحدات الجيش المصرى برحيل الضباط والجنـود فى ٢٤ نوفمبر ، وواضـح أن هذا الامـــر صادر من نائب السردار بناء على طلب المندوب السامى بالرغم من اعتراض الحكومة المصرية (١) ٠

وفى هذه المرحلة العصيبة ، تتضـح صـــورة من الصـــور المشرفة للعسكرية المصرية ٠٠٠ فعندما طلب نائب السردار من احمد بك رفعت تنفيذ الامر الكتابى بالانسحاب ، جـاب الاخير بأنه لمـا رآه « من نفسية عسـاكر الطوبجية لا يمكننى أن انفـذ هذه الاوامر عليهم ، وخير لى أن تحاكمونى بمجلس عسكرى أو تكبلونى بالحديد من ان أنفذ هذا الامر وأكون عنـــه مســـئولا » ٠

الا ان هدلستون باشـــا طلب من زعيم المقاومة المصرية فى الســـودان احمد بك رفعت عرض الامـــر على الوحدات المصريـــة فى الخرطوم البحرية ، فقـام رفعت بك بالفعل بالمرور على هذه الوحدات ، فكانت الاورطة (الكتيبة) الثالثة مشـاه هى اولى التشكيلات الرافضـة بتاتا لعملية تسليم ذخائرها والانسحاب من السودان مهمـا كانت النتائج ، وكان هذا هو موقف بطاريات المدفعية الثلاثة اذ قـال ضباط هذه الوحدات انه « خير لنا أن ندافع حتى نموت ولا نترك السودان الا بامر من مليكنا وحكومتنا » ٠ وقـد تـم ابلاغ نائب السردار بهـذا الموقف المصرى المتصلب ٠

وبدات القوات البريطانيـة فى تدعيم حصارها للوحدات المصرية البطلة، وبدات هذه الوحدات بالمقابل فى الاستعداد تحسبا لكل مفاجاة ، هـذا رغم الفارق الهائل فى التسليح بين الجانبين ، وطبقا لكلمات القائمقام أحمد بك رفعت فان « كل رصاصة من رصاص بنادقنا العشرين لكل بندقيـة تقابـــل

---

(١) الرافعى - فى أعقاب الثورة المصرية ج ١ ص ٢٠٣ ٠

اكثــر من عشرين الف طلقة عندهم بما فى ذلك الاحتياط بالطابية العامة ، اما ذخيرة المدافــع فعندهم انواع كثيرة لمدافــع مختلفة ، وعلى العموم ما عندنا هو قليل جدا ، وعلى ذلك أصدرت أمرا قويا بعدم اطلاق اى طلقة الا بأمــرى وحضورى شخصيــا مهمــا كان الضرب من جانبهم شديدا وذلك حتى اقتصد فى الذخيرة للحظة الأخيرة » (١) ٠

وفى ٢٥ نوفمبر وصــل هدلستون باشــا نائب السردار الى مواقـــع الدفــاعات المصريــة فى الخرطوم البحريــة وكرر أوامره بانسحاب الوحدات المصرية ٠٠٠ الا ان احمــد بك رفعت قائد الوحدات هناك طالب بوصول مندوب مصرى من قبــل الملك ومعه امــر بانسحاب المصريين من السودان ، فان هــذا الانسحاب سيكون « بالاسلحة والذخائر وجميع المهمــات وبالشرف العسكرى » ٠

وفى نفس الوقت ارسل احمــد بك رفعت برقية الى الملك فؤاد أوضح فيهــا ان القوات الانجليزية تحاصر القوات المصرية من جميع الجهــات وان الذخائر المصرية لا تكفى لمجابهة القوات البريطانية ، ورغم ذلك فان «الضباط والصف ضباط والعساكر مصممون على عــدم ترك الســـــودان بدون أمـــر جلالتكم يرســـل لهم مــع مندوب مصرى أو يموتون عن آخرهم فى قشلاقاتهم»

ونرى ان هذه البرقية ايضــا بالصيغة التى كتبت بهــا توضـــــح العســكرية المصرية الاصيلة ، وهى لا تحتاج فى الواقــع الى أى تعليق ٠

وعلى اية حــال ، يصـــل فى ٢٨ نوفمبر ١٩٢٤ المندوب المصـــرى البكباشى امين هيمن الذى انتقـــل الى مقــر الوحدات المصرية الصامدة فى السودان ، وأوضح للضباط حقيقة الموقف السياسى فى مصر ، وسلم احمد بك رفعت خطــاب وزيــر الحربيــة القاضى بانســحاب الوحدات المصريــة من الســـــودان (٢) ٠٠٠ وهكذا كان على الوحــدات المصرية البطالة المتمركزة

---

(١) مذكرتان ص ٤٦ ــ ٥٢ ٠

(٢) مذكرتان ــ مصــدر سبق ذكره / ٥٣ ــ ٦٥ ٠

فى الخرطوم الحربية والتى رفضت الانسحاب من السودان الا بعد صدور قرار مصرى خالص لهم بذلك ، كان على هذه الوحدات ايضا وبمنتهى العسكرية اطاعة هذا الامر المصرى بالانسحاب ٠

وقد انهى خطاب وزير الحربية الموقف كله ، فقد جمع احمد بك رفعت ضباط المدفعية والمشاه وأخبرهم بوجوب اطاعة أمر الملك بالانسحاب (١) ٠ وقد جاء فى هذا الخطاب الموجه لضباط وضباط الصف والجنود بالجيش المصرى بالسودان من وزير الحربية المصرى « عهدنا فيكم الشجاعة والولاء ولا يداخلنا اى شك فى انكم مستعدون جميعا لاراقة آخر نقطة من دمائكم فى خدمة جلالة الملك وفى سبيل الوطن على اننا نأمركم بان تكفوا عن مقاومة الاجراءات التى اتخذها نائب حاكم السودان العام لاخراجكم بالقوة من الاراضى السودانية ٠ فانه ليس من وراء هذه المقاومة سوى سفك الدماء بغير جدوى ، وبما ان الحكومة المصرية قد احتجت صريحا على هذا العمل الذى نفذ بالقوة القاهرة فعودتكم لا يترتب عليها ى مساس لابحقوق الوطن ولا بشرفكم العسكرى » (٢) ٠ وهكذا أذعن الضباط والجنود للامر آسفين محزونين (٣) وقامت الوحدات المصرية البطلة بالسفر من الخرطوم فى ايام ٢٩ ، ٣٠ نوفمبر و ١ ، ٢ ديسمبر ١٩٢٤ على خمسة قطارات خاصة « خلاف البوستة » حيث وصلت الشلال يوم ٥ ديسمبر ، وعلى هذا النحو تم اخلاء السودان من الجيش المصرى (٤) ٠

والواقع أن تنفيذ الانذار البريطانى كان نصرا بريطانيا كاملا على الحركة الوطنية سواء فى مصر او فى السودان . ففى مصر سقطت وزارة سعد زغلول وخلفتها وزارة احمد زيور باشا (٥) الذى لم يكن ليستطيع بماضيه السياسى غير الواضح ان يملا الفراغ الذى احدثته غيبة شيخ الساسة المصريين عن رئاسة الجهاز التنفيذى فى مصر ٠

---

(١) عبد الرحمن الرافعى - المصدر السابق ص ٢٠٤ ٠
(٢) مذكرتان ص ٨٢
(٣) الرافعى ص ٢٠٤
(٤) د ٠ عبد العظيم رمضان الجيش المصرى والسياسة ص ١٨٧ ٠
(٥) محمد حسين هيكل - مذكرات فى السياسة ج ١ ص ٣١٢ ٠

ازمة الجيش المصرى سنة ١٩٢٧ :

ادى انسحاب وحدات الجيش المصرى من السودان وعودتها الى مصر ، الى زيادة عـدد افراد هذا الجيش ، مع ما واكب ذلك من اتجاه مصر الى محاولة تدعيم قواتها المسلحة بالاسلحة المتطورة · وكانت وجهة النظر البريطانية هى ان الجيش المصرى هو اقل كما وتسليحا من قوات الاحتلال فى مصر ·· الا انه مـع ذلك الاتجاه المصرى الرامى الى زيادة حجم الجيش المصرى وتطويـر تسليحه وتمصير قيادته ، « فان خطورة المواجهة بين القوتـين ستكون امرا بالغ الخطورة - بالنسبة لقوات الاحتلال - فى المستقبـل القريب » ·

ولكن المصريين مضوا فى سياستهم الوطنية نحو بنـاء جيش مصرى قوى يمكنه انهـاء الاحتلال البريطانى لمصر ، او على الاقـل كى يكون عامل ضغط فى اية مفاوضـات قادمـة بين الدولتين ·

ومع الشهور الاولى من عـام ١٩٢٧، بدأ المندوب السامى البريطانى فى التحقق من ان امورا هامة تحدث فى مسالة الجيش المصرى ، وان هـذه الامور تتطلب من الحكومـة البريطانيـة اتخـاذ اجراءات سريعة ، وعلى حد قوله « ··· ان مكانتنـا الآخذة فى التناقص منذ عـام ١٩٢٢ اصبحت تسـير بمعدل سريـع ، مـع مصـاحبة ذلك باقتراحـات لزيادات ضخمـة فى الجيش المصرى عددا وعدة ، وعلى الرغم من اشاراتى الواضحة بأن حكومة جـلالة الملك لن توافق على مثـل هذه المقترحـات ، فان الحكومة المصريـة تسـير فى طريقها ،ونحن فى خطر المراجهة بعد فترة بامر واقع Faits accomplis

وفى مذكرة مطولة ، يوضح لويد المراحل الرئيسية لتقلص السـيطرة البريطانية على الجيش المصرى كالآتى :

١ - عندما عين عزمى باشـا كوزيـر للحربيـة فى نوفمبر ١٩٢٢ ، فانه انشـأ قسما خاصـا فى وزارته وتحت اشرافه لادارة بعض الامور التى كان يشرف عليهـا السردار قبل ذلك ، (١) وهكذا اتخذ الوزيـر سـياسة معاديه

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. Egyptian Army Crisis No. 76 (J. 530/184/16) No. 61. Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, March 3, 1927.

للمصالح البريطانية ، (٢) وهذا (التجاوز) بدأ فى الزيادة حتى سبتمبر ١٩٢٣ ، عندما وصل الى حد اصداره لاوامره وعلى مسئوليته بطرد عدد من طلبة المدرسة الحربية لعدم كفاءتهم ... ولم يقم السردار البريطانى بالاعتراض على هذا الامر استمرارا فى سياسته الرامية الى التمصير التدريجى للجيش ، وبادئا فى استخدام الوزير كقناة فى اتصالاته مع الملك .

٢ - وفى يناير ١٩٢٤ - وطبقا لهذه السياسة - عين ضابط مصرى فى منصب قائد منطقة القاهرة ، مما ادى الى ضرورة استحداث منصب المفتش العام وتقليده لضابط بريطانى ، الا انه فى نفس الوقت تم تعيين ضابطين مصريين لقيادة كتيبتين مصريتين كانتا تحت القيادة البريطانية .

٣ - وفى مارس ١٩٢٤ ، احيل شاهين بك الى التقاعد - وهو احد الذين هاجمهم الوفد - لقيامه بكبح جماح الجماهير الثائرة اثناء ثورة ١٩١٩ - بأوامر من السردار ، وطبقا لطلب من سعد زغلول باشا ، وذلك لرغبة بريطانيا فى عدم احداث ازمة فى المفاوضات التى كانت دائرة بين الحكومتين المصرية وبريطانية فى ذلك الوقت . والمهم ان تاثير هذه العملية كان عميقا على الجيش المصرى .

٤ - بعد مقتل السير لى ستاك ، اقترح وزير الحربية المصرى أن يتحمل مسئولية تدبير أمر الضباط المصريين العائدين من السودان .

٥ - فى يناير ١٩٢٥ تم تشكيل مجلس الجيش بناء على اقتراح من الملك فؤاد ... وكان تشكيله اساسا لبرث السلطات والاختصاصات التى كانت مخولة للسردار قبل ذلك .

٦ - فى ابريل ١٩٢٥ تحولت تبعية ادارات ومصالح الحدود والتموين والتجنيد الى الجيش المصرى ، وفى يونيو تبعتها الادارة المالية .

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 78 (J. 599/184/116)
No. 74 Lord Lloyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, March 9, 1927.

٧ ـ عندما عين موسى فؤاد باشا وزيرا للحربية فى مارس ١٩٢٥ ، فانه بذل جهودا مكثفة لتحويل ولاء الضباط المصريين اليه بدلا من تبعيتهم للقادة البريطانيين ، وعقد اجتماعات مستمرة فى منزله للعديد من الضباط المصريين لتحقيق هذا الغرض (١) ٠

ويتضح من مذكرة لويد السابقة ذلك التسلسل فى المحاولات المصرية (لتمصير) الجيش المصرى ٠

وعلى اية حال فانه منذ اعلان تصريح ١٩٢٢ ، واعلان الملك فؤاد نفسه ملكا مستقلا فى ١٥ مارس من نفس السنة ، ساد المصريين شعور وطنى جارف بأنهم قد انتزعوا استقلالهم بأنفسهم ، رغم ان التحفظات الأربعة الواردة مع التصريح تسلب هذا الاستقلال جوهره ولبه ٠ ووصل الامر بأى وزارة مصرية تتولى السلطة مع برلمان قوى بأنها تجد نفسها (بين الشيطان والبحر) على حد قول لويد الذى استرسل موضحا ان « الوزراء الحاليين يخافون قبل كل شىء من استجوابات البرلمان ، وهم رغم تصلبهم فى الماضى ، غير قادرين الآن على القيام بعمل ضدنا ، كما فعل اسلافهم ، وكنتيجة طبيعية فان الحكومة من اجل ارضاء البرلمان ، مع عدم الوصول الى صدام مفتوح معنا ، فانها وقعت فى بعض التورط ضدنا ، والواقع انها ستصبح اكثر جراة ضدنا ، اذا لم نحرك ساكنا» ٠ واسترسل لويد مخصصا فى كلامه انه « بالنسبة للجيش المصرى ، فان الارتباك والتورط قد وصل الى الحد الذى لا يمكن ايقافه الا باسلوب عنيف ، واننا اذا لم نفعل ذلك ، فان المسالة سوف تتحول الى ازمة بالغة الخطورة » ٠

وفى هذه المرحلة من الازمة ، اوضح لويد ان الحكومة البريطانية اذا ما قامت بالضغط على الحكومة المصرية لكى تتخذ اى عمل عنيف ضد رغبات البرلمان طبقا لتصريح ١٩٢٢ ، فان الحكومة قد تستقيل ٠ هذا بالاضافة الى ان رئيس الوزراء كان يعانى كثيرا فى هذه المرحلة من الضغط الشديد عليه من جانب حزب الوفد ، وانه اذا ما اتسعت

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No, 76 op it

الهوة بينه وبين حزب الأغلبية ، وقدمت بريطانيا فى غضون ذلك الوقت مطالب عنيفة ، فان مجلس الوزراء قد يتخذ من هذه المطالب فرصة لتقديم استقالته ·

الا ان لويد بعد أن طرح الافتراض السابق ، عاد واورى انه يمكن جعل الحكومة المصرية القائمة فى ذلك الوقت (ثروت باشا) مسئولة عن تحقيق المطالب البريطانية ، « وان هناك فرصة فى صالحنا فى المحافظة عليها فى السلطة ، فهى نظريا تمثل الدولة ، والوزراء الحاليون هم بلا شك يرغبون تماما فى البقاء فى السلطة ، وهم سيوافقون على مطلبنا بالنسبة للجيش المصرى ، طالما كانت هذه المطالب معتدلة ومصاغة فى شكل مستساغ، وعلى اية حال ، فان اى تأخير من جانبنا ، فانه بطبيعة الحال سوف يزيد من مصاعبنا ، لانه ليست هناك فرصة افضل من الفرصة الحالية فى اعتقادى » (١) ·

ومن الاهمية بمكان — من وجهة النظر البريطانية — الاشارة الى تعاطف وزير الحربية المصرى مع الحملة البرلمانية بعد مواجهته لاستجوابات عنيفة فى البرلمان ، ووصل به الأمر الى تبنى بعض موضوعات منها تخفيض الخدمة الاجبارية للمجندين من ٥ الى ٣ سنوات بهدف زيادة اعداد الاحتياط المدرب ، وكذلك العمل على تدعيم ٩ كتائب مشاة حتى تحقق مستوى رفيعا ، وبناء ثكنات جديدة فى مناطق مختلفة ، ومنع اى قيود على تسليح الوحدات المصرية ، وتشكيل قوات جوية مصرية ··· ورغم تدخل المندوب السامى الصريح ضد هذه المطالب ، ورغم أن كل المقترحات السابقة كانت تتطلب موافقات مالية ، فانه قد تم تضمين كل هذه البنود فى مشروع الميزانية الجديدة لتقديمها الى البرلمان (١) ·

اما بالنسبة لمنصب المفتش العام الانجليزى ، فقد بذلت مجهودات مصرية متتالية قوية لسلب كل اختصاصاته وسلطاته · وقد قام خشبة بك

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No 78 (J 844/184/16)
No. 183 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, March 28. 1927

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b. No 76 op cit

- وزير الحربيــة فى عام ١٩٢٦ - بمحاولات خطيرة فى هذا الصدد ، واول محاولة لــه مع المفتش العام سبنكس باشــا وقعت فى ربيــع ١٩٢٦ ، عندما حاول اعادة عدد من الضباط السودانيين الى الخدمــة ، والذين كانوا قــد أحيلوا الى الاستيداع لاشتراكهم فى الحركــة الوطنيــة فى السودان فى نهاية عــام ١٩٢٤ .

وبعد ذلك ، وفى اثنــاء غياب الجنرال سبنكس فى اجازته الصيفية فى نفس العــام ، حاول الوزيــر قلب النظام الذى كان ساريا فى المدرسة الحربية فى القاهرة ، ووضع مجلس الجيش وبتعليمات منه مشروع قانــــون لاخراج المدرسة الحربيــة عن التبعية للسردار . ولو لــم يعد الجنرال سبنكس مبكرا من اجازته فى ذلك الوقت ، لكان البرلمان قــد وافق على هــذا الاقتراح .

هذا بالإضــافة الى ان خشبة بك امضى صيف ذلك العام (١٩٢٦) فى لقاءات شخصية بالعديــد من الضباط من كل الرتب مســـتمعــا الى شكاياتهم وواعدا اياهم حلولا لمشكلاتهم .

واخيرا بدأ خشبة بك فى القيام بالتفتيش على الوحدات العســكرية برفقــة اثنين من العسكريين من اعضــاء البرلمان ، وهمــا صــالح بك حرب وعبد الرحمن بك عزام ، والاول كان قــد انضم الى السنوسى وتحت قيادته ٦٠ من جنود خفــر السواحل ، وكلاهمــا حارب مع السنوسى .

ولم يكتف خشبة بك بهذه المحاولات ، بــل حاول ايضــا جعل وزارة الحربية هى المسيطرة على ترقيــات وتعيينات الضــــباط وعن طريقه هــو شخصيا ، وهكذا عدلت لجنة الضــــباط ومجلس الجيش من توصياتهــا بالنسبة للترقيات والتعيينات ، حتى لا تتعارض هذه التوصيــات مـــع رغباته ، ووصــل الامــر بالوزيــر فى بعض الحالات الى رفض توصــيات المفتش العام .. ونتيجة لتدخل الوزيــر ، اقترح البرلمان توسيع اختصاصات لجنة الضباط ومجلس الجيش على حســاب السردارية والمفتشيــة العامة بهــدف جعل وظيفــة المفتش العــام بلا فاعلية (١) .

---

(١) P.R.O. F.O. (407- 204) b. No. 87 op cit

كما انه تقرر ـ طبقا لمشروع الميزانية الجديدة ـ ادماج مصلحة الحدود مع خفر السواحل فى ادارة واحدة ، وهذا القرار يبدو انه ادارى بحت ، ولكن الحقيقة هى ان وزير الحربية كان يرغب فى اعفاء خمسة من الضباط البريطانيين السبعة العاملين فى المصلحة ، وان يحل محلهم فى نفس الوقت Paris Passu ضباطا مصريين ممن شاركوا فى الحرب مع السنوسى او من الذين اعيدوا من السودان بعد مقتل السردار ، كما انه اصدر تعليمات كتابية بالفعل بالنسبة للعائدين من السودان ... الا ان المندوب السامى تدخل فى الامر ، مما ادى الى استبقاء الضباط البريطانيين فى مصلحة الحدود » (١) وان كان الوزير قد وضع أنه قد وضع شروطا جديدة للتعاقد معهم فى الميزانية القادمة وذلك لاستبعادهم ، (٢) كما انه خصص بندا فى الميزانية للضباط العائدين من السودان لتخصيص وظائف لهم (٣) .

واكثر من ذلك ، اقترح الوزير تحويل قوافل الجمال ودوريات السيارات ـ بالنسبة لمصلحة الحدود ـ الى قوة بوليسية بدون سلطة مركزية كما انه فى نفس الوقت قامت الحكومة بدراسة مشروع لتطبيق القانون المدنى والادارة المدنية على القبائل النائية ، بدلا من سريان التقاليد القبلية . (٤) وكان الغرض من هذه الخطوات هى بطبيعة الحال لفرض السيطرة المصرية على القبائل العربية التى تقطن الحدود ، وفى نفس الوقت Pro Tanto الغاء النفوذ البريطانية عليها . (٥) ويصور لويد خطورة الموقف بالنسبة للمصالح البريطانية بقوله « ان نائب المدير العام لمصلحة الحدود ـ وهو فى الوقت نفسه القوة المحركة للمصلحة ـ مشهور ببغضه للانجليز ، وهو يعمل فى اتصال وثيق مع الوزير ، وقد قام بمحاولات عديدة للحد من مكانة وسلطة الضباط البريطانيين العاملين المصلحة . ويمكن القول بايجاز ان موقف حاكم عام سيناء ـ الانجليزى ـ

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b No. 76 op. cit

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b No 87 op cit

(٣) P.R.O. F.O. (407-204) b. No 76 op cit

(٤) P.R.O. F.O. (407-204) b No 78 op cit

(٥) P.R.O. F.O. (407-204) b No. 76 op. cit

بوجه خاص قد ازداد صعوبة . ولا ننسى ان مصلحة الحدود هى مصلحة كبيرة ، ولنها تلعب دورا هاما فى خطة الدفاع عن مصر ، وأن نجاجها الحالى فى التعامل مع البدو الذين لا يخضعون لاى قانون انما يرجع الى الضبط وحسن الانتظام العسكرى والادارة المركزية » (١) .

واعتبر لويد ان من بين الاساليب العدائية ايضا قيام البرلمان المصرى بمناقشة اقتراح لبعض النواب فى ٢ مارس ١٩٢٧ لتغيير نظام الخفراء القائم وجعله يسير طبقا لقانون التجنيد الاجبارى ، وأن يقوم ضباط من الجيش بتدريب الخفراء ، وعلق لويد على ذلك بقوله « اننا لا يمكننا اغفال مغزى هذا الاتجاه » (٢) .

والواقع أن الاقتراحات المصرية بتخفيض مدة التجنيد الاجبارى من ٥ الى ٣ سنوات ستزيد من قوات الاحتياط المدربة على استخدام السلاح، والتى يمكن استدعاؤها فى اى وقت ، وامكان مضاعفة القوات المسلحة بهذه الأعداد من قوات الاحتياط ، كما ان تدريب الخفراء على ايدى ضباط من الجيش المصرى سيزيد ايضا من قوة حملة البنادق ، ولا تدخل كل هذه الأعداد فى الاحصاء الرسمى لعدد أفراد الجيش المصرى رغم انها بالفعل تشكل قوة لا باس بها .

تطور الجيش المصرى حجما وتسليحا :

يمكن بتحليل تطور الجيش المصرى فى هذه الفترة ان نستخلص ان هناك مخططا مصريا لزيادة فاعلية هذا الجيش كما وتسليحا ، مما قد يؤدى فى النهاية الى اتخاذ سياسة معادية لبريطانيا .. والتقرير التالى الذى ارسله اللورد لويد الى المستر تشمبرلين فى ٣ مارس ١٩٢٧ مع التحليل الخاص به يوضح هذه الحقيقة :

---

(١) P.R.O. FO. (407-204) b No 87 op cit

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) 76 op cit

	١٩١٤	١٩٢٢	١٩٢٦
كتائب المشـاة	٣	٧	١١
بطارية مدفعية	١	١	٤
س حراسة مدفعية	١	١	٢
أورطة خيالة	١	١	٢
اعداد الافـراد	٢٥٠٠	٤٨٠٠	١٠٥٨١

والزيـادة السابقـة هى عبارة عن :

(أ) المشـاة : فى عـام ١٩١٤ كانت هناك ٦ كتائب مشاة فى السودان، منها ٤ كتائب اعيدت الى مصر اثنـاء الحرب العالمية الاولى ، وبعد الحـرب بقيت منها اثنتان فى مصر واعيدت اثنتان الى السودان · ولكن لـم تلبث أن اعيدت هاتان الكتيبتان الى مصر فى نوفمبـر ١٩٢٤ بعد مقتل السردار ·

وفى عـام ١٩٢٥ ، زاد الجيش المصرى بكتيبتى مشـاة مـ، تدعيم افضـل ، وبصفـة رئيسية لاستيعـاب العائدين من الكتائب السودانية ·

(ب) المدفعية : بعد مقتل السردار ، اعيدت ٣ بطاريـات مدفعية وسرية حراسة مدفعية الى مصر ·

(جـ) الخيالة : تم تشكيل أورطة خيالة جديدة لاستيعاب العائدين من السودان ·

هذا بالاضـافة الى أن الحرس الملكى الذى شكل اعتباراً من عـام ١٩٢٢ اصبح فى عـام ١٩٢٧ يتكون من ٣٩ ضابطا و ٩٧٦ من رتب أخرى (١)

ونستخلص ممـا سبق أن الزيـادة الحقيقية فى الجيش المصرى فى مصر – ما عدا الاستثنـاء الخاص بالحرس الملكى – كانت نتيجـة لعودة

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b No 77 (J, 529/184/16)
No. 62 Lord Lioyd to Sir Austen Chambrlain. Cairo, March 3, 1927.

اخلاء الجيش المصرى للسودان (١) ٠

وكان الجيش المصرى فى عام ١٩١٤ تحت القيادة البريطانية ، وكان السردار مقيما فى السودان ، وكانت كل الرئاسات والقيادات وهيئات المصالح والادارات بريطانية ، أما فى عام ١٩٢٧ ، فكان هناك فقط ٩ ضباط انجليز يخدمون فى الجيش المصرى ، واحدهم هو المفتش العام الذى من المفروض أنه يمثل السردار ، ولكن الحكومة المصرية رفضت اعطاءه لقبا أعلى من مفتش عام له اختصاصات تنفيذية ٠

واذا قارنا بين تسليح الجيش المصرى فى عام ١٩١٤ وعام ١٩٢٦ لوجدنا أن التسليح فى العام الاول كان عبارة عن ٦ مدافع ٢ر٩٥ بوصة و ٤ مدافع مكسيم ٤٥٠ وبنادق ٣٠٣٠ أما فى عام ١٩٢٦ فقد تم تدعيم المدفعية والمشاة حتى أصبحتا تضمان ٢ مدفع ٣ر٧٥ بوصة هاوتزر ، و ١٢ مدفع ٢ر٩٥ بوصة ، ٦ مدافع ١٠ بوندر ، ٤ مدافع فيكرز آلى وبنادق ٣٠٣ ٠

أما الحرس الملكى فقد تم تسليحه بعدد ٦ مدافع فيكرز آلية ، ٢ مدفع آلى هوتشيكس ، ٦ مدافع لويس عدا البنادق (٢) ٠

واستخلص لويد من الملاحظات السابقة بالنسبة لزيادة الجيش المصرى كما وتسليحا ، انه لابد من اتخاذ موقف بريطانى صلب تجاه مخططات الحكومة المصرية الرامية الى اقامة الجيش المصرى القوى مهما كانت النتائج ، لان هذه النتائج مهما كانت ستكون شيئا قليلا بالمقارنة بما يمكن أن تجابهه بريطانيا فى وقت لاحق ٠٠ « فالبرلمان المصرى سوف يطلب فى المستقبل القريب تنفيذ المسائل الآتية :

(أ) تدعيم كتائب المشاة ، مع تشكيل كتيبتين جديدتين ، وهذا يؤدى الى زيادة المشاة بعدد ٣٦ ضابطا و ١٦٢٠ من رتب اخرى ٠

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b No 86 (J, 841/184/16) Memo on the Egyptian Army by the secretary of State for Foreign Affairs. April I, 1927.

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b No 77 op cit

(ب) تخفيض مـدة التجنيد الاجبارى من ٥ الى ٣٠ سنوات ، ويعنى هذا زيادة قوات الاحتياط ، وأن هذا المشروع هو لارضـاء الفلاحين الذين تأتى منهم غالبية الجنود ، وليست هناك خطورة من هذا الاجراء لأن اسـتدعاء الاحتياط فى وقت الطوارىء هو امـر بالغ الصعوبة فى مصر ٠

(جـ) شراء ٢٢ مدفع رشاش للكتائب المشاة ٠ وهذه المدافـع هى اضافة خطيرة الى تسليح الجيش المصرى ٠

(د) اقتراح ادمـاج الحدود مع السـواحل بهـدف وضعهمـا تحت الادارة المصرية ٠

(هـ) البدء فى تشكيل قوات جوية مصرية » (١) ٠

ومن النقاط السابقـة اعتبر لويـد أن (ا،ب) همـا نسبيـا غـير مرفوضين فى حـد ذاتهمـا ، بينمـا (جـ،هـ) لا يمكن تنفيذهمـا بـدون المسـاعدة البريطانية ٠ امـا النقطه (د) فهى فى درجـة اقـل من الأهمية بالنسبة للمشـاكل الرئيسية ٠ كمـا اضـاف لويـد انه كلمـا مضى الوقت، كلمـا زادت الصعوبات امـام بريطانيـا ، وأن الحسم السريـع هو افضـل من الانتظار لفترة تالية (٢) ٠

كما أوضح لويـد أنه لـم تفهم حكومة مصريـة واحدة حقيقة تصريح ١٩٢٢ بالنسبة للجيش المصرى ، فالتصريح لـم يضع تحديدا ولا قيودا على الوحدات العسكرية المصرية ، ممـا أدى الى تشجيع العمـل على تبعية هذه الوحدات للسيطرة الوطنيـة ، ومحاولة تدعيم الجيش المصرى عددا وعـدة ٠ واضـاف لويـد أن البرامج العسكرية التى وضعهـا وزراء الحربيـة المتتابعون تتعارض مـع اثنين من التحفظـات ٠٠ فزيـادة القـوة الحربيـة المصرية تهـدد المواصلات الامبراطوريـة وخصوصـا بالنسبة لقناة السويس كما أنها تعقـد الدفـاعات البريطانية عن مصر ضـد العـدوان الخـارجى ،

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b No 78 op cit

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b No 86 op cit

كما ان هذه الزيادة « ستجعل دفاعنا عن المصالح الاجنبية فى مصر أكثر صعوبة » واسترسل لويد موضحا أن بريطانيا بالاضافة الى ما سبق ، سوف تواجه بعض الاقتراحات القوية والمحاولات الذكية لاضعاف مكانة المفتش العام والضباط الانجليز الذين يعملون معه ، وكذلك الذين يعملون فى مصلحة الحدود وخفر السواحل ، كما تواجه الاقحام التدريجى للجيش المصرى فى السياسة » ٠

خطة لويد لحل الازمة :

حلل لويد الموقف بأن أمامه ان يختار اسلوبا من ثلاثة اساليب مطروحة للتعامل مع المصريين : اولا ان يترك الامر تسير فى طريقها بامل ان الاعتبارات المالية سوف تمنع الحكومة المصرية من السير بعيدا فى هذا المضمار ، وثانيا أن يقوم بعرقلة هذه الاتجاهات باستخدام الضغط الشخصى وغير الرسمى ، وثالثا ان يقدم مطالب محددة للحكومة المصرية (على شكل انذار) ٠

واوضح لويد أن السبيل الاول لا يمكن ان يكون فعالا ، لان الحكومة المصرية قد صح عزمها على اقامة الجيش المصرى القوى مهما كلفها الأمر ٠ اما السبيل الثانى فان نتائجه غير مضمونة ، وهكذا لم يتبق من سبيل لحل الازمة سوى السبيل الثالث ٠ واردف لويد أنه من الواضح « انه ليس لدينا خيار سوى ارسال المطالب البريطانية الى الحكومة المصرية بدون تاخير وبشروط حاسمة وبصيغة ودية ٠٠ على أن ندعم مطالبنا بكل قوة ممكنة ٠٠ واذا ما فعلنا ذلك ، فان هذا التدعيم سوف يحقق كل الظروف الممكنة لحل الازمة دون عنف ، وذلك بالمقارنة بما قد نضطر الى ان نفعله فى وقت لاحق » (١) ٠

وقد وافق تشمبرلن على أراء لويد السابقة ، مع التأكيد على ان اى سياسة يتم اختيارها بالنسبة للعلاقة مع الحكومة المصرية ،

---

(١) PR.O. F.O. (407-204) b No 87 op cit

يجب أن يكون معقولة وبناءة طبقـا لما تسـمح به الظروف (١) ٠

ويبدو ان لويـد كان يحاول فى هـذه المرحلة وضع حل شـامل للازمة ، لانه فى ٩ مارس ١٩٢٧ أوضح ان مخططـاته لا ترمى فقط الى منـع الارتباك القـائم فى السياسـة البريطانيـة تجاه زيادة الجيش المصرى عـددا وعدة ، بل ايضـا لتقديم اسس تسوية نهائيـة ، عندمـا تكون هـذه التسوية محتملة الوقوع ٠

وبدأ لويد فى ابراز خططه القادمـة لحل الازمة مركزا على ان أسس الحل الشـامل انما تستند على مبدأ (الأخذ والعطاء) امـا الاخـذ البريطانى فانه يرتكز على الاسس الآتية :

١ ـ المحافظة على سلطـات ومكانة المفتش العـام ، مـع التذكير بانه عند تأسيس قـوة الدفـاع السودانيـة فى ينايـر ١٩٢٥ ، فان هدلستون باشـا ـ طبقـا لتعليمـات اللورد اللنبى ـ فوض كل سلطاته الى المفتش العـام وانه قـد تم ابلاغ الحكومـة المصريـة بذلـك ٠٠٠ الا ان هـــذه الحكومـة لـم تعتبر المفتش العام أبدا ممثلا للسردار ، رغم اضطلاعـــه باختصاصات منصب الآخر منذ ذلك الوقت ٠ كمـا اقترح لويـــد منـح المفتش العـام رتبة الفريق وزيـادة مناسبة فى راتبة ، كمـا اوضـح ان استجابة الحكومـة المصريـة لهـذه المطالب تعنى اعترافهـا بان وزيـــر الحربية هو فقط القنـاة الرسميـة الادارية لرفـع توصيـات لجنـة الضباط الى الملك (٢) ٠

٢ ـ تعيين ضابط بريطانى عظيم فى القيـادة المصريـة ، ليحـل محل المفتش العـام اثناء غيابه ٠ (٣) ويمكن أن يلقب هـذا الضـابط بمساعد المفتش العـام ، لانـه لا يمكن عمليـا الاعتمـاد على ضـابط تنفيذى واحد ٠

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) No. 80
(J. 601/ 184/16 No. 67 Sir A. Chamberlain t. Soid Sioyd F.O. March 11/ 1927.

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b No 87 op cit

(٣) P.R.O. F.O. (407-204) b No 79 (J 601/184/16)
No. 75 Lord Dioyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, March, 9, 1927.

واستخلص لويد ان المفتش العام سيسعده بطبيعه الحال الاعتراف الرسمى بالسلطات المفوضة له من قبل هدلستون باشا ، وكذلك تعيين مساعد له ، وانه بمكنه بهذا الاسلوب تحقيق الاهداف البريطانية بالنسبة للجيش المصرى لفترة غير محدودة ، باعتبار أن مكانة سبنكس فى الجيش المصرى هى - من وجهة النظر البريطانية - اهم نقطة فى المسألة كلها .

٣ - وضع مصلحة الحدود - التى سوف يتم ادماجها مع خفر السواحل - تحت السيطرة المباشرة للمفتش العام ، مع استمرار (الوضع الراهن) بالنسبة لهذه المصلحة ... « لانه سيكون على حسابنا تحولها الى الادارة الوطنية ، على اننى لا الح على ضرورة اعادة تعيين مدير عام بريطانى لها ، بشرط ان لا يعمل ضابط بريطانى تحت امرة ضابط مصرى الا كمستشار » (١)

كما اعترض لويد على اقتراح تشبرلن الخاص بفصل مصلحة الحدود عن وزارة الحربية لان هذا الاقتراح - فى رايه - اذا ما تم تنفيذه ، فانه سيؤدى بالسلطات البريطانية الى أن تفقد رقابتها على الحدود المصرية ، وتحول هذه المصلحة الى وضع جديد كلية ، هذا بالاضافة الى ان القبائل فى المناطق النائية هى أسلس قيادة للانجليز تحت الحكم العسكرى عن الحكم المدنى كما أوضح لويد انه من الخطورة بمكان معاملة مصلحة الحدود وكأنها منفصلة عن المشكلة كلها (٢) .

وكان هذا - فى راى لويد - هو (الاخذ) البريطانى الذى يرتكز على البنود الثلاثة السابقة ... وانه فى مقابل موافقة الحكومة المصرية على تلك البنود ، او بالاحرى على ذلك (الأخذ) البريطانى ، فانها تستحق (العطاء) البريطانى ايضا ، وذلك على شكل حصولها

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b Nȯ 87 op, cit

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b No 82 op cit

على تدعيم بالاسلحة المتطورة لكتائب المشاة التسعة ، وتخفيض فترة التجنيد الاجبارى من ٥ الى ٣ سنوات ، والبدء فى تشكيل قوة جوية مصرية (١) . الا ان لويد - من ناحية أخرى - عبر عن اعتقاده فى أنه يجب عدم السماح للحكومة المصرية - فى تلك المرحلة - بالحصول على ٢٢ مدفع آلى (رشاش) والتى كان قد وعد بها اللورد اللنبى ، لأن مثل هذه الزيادة فى تسليح الجيش المصرى - فى رايه - ستؤدى ببريطانيا الى ضرورة تدعيم جيش الاحتلال ، وعدم تمركز اى قوات مصرية على طول قناة السويس ، أو على خط مواصلات القاهرة - الاسماعيلية (٢) . وعلاوة على ذلك ، وطبقا لرأى قائد عام قوات الاحتلال ، فان اى حكومة (انسانية) تستبعد استخدام الاسلحة الآلية ، « لأنه اذا ما قام صراع ضد الاسرة الحاكمة - والذى نرغب بعض قطاعات من حزب الوفد فى القيام به - فان الجندى الوطنى قد ينضم الى الثائرين ، وانه اذا كان مسلحا بسلاح آلى ، فانه سيصبح من الصعب كثيرا على قواتنا المحافظة على النظام دون اراقة دماء كثيرة » (٣) .

الا ان لويد - لاعتبارات كثيرة - عاد واقتنع بوجهة نظر تشمبرلن بخصوص بيع المدافع الآلية الى الجيش المصرى ، فى مقابل تنفيذ المطالب البريطانية ، وان كان قد وضع بعض الاجراءات الوقائية لتنفيذ هذه العملية . « فهذه الاسلحة يمكن تقديمها فقط للجيش المصرى فى مقابل تعيين ٤ ضباط بريطانيين كخبراء ، وبواقع ضابط واحد لكل لواء من الوية المشاة الاربعة ، وان الحكومة المصرية ستجد نفسها مضطرة الى قبول هذه الخبرة » .

واضاف لويد ان المفتش العام بحصوله على السلطات الفعالة سيشعر بالثقة ، ويستطيع بذلك ان يسيطر على استخدام هذه المدافع الآلية ، والتقليل من خطورة استخدامها (٤) .

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b No 79 op cit

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b No 82 op cit

(٣) P.R.O. F.O. (407-204) b No 87 op cit

(٤) P.R.O. F.O. (407-204) b No 82 op cit

وقد وافق الجنرال هوكنج - قائد قوات الاحتلال - بالتالى على تدعيم الجيش المصرى بهذه المدافع الآلية ، بشرط ان توافق الحكومة المصرية على الترتيبات السابقة كاجراء وقائى بالنسبة لامن قوات الاحتلال فى مصر •

وأتفق أيضا كل من لويد والمفتش العام وكذلك قائد قوات الاحتلال فى أن الطريق المؤكد لابعاد الجيش المصرى عن السياسة فى تلك المرحلة من التطور ، هو تحقيق السيطرة البريطانية على الترقيات والتعيينات والاوسمة على خطوط سليمة ••• اما العمل على استبعاد الضباط البريطانيين عن الجيش المصرى - وهو المبدأ الذى كان يعتنقه السير لى ستاك - فأمامه اعتراضات قوية من وجهة النظر البريطانية :

١ - ان تعهد مصر بالضمانات التى تطالب بها بريطانيا سيصبح من الصعب تحقيقه •

٢ - ان الجيش المصرى سيتحول بسرعة الى جهاز سياسى

٣ - انه بالنسبة لمصلحة الحدود ، فان بريطانيا ستفقد نفوذها على القبائل فى المناطق النائية بدون الحصول على اى تعويض فى مقابل ذلك (١) •

وأكد لويد - فى هذا السياق - أن بريطانيا تتعامل مع حكومة رفضت السماح بشرعية التحفظات الاربعة ، وانه يمكن التعامل مع اى حكومة مصرية تتمسك بالموافقة على هذه التحفظات ••• « لا انه مع وجود برلمان معها فانه لا يمكن لاى حكومة مصرية اتخاذ سياسة ايجابية مع بريطانيا » (٢) •

وفى ٢٢ مارس ١٩٢٧ اقترح لويد كعملية (تكنيكية) الاتصال بالحكومة المصرية على الخطوط التالية :

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b No 87 op cit

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b No 79 op cit

« نحن نطلب تسوية ودية مع مصر ، وايا كانت هذه التسوية ، فانها سوف تساعدنا فى حماية مصالحنا الحيوية ، ومن بين هذه المصالح حماية مواصلاتنا الامبراطورية ، وحماية مصر من العدوان الاجنبى ونحن نتمنى ان يتحول الجيش المصرى الى قوة حديثة ذات كفاءة ، وتشكل جزءا مكملا لخطتنا الدفاعية ، ونحن مستعدون ان نمنح مصر كل المعاونات لتشكيل مثل هذه القوة طبقا لشروط خاصة طالما هى متعاونة معنا . ويجب ان يتم تدريب هذه القوة المصرية الحديثة على الخطوط البريطانية ، مع توافر العدد الادنى من الضباط (الخبراء) البريطانيين اللازمين .

« ونحن قد جذبنا الانتباه مؤخرا - اكثر من مرة - الى اتجاه غير مريح من جانب الحكومة المصرية لجعل الجيش المصرى أداة سياسية ، وهذا ما ادى الى انهيار جيوش عديدة فى مناطق كثيرة . قد صاحب ذلك مجهودات لالغاء سلطات المفتش العام والضباط القليلين الذين لا يزالون يعملون فى خدمة وزارة الحربية . وهذه الاتجاهات سوف تقضى على فرص التسوية الودية للمسالة . وانا ارجو مخلصا التوفيق فى دفع اساس الحل المرضى لكلا الدولتين ، ولذلك اطلب من مصر اعادة النظر فى موقفها .

« ومن اجل التوصل الى تسوية مؤقتة Modus Vivendi فنحن من جانبنا مستعدون للموافقة على اقتراحات معينة فى صالح مصر ، على ان تقوم مصر بالمقابل بمراعاة مصالحنا .

« واذا لم توافق الحكومة المصرية على هذه المقترحات ، فلا بد أن ان يكون واضحا انه ليس امامنا خيار ، بل إعتبار الجيش المصرى كعدو محتمل لنا ، وفى هذه الحالة سوف نضطر الى اتخاذ اجراءات وقائية بدون تاخير لحماية حقوقنا ومصالحنا » (١) .

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b No 82 op cit

الا أن هذه السياسة - فى رأى لويد - لا يمكن ان تكون سوى حل موقت لان الحكومة المصرية سوف تفضل فى النهاية ان تقدم استقالتها • الا ان مستشارى لويد ابلغوه ان قسما كبيرا من رجال حزب الوفد لن يعارض المطالب البريطانية ، ومع ذلك سجل لويد ان سعد زغلول هو حجر الزاوية فى الموافقة أو الرفض بالنسبة لهذه المطالب (١) •

كما اضاف لويد « انه من المحتمل ان يتحقق سعد زغلول من ان مصر قد تفقد أكثر بالمخاطرة باثارة أزمة مع بريطانيا فى هذه الفترة ، لانه من المتوقع ان تجد مصر نفسها لفترة غير قصيرة بدون وزارة •••• وفى مثل هذه الحالة ، فان تسلط القصر على مجريات الامور السياسية سيكون امرا محتما » (٢) •

وعبر لويد عن اعتقاده بانه فى امكان تشمبرلن الدفاع عن مقترحاته فى مجلس العموم رغم انها بمثابة تسوية مؤقتة للمسألة ، (٣) وانه يمكن تلخيص المسالة امام الحكومة البريطانية ببساطة ، بانه لا يمكن التعامل مع اى حكومة مصرية مهما كانت متعاطفة مع الانجليز مع وجود برلمان معها ، وانه لا بد من وقفة بريطانية صلبة ضد المشروعات المصرية لاقامة الجيش المصرى القوى (٤) •

كما عبر لويد عن استيائه بالنسبة لعلاقاته مع رئيس الوزراء المصرى (ثروت) فبعد ان كانت هذه العلاقات ودية ، فانها ساءت كنتيجة حتمية لتمسك المندوب السامى بالدفاع عن المصالح البريطانية ، وان الجيش المصرى هو أخطر نقطة فى هذه المصالح (٥) •

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b No 87 op cit
(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b No 82 op cit
(٣) P.R.O. F.O. (407-204) b No 87 op cit
(٤) P.R.O. F.O. (407-204) b No 79 op cit
(٥) P.R.O. F.O. (407-204) b No 87 op cit

وقد علق تشمبرلن على آراء لويد بأنه من المهم - من وجهة النظر البريطانية - جعل الحكومة المصرية توافق على ممارسة الجنرال سبنكس وغيره من الضباط البريطانيين لسلطاتهم ، وأن الحصول منها كتابة على هذه الموافقة بعد امرا ملزما فى انتظار عقد اتفاق نهائى بالنسبة للتحفظات الواردة فى تصريح ١٩٢٢ ٠

كما ركز تشمبرلن على اهمية تنسيق التعاون بين الجيشين المصرى والبريطانى للدفاع عن مصر ، وان « مزايا ذلك واضحة ٠٠٠ فاننى اقلل من المخاطرة التى قد نواجهها لو أن مصر نجحت فى دخول عصبة الامم ٠ والواقع ان ضعف موقفنا يرجع بصفة رئيسية الى ان منظمة دولية مثل محكمة العدل لن تعترف بان التحفظات الاربعة تجعل وجود جيش الاحتلال فى مصر امرا مشروعا (قانونيا) ، الا انه باتفاق عسكرى مكتوب يمكن وضع اساس للمشاركة وبموافقة كلا الطرفين ٠ كما ان مثل هذا الاتفاق بطبيعة الحال سيدعم شيئا ما مسألة ابعاد الجيش المصرى عن المسرح السياسى » (١) ٠

كما عبر لويد عن قلقه من ان يصدر البرلمان المصرى فى هذه الفترة قرارات خاصة بالجيش المصرى يضع بها بريطانيا امام الأمر الواقع Faits accompli واوضح ان مثل هذا العمل سوف يجعل اتصالاته مع الحكومة المصرية اكثر صعوبة ، وسلم بان امله الوحيد يتركز فى محاولة اقناع رئيس الوزراء بالعمل دون ان يستسلم للضغوط من جانب الوفد والبرلمان ٠

كما طلب لويد من تشمبرلن ان يمنحه السلطة فى اتخاذ اية اجراءات ضرورية فى حالة فشله فى اعاقة لبرلمان عن اتخاذ قرارات متطرفة من وجهة النظر البريطانية - وانه فى مثل هذه الظروف « ٠٠٠ فاننى ساقدم الى مجلس الوزراء فرصة للتعاون الودى على الخطوط العامة للمذكرة

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No 84 (J. 720/184/16)
Mr. Murray to Sir W. Tyrell (in Cairo) F.O. March 26, 1927.

التى سبق ان اقترحتها فى ٢٦ مارس » (١) واسترسل لويد موضحا « أن رفضه لهذا العرض البريطانى سوف يساعدنى فى اتخاذ الحل الذى أراه » (٢) ٠

وقد وافق تشمبرلن على مقترحات لويد السابقة ، كما اكد على لويد بأن لا يصور للمسئولين المصريين بأن المدافع الآلية هى مرتقبة الوصول الى مصر (٣) ٠

والواقع ان خطط لويد ومقترحاته وآراءه فى كيفية حل ازمة الجيش المصرى فى هذه المرحلة ستكون اساسا للطريقة التى عالج بها هذه المسألة الشائكة ـ من وجهة النظر البريطانية ـ وستكون كذلك اساسا لاتصالاته المكثفة فى هذا الصدد ، عملا على حل الازمة بأقل قدر من الخسائر فى جانب بريطانيا وبأقل قدر من التدخل فى الشئون المصرية ٠

اتصالات لويد لحل الأزمة :

فى أوائل مايو ١٩٢٧ ، بدأ لويد اتصالاته المكثفة مع المسئولين المصريين لاجهاض تلك الفورة الوطنية من أجل بناء الجيش المصرى القوى ، فهو بعد الدراسات التى اعدها ، والمراسلات العديدة التى تبادلها مع المسئولين فى وزارة الخارجية البريطانية ، بدأ خطة العمل بهذه الاتصالات ٠ فبدأ فى بداية مايو ١٩٢٧ بمقابلة مع الملك فؤاد ، وتطرق الحديث بينهما عن ازمة الجيش المصرى ٠ وقد امتدح الملك التدخل الانجليزى فى شئون جكشه ، واوضح ان هذا التدخل ليس فقط خطوة متعقلة بل انها متأخرة ايضا ٠ واعتبر لويد ان اراء الملك معقولة ومعتدلة ٠ ثم سعى المندوب السامى بعد ذلك ـ واثناء مقابلته مع الملك ـ فى

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b No 82 op cit

(٢) P.R.O. F.O. (407 204) b No. 85 (J. 743/184/16
No. 98 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain Cairo, March 27, 1927.

(٣) P.R.O. F.O. (407-204) b No. 88 (J, 922/184/16)
No. 101 Sir Austen Chamberlain to Lord Lioyd (Cairo) F.O. April 13, 1927.

تعميق الهوة بين الملك وحزب الوفد باشارته الى أن من اهداف الوفد الاطاحة بالاسرة المالكة . وفى النهاية استخلص لويد من الملك وعدا بان يبذل جلالته كل مساعيه لضمان الموافقة على المطالب البريطانية ، كما اوضح بان ثروت باشا (رئيس الوزراء) سوف يسعى للموافقة عليها ، ولكنه شكك فى موقف سعد زغلول .

اما ثروت فقد أوضح - اثناء مقابلة له مع المندوب السامى فى نفس الفترة - عن امله فى أن يكون قادرا على تلبية الرغبات البريطانية ، الا انه طلب جعل هذه المسالة شخصية وغير رسمية حتى يجد الفرصة لمناقشتها مع الملك وفى اجتماع مجلس الوزراء ، وقد وافق لويد على ذلك ، ولكنه علق بانه سوف يؤكد بان الحكومة البريطانية لن توافق على سياسة التسويف ، ان موقف المفتش العام يجب أن يتحدد فى القريب العاجل (١) .

ويبدو أن ضغط ازمة الجيش كان كبيرا على الحكومة البريطانية ، حتى انها قامت بعدة اتصالات دولية بخصوص هذه الازمة ، ففى ١٠ مايو ١٩٢٧ استدعى المندوب السامى السفير الفرنسى فى القاهرة ، المسيو جيلارد Gaillard وابلغه باتجاهات الحكومة البريطانية بالنسبة لأزمة الجيش المصرى ، وقد ابدى الممثل الفرنسى موافقة حكومته الكاملة على السياسة البريطانية ، كما عبر عن وجهة نظره فى أن الحكومة المصرية قد تفضل الموافقة على المطالب البريطانية على المخاطرة برفضها (٢) .

كما ان السنيور موسولينى ارسل الى سفيره فى القاهرة فى نفس الفترة ، يطلب ابلاغ المندوب السامى تعاطفه واستعداده لبذل أى مساعدة بالنسبة للصعوبات التى تواجه بريطانيا مع الحكومة المصرية بالنسبة

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No 90 (J. 1217/184/16)
No. 172 Lord Lioyd to Sir Austen Chamerlain. Cairo, May, 9, 1927.

(٢) P.R.O. F.O.(407-204) b No 91 (J. 1222/184/16)
No. 175 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, May, 10, 1927.

لأزمـة الجيش (١) ٠

واستمر لويـد فى اتصالاته المكثفة مع المسئولين المصريين ، فقابل ثروت باشـا مـرة اخـرى فى ١٢ مايو ١٩٢٧ وعرض عليـه خطة للتعاون الودى فى الامور الحربيـة بتعليمات من الحكومة البريطانيـة ٠ الا ان رئيس الوزراء اوضح بان المطالب البريطانيـة غير معقولة ، وابرز شكوكه بالنسبة لمساعدة سعد زغلول فى الموافقة على هذه المطالب ٠ واضـاف رئيس الوزراء انـه سوف يزور سعدا فى مزرعته بالريف ويناقش معه تطورات الازمـة ٠ كمـا تساءل ثروت عمـا اذا كانت بريطانيـا ستوافق على مقترحـاته الخاصـة كجعل الضباط الانجليز فى الجيش المصرى على شكل بعثة عسكريـة ، فاجاب لويد بأن الحكومة البريطانيـة مستعدة للموافقـة على هـذه المسالة الشكلية لمسـاعدته امـام البرلمان وامـام الراى العـام المصرى ، ولكن مـع ضـمان السلطـات والاختصاصات الضروريـة للمفتش العام ٠ ولـم يستطع لويد ان يستخلص شيئا من كلمات ثـروت باشـا ، ولكنـه استنبط أن ثـروت سوف يزور سعد زغلول فى منزله الريفى ومعه كل اعضـاء مجلس الوزراء لمنـاقشـة الازمـة (٢) ٠

وبدا ان سعدا هو حجر الزاويـة فى الموافقة او عـدم الموافقة عـلى المقترحـات البريطانية ٠

ولم يهدا لويـد ، بـل قابـل الملك فؤاد مـرة اخرى فى منتصف مايو ١٩٢٧ ، واوضـح الملك انه يبذل قصارى جهـده لاقنـاع رئيس وزرائه بالموافقـة على المطالب البريطانيـة ٠٠٠ الا ان لويـد سجل بانه قـد تبين لـه مـدى تقييد الدستور المصرى للملك ٠٠٠ هـذا بالاضـافة الى انـــه لو قـام الملك بتـدعيم موقف البريطانيين فانه سـوف يتهم بالخيانة العظمى وقـد يمنعه المتطرفون من السفـر الى لندن لكى لا يزيـد من هـــذه الخيانة ،

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No No 95 (J, 1346/8/16)
No. 195 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain, Cairo, May 22, 1927.

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b No 92 (J, 1268/184/16)
No. 80 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain Cairo, May 13, 1927.

هـذا بالاضـافـة الى أن الملك نفسـه - طبقا لكلمـات لويـد - كـان متمسكـا بعدم اجراء اى عمل منـاف للدستور .

وفى المقابلة التاليـة مـع ثروت ، فهم لويـد أن ثروت لـم يقم بزيـارة سعد فى منزله الريفى ، وأن كل رجـال الوفـد كانوا فى بيت سعـد ما عـدا وزيـر الحربيـة الجديـد . وفسر رئيس الوزراء سبب عـدم زيارته لسعد، بانه لم يرد ان يفهم العـامة بان الزيـارة تمت بنـاء على استدعـاء سعد له . هـذا بالاضـافـة الى ان موقفه سيكون صعبـا عنـد مناقشـة ازمة الجيش وهو فى قبضـة رجـال حزب الوفـد ، وانه يفضـل اتخاذ قـراره مستقلا .

ومع ذلك ، اكـد ثروت باشـا اهمية مقابلة سعد زغلول بوصـفه رئيس الأغلبية فى البرلمان ، وانه سيدعوه الى مقابلته عند عودتـه من منزله الريفى الى القاهرة . وترجع اهمية ذلك - فى راى رئيس الوزراء - الى انه سوف تثور فى البرلمان مناقشـات حامية ضـد المقترحـات البريطانية ، وكذلك ستثور مناقشات بالنسبة للعلاقة بين هذه المقترحـات وتصريح ١٩٢٢ ، ونظرية المسئولية الوزاريـة . واضـاف رئيس الوزراء أنـه لا يستطيع انكـار ان مذكرة سوف تقـدم الى مجلس النواب توصى بالغـاء السردارية واستبعاد المفتش العـام من مجلس الجيش ، وان هـذه المذكرة يظاهرهـا عـدد كبير من اعضـاء البرلمان الوفديين . وعبر رئيس الوزراء عن قلقـه الشديد امـام هذه الأزمـة وانه يتوق الى حل سريـع لهـا حتى يمكن تلافى اية مشكلات فى المستقبـل ، لان البرلمان مستعد تماما لمهاجمـة اى عمـل من جانب الحكومـة يقدم « العمـل الودى » كعمـل ممكن تجـاه بريطانيا .

واضـاف رئيس الوزراء - خلال لقـائه مـع لويـد - بأنه سيبذل جهده كى يستميـل اعضـاء البرلمان الى جانبه ، وانه اذا استطاع ان يهـزم سـعد زغلول فانـه يكون قـد كسب نصف المعركة .

الا أن لويـد ابرز للملك فؤاد ولثروت باشـا خطورة تأخـر حـل الأزمة ، وأن المفتش العـام يعمـل بلا عقـد منذ أول ابريـل ١٩٢٧ . وانـه

- أى المندوب السامى - اذا كان يعالج الازمة بطريقة غير رسمية ، فانه يجب عدم اغفال ان كل المراسلات بينه وبين ثروت هى كلهـا مراسلات رسمية . وهنا أوضح ثروت انه بعد مقابلته لسعد زغلول يمكنه أن يجيب على المطالب البريطانية فى ضوء هذه المقابلة . الا أن لويد علق على ذلك بقوله « ان رئيس الوزراء المصرى لم يعط اى تأكيدات، وانه قد يكون مماطلا ، ويسعى لكسب الوقت » (١) .

ولم ينس لويد ان يقابل وزير الحربية جعفر والى باشا فى ١٩ مايو ، الا انه لم يدخل معه فى تفصيلات المطالب البريطانية بخصوص الجيش المصرى لأن ثروت باشا كان قد طلب منه ترك المسالة له ليحلها هو بطريقته الخاصة . وقد رحب الوزير بالسياسة البريطانية القائمة ، باعتبارها موجهة ضد حزب الوفد ، كما الح فى وجوب الاعتماد عليه لضمان تحقيق حل للأزمة يتفق مع رغبات الحكومة البريطانية ، وانه قد عقد علاقات حسنة مع المفتش العام (٢) .

وفى بداية الاسبوع الاخير من شهر مايو ، قابل المندوب السامى الملك فؤاد مرة اخرى ، واوضح الملك انه حث رئيس الوزراء بقوة للموافقة على المطالب البريطانية الخاصة بالجيش المصرى ، وانه مع وجود صعوبة جانبية بالنسبة لاختصاصات السردارية ، فان كل شىء يسير سيرا حسنا (٣) .

كما قابل لويد رئيس الوزراء مرة اخرى فى نفس هذه الفترة ، وشعر انه يماطل من اجل كسب الوقت ، فأرسل له مذكرة تلخص مطالب الحكومة البريطانية ، ومبنية على مذكرته التى سبق أن ارسلها

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b No 93 (J. 1310/184/16)
No. 186 Lord Lioyd to Sir Austen Chamerlain. Cairo, May 17, 1927.

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b. No 94 (J, 1322/184/16)
No. 188 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, May 19, 1927.

(٣) P.R.O. F.O. (407-204) b No 96 (J, 1337/184/16)
No. 201 Lord Lioyd to Austen Chamberlain. Cairo, May 24, 1927.

الى وزارة الخارجية البريطانية فى ٢٢ مارس ١٩٢٧ (١) ٠

واكد لويد لثروت باشا مرة اخرى ان الحكومة البريطانية ترحب بفرصة وضع المطالب البريطانية فى خطة أكبر للتعاون ، حيث يمكن للجيش المصرى أن ينسق مع القوات البريطانية فى مصر لوضع خطة شاملة للدفاع عن البلاد وأنه برحب بأى مقترحات مصرية فى هذا الصدد ٠

كما أورى لويد - انه اذا ما رغب ثروت - فانه يمكنه مقابلة سعد زغلول والتباحث معه للتوصل الى حل للأزمة ، ولكن ثروت باشا طلب منه ارجاء هذه المقابلة حتى يمكن له مقابلة سعد باشا اولا وطبقا لكلمات لويد ، فان موقف ثروت بدا يرثى له أمام تأثير سعد زغلول الساحق على نواب البرلمان ٠

ولم يلبث ان عاد ثروت وابلغ المندوب السامى بأن سعد زغلول فضل تأجيل مقابلته الى ما بعد تسوية ازمة الجيش بطريقة مريحة ٠٠ وفى وسط هذه الدوامة من المقابلات والاتصالات والمراسلات ، سجل لويد « أن الجو العام سيىء جدا وان المناخ السياسى ملىء بالغيوم السوداء » واضاف لويد « ان البلد يبدو هادئا ، الا ان الحكومة البريطانية يجب ان لا تنسى ان احداث ثورة ١٩١٩ قد وقعت وهى فى غفلة عنها » ٠

وعلى اية حال ، فقد عاد ثروت مرة اخرى وقدم اقتراحا مضادا وافق عليه سعد زغلول يقضى بتنه عند الغاء السردارية . فانه يمكن استحداث وظيفة رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى على ان يحتلها ضابط بريطانى ، بالاضافة الى المفتش العام البريطانى ايضا ، فطلب لويد من ثروت تقديم هذا الاقتراح كتابة ، الا ان ثروت لم يقدم هذا الاقتراح مكتوبا ٠٠ ولكنه عاد مرة أخرى وقدم عرضا جديدا يقضى بان يكون كل من رئيس هيئة أركان حرب الجيش والمفتش العام - وكلاهما انجليزى - فى رتبة واحدة ٠ وأن يحل الاول محل السردار ، ويستحوذ على كل سلطاته ٠ الا أن لويد اثناء مناقشة هذا العرض ،

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b No 82 op cit.

اوضح ان العمل لا بسير حسنا بين ضابطين بنفس الرتبة ، الا ان رئيس الوزراء اجاب على ذلك بأن مستشاريه العسكريين ليس لديهم اعتراض على ذلك ، باعتبار أن الاقدم فى نفس الرتبة يعطى التعليمات للأحدث فى نفس الرتبة ، وبمعنى آخر ان يكون رئيس هيئة اركان حرب الجيش اقدم من المفتش العام رغم انهما فى رتبة واحدة ٠

ورويدا رويدا بدأ ثروت باشا يكشف عن رايه بصراحه ، وكذلك راى الزعماء السياسيين ٠٠ فاوضح « ان هناك بعض المسائل القانونية قد تؤدى الى بعض الصعوبات ، وان بعض الزعماء قد اثاروا مسالة ان الجيش المصرى لا يدخل فى اطار التحفظات الاربعة ٠٠ واكثر من ذلك ، فان المادة السابعة من قرار تشكيل مجلس الجيش تعطى لوزير الحربية الحق القانونى الواضح للتدخل فى كل التعيينات والترقيات والأوسمة ، وبتوصية من لجنة الضباط ، وان الحكومة المصرية لا يمكنها ان تسلم فى هذا الحق » كما اضاف ثروت انه ليس هناك اى امل فى اقناع البرلمان بتعديل ذلك القانون ، كما انه غير قادر على اقناع الوزراء بالموافقة على تغيير تبعية مصلحة الحدود وجعلها تحت الاشراف البريطانى ٠ فاوضح المندوب السامى لثروت باشا عن خيبة امله ، وانه حتى بالنسبة للاقتراح الخاص بتعيين رئيس لاركان حرب الجيش المصرى، فانه لا يوجد ضابط بريطانى يحترم نفسه يتقبل هذا المنصب فى مثل هذه الظروف ٠

وعلق لويد على هذه المقابلة مع رئيس الوزراء بان « علينا أن نتخذ خطوات اخرى لتامين مصالحنا » كما ابرق الى تشمبرلن بأن « رئيس الوزراء المصرى مماطل » (١) ٠

وفى الاسبوع الاخير من مايو شعر لويد ان سعد زغلول يتدخل فى المسالة عن طريق وزراء الخارجية والاشغال العمومية والمواصلات . الذين اختاروا وجهة نظر وطنية فى مواجهة المطالب البريطانية الخاصة بالجيش

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No 96 op cit

المصرى . وقد ارجع لويد هذا التحول Volta Fare من جانب هؤلاء الوزراء بعد أن كانوا قد وافقوا على هذه المطالب البريطانية الى خوفهم من الاتجاه المعارض للنواب الوطنيين ، والى اقتناعهم بأنه ليس فى امكانهم التصدى للعاصفة التى سوف تثيرها موافقتهم على المطالب البريطانية فى البرلمان . ويجب ان نشير فى هذا الصدد الى انه فى اجتماع لحزب الوفد فى بداية الاسبوع الاخير من مايو ، كرر سعد زغلول عزمه على رفض المطالب البريطانية ، ووافق الحاضرون على رايه بالاجماع (١) .

ولم ينس لويد - غمرة تحركاته - مقابلة عدلى يكن ايضا فى ٢٤ مايو ، وناقش معه ازمة الجيش ، وعبر عدلى عن جهله الكامل بالموضوع رغم أن عملاء لويد السريين كانوا قد ابلغوه - طبقا لكلماته - ان عدلى كان قد قام بمباحثات فى الموضوع مع ثروت وسعد قبل مقابلته للويد ببضعة ايام . وعلى اية حال ، سجل لويد ان عدلى « كان وديا أثناء المقابلة ، وانه سيبذل كل جهده لاقناع الحكومة بأنه من الحماقة معارضة اقتراحاتنا » .

وتطورت الامور بسرعة ، ففى ٢٤ مايو تسلم لويد مذكرة خاصة من رئيس الوزراء تمسكت فيها الحكومة المصرية رسميا بالنقط التالية على أسس قانونية :

١ - أن الجيش المصرى لا يدخل ضمن اى من التحفظات الاربعة الواردة فى تصريح ١٩٢٢ ، وان لمصر مطلق الحرية بالتالى للعمل فى هذا القطاع .

٢ - ان توصيات لجنة الضباط خاضعة لموافقة وزير الحربية .

٣ - ان الاقتراح الذى قدمه رئيس الوزراء بتعيين رئيس لهيئة اركانحرب الجيش المصرى هو نابع اساسا من الرغبة فى تلبية احتياجات

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b No, 97 (J, 1383/184/16)
No. 202. Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, May 25,1927.

الجيش وابعاده عن اية اعمال لها طبيعة سياسية . ومن ثم تمام المندوب السامى بمقابلة الملك فؤاد وابلغه بما جاء فى مذكرة رئيس الوزراء ، وقد انزعج الملك كثيرا من هذا النبأ ، خصوصا وانه كان على شفا سفر الى لندن ، وقد تعهد الملك بتدعيم المطالب البريطانية ، وعلق لويد على ذلك « ليس هناك من شك فى ولائه ، فهو افضل المساعدين لنا » (١) وعلى اية حال ، جاءت الانباء الى لويد بأن البرلمان سوف يناقش مشروع ميزانية الجيش المصرى للعام التالى فى يوم ، ٢٥ مايو ، (٢) فقرر ارسال مذكرة خاصة يكرر فيها المطالب البريطانية المعروفة طبقا لمراسلاته السابقة فى هذا الصدد . (٣) .

المذكرة البريطانية الى الحكومة المصرية :

من التسلسل السابق ، يتضح انه فى الاسبوع الاخير من مايو ١٩٢٧ وقعت احداث خطيرة بالنسبة لازمة الجيش ، فقد وجه ثروت باشا بصفته الشخصية مذكرة رفض فيها اى حق قانونى للحكومة البريطانية فى التدخل فى شئون الجيش المصرى ، كما ان البرلمان المصرى امتلا بمناقشات عنيفة معادية لبريطانيا ، وتضمنت هذه المناقشات مطالب باعادة تشكيل مجلس الجيش واستبعاد المفتش العام من عضويته . وبدا أن البرلمان سوف يبحث المسألة برمتها فى الايام الاخيرة من شهر مايو ... واعتبر لويد انه من الاهمية بمكان القيام بعمل مضاد وبطريقة فورية . وهكذا اعد مشروع مذكرة يحتوى على المطالب البريطانية للتصديق عليه (٤) . ولا يختلف هذا المشروع عما

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No 99 (J. 1388/184/16)
No. 203 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, May, 24,1927.

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b No 101 (J 1389/184/16)
No. 207 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain Cairo May 25, 1927.

(٣) P.R.O. F.O. (407-204) b No 99 (J. 1334/184/16)
No. 204 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, May 24, 1927.

(٤) P.R.O. F.O. (407-204) b No 174 Memorandum reviewing the Egyptian Army Crisis, C.M. Pauiche. F.O. June 29, 1927.

سبق ان ارسله من مذكرات تطالب بمكانة كبرى للمفتش العام وتعيين مساعد له ، والسيطرة البريطانية على لجنة الضباط وعلى مصلحة الحدود (١) .

وقد اجابت وزارة الخارجية البريطانية على المندوب السامى بثلاث برقيات توضح فيها وجهة نظرها ، ففى البرقية الاولى ، وافقت وزارة الخارجية من ناحية المبدأ على مشروع المذكرة الذى كان لويد قد رفعه اليها ، الا ان تشمبرلن لم يوافق موافقة صريحة على كل ما جاء فى المذكرة ، فقد اوضح انه قد فهم من مراسلات لويد السابقة ان الحكومة المصرية غير قادرة على مواجهة البرلمان « .. لأنه لن يوافق بحال على مطالبنا ، وان علينا ان نطلب من الملك فؤاد حل البرلمان ، وان نعتمد نتيجة لذلك على جلالته فى تشكيل حكومة نستطيع التعامل معها ... وانه فى مثل هذه الظروف ستكون هناك فرصة للتوصل الى تسوية شاملة افضل من التى نطالب بها الآن » (٢) .

ثم بدا تشمبرلن يعدل فى مشروع المذكرة التى اقترح لويد ارسالها الى الحكومة المصرية (٣) . واخيرا ارسل تشمبرلن فى برقيته الثالثة مذكرة تمكن لويد من ارسال مذكرة الحكومة البريطانية على ضوئها الى الحكومة المصرية . وقد ركز تشمبرلن فى هذه المذكرة على اهمية صياغة اتفاق بين الحكومتين ، تتعهد الحكومتان بمقتضاه على تنسيق التعاون بين الجيش المصرى ، والجيش البريطانى للدفاع عن مصر ضد اى عدوان خارجى . كما نصت المذكرة ايضا على مسئولية الحكومة البريطانية عن تدعيم الجيش المصرى بالخبراء البريطانيين اللازمين ، هذا بالاضافة الى مسئولية الحكومة البريطانية عن امداد الجيش المصرى بالأسلحة والذخائر ، على أن لا تحاول الحكومة المصرية الحصول

---

(١) P.R.O. F.O (407-204) b, No. 82 op. cit.

(٢) P.R.O. F.O (407-204) b No 102 (J 1389/184/16)
No. 153 Sir Austen Chamberlain to Lord Lioyd. F.O May, 27, 1927

(٣) P.R.O. F.O (407-204) b, No. 103 (J, 1389/184/16)
No. 154 Sir Austen Chamberlain to Lord Lioyd. F.O. May 27, 1927

على هـذه الاحتيـاجات من مصدر آخـر غير بريطانيا (١) ٠

وقد علق لويـد على فكـرة مشروع الاتفـاق بين الحكومتين المصريـة والبريطانية ، بأنه « يحقق حلا ممتازا ، وانني سابذل كل جهودى لضمان تحقيقه » (٢) ٠

وبعد ذلك اعـد لويـد مذكرة مطولة تضـم كل المطالب البريطانيـة من الحكومة المصريـة ، وارسـلها الى تشمبرلن كى يحصـل منه على الموافقـة النهائيـة حتى يمكنه ارسالهـا الى الحكومـة المصريـة (٣) ٠ وبعـد دراسـة عميقة لمسودة هذه المذكـرة ، اجاب تشمبرلن بملاحظـات عليهـا بالنسبة لبعض النقط وحاول التقليل من عنف كل منهـا ، (٤) واضـافة بعض المقـاطع اليهـا ، مـع تعديـل البعض الآخـر ، مـع تبيـان ان تنفيـذ المطالب البريطانية الواردة فى هـذه المذكرة ، سـوف يؤدى الى صالـح الطرفين (٥) ٠

وحاول لويـد فى غضون هذه الفترة ان يصور لتشمبرلن الموقـف المضطرب والمعـادى للبريطانيين فى مصر ٠٠ ففى ٢٧ مايو قـدم مجلس الجيش توصياته القاضية بالغـاء السرداريـة لتعارضهـا من ناحية المبدأ مـع المسئولية الوزاريـة ، واوصى المجلس كذلـك باعادة تشـكيل مجلس الجيش مـع استبعـاد المفتش العـام (الانجليزى) من عضويته ، وكذلك الغـاء لجنة الضباط ٠ هـذا بالاضـافة الى أن حـزب الوفـد أبرز عن سلوكه المعادى تماما للانجليز ، وحاول مقاومـة المطالب البريطانية باى ثمن ومهما كلفه الامر Coûte que Coûte وسجل لويد انه فى مثل هذه الظروف، فاننـا لا يجب أن نعطيهم اى انطباع عن خوفنا من هـذا التحـدى : فـاى

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 105 (J. 1389/184/16)
No. 156 Sir Austen Chambreain to Lord Lioyd, F.O. IMay 27, 1927.

(٢) P.R.O. F.O (407-204) b. No. 115 (J. 1466/8/16)
No. 211 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain, Cairo, May 31,1927

(٣) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 100 (J. 1392/184/16)
No. 206 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, May 25,1927

(٤) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 103 op. cit.

(٥) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 105 op. cit.,

تصرف قد يفهم منه انه ضعف من جانبنا سيؤدى لا محالة الى فرص الالتجاء الى العنف (١) ٠

كما ابلغ لويد تشمبرلن ايضا فى ٢٨ مايو انه فى اجتماع للهيئة التنفيذية لحزب الوفد فى منزل سعد زغلول فى يوم ٢٧ مايو ، قرر المجتمعون عدم التراجع عن اى بند من بنود مشروع ميزانية وزارة الحربية التى سبق واعترض عليها المندوب السامى ، كما قرروا مقاومة المطالب البريطانية مهما كانت النتائج ، (٢) وتنظيم المقاومة عند التصويت فى البرلمان ٠ واشار بعض المتحدثين فى هذا الاجتماع الى أن سياسة الاعتدال القائمة قد وضعت حزب الوفد فى حالة فقدان السمعة ، وأن الوقت قد حان للعودة الى السياسة التقليدية ، اى العداء الشديد للبريطانيين ٠

وفى يوم ٢٨ مايو ـ وفى انتظار وصول موافقة الخارجية البريطانية على مشروع المذكرة التى اقترح المندوب السامى ارسالها الى الحكومة المصرية ـ قام لويد بمقابلة الملك فؤاد لمعرفة مدى جهوده لاقناع رئيس الوزراء بالاستجابة للمطالب البريطانية ، وطبقا لما كان قد وعد به جلالته ٠ ولكن لويد سجل بأن اسلوب الملك كان متخاذلا ، وانه عبر عن فشلة فى اقناع ثروت بالاستجابة لهذه المطالب ، وان سعد زغلول متصلب تماما فى رايه القاطع بالرفض ، لان حزب الوفد يسعى لاستعادة مكانته التى اخذت فى الهبوط ـ طبقا لكلمات الملك ـ وذلك باستغلال مسالة الجيش المصرى كذريعة لتفجير العداء مع انجلترا ٠ كما استفسر الملك عما يجب ان تفعله الحكومة المصرية فى حالة رفض المطالب البريطانية ٠٠ هل سيطلب منه حل البرلمان ؟ وهنا حذر الملك بانه فى مواجهة حزب الوفد فانه سيجد انه من الصعوبة بمكان ان يفعل ذلك ٠٠ وأن هذا الطلب هو

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 108 (J. 1421/184/16)
No. 213 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, May 28, 1927

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 110 (J. 1422/8/16)
No. 214 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, May 28,1927

بمثابة دعوته الى ارتكاب انتحار سياسى . وسجل لويد ان الملك بدا خائفا تماما ، وان كانت صداقته مؤكدة لبريطانيا (١) .

وظلت الأزمة تشتد وتمتد ، وطلب لويد من تشمبرلن ارسال سفينتين حربيتين الى الاسكندرية وسفينة حربية الى بور سعيد كنوع من الارهاب عن طريق مظاهرة بحرية مسلحة ، واكد لويد ان هذا الاجراء سيكون له تأثير فعال ، وانه سيسمح بتأمين النفوذ البريطانى فى الميناءين فى حالة حدوث أى اضطرابات مفاجئة « تخطط لها الآن بلا شك قطاعات مختلفة من حزب الوفد » (٢) .

وفى هذه المرحلة ، طلب تشمبرلن من لويد نصح الملك فؤاد بعدم مغادرة الاراضى المصرية — بعد ان كان مزمعا السفر الى لندن — حتى يتم حل الازمة (٣) .

والواقع ان موقف الملك فؤاد كان صعبا .. اذ لم يكن من المتوقع منه ان يوافق فى ذلك الوقت على المطالب البريطانية الا فى حالة من الحالات الآتية :

١ — ان تقع مسئولية حل البرلمان على كاهل الانجليز ، وبذا يبدو الملك وكانه قد خضع لقوة قاهرة ، وانه غير مسئول عما حدث .

٢ — ان تمنحه بريطانيا ضمانات مؤكدة بمساعدته فى كل الظروف

٣ — ان تسمح له بريطانيا بالغاء الدستور .

والاعتراض على الحالة الثانية — من وجهة النظر البريطانية — هو ان الملك فؤاد غير محبوب من شعبه ، وان اعتماده على التأييد البريطانى لضمان مكانته ، سيزيد بلا شك من كراهية الشعب المصرى له ، بل

---

(١) P.R.O. F.O. F.O. (407- 204) b. No 111 (J 1423/8/16)
No. 215 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain Cairo, May 28,1927

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 112 (J. 1424/8/16)
No 216 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain Cairo, May 28,1927

(٣) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 113 (J. 1423/8/16)
No. 162 Sir Austen Chamberlain to Lord Lioyd F.O. May 30, 1927

سيجعله مكروها » بينما نظل نحن (الانجليز) نحمل الطفل »
To carry the boy حسب التعبير الانجليزى ٠

أما الاعتراضات بالنسبة للحالة الثالثة من وجهة النظر البريطانية فهى أكثر « لأنه اذا أخذنا فى حسابنا موقف الفئات السياسية المنظمة

فقط ، ولم نأخذ فى الاعتبار تلك الوطنية المفرطة لدى باقى المجتمع المصرى ، فسيكون تقديرنا خاطئا ، لان المشاعر الوطنية عند العامة مضافة الى الاهتمام الشخصى لدى السياسيين المحترفين ، وجدت هدفها فى الدستور ٠ والمصريون قد يشتكون من البرلمان ، ولكنهم اذا ما حرموا منه ، فانهم سوف يتحدون فى ثورة عارمة لاعادته ٠ وستكون تلك الثورة موجهة ضدنا (الانجليز) لاننا منعناه عنهم ٠ ومن المحتمل جدا انه فى مثل هذه الظروف ان نلجأ الى استخدام اجراءات عنيفة للمحافظة على النظام ، وفى نفس الوقت ، اذا ما كنا مرتبطين بأى تعهد تم منحه للملك ، فلن نكون فى موقف يسمح لنا بأن نعبد الحياة النيابية ٠٠٠ والواقع انه ليس أمامنا سوى السير طبقا للسبيل الاول ، ولكن علينا أن نكون مستعدين لمواجهة حالة من اضطرابات والقلاقل فى مصر » (١) ٠

وهكذا نستخلص من التحليل السابق ان الوضع الامثل لحل الازمة ـ من وجهة النظر البريطانية ـ انما يرتكز على اضطلاع الانجليز وحدهم بالحل عن طريق حل البرلمان او التلميح بذلك ، مما يؤدى الى خسوف السياسيين من الغاء الدستور ، ومن ثم تراجعهم عن الموقف المتصلب الذى وقفوه أمام المطالب البريطانية ٠

وعلى اية حال ، تم فى ٣٠ مايو ١٩٢٧ تسليم مذكرة الحكومة البريطانية الى الحكومة المصرية بعد تنقيحها وتعديلها عدة مرات طبقا للمراسلات المتبادلة بين لويد وتشمبرلن ٠ وقد ابلغ لويد ثروت باشا بأن « المذكرة كما سوف يرى قد صيغت طبقا لاكثر الشروط

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 174 op. cit

ودية ، وانها اعدت باسلوب يسهل عليه الحصول على الموافقة عليها ... » وحكومة جلالة الملك - الواثقة من مشاعره الودية تجاهها - تعتمد عليه فى بذله لكل جهوده لضمان الموافقة الكاملة عليها فى مجلس الوزراء والبرلمان ، وأن اتجاه آخر سوف يؤدى الى ازمة خطيرة جدا فى العلاقات بين البلدين » ٠

وقد قرأ ثروت باشا المذكرة جيدا ، واوضح بأن لهجتها الودية سوف تساعدة كثيرا فى التصدى لموقف الوفد المناوىء Vis avis وأكد للمندوب السامى بانه سيبذل كل جهوده لاحتواء الازمة التى بزغت ٠

واذا كان لويد لم يضع حدا زمنيا لاجابة رئيس الوزراء على المذكرة ، فانه اكد له بأن الاجابة عليها ملزمة تماما ٠

وعلى اية حال سلم لويد ثروت باشا نص المذكرة فى ٣٠ مايو طبقا لما سجله لويد فى مراسلته لتشمبرلن فى ٣١ مايو من ان « ثروت قام بزيارتى أمس (٣٠ مايو) وقد سلمته مذكرة حكومة جلالة الملك بخصوص الجيش المصرى » (١) وان كان عبد الرحمن الرافعى قد ذكر أن تسليم المذكرة للحكومة المصرية كان يوم ٢٩ مايو ، (٢) كما ذكر الزميل والصديق الاستاذ الدكتور عبد العظيم رمضان أن تسليم هذه المذكرة للحكومة المصرية كان يوم ٣١ مايو ١٩٢٧ (٣) ٠

وقد نصت تلك المذكرة الخطيرة على سلسلة من الاجراءات الخاصة بالجيش المصرى بهدف فى التوصيل الى تسوية ودية مع مصر بالنسبة للأمور المختلفة القائمة بين الدولتين (٤) وانه ايا كانت هذه التسوية ، فان الحكومة البريطانية ترى انه يجب على مصر ان تساعد بريطانيا على الدفاع عن مصر من العدوان الاجنبى ، وعلى حماية المواصلات

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 114 (J. 1553/8 /16)
Sir Austen Chamberlain to Lord Lioyd. F.O. June 2, 1927

(٢) عبد الرحمن الرافعى - فى أعقاب الثورة المصرية ج ١ ص ٢٧٣

(٣) د ٠ عبد العظيم رمضان - الجيش المصرى فى السياسة ص ٢٣٤

(٤) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 100 op cit

الامبراطورية ، كما نصت المذكرة ايضا على رغبة الحكومة البريطانية فى جعل الجيش المصرى قوة حديثة تتحلى بالكفاءة ، وتشكل جزءا من خطة الدفاع عن البلاد ، وهى لذلك مستعدة لان تقدم كل مساعدة ممكنة على ايجاد مثل هذه القوة ، بشرط ان تكون مدربة طبقا للقواعد البريطانية وباقل عدد من (الخبراء) البريطانيين لان هذه القوة ستدعى لتنسيق التعاون مع القوات البريطانية فى مصر ٠

الا ان المذكرة ـ من ناحية اخرى ـ اوضحت انه قد لوحظ فى الأيام الاخيرة ان هناك اتجاها مقلقا يرمى الى اقحام النفوذ السياسى فى الجيش المصرى ، وأن هذا الاتجاه برز باشكال مختلفة ، وانه قد تم جذب انتباه رئيس الوزراء المصرى الى خطورة هذا الامر عدة مرات ، كما سبق جذب انتباه سلفه وأضافت المذكرة ان الاتصالات مع رئيس الحكومة المصرية فى هذه المسألة كانت غير رسمية ، الا انه نتيجة لقلق الحكومة البريطانية أمام تهديد مصالحها بطريقة مباشرة ، فانها فضلت التدخل بادنى درجة من درجات التدخل ـ طبقا لما تسمح به الظروف ـ فى الشئون المصرية ٠

وهذا الاتجاه ـ اقحام النفوذ السياسى فى الجيش ـ أدى الى فشل جيوش عديدة من قبل ، واخيرا ارتبط هذا الاتجاه بمحاولات فعالة لتقليل اختصاصات المفتش العام للجيش ، وكذلك الضباط البريطانيين القلائل الذين يعملون فى المصالح المختلفة التابعة لوزارة الحربية ٠ وهذه المحاولات لقيت مؤخرا تأييدا فى بعض ما اوصت به لجنة الحربية البريطانية فى تقريرها الذى نشر حديثا ، وسيطرح للمناقشة قريبا فى البرلمان ، وترى الحكومة البريطانية ان الموافقة على هذه التوصيات تقلل كثيرا من الفرص التى تتهيأ للتسوية الودية لهذه المسألة الهامة بين مصر وبريطانيا ، ولذلك فانها تدعو الحكومة المصرية الى اعادة النظر فى موقفها بغير ابطاء ٠

كما اوضحت المذكرة ان الحكومة البريطانية ـ من اجل التوصل الى التسوية الودية ـ مستعدة للموافقة على توصيتين : الاولى بخصوص تخفيض الخدمة العسكرية الاجبارية من ٥ الى ٣ سنوات ، رغم ان هذه التوصية كانت هناك معارضة معلنة بالنسبة لها بخصوص زيادة الاحتياط المدرب ، وثانيا رفع كفاءة ٩ كتائب مشاة الى تدعيم أفضل ، وتحقيق زيادة

سريعة فى قوات المشاة (حملة البنادق) فى الجيش اصرى بأكثر من ١٦٠٠ جندى والمساعدة من جانب الحكومة البريطانية لمصر من اجل تشكيل قوة جوية مصرية ٠

وفى المقابل ، طلبت الحكومة البريطانية ـ طبقا لنص المذكرة ـ تحقيق الآتى :

١ ـ وجوب تمكين المفتش العام للجيش المصرى من ممارسة الاختصاصات التى سبق ان فوضها له هدلستن باشا فى يناير ١٩٢٥ ، اذ هى لم تلغ قط ، وانه لهذا الغرض يجب ان يمنح رتبة الفريق ورواتبه ومخصصاته ، وأن يوقع معه عقد لمدة ثلاث سنوات على الاقل وبصفة فورية ٠

٢ ـ اذا بقيت لجنة الضباط على شكلها الحاضر ، فيجب على وزير الحربية ان لا يتأخر فى ان يرفع الى صاحب الجلالة ملك مصر توصيات هذه اللجنة فيما يتعلق بالتعيينات والترقيات والاوسمة ، والامور الخاصة بالضبط والربط وحسن الانتظام العسكرى بصفة عامة ٠

٣ ـ أن يعين ضابط بريطانى كبير برتبة لواء ليكون مساعدا للمفتش العام ينوب عنه فى غيابه ، ويقوم بالاعمال التى يقوم بها المفتش العام نفسه ٠ وهذا الضابط ـ مساعد المفتش العام ـ يحل محله فى غيابه ، أو عندما يكون قائما بأعمال المفتش العام اقدم ضابط بريطانى يكون موجودا فى ذلك الوقت ٠

٤ ـ يجب ان تكون مصلحة الحدود (ومصلحة خفر السواحل اذا نفذ الادماج الذى تقرر اخيرا) تحت اشراف المفتش العام البريطانى للجيش أو نائبه فى غيابه ٠ ويمكن بدلا من ذلك ان يكون المدير العام لهذه المصلحة ضابطا بريطانيا ، كما كان الحال حتى ابريل ١٩٢٥ ٠

٥ ـ أن تظل المراكز التى يشغلها الآن ضباط او موظفون بريطانيون فى المصالح التابعة لوزارة الحربية ، وكذلك فى مصلحة خفر السواحل اذا

ما ادمجت فى مصلحة الحدود محفوظـة فى ايـد بريطانية ، ولا يـبغى أن تمس اختصـاصاتهم سواء بطريقة مباشرة او غير مباشرة .

٦ ـ فيما يتعلق بالاختصـاص القضـائى ، تظل الحالـة الحاضرة على ما هى عليه فى الجهـات الداخلة فى اختصـاص مصلحة الحدود ، أى يبقى النظـام العرفى فيها (١) .

وانتهت المذكرة بالتأكيد على أن هذه المطالب هى الحد الادنى الممكن لبريطانيـا ان ترضى به ، كمـا اضافت ان الحكومة البريطانية تامل فى أن ترسل لها الحكومة المصرية مقترحاتهـا من أجل تنسيق التعاون فى خطـة الدفـاع عن مصر (٢) .

ويتضح من المذكرة البريطانية السابقة أن الحكومة البريطانية كانت مقتنعة بأن الحل المناسب للازمـة ـ وجهة نظرهـا ـ هو توقيع اتفاق بين بريطانيا ومصر ، « وان الحكومة البريطانية مستعدة للدخـول فـورا فى مباحثات من أجل تحقيق هـذا الغرض ، وهى لا تستبعد احتمال اجـراء بعض التعديلات فى مطالبهـا كجزء من التسوية . الا انه فى انتظار توقيع هذه التسويـة ، فانه ليس امامهـا سوى أن تطلب من الحكومـة المصريـة تنفيذ الاجراءات (الواردة فى المذكرة) والسابق بيانها » (٣) .

وقد حلل المندوب السامى الموقف فى حاله اختيار الحكومـة المصريـة لاتجاه معارض لبريطانيـا بالنسبة لازمـة الجيش موضحا انه طبقا لمراسلة جرانفيل (No. 61 in 1884) فانه « لا يمكن الدفـاع عن مكانتنا الممتازة فى مصر طالمـا لا نملك القدرة على اسقاط الوزارة القائمـة والمتحدية لمصالحنا» واضـاف لويـد انه من ناحية اخرى يجب عـدم الغـاء النظـام الديمقراطى للحكومة بدون تقديم اسباب معقولة . لان هـذا الالغاء متعارض مع التقاليد

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 100 op. cit
انظر ايضا : ـ عبد الرحمن الرافعى ـ المصدر السابق ص ٢٧٣ ، ص ٢٧٤
و د . عبد العظيم رمضان ـ المصدر السابق ص ٢٣٤ ـ ص ٢٣٦

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 100 op cit.

(٣) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 174 op. cit

البريطانية . هذا بالاضافة الى ان حل البرلمان (المادة ٣٨ من الدستور المصرى) او تعطيل اعماله (المادة ٣٩ من الدستور) فان القرار الملكى فى كلا الحالين يتطلب موافقة رئيس الوزراء .

الا ان تعطيل البرلمان لا يعد اجراءا كافيا لتحقيق الاهداف البريطانية لان مدة تعطيل اعمال البرلمان لا تستمر سوى لشهر واحد ، ولا يمكن تجديده بدون موافقة المجلسين . وهكذا تبين ان حل المجلس (النواب) هو الاجراء الاكثر فعالية - من وجهة النظر البريطانية - لان أعضاء مجلس النواب الجدد سينتخبون فى شهرين أكثر قليلا ، كما ان البرلمان سيدعى للاجتماع بعد هذا الانتخاب بأكثر من عشرة أيام (المادة ٨٩ من الدستور) واسترسل لويد « اننا ما دمنا لا ننتظر اجابة فى صالحنا من رئيس الوزراء .. فان الحل الامثل عند رفض الحكومة المصرية للمطالب البريطانية هو حل البرلمان » (١) وقد وافقت الحكومة البريطانية على هذه الآراء ، (٢) لأنه فى هذه الحالة ، ليس امامها سوى اجبار الملك فؤاد على حل البرلمان ، والاعتماد على جلالته فى تشكيل حكومة بمكنها التعامل مع الحكومة البريطانية ... « وانه من المعلوم اننا قد نضطر الى اعادة اعلان الاحكام العرفية ، حتى يمكننا التعامل مع القلاقل والاضطرابات المحتملة الوقوع » (٣) .

الرد المصرى على المذكرة البريطانية :

فى يوم ٣ يونيو ١٩٢٧ جاء الرد المصرى على المذكرة البريطانية ، وهو لا يقبل من المطالب البريطانية سوى المطلب الخاص بموافقة وزير الحربية على آراء لجنة الضباط ، وجاء هذا الرد المصرى منمقا سيطر عليه الشكل اكثر من المضمون ، فهو لم يوافق على باقى المطالب البريطانية ولكنه لم يرفضها تماما .

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 115 op. cit

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 128 (J. 1477/8/16)
Sir Austen Chamberlain to Lord Lioyd F.O. June 2, 1927

(٣) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 174 op. cit

وعلى اية حال نصت المذكرة المصرية على ان الحكومة المصريه تشاطر المندوب السامى وجهة نظره فى منع اقحام السياسة فى الجيش، وانها راغبة تماما فى ابعاد هذا الاتجاه عن الجيش المصرى ، ولم يكن ليفوتها اجراء التحقيق اذا قدمت لها حوادث معينة • واوضحت المذكرة المصرية ان التقرير الذى اشار اليه المندوب السامى فى مذكرته ليس من عمل اللجنة الحربية البرلمانية ، بل ان لجنة فرعية منها تالفت لبحث مرسوم سنة ١٩٢٥ الذى انشأ مجلس الجيش ولجنة الضباط ، فكلفت اثنين من اعضائها بوضع تقرير فى الموضوع ، وان مشروع هذا التقرير هو الذى نشر بغير ان يقدم للجنة الحربية او للجنة الفرعية نفسها ، واضافت المذكرة ان الحكومة المصرية على استعداد لان تستقبل بكل ترحاب الاقتراح الذى ينحو نحو المفاوضة لايجاد الترتيبات التى من شانها ان تسهل التعاون المذكور ، ولكن فى انتظار الوقت الملائم للقيام بهذه المفاوضات ، ترى الحكومة المصرية انه حتى تعمل هذه الترتيبات ، فانه يمكن ان تحتفظ بالموقف فيما يتعلق بأداء مأمورية الجيش المصرى كما كانت حتى الآن وبغير عائق ، وانه منذ اعلان مرسوم سنة ١٩٢٥ المذكور آنفا ، والذى ادخل المفتش العام فى عضوية مجلس الجيش ولجنة الضباط فان الخدمات المختلفة فى الجيش تسير سيرا عاديا • ومع ان بعض خلافات قد نشأت حول توصيات لجنة الضباط ، الا انها كانت نادرة وعرضية ، وكانت تدور غالبا حول مدة الترقية الوقتية • على انه يمكن القول بأن الوزير سيقبل بصفة عامة آراء اللجنة التى تم تشكيلها لمساعدته على القيام بواجباته •

اما فيما يتعلق بمسالة مد خدمة المفتش العام من سنتين الى ثلاث سنوات ، فان الحكومة المصرية ترى ان عقد المفتش العام لم يكد يبدأ مدته ، ومن ثم فان هذه المسالة الشخصية ليس لها اهمية حالية ، ومثل هذا يقال عن اقتراح الانعام عليه برتبة الفريق ورفع راتبه ، على ان الوزير سيبحث من جهة اخرى مسالة تعيين ضابط بريطانى عظيم ليكون مساعدا للمفتش العام على اداء اعباء منصبه او ليحل محله عند غيابه • وما دامت حاجة العمل تقتضى هذا التعيين ، فلن يتاخر عن القيام به فى

حدود السلطة المخولة لـه لتعيين اجنبى فى منصب فنى • وهـذا الضابط سيحل محله متى دعت الحاجـة اثنـاء غيابه او نيابته عن المفتش العـام اقـدم ضابط بريطانى فى مصر •

وفيما يختص بمصلحة الحدود ، فان هذه المصلحة التى تقوم بأعمال الادارة الداخلية البحتة ومنع التهريب قـد الحقت بوزارة الحربيـة بمرسوم ٥ أكتوبر سنة ١٩٢٢ • وبمقتضى مرسوم سنة ١٩٢٥ الذى انشـا مجلس الجيش ، فان المديـر العام لهذه المصلحة أصبح عضوا فى هذا المجلس بحكم وظيفته • هـذا الى انه ما دامت المسائل المرتبط بالدفـاع عن البلاد داخلة فى اختصـاص مجلس الجيش ، مان هناك ما يدع ى الثقة بأن شئون مصلحة الحدود المتصلة بالمسـائل العسكرية ستتم بكل مـا يرغب فيه من ضمان ، وطبقا لاقتضيـات الخدمـة • وفوق ما تقـدم ، فان الضباط البريطانيـين الذين يشغلون مناصب فى هـذه المصلحة قـد انتفعوا بالقـانون رقم ٢٨ لسنة ١٩٢٣ ، ونظـر مجلس الوزراء فى ينايـر الماضى فى مسألة هؤلاء الضباط عندما انتهت مـدة عقودهم ، فقرر - لمصلحة العمـل - ان يســتبقيهم فى فى مناصبهم ، وقـد اعطيت لهم عقود جديدة لمدد تتراوح بين سنة وسنتين ، وهذه العقود تثبتهم فى الاعمـال التى كانوا يقومون بهـا ولا يزالون مستمرين فى القيـام بهـا ، واذمـا يكون عند انتهـاء هذه العقود البحث فى هل يبقى هؤلاء الضباط فى مراكزهم أم لا ، وعند بحث هذه المسألة ســتكون الحكومة المصرية طبعـا خاضعة لمصلحـة العمـل فقط لا لاى اعتبار آخـر مهمـا كان • امـا النظـام القضائى المطبق فى المناطق الواقعة تحت سلطـة مصلحـة الحدود ، فهو ليس فى الواقـع اكثـر من تطبيق المبادىء التى وضعتها الحكومة المصرية سنة ١٩١١ لشبه جزيرة سيناء قبل الحاقهـا بمصلحة الحدود ، حتى شـمل هذا التطبيق مثـل هذه المناطق جميعهـا • ومرسـوم سنة ١٩٢٢ يقضى دبقاء هذا النظام الى الوقت الذى يمكن ان يحل محله نظام اوفى ، ومنذ هـذا الوقت لم تدع الاسباب الحكومـة المصريـة الى النظـر فى وضع النظـام الجديد ، ويرجع على الاقـل الى اسباب تتصـل بالاحوال الخاصة ودرجة التقدم فى منطقةالعريش التى تتبع منطقة الحدود الشرقية وان الحكومة تدرس مسألة اعـادة محكمـة اول درجـة باختصاصهـا ، وهـذه المحكمة هـى التى كانت موجودة فى الاصـل قبل وجود الادارة محل البحث •

واعرب ثروت باشا فى ختام رده عن رجائه فى ان الايضاحات والتأكيدات السابقة ، سوف تنهى كل سوء تفاهم بين الحكومتين بالنسبة لمسألة الجيش المصرى ، وعن رغبة الحكومة المصرية فى ان تقوى العلاقات بين البلدين يوما بعد يوم ، وان يظل حسن التفاهم بينهما ، وان تكلل بالنجاح مجهودات الطرفين فى الوصول الى اتفاق يدعم روابط الصداقة التى تربط بين البلدين ويؤمن مصالحهما (١) .

تضارب الآراء بين المندوب السامى ووزارة الخارجية البريطانية :

وصف لويد الرد المصرى على المذكرة البريطانية بأنه « وثيقة سرفية تماما ، وانها يمكن أن تتلاءم مع اى سياسة تقررها الحكومة المصرية . فى وقت لاحق » (٢) وفى نفس الوقت قرر لويد أن هذا الرد المصرى . مرفوض تماما ، واقترح انه فى حالة فشل المفاوضات النهائية ارسال انذار الى الحكومة المصرية لكى تستجيب للمطالب البريطانية فى مدى ٤٨ ساعة فقط .

الا ان وزارة الخارجية البريطانية لم تستصوب آراء المندوب السامى . فان المذكرة المصرية رغم انها لم توافق الا على مطلب واحد من المطالب البريطانية ، فهى فى نفس الوقت لم ترفض تماما كل المطالب ، كما أن لهجة المذكرة ودية فى مظهرها ، وان بدت متمسكة بالوضع الراهن ، ولا يتضح من المذكرة اتجاه الحكومة المصرية الى اصدار قرارات معادية لبريطانيا ،

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 132 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain Cairo, June 3, 1927.

انظر أيضا النص الفرنسى الموجه من ثروت باشا الي اللورد لويد :
P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 161.

وانظر أيضا :
P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 174 op. cit

وانظر أيضا : عبد الرحمن الرافعى - المصدر السابق ص ٢٧٤ - ص ٢٧٦ .

وكذلك : د . عبد العظيم رمضان - المصدر السابق ص ٢٣٧ - ٢٣٩

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 144 (J. 1553/8/16
No. 250 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain Cairo, June, 7, 1927.

واخيرا فانهما تبدو موافقة على مبدأ التفاوض بالنسبة لمبدأ التعاون العسكرى بين الجيشين المصرى والبريطانى ، والذى ركزت عليه المذكرة البريطانية (١) والذى جاء فى تقرير المستر تشمبرلن فى مجلس العموم (٢) ٠

وبالوصول الى هذه النتيجة ، تبين ان المصالح البريطانية - فى راى وزارة الخارجية البريطانية - يمكن الحفاظ عليها بالآتى :

١ - عدم الدخول فى تصادم خطير مع مصر ، مع نتائجه الخطيرة المحتملة ، الا اذا فشلت كل الوسائل الاخرى فى تحقيق المطالب البريطانية ٠

٢ - انه اذا كان الصدام حتميا ، كما يبدو الموقف الآن ، فانه لا داعى للدخول فيه الا :

(أ) باتباع اسلوب يحقق المطالب البريطانية تماما وبدرجة معينة من الاستمرار ٠

(ب) وبنتيجة مفهومة وجاهزة ومتجاوبة مع الراى العام المصرى بصفة عامة ٠

الا ان خطة لويد المقترحة لحل الأزمة كانت متعارضة مع الحالتين السابقتين ، فبالنسبة للحالة الاولى ، فان الاتجاه المقرر لكل من الحكومة المصرية وحزب الوفد لم يقدم اى ضمان بأن الانذار البريطانى سوف يوافق عليه ٠ وبالنسبة للحالة الثانية ، فهناك من الاسباب ما يؤكد أن المصريين لن يبدأوا بتقديم تنازلات ، وانهم حتى لو اذعنوا - تحت الضغط - لمطالب الحكومة البريطانية ، فأنهم سيبداون فورا فى الدوران حولها واحباطها ، ونجاحهم فى هذا الاتجاه فى فروع اخرى من الادارة - طبقا لوجهة نظر وزارة الخارجية البريطانية يؤكد ان الورقة الخاصة بالموظفين الانجليز هى ضمان غير كاف امام المناورات المصرية ٠ اما بالنسبة للحالة الثانية ، فان المطالب المقدمة للحكومة المصرية ، والتى يمكن الحكم عليها من

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 174 op. cit,

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 149 (J. 1553 /8/16
No. 179 Sir W. Tyrell (For the Secretary ofState) to Lord Lioyd.
F.O. June 10 1927.

الاشــارات الحديثة للصحافة المصريــة ، مانهـا لا يمكننيـا بحـال ان تحوز على موافقــة الراى العام المصرى على سياسة قـد تؤدى الى الغـاء الدستور واعــادة الاحكام العرفيــة واحتمـال التدخل العسكرى البريطانى (١) ٠

وامام هذا التعارض الكبير بين وجهتى نظـر المندوب السامى ووزارة الخارجية البريطانية ، ارسل رئيس الوزراء البريطانى فى ٦ يونيو تعليماته المحددة الى لويد فى كيفية التعامـل مع الحكومة المصرية ، وان عليه ان يرسل الى ثروت باشـا مذكرة خاصـــه توضـح ان الحـــكومـه البريطانية قد اهتمت كثيرا بالمذكرة المصرية ، وانها ترحب بالتنازلات التى قدمتهـــا الحكومــة المصرية للتفاوض بهـدف تنسيق التعاون بين الجيشين المصرى والبريطانى ، ومن ناحية اخـرى فان الحكومة البريطانية لا ترغب فى الانفراد بالحل النهائى لامور مختلفــة ، والتى يمكن ارجاؤهــا للتسوية بالمفاوضات ٠٠ الا ان التحركـات الاخيرة قـد اوضحت خطورة عـدم تحديد امور تحكـم طبيعة وحجم التعاون المصرى مـع الاحتلال فى امور تؤثـر على الدفـاع عن الدولة ، وانه من الضرورى تحقيق بعض التفاهم بين الحكومتين المصرية والبريطانية بالنسبة لهذه الامور ، انتظارا للمفاوضــة على التسوية النهائية وطبقــا لهــذا المفهوم ، اعدت الحكومــة البريطانيــة مشروع اتفاق عسكرى مؤقت ، ويجب على الحكومــة المصريــة عـدم التردد فى الموافقــة على هـذا المشروع طبقا لما جاء فى المذكرة المصريــة ٠ كمـا اوضحت مذكــرة رئيس الوزراء البريطانى الى لويــد والمقترح ارسالهـا الى الحكومــة المصريــة ان الترتيبات التفصيلية الخاصــة بمســائل الادارة والخبرة والامداد سوف تكون على شكل ملحق يرفق بالاتفــاق ، وان الحكومــة البريطانيــة مستعدة لمناقشــة هــذه الترتيبـات مـع الحكومــة المصريــة ، وهى لا تستبعد احتمال ادخال بعض التعديلات فى مطالبهـا السابقــة بشرط ان تكون الحكومة المصرية مستعدة تماما للموافقة وبدون تأخير على هذا العرض الجديد ٠

واضــاف رئيس الوزراء البريطانى فى برقيته الى لويـد ان اهم شىء فى الموقف هو الحصول على موافقة الحكومــة المصرية على الاتفــاق ، وانه اذا رفضت الحكومــة المصريــة ذلك ، فان « علينـــــا ان نبحـث عن اعنف

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204 b. No. 174 op cit.

الاجراءات » (١) .

وقد أرسل رئيس الوزراء البريطانى فى نفس اليوم (٦ يونيو) برقية أخرى الى المندوب السامى ، أوضح فيها انه فى حالة موافقة الحكومة المصرية على الاتفاق ، فانه يلحق بالمفاوضات النقط التى وافقت عليها الحكومة المصرية فعلا ، يضاف اليها الشروط التى يمكن الحصول عليها ومنها :

١ - المفتش العام البريطانى ونائب له . وحقه فى عضوية مجلس الجيش .

٢ - تصرف وزير الحربية بمشورة مجلس الجيش .

٣ - حصول كل الضباط البريطانيين العاملين فى الجيش المصرى على عقود لمدة ثلاثة أعوام .

٤ - بقاء الشئون القضائية فى اقاليم الحدود على ما هى عليه .

٥ - استمرار الضباط العاملين فى مصلحة الحدود فى ممارسة وظائفهم ، وحصولهم على عقود لمدة عامين .

كما نبه رئيس الوزراء البريطانى فى برقيته بأن على لويد - فى هذه المرحلة - عدم الالحاح على تحديد تام لسلطات واختصاصات الجنرال سبنكس وزملائه ، لان الاهم هو التوصل الى عقد الاتفاق المؤقت علاوة على ملحق بنتابه الغموض (٢) وهكذا - وطبقا لوجهة نظر الحكومة البريطانية - فانه اذا ما قدر المصريون صعوبة مواجهة بريطانيا ، فانهم قد يفضلون التوقيع على اتفاقية قد تمنحهم فرصة للتراجع وحفظ ماء

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 140 (J. 1514/8/16)
No. 174 Sir W. Tyrell (for the Secretary of State) to Lord Lioyd.
F.O. June 6. 1927.

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 141 (J. 1514/8/16)
No. 175 Sir W. Tyrell (for the Secretary of State) to Lord. Lioyd
F.O. June 6, 1927.

الوجه ، وانهم اذا ما وافقوا على الاتفاق والملحق الخاص به ، فان ذلك لا يعد استجابة للمطالب البريطانية فقط ، بل انه سينظم الاحتلال البريطاني امر ، والذى ظل بلا اساس لاكثر من اربعين عاما . كما انه سيكون مقدمة لاتفاقيات اخرى تعد بريطانيا فى أمس الحاجة اليها ، اما اذا قرر المصريون المقاومة ورفضوا الاتفاق ، فانهم بذلك العمل سوف يوضحون أن سلوكهم غير ودى تجاه بريطانيا ، وهكذا « يكون لنا الحق الكامل فى اتخاذ اساليب عنيفة ضدهم » (١) .

وعندما وصلت هاتان البرقيتان الى لويد فانه أبرق فى ٧ يونيو الى المستر تشمبرلن ولعلومية رئيس الوزراء البريطانى موضحا الموقف السياسى فى مصر فى هذا الوقت المضطرب ، وأن انباء قد وصلته بأن كل كبار قادة حزب الوفد قد اجتمعوا فى منزل سعد زغلول فى يوم ٦ يونيو ، وان سعدا قد اقترح الاذعان مؤقتا لكل المطالب البريطانية ، مبينا بأن هذا الاتجاه هو للحفاظ على الدستور من الالغاء ، وكذلك لكسب الوقت من اجل الاستعداد لصراع حاسم . واوضح سعد زغلول للمؤتمرين بانه يجب تعيين وكيل وزارة جديدة للداخلية من بين اعضاء الوفد ، ليمكنه استخدام سلطاته لضمان تدعيم نفوذ الوفد فى البلد ، وخاصة عن طريق العمد . وكذلك بث الدعاية بين ضباط الجيش المصرى من أجل جعلهم فى خط واحد مع حزب الوفد ، وقال سعد بثقة ان الجيش المصرى ـ عندما يحين الوقت المناسب ـ سيظهر شجاعة لا تقل عما فعله السودانيون فى عام ١٩٢٤ ، واضاف سعد بأنه ينظم لهجوم على لويد شخصيا عن طريق الصحافة البريطانية ، وفى مجلس العموم من أجل ايقافه عند حده مبكرا . الا انه بينما لقى اقتراح سعد بالهجوم على لويد ترحيبا من الحاضرين ، فان اقتراحاته الخاصة بالاذعان المؤقت للمطالب البريطانية بخصوص الجيش المصرى لقيت معارضة عنيفة ، ولم يصل المجتمعون الى اتفاق بشأنها (٢) .

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 174 op. cit

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 143 Lord Lloyd to Sir Austen Chamberlain No. 249. Cairo, June 7, 1927.

وفى نفس اليوم (٧ يونيو) ابرق لويد الى المستر تشمبرلن ولمعلومية رئيس الوزراء البريطانى وجهات نظره بالنسبة لمذكرة الحكومة البريطانية والمقترح ارسالها الى الحكومة المصرية ، والتى يتضح منها محاولة عدم تصعيد الموقف مع المصريين . وقد انزعج لويد جدا من الآراء الواردة فى مذكرة الحكومة البريطانية واعتبرها بمثابة لطمة قاسية له وأورى انه يكرر هو ومستشاروه ان اجابة الحكومة المصرية هى بصفة عامة غير كافية ، وان كلماتها الودية تبدو بلا قيمة ، وانه اذا كان رئيس الوزراء المصرى مستعدا للموافقة على المطالب البريطانية ، فانه خائف من ازمة برلمانية ، وان هذا هو الذى دفعه الى هذه الاجابة المراوغة من اجل كسب الوقت ، وكرر لويد قوله ان تلك الاجابه المصرية هى اجابة شرقية تماما ، وانها صالحة لاى سياسة يمكن ان تتخذ فى اى وقت لاحق . واكد لويد انه ليس هناك اى احتمال للتفاوض بين الدولتين ، وانه شخصيا يقوم بمباحثات مع ثروت باشا منذ فترة من أجل التوصل الى تسوية عن طريق اتفاق ، وان هذه المباحثات انتهت بارسال ثروت باشا بخطاب له ينكر فيه أى حق بريطانى فى التدخل فى مسألة الجيش المصرى على الاطلاق .. واضاف لويد مرضحا « .. اننى لا اتعامل حقيقة مع ثروت باشا او حتى مع سعد زغلول باشا ، بل مع الأعضاء (المتطرفين) فى حزب الوفد الذين يسيطرون فى النهاية على الاثنين » . واستخلص لويد من ذلك ان الطريقة الوحيدة والمؤكدة للتعامل مع هؤلاء المتطرفين هى التلويح لهم بخطورة فقدانهم لمكاسب سياسية ومادية كثيرة يمنحها لهم الدستور عن طريق البرلمان . واشار لويد فى برقيته الى أن مخطط هؤلاء (المتطرفين) من اعضاء حزب الوفد ينحصر فى استغلال المشكلات القائمة - ومنها ازمة الجيش المصرى - لخلق موقف يؤدى الى اضطرابات عامة ضد الاحتلال البريطانى عندما يحين الوقت المناسب . وعلق لويد بان الذى تطلبه الحكومة البريطانية سوف يفسره المصريون على انه ضعف بريطانى ، وهذا التفسير قد يؤدى الى مخاطر كبيرة بالنسبة للأمن العام ، واسترسل لويد موضحا وجهة نظره .. « فنحن مؤخرا قد تعرضنا لهجوم فى البرلمان ، وهذا الهجوم الذى أيقظ المشاعر العميقة للسخط ضد الاحتلال ، ليس فقط بين قطاعات كبيرة من المصريين ، بل ايضا فى بعض المستعمرات البريطانية ، هذا الهجوم

يجعل من المرغوب فيه تماما عـدم الاستسلام بالنسبة لازمـة الجيش المصرى، وأى تخاذل فى موقفنـا سيكون حافزا لازمـات اخـرى مما يؤدى بسرعـة الى فقداننـا لمكانتنـا فى مصر ، كمـا أن علاقـاتى بالملك ستصبح صـعبة جـدا » (١) ٠

وأوضح لويـد موقف الأجانب فى مصر من ازمـة الجيش المصرى ، فقال أنه تلقى كل معاونة قلبية من السفراء الفرنسى والايطالى والبلجيكى واليونانى ، الذين يمثلون اهم اربع جاليـات فى مصر ٠ كمـا ان السفير الفرنسى ـ على وجه الخصوص ـ والذى له دراية واسعة بالشرق أوضح للويد بأن اى تراجع فى موقف بريطانيـا من الازمـة سيكون لـه خطـورة سياسية كبرى ، (٢) لان اى تخاذل بريطانى سوف يشجع كل الفئات حتى غير المتطرفة على مشـايعة المتطرفين ٠ وانه حتى اذا ما تغلبت بريطانيـا على الصعوبة القائمـة (ازمة الجيش) فانهـا سوف تواجه حتمـا ازمـات اخرى اكثـر خطورة ٠

كمـا عبر لويـد عن استيائه من مذكرة الحكومـة البريطانية المقترح ارسالهـا الى الحكومـة المصريـة ، بتسجيله انه لـم يفهم كيفيـة تنفيـذ الاجراء المطلوب ، وخصوصـا مسالة الملحق الذى سوف يلحق بالاتفاق ٠ واضـاف لويد انه تصرف فى الامور فى حدود السلطـة المخولة لـه من وزيـر الخارجية ، وأن موقفه بهـذا الشكل سيكون حرجـا جدا ، لان المباحثات مع الحكومـة المصريـة لن تؤدى الا الى ذرائع جديدة ونتائج هزيلة ٠ وأعـاد لويـد الى الاذهان أن الموقف البريطـانى يرتكز على تصريح ١٩٢٢ ، وأنـه هل من المفروض أن تسلم بريطانيـا بكل شىء لان البرلمان المصرى يرفض الاعتراف بالتصريح ، وانه هو المحرك الأكبر لرفض المطالب البريطانية ، وانه اذا كانت الحياة البرلمانية فى مصر متعارضـة مـع المصالح البريطانيـة الحيويـة ، فان على بريطانيـا ان تقبل التحدى ان عاجلا أم آجـلا ٠٠

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 144 op. cit

(٢) P.R.O. F.O.(407-204) b. No. 122 (J. 1475/8/16 No. 228 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, May 31,1927

« وان الازمـة الحالية تقـدم العاجل الذى يمكن ان نستغله فورا » (١) وان اى تأخير فى حسـم هـذه الازمـة « سـيقلل من فرص نجاحنـا فى هـذا الخصوص » (٢) ٠

واحتدم الخلاف فى الراى بين وزارة الخارجية البريطانية والمندوب السامى ، حتى ان الوزارة رات أن آراء المندوب السـامى الاخيرة لم تقـدم جديدا ، ولكنهـا توضح أن المندوب السامى لم يفهم جيدا التعليمات المرسلة له من الحكومـة البريطانية ، فقـد بدا من كلماته انه يتصور أن « حكومة جلالة الملك لا ترغب فى معاونته . او انهـا تود التقهقـر عن الموقف الـذى انفجر فعلا » (٣) وهكذا أرسل رئيس الوزراء البريطانى برقية اخرى الى المندوب السامى فى ١٠ يونيو تحتوى على تفسيرات أكثـر وتؤكـد التعليمـات السـابقـة ٠

وقد نصت هذه المذكرة الجديدة على ان الحكومـة المصرية لن تسعى لتحقيق أهدافهـا الفعليـة الا اذا دفعت لاجراء ذلك ، وان تنفيذ تعليمـات الحكومـة البريطانية سيؤدى الى امـر من اثنين ، اما ان ثروت سوف يوافق على عقـد الاتفاق او انه سيرفض ذلك ، وانه اذا وافق فانه يكـون بذلـك قد استجاب للمطالب البريطانية أما اذا رفض الاتفـاق فانه يكون بذلك قـد رفض مبدأ التعاون مع البريطانيين فى الدفـاع عن مصر ، وبذلـك يكشف الستار عن الاتجـاه الحقيقى للحكومـة المصريـة ٠ وهـذا التصرف المعـادى لبريطانيـا « سيعطينـا الحق امـام العالم فى اتخـاذ الاجراءات العنيفـة التى نراها ضرورية لتأمين موقفنـا فى مصر » واسترسـل رئيس الوزراء البريطانى فى مذكرته للويـد موضحـا انه يجب جعل الامـر واضحـا لثروت « بأننـا لن نعطيه سوى بضعة ايـام للموافقة او الرفض على الاتفاق ، مـع التلميح لـه بالنتـائج الشـديدة الخطورة والمحتمـة التى سـوف تتـلو رفضـه » (٤) ٠

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 144 op. cit

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 115 op cit

(٣) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 174 op cit.

(٤) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 149 op cit.

ولا يفوتنا ان ننوه هنا ان الليفتنانت جنرال السير هوكنج الذى عاد الى انجلترا فى ١٠ يونيو بعد ان انتهت مدة قيادته للقوات البريطانية فى مصر ، قد تمت استشارته فى مسألة ازمة الجيش المصرى ، وقد ابدى هوكنج موافقته الكاملة على مذكرة رئيس الوزراء الاخيرة والمقترح ارسالها الى الحكومة المصرية ، وقد ابرق الى لويد بهذا المعنى (١) ٠

ورغم هذا الضغط من جانب الحكومة البريطانية على لويد ، فانه ابرق الى تشمبرلن لمعلومية رئيس الوزراء البريطانى فى ١١ يونيو طالبا اعادة النظر فى التعليمات الصادرة اليه من الحكومة البريطانية ، ففى رأيه أن الاختلاف شديد بين مقترحاته ومقترحات الحكومة ، لان هناك صعوبات خطيرة امام ضمان موافقة الحكومة المصرية على الاتفاق المقترح من جانب الحكومة البريطانية ، وانه لا يمكن انجاز هذا الاتفاق الا بموافقة البرلمان ٠ وان رئيس الوزراء بينما يرفض الموافقة على هذا العرض لذلك السبب ، فانه لن يرفضه تماما ، ولكنه سيماطل فى محاولة منه لتدعيم موقفه ، وان الامر سيظل معلقا هكذا حتى الخريف ، وانه فى ذلك الوقت سيرسل الامر كله الى مجلس النواب طالبا التفاوض على الملحق قبل الاتفاق ، وانه ليس هناك ادنى امل فى ان البرلمان سيوافق على الاتفاق او الملحق بأى شكل من الاشكال ٠ واضاف لويد أنه فى غضون ذلك الوقت ستواجه بريطانيا مشكلات خطيرة فى مصر لها طبيعة اخرى ٠٠ « وانا ارجو ان يكون معلوما اننى لم يغمض لى جفن بالنسبة لمحاولاتى الحصول على كافة التفاصيل المنشورة عن الازمة و « ان اولى المشكلات الملحة هى موقف المفتش العام ، الذى من غير المتوقع ان يستطيع ممارسة سلطاته التى ستظل بلا تحديد ٠ وانه اذا ما رأى ان موقفه غير محتمل وتخلى عن منصبه ، فان باقى الضباط البريطانيين الذين يعملون فى الجيش المصرى سوف يتبعونه فى هذا السبيل ٠ وهكذا سوف تواجه بريطانيا مأزقا تفقد فيه كل سيطرة لها على الجيش المصرى فى ظروف بالغة الصعوبة » ٠ واضاف لويد « انى عندما استحسنت اجراء المفاوضات باعتبارها حلا أمثل ، فاننى فضلتها باعتبار انها

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 174 op. cit

ستحدث ونحن فى موقف قوى ، اما محاولة اتفاق الان طبقا لرغبتك ، فانها لن تؤدى الى تسوية المسألة ، بل ستؤدى فقط الى تخير حلها ، وقد استنتجب من ذلك انك ترغب فى (تعليق) الازمه المصرية » واردف لويد انه حتى لو استطاعت الحكومة البريطانية بشكل ما ضمان الموافقة المصرية على العمل العسكرى المشترك ، ودعوة الحكومة المصرية للتفاوض على اجراءات تنسيق التعاون بين الجيشين المصرى والبريطانى على قدم المساواة ، فان الامر سيكون خطيرا - من وجهة النظر البريطانية - لأن بريطانيا لن تستطيع الانفراد بالاشراف الفردى على القوات . واكد لويد انه طيلة الازمة لم يطمع سوى فى حل سلمى ولكن الحل الذى تقترحه الحكومة البريطانية - فى رايه - سيؤدى الى الاضطرابات وسيجعل المكانة البريطانية غير محسوبة فى المساومة ، ثم انهى لويد برقيته بأنه قد يكون قد اخطأ فى تصوير الجو السياسى فى مصر ، ولكنه يجب ان يكون مفهوما ان الراى العام المصرى والصحافة كلها قد ركزت على الازمة القائمة ، وان الحكومة البريطانية قد تعرضت لهجوم شديد فى مجلس النواب ، وان حزب الوفد كان يعانى فى تلك المرحلة من هبوط فى اسهمه فى مصر . وان سعد زغلول باشا مرة اخرى تكلم فى جلسة عاصفة فى مجلس النواب موضحا انه اذا مارست بريطانيا ضغطا كبيرا على الحكومة المصرية ، فان على المجلس الموافقة على المطالب البريطانية من اجل انقاذ الدستور ، » والحقيقة ان الحكومة المصرية تنتظر منا القيام بضغط شديد عليها ، وانها سوف ترضخ لهذا الضغط .. اما تغيير موقفنا فى مثل هذه الظروف ، فانه سيؤدى الى عواقب وخيمة » (١).

تراجع الحكومة المصرية ومجلس النواب :

وسط ذلك التضارب فى الآراء بين رئاسة الوزراة البريطانية ووزارة الخارجية من جانب والمندوب السامى من جانب آخر ، ووسط البرقيات والمذكرات المتعارضة بين الجانبين ، ابرق اللورد لويد فى ١٢ يونيو الى وزارته موضحا انه بعد جلسة طويلة وعاصفة لمجلس الوزراء ، فان

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 155 (J. 1579/8/16)
No. 262 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain Cairo June 11, 1927.

ثروت باشا اعد مذكرة ـ وافق عليها سعد زغلول ـ لتسوية ازمة الجيش ويؤكد لوبد ان هذا التراجع المصرى كان نتيجة للمباحثات التى بداها المستر انتونيوس Antonius فى ٨ يونيو مع بركات باشا ، وان هذه المباحثات كانت شخصية وغير رسمية ، ولكنها ادت تحت التوجيه السرى لها من جانب المندوب السامى الى تلك النتائج المرضية من وجهة النظر البريطانية ـ فقد وصل الامر بثروت باشا الى ان يقوم بعرض مسودة المذكرة الجديدة على المندوب السامى بحضور الملك فؤاد ووزير الحربية لازخال اى تعديلات عليها ، وان خوف الحكومة المصرية كان الميزة الواضحة للمذكرة الاخيرة ، وكانت خلاصة هذه المذكرة الاخيرة ان الحكومة المصرية قد قررت وبتحديد كامل ان اختصاصات السردار كما فوضها الجنرال «ولستون باشا فى سنة ١٩٢٥ ، قد ادت الى سوء تفادم بالنسبة للامور القائمة ، وان الحكومة المصرية مستعدة للحفاظ على هذه الاختصاصات دون مساس ، كما تم تفويضها للمفتش العام . كما انه بالنسبة لمنصب نائب المفتش العام ، فان الحكومة المصرية مقتنعة تماما بالحاجة الى هذه الوظيفة ، التى يجب ان يعين فيها ضابط بريطانى فورا . اما بالنسبة لتوصيات لجنة الضباط ، فانها ترفع فى الخلافات الاستثنائية جدا من وزير الحربية الى ملك مصر كما كان الحال قائما . كما ان الحكومة المصرية سوف تبدى اهتماما سريعا بالنسبة للامور المدنية والقضائية التى تتكفل بها مصلحة الحدود وكذلك الامور التى تؤثر فى الدفاع عن البلد ، واية موضوعات اخرى هامة .

كما اضافت المذكرة ان المفتش العام سيمنح رتبة الفريق وراتبه فى غضون اسبوع ، وان مساعد المفتش العام سوف يصدر قرار تعيينه فى ظرف اسبوع من ترشيح اسمه ، وان المنصب الثانى فى مصلحة الحدود سوف يحتله ضابط بريطانى ـ وهو مساعد مدير خفر السواحل ـ عند ادماج المصلحتين .

وهكذا وافقت الحكومة المصرية على كل المطالب البريطانية الحيوية . وانهت ازمة الجيش بسرعة فائقة ولصالح الحكومة البريطانية تماما ، ووافقت ايضا على اجراء المفاوضات من اجل التوصل الى اتفاق بين

الحكومتين لتنسيق التعاون بين الجيشين المصرى والبريطانى للدفاع عن مصر وطبقا لما سبق ان طلبته الحكومة البريطانية ، وقد صيغت المذكرة المصرية الجديدة بعبارة وعلى خطوط جعلت رجوعها الى مجلس النواب امرا غير ضرورى • وهذه المذكرة مثل المذكرة الاولى ، لم تحدد شكل التعاون العسكرى بين الجيشين المصرى والبريطانى ، رغم انها رحبت بمثل هذا التعاون •

واكد ثروت باشا اهمية الموافقة الفورية على المذكرة المصرية الجديدة قبل ان يغير سعد من موقفه ويسحب موافقته عليها • وبطبيعة الحال ابلغه لويد شكر الحكومة البريطانية على مجهوداته فى تعديل وجهة نظر الحكومة المصرية والاتجاه بالسياسة المصرية الوطنية بخصوص ازمة الجيش اتجاها جديدا مواليا للاحتلال • ومن ناحية اخرى طلب لويد برقيا من وزارة الخارجية البريطانية الموافقة الفورية على المذكرة المصرية الجديدة « حتى لا يحصل (المتطرفون) على اى فرصة للضغط على سعد زغلول حتى يتراجع عن موقفه » واضاف انه سينتظر اجابة الحكومة البريطانية حتى الساعة الرابعة من مساء يوم ١٣ يونيو ، وانه فى حالة تأخر الرد « فاننى سأتحمل المسئولية الكاملة فى الموافقة على المذكرة المصرية بصفتى الشخصية ، وان كنت افضل وصول رد الحكومة البريطانية لكى اعفى نفسى من هذه المسئولية (١) •

الا انه فى نفس اليوم (١٢ يونيو) صدرت التعليمات من لندن الى لورد بالموافقة على المذكرة المصرية الجديدة ، وهكذا أرسل لويد مذكرة الى ثروت باشا يبلغه فيها ان الحكومة البريطانية قد اسعدها ان تجد مشاركة كاملة من الحكومة المصرية بالنسبة للاخطار الناتجة عن السماح باقحام السياسة فى الجيش المصرى ، كما أسعدها ايضا موافقة الحكومة المصرية على الاحتفاظ بدون اى مساس بسلطات السردار كما فرضها هدلستون باشا الى المفتش العام ، وضمان رتبة ومرتب الاخير طبقا لاختصاصاته • وأنهى لويد مذكرته الى ثروت باشا

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 156 (J. 1584/8/16)
Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain Cairo, June12, 1927

بشكر رئيس الوزراء المصرى على اللهجة الودية التى سادت المذكره المصرية ، وان هذه اللهجة تنبىء بما ستكون عليه العلاقات المستقبله بين الدولتين • واستمرت الحكومة المصرية فى تراجعها الكامل عن الموقف المتصلب السابق ، فأرسلت فى اليوم التالى (١٣ يونيو) ردا على المذكرة البريطانية يحتوى على بعض التفسيرات والتفصيلات ، أوضحت المذكرة الجديدة انه طبقا لمرسوم يناير ١٩٢٥ — الذى كان للجنرال سبنكس دور كبير فى اعداده — فانه تم التنسيق بين مطالب الخدمة فى الجيش وتنظيمات الدستور بانشاء مجلس الجيش ولجنة الضباط ، وقد اثبت المجلس واللجنة نجاحا فى عملهما فى تنسيق كامل مع اختصاصات المفتش العام المفوضة اليه فى عام ١٩٢٥ • والحكومة المصرية لا تعترض على عقد اتفاق محدد بين الدولتين لعدم تغيير نظام اثبت نجاحه تماما • ومن ناحية اخرى ، دام الحكم البرلمانى فى مصر ، والذى قام هذان العنصران (مجلس الجيش ولجنة الضباط) بواجباتهما بانسجام عن طريقه ، يرتكز على مسئولية كل وزير عن أعمال فروع وزارته ، ومن المؤكد — فى رأى المذكرة المصرية — ان الحكومة البريطانية لم تكن ترغب فى السير ضد هذا المبدأ • ولكن الحكومة المصرية متأكدة أيضا من وجوب احترام سلطات القادة العسكرين ، وفى مثل هذه الظروف ، فان الحكومة المصرية تؤكد بأن من مسئولية وزير الحربية الموافقة على توصيات لجنة الضباط • كما ان تعيين ضابط عظيم لمساعدة المفتش العام فى ممارسته لاختصاصاته ، وليحل محله اثناء غيابه ، يدخل ضمن سلطات الوزير ، كما يدخل ضمن سلطاته ايضا كل المسائل المتعلقة بالرتبة والراتب ومدة عقد هذين الضابطين التابعين للسلطة المصرية ، والحكومة المصرية لن تجد صعوبة فى التوصل الى الحل المرضى لكل هذه المسائل • واضافت المذكرة المصرية إن مجلس الوزرا المصرى قد منح — منذ يناير ١٩٢٧ — عقودا جديدة للضباط البريطانيين الذين يعملون فى مصلحة الحدود لمدد تتراوح بين عام وعامين • وأنهى ثروت باشا هذه المذكرة بالاشارة الى ان الحكومة المصرية — مع مراعاتها للمصالح المشتركة بين الدولتين وعدم المساس بحقوق البرلمان — قد استطاعت باستخدام السلطات الواقعة دستوريا على كاهل مجلس الوزراء ان تجد الحلول

الممكنة لانهاء كل سوء تفاهم فى موضوع الجيش المصرى (١) .

ولو قارنا المذكرة المصرية الاخيرة (١٣ يونيو) بالمذكرة المصرية الاولى (٣ يونيو) لوجدنا أن الاختلاف بينهما ينحصر فى كلمتين : التحدى والتراجع .

وقد لاحظ لويد ان هدف رئيس الوزراء كان الحصول على حل للأزمة يمنح لبريطانيا ما تشاء ، وفى نفس الوقت يساعده للدفاع عن نفسه أمام البرلمان ، وان ثروت باشا كان ماهرا فى كل ذلك ، وطبقا لكلمات لويد كان « ثروت بدون شك يرغب فى استغلال الفرصة للحصول على انتصار على سعد زغلول والوفد ، وتسديد ضربة قوية (للمتطرفين) وان هدفه الاساسى هو تدعيم نفسه عند حكومة جلالة الملك كشخص يمكنه التفاوض على تسوية عامة للمسألة المصرية البريطانية . وانا لا استطيع سوى أن أشجع ثروت للسير فى هذا الاتجاه ، لان نجاحه فى السيطرة ، وضغطه المتزايد على (المتطرفين) امتد على سعد زغلول نفسه » .

وقد تحدث ثروت باشا مع لويد بصراحة عن سعد زغلول مؤكدا انه فى النهاية « امكننى تقييد يديه وقدميه » وامعن ثروت باشا فى المناورة، بأن الح على لويد عدم نشر المذكرات الاخيرة والخاصة بالازمة ، الا بعد ان يبدأ مجلس النواب عطلة الصيف ،والتى ستبدأ بعد عشرة ايام ، وأورى . بأنه سيتقدم للمجلس بيانا فى يوم ١٥ يونيو بخصوص الازمة ، واقترح على لويد أن يتكلم بطريقة عامة تماما ، وأن يقدم امتنانه للصداقة مع الحكومة البريطانية ، وانه ليس من المستحسن نشر المذكرات حتى يصل الرد البريطانى على المذكرة المصرية الاخيرة .. وهو بطبيعة الحال لم يكن يتوقع اى رد على تلك المذكرة .

وقد علق لويد على تراجع سعد زغلول السريع عن موقفه الاول المتصلب بأنه يرجع فقط الى تأكده بان البديل الوحيد هو انذار

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 174 op cit.

سريع رحل البرلمان (١) .

وقد عرض ثروت باشا مسودة بيانه الى مجلس النواب على المندوب السامى لاستطلاع رأيه ، وقد تم تعديل بعض الفقرات فى هذا البيان المقتضب طبقا لآراء اللورد لويد ، وتحدد موعد القاء هذا البيان بعد ظهر يوم ١٥ يونيو لاعطاء سعد زغلول الوقت الكافى (لتلقين) النواب واقناعهم بالموافقة .

وكان مجلس النواب صامتا تماما اثناء القاء رئيس الوزراء لبيانه وفى النهاية رحب النواب مع تصفيق (رسمى) . ثم تكلم ثلاثة من النواب من اعضاء الحزب الوطنى بالتتالى ، فطالب الاول بتسليم المذكرات المتبادلة للمجلس لدراستها ، وهدد الحكومة بالعواقب الوخيمة لاستسلامها الكامل لبريطانيا . كما كانت مناقشات العضوين الآخرين على نفس المنوال ، وان كانت أقل عنفا .

وقد انجز سعد زغلول الموقف بمهارة ملحوظة - من وجهة النظر البريطانية - حتى أن النواب الوفديين المتطرفين - ومن بينهم احمد ماهر والنقراشى واتباعهما - لم يمتنعوا فقط عن مهاجمة رئيس الوزراء عند القائه لبيانه فى المجلس ، بل عارضوا كذلك المتحدثين من نواب الحزب الوطنى باشارات تهكمية ، واستقبلوا اجابات ثروت باشا بالترحيب . وفى النهاية اعلن سعد زغلول انه ليس هناك خلاف بين اعضاء المجلس على بيان رئيس الوزراء وان الموافقة شبه اجماعية . وهكذا تمت الموافقة على بيان ثروت باشا ، ولم تستمر المناقشة بخصوصه اكثر من أربعين دقيقة .

وقد رفع رئيس الوزراء هذه الموافقة بسرعة الى مجلس الشيوخ ، حيث اعاد قراءة البيان ... وقد استقبل الاعضاء هذا البيان بالصمت

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 162 (J. 1625/8/16
No. 268 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, June 14,1927

الرهيب (١) ٠

ومن المفيد ان نشير الى ما جاء فى بيان رئيس الوزراء للمجلسين ، فقد جاء فيه أنه لسوء التفاهم القائم بين الحكومتين المصرية والبريطانية بخصوص المطالب البريطانية الخاصة بالجيش المصرى ، فان الحكومة البريطانيه تقدمت بطلب لتسوية المسائل المعلقة بطريقة ودية ولتحقيق التعاون بين الجيشين المصرى والبريطانى ، كما دعيت الحكومة المصرية لاجراء مفاوضات مع الحكومة البريطانية بهدف توقيع اتفاق لوضع اسس هذا التعاون ٠ والحكومة المصرية - لاعتبارات مختلفة - توصلت فى بدية شهر يونيو الى ان المطالب البريطانية الواردة فى المذكرة البريطانية تمس السيادة المصرية والسلطة التشريعية للبرلمان ، وان مجلس الوزراء ليس لديه السلطة للموافقة على اى شىء يتعارض مع الدستور ٠ وهكذا لم يوافق المجلس على المطالب البريطانية بالشكل الذى قدمت به ٠ الا أن مجلس الوزراء من ناحية اخرى ، ورغبة منه فى تلافى اى أسباب لسوء التفاهم بين الدولتين ، قرر تسوية المسألة بطريقة لا تمس الحقوق الدستورية ، وتدخل ضمن سلطاته ٠ وهكذا درس مجلس الوزراء موقف الجيش المصرى ، ووجد انه من الممكن الموافقة على بعض المطالب البريطانية وخصوصا ما يتطرق منها لمسائل التدريب والضبط والربط وحسن الانتظام العسكرى ، كما قرر المجلس الموافقة على بعض المطالب الاخرى لتلاق سوء الفهم ٠ وقد وافقت الحكومة المصرية على التمسك بالوضع الراهن فى الجيش ومصلحة الحدود ، مع التحفظات الضرورية بخصوص السلطة الدستورية لوزير الحربية وصيانة مبدأ المسئولية الوزارية امام البرلمان ٠

وانه لما كانت المذكرة المصرية الاخيرة قد وصلت الى المندوب السامى اول امس فقط (١٣ يونيو) فالحكومة المصرية مراعاة منها للاسلوب الدبلوماسى ، تعتذر بأنها لا تستطيع اعطاء تفصيلات اخرى امام

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 163 (J. 1650/8/16)
No. 270 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain Cairo, June16, 1927

البرلمان فى الوقت الحاضر (١) ٠

وهكذا وافق البرلمان على ميزانية وزارة الحربيــة ، وتضمنت هــذه الميزانية بندا لشراء عدد من المدافــع الآلية (٢) وفى ١٧ يونيو وافق الملك فؤاد على منح المفتش العام للجيش المصرى رتبة الفريق (٣) وجـاءت التهانى من رئيس الوزراء البريطانى الى اللورد لويـد لنجاحه فى حل ازمـــة الجيش المصرى بمـا يحقق الحفاظ الكامـل على المصالح البريطانية ، ذلك رغـم تعارضهمـا فى الراى بالنسبة لكيفيـة حل هـذه الازمـة فى مرحلـــة سابقة (٤) ٠ وقـد أجاب لويـد بامتنانه العميق على هذه التهانى (٥) ٠

وهكذا انتهت أزمـة كبرى ـ خاصـة ببنـاء الجيش المصرى الـوطنى القوى ـ كادت تؤدى الى مواجهة شاملة بين مصر وبريطانيـا ٠٠ انتهت لصالح بريطانيـا لتقاعس السياسيين المصريين عن التمسك بالوطنيـــة المفرطـة التى كانت نبراسـا لمصر أثنـاء ثورة ١٩١٩ ، وتمسكـا بمقاعدهم سواء فى الوزارة او فى البرلمان ، وخوفـا منهم من الغـاء الدستور ٠ والواقـع ان مهارة المندوب الســامى اللورد لويـد ، وتفهمـه الكامـل لدقائق الحياة الســياسية فى مصر فى تلك الفترة ، مكنته من اختيار الاسلوب المناسب لحل هـذه الازمة الخطيرة ، بما يحقق فى النهاية الحفاظ على المصالح البريطانية ، وعلى النقيض من ذلك ، كان تراجـع السياسيين المصريين اساسـا لتأخـر بناء الجيش المصرى ٠

---

(١) P.R.O. (407-204) b. No. 164 (J. 1655/8/16)
No. 271 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain Cairo, June 16.1927

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 170 (J. 1718/8/16)
No. 285 Lord Lioyd o Sir Austen Chamblreain Cailro, June 23,1927

(٣) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 166 (J. 1639/8/16)
No. 273 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, June 20,1927

(٤) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 168 Sir W. Tyrell
(for the Secrtaery of State) to Lord Lioyd No. 186. F.O. June 16,1927
Austen Chamber-lain. No. 280. Cairo June 20, 1927.

(٥) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 169 Lord Lioyd to Sir
Austen chamberlain No. 280 Cairo June 20,1927

عقد معاهدة ١٩٣٦ : (٢٦ أغسطس ١٩٣٦)

توفى سعد زغلول فى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ ، وأنتخب مصطفى النحاس رئيسا للوفد ٠ ورأس النحاس وزارة ائتلافية ، الا ان المندوب السامى دأب على التدخل فى شئون مصر وارسال الانذارات ، الى أن أقال الملك فؤاد هذه الوزارة فى ٢٥ يونيو ١٩٢٨ ٠

وجاءت وزارة محمد محمود وهى من الاحرار الدستوريين مصممة على تعطيل الدستور ٠ فالواقع أنه رغم كون الملك فؤاد محبا للفنون والأداب ، الا أنه كان فى الوقت نفسه حاكما مستبدا ، لذلك كان أهم ما كان يشغله هو تعطيل الدستور وحل البرلمان والحكم حكما مطلقا ٠ ولذلك لجأ الى احزاب الاقليات التى تضم بعض المستقلين المرتبطين بالقصر أكثر منهم ذوى رصيد شعبى واضح ، ولم يكن بامكان هؤلاء أن ينفذوا المهمة الصعبة التى وكلت اليهم الا باللجوء الى تعطيل البرلمان أولا لمدة شهر ثم باصدار قرار بحل مجلس النواب فور انتهاء مدة التعطيل (١) ٠

وبعد وزارة محمد محمود شكل عدلى يكن وزارة لعقد الانتخابات ، وحصل الوفد على اغلبية كبيرة ، والف مصطفى النحاس وزارته الثانية فى اول يناير ١٩٣٠ ، ولكن لم يطل الامد بهذه الوزارة ، اذ قدمت استقالتها لتعنت الملك فؤاد معها ، وسارع الملك من جانبه بتكليف اسماعيل صدقى بتشكيل الوزارة ٠

وفى ٢٢ اكتوبر ١٩٣٠ أعلن صدقى الغاء الدستور القائم (دستور ١٩٢٣) ووضع دستورا جديدا ٠

ولم يعترف الوفد والاحرار الدستوريون بهذا الدستور الجديد ٠ وفى سبتمبر ١٩٣٣ استقال صدقى بعد فترة من الحكم المطلق ٠ ثم توالت الوزارات ٠٠٠ وزارة عبد الفتاح يحيى ثم محمد توفيق نسيم ٠

---

(١) مارسيل كولومب ـ تطور مصر ١٩٢٤ ـ ١٩٥٠ ترجمة زهير الشايب ومراجعة د ٠ أحمد عبد الرحيم مصطفى مكتبة سعيد رافت ـ جامعة عين شمس ١٩٧٠ ص ٤٤

وفى ديسمبر ١٩٣٥ تأسست الجبهة الوطنيـــة من كل الاحزاب وم، المستقلين وطالبت الملك باعادة دستور ١٩٢٣ .

ولما كان الملك فؤاد قد أصبح مريضا جدا ، فانه رغب فى أن تعقب وزارة نسيم باشـــا وزارة ائتلافية ، ولمـــا فشـــلت المساعى فى هـــذا الاتجاه ، كلف الملك على ماهر باشـــا - وكان رئيســـا للديوان الملكى بمهمة تأليف الوزارة فألفها فى ٣٠ يناير ١٩٣٦ ، وهى وزارة محايدة تماما .

وفى ٢٦ مارس ١٩٣٦ صـــدر المرسوم بدعوة الناخبين الى انتخاب أعضـــاء مجلس النواب ، وحدد يوم ٢ مايو لاجراء الانتخابات . الا أن الملك فؤاد توفى فى ٢٨ ابريل ١٩٣٦ ونودى بابنه وولى عهد فاروق ملكـــا على مصر (١) .

على أية حال أجريت الانتخابات حـــرة لم تتدخل فيها الحكومة ، وأسفرت عن أغلبية للوفد ، ومن ثم كلف مصطفى النحاس بتأليف الوزارة الجديدة ، فألفها فى ١٠ مايو ١٩٣٦ وهى وزارته الثالثة .

وجرت المفاوضـــات من أجـــل عقـــد معـــاهدة مصرية بريطانية منـــذ أواخر عهد الملك فؤاد ، وكانت هيئة المفاوضات المصرية مؤلفة على النحو التالى : مصطفى النحاس رئيسا . محمد محمود . اسماعيل صدقى . عبد الفتاح يحيى . واصف بطرس غالى . الدكتور أحمد ماهر . على الشمسى . عثمان محرم . محمد حلمى عيسى . مكرم عبيد . حـــافظ عفيفى . محمود فهمى النقراشى . أحمد حمدى سيف النصر أعضاء ، أما هيئة المفاوضـــة البريطانية فكانت مؤلفة من السير ما يلز لامبسون المندوب السامى البريطانى فى مصر يعاونه كل من : الاميرال السير وليم فيشر قائد الاسطول البريطانى فى البحـــر المتوســـط . واللفتننت جنرال السير جورج وير القائد العـــــام للقوات البريطانية فى مصر وقتئذ . ومارشال الطيران الاول السير روبرت بروك بوبهام قائد قوات الطيران البريطانيية فى الشرق الاوسط . والمستر كيلى مستشـــار دار المندوب الســـامى . والمســـتر ســـمارت السكرتير بهـــا .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى - فى أعقاب الثورة المصرية جـ ٢ ص ٢٥١ .

وبدأت المفاوضـــات فى القـاهرة يوم ٢ مارس ســـنة ١٩٣٦ بقصر « الزعفران » ثم استمرت فى الاسكندرية منذ أواخر يولية بقصر «انطونيادس» وانتهت بوضع مشروع المعاهدة التى وقعت فى لندن بقاعة « لوكـارنو » التاريخية بوزارة الخارجية البريطانية يوم ٢٦ اغسطس سنة ١٩٣٦ (١)

مـواد المعاهدة :

المـادة الأولى :

انتهى احتلال مصر عسـكريا بواســطة قوات صاحب الجلالة الملك والامبراطور ·

المـادة الثـانية :

يقوم من الآن فصاعدا بتمثيل صاحب الجلالة الملك والامبراطور لدى بلاط جلالة ملك مصر وبتمثيل صاحب الجلالة ملك مصر لدى بلاط ســان جيمس سـفراء معتمدون بالطرق المرعية ·

المـادة الثـالثة :

تنوى مصر الانضمام الى عضوية عصبة الامم وبما أن حكومة صاحب الجلالة فى المملكة المتحدة تعترف بأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة فانها ستؤيد أى طلب تقدمه الحكومة المصرية لدخول عصبة الامم بالشروط المنصوص عليهـا فى المـادة الاولى من عهـد العصـبه ·

المـادة الرابعة :

تعقـد محالفة بين الطرفين المتعاقدين الغرض منها توطيد الصـــداقة والتفاهم الودى وحسن العلاقات بينهما ·

---

(١) عبد الرحمن الرافعى - فى أعقاب الثورة المصرية ج ٣ ط ١٩٥١ ص ١٧ ·

المادة الخامسة :

يتعهد كل من الطرفين المتعاقدين بأن لا يتخذ فى علاقاته مع البلاد الاجنبية موقفا وتعارض مع المحالفة وأن لا يبرم معاهدات سياسية تتعارض مع أحكام المعاهدة الحالية .

المادة السادسة :

اذا افضى خلاف بين احد الطرفين المتعاقدين ودولة أخرى الى حالة تنطوى على خطر قطع العلاقات مع تلك الدولة تبادل الطرفان المتعاقدان الرأى لحل ذلك الخلاف بالوسائل السلمية طبقا لاحكام عهد عصبة الامم أو لاى تعهدات دولية أخرى تكون منطبقة على تلك الحالة .

المادة السابعة :

اذا أشتبك احد الطرفين فى حرب بالرغم من أحكام المادة السادسة المتقدم ذكرها فأن الطرف الآخر يقوم فى الحال بأنجاده بصفته حليفا وذلك مع مراعاة أحكام المادة العاشرة الآتى ذكرها .

معاونة صاحب الجلالة ملك مصر فى حالة الحرب او خطر الحرب الداهم و قيام حالة دولية مفاجئة يخشى خطرها فى أن يقدم الى صاحب الجلالة الملك والامبراطور داخل حدود الاراضى المصرية ومع مراعاة النظام المصرى للادارة والتشريع جميع التسهيلات والمساعدة التى فى وسعه بما فى ذلك أستخدام موانيه ومطاراته وطرق المواصلات .

وبناء على هذا فالحكومة المصرية هى التى لها ان تتخذ جميع الاجراءات الادارية والتشريعية بما فى ذلك أعلان الاحكام العرفية واقامة رقابة وافية على الانباء لجعل هذه التسهيلات والمساعدة فعالة .

المادة الثامنة :

بما أن قنال السويس الذى هو جزء لا يتجزأ من مصر هو فى نفس الوقت طريق عالمى للمواصلات كما هو أيضا طريق اساسى للمواصلات بين الاجزاء المختلفة للامبراطورية البريطانية فالى أن يحين الوقت الذى يتفق عليه

الطرفان المتعاقدان على أن الجيش المصرى أصبح فى حالة يستطيع معها ان يكفل بمفرده حرية الملاحة على القنال وسلامتها يرخص صاحب الجلالة ملك مصر لصاحب الجلالة الملك والامبراطور بان يضع فى الاراضى المصرية بجوار القنال بالمنطقة المحددة فى ملحق هذه المادة قوات تتعاون مع القوات المصرية لضمان الدفاع عن القنال ويشمل ملحق هذه المادة تفاصيل الترتيبات الخاصة بتنفيذها ولا يكون لتلك القوات صفة الاحتلال باى حال من الاحوال ·

كما أنه لا يخل باى وجه من الوجوه بحقوق السيادة المصرية ·

ومن المتفق عليه انه اذا اختلف الطرفان المتعاقدان عند نهاية مدة العشرين سنة المحددة فى المادة السادسة عشر على مسألة ما اذا كان وجود القوات البريطانية لم يعد ضروريا لان الجيش المصرى أصبح فى حالة يستطيع معها ان يكفل بمفرده حرية الملاحة على القنال وسلامتها التامة فان هذا الخلاف يجوز عرضه على مجلس عصبة الامم للفصل فيه طبقا لاحكام عهد عصبة الامم النافذة وقت توقيع هذه المعاهدة أو على أى شخص أو هيئة للفصل فيه طبقا للاجراءات التى قد يتفق عليها الطرفان ·

المادة التاسعة :

يحدد باتفاق خاص يبرم بين الحكومة المصرية وحكومة المملكة المتحدة ما تتمتع من أعفاء وميزات فى الوسائل القضائية والمالية قوات صاحب الجلالة الملك والامبراطور التى تكون موجودة فى مصر طبقا لاحكام هذه المعاهدة ·

المادة العاشرة :

ليس فى أحكام هذه المادة ما يمس أو يقصد به أن يمس باى حال من الاحوال الحقوق والالتزامات المترتبة او التى قد تترتب لاحد الطرفين المتعاقدين او عليه بمقتضى عهد عصبة الامم أو ميثاق منع الحرب الموقع عليها فى باريس فى ٢٧ اغسطس سنة ١٩٢٨ ·

المادة الحادية عشرة :

١ — مع الاحتفاظ بحرية عقد اتفاقيات جديدة فى المستقبل لتعديل اتفاقية ١٩ يناير ، ١٠ يوليو سنة ١٨٩٩ قد اتفق الطرفان المتعاقدان على أن

ادارة السودان ستمر مستمدة من الاتفاقيتين المذكورتين ويواصل الحاكم العام بالنيابة عن كلا الطرفين المتعاقدين مباشرة السلطات المخولة له بمقتضى هاتين الاتفاقيتين ٠

والطرفان المتعاقدان يتفقان على أن الغاية الاولى لادارتهما فى السودان يجب أن تكون رفاهية السودانيين ٠ وليس فى نصوص هذه المادة أى مساس بمسالة السيادة على السودان ٠

٢ ـ بناء على ذلك تبقى سلطة تعيين الموظفين فى السودان وترقيتهم مخولة للحاكم العام الذى يختار المرشحين الصالحين من بين البريطانيين والمصريين عند التعيين فى الوظائف الجديدة ، التى لا يتوفر لها سودانيون أكفاء ٠

٣ ـ يكون جنود بريطانيون وجنود مصريون تحت تصرف الحاكم العام الدفاع عن السودان فضلا عن الجنود السودانيين ٠

٤ ـ تكون هجرة المصريين الى السودان خالية من كل قيد الا فيما يتعلق بالصحة والنظام العام ٠

٥ ـ لا يكون هناك تميز فى السودان بين الرعايا البريطانيين وبين الرعايا المصريين فى شئون التجارة والمهاجرة او فى الملكية ٠

٦ ـ اتفق الطرفان المتعاقدان على الاحكام الواردة فى ملحق هذه المادة فيما يتعلق بالطريقة التى تصبح الاتفاقيات الدولية سارية فى السودان

المادة الثانية عشرة :

يعترف صاحب الجلالة الملك والامبرطور بان المسئولية عن أرواح الاجانب واموالهم فى مصر هى من خصائص الحكومة المصرية دون سواها وهى التى تتولى تنفيذ واجباتها فى هذا الصدد ٠

المادة الثالثة عشرة :

يعترف صاحب الجلالة الملك والامبراطور بأن نظام الامتيازات القائم بمصر الآن لم يعد يلائم روح العصر ولا حالة مصر الحاضرة · ويرغب صاحب الجلالة ملك مصر فى الغاء هذا النظام دون ابطاء · وقد اتفق الطرفان المتعاقدان على الترتيبات الواردة بهذا الشأن فى ملحق هذه المادة ·

المادة الرابعة عشرة :

تلغى المعاهدة الحالية جميع الاتفاقيات أو الوثائق القائمة التى يكون استمرار بقائها منافيا لاحكام هذه المعاهدة ، ويجب أن يعد باتفاق الطرفين المتعاقدين اذا طلب أحدهما ذلك بيان بالاتفاقيات والوثائق الملغاة وذلك فى مدى ستة اشهر من نفاذ هذه المعاهدة ·

المادة الخامسة عشرة :

اتفق الطرفان المتعاقدان على ان اى خلاف ينشأ بينهما بصدد تطبيق أحكام المعاهدة الحالية أو تفسيرها ولا يتسنى لهما تسويته بالمفاوضات بينهما مباشرة يعالج بمقتضى أحكام عهد عصبة الامم ·

المادة السادسة عشرة :

يدخل الطرفان المتعاقدان فى مفاوضات بناء على طلب أى منهما فى أى وقت بعد انقضاء مدة عشرين سنة على تنفيذ هذه المعاهدة. وذلك بقصد اعادة النظر بالاتفاق بينهما فى نصوص المعاهدة بما يلائم الظروف السائدة حينذاك فاذا لم يستطع الطرفان المتعاقدان الاتفاق على نصوص المعاهدة التى اعيد نظرها يحال الخلاف الى مجلس عصبة الامم للفصل فيه طبقا لاحكام عهد العصبة النافذ وقت هذه المعاهدة او الى اى شخص او هيئة للفصل فيه طبقا للاجراءات التى يتفق عليها الطرفان المتعاقدان ·· ومن المتفق عليه أن أى تغير فى المعاهدة عند اعادة نظرها يكفل استمرار التحالف بين الطرفين المتعاقدين طبقا للمبادىء التى تنطوى عليها المواد (٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧) · ومع ذلك ففى اى وقت بعد انقضاء مدة عشرة سنوات على تنفيذ المعاهدة يمكن

الدخول فى مفاوضات برضا الطرفين المتعاقدين بقصد أعادة النظر فيها كما سبق بيانه (١) ٠

وقد هاجم الحزب الوطنى حضر ، المعاهدة هجوما شديدا ، لانها تقبل بالصداقة والتحالف مع الانجليز وهم لا يزالون يحتلون مصر بينما اعتبرتها باقى الاحزاب أساسا جيدا للبناء عليه ٠

والواقع ان التحالف العسكرى بين مصر وانجلترا واعتراف مصر بالحكم الثنائى فى السودان هو الثمن الذى دفعته مصر فى مقابل السيادة التى أضفاها عليها تمتعها بعضوية عصبة الامم ، والغاء الامتيازات الأجنبية طبقا لاتفاق مونتريه ، وكانت معاهدة ١٩٣٦ وليدة اصطناع القوة ، اذ ان انجلترا بسبب وجود قواتها العسكرية فى الشرق الاوسط ، كانت قادرة على الاستمرار فى احتلال مصر والسودان رغم أنف المصريين . وعلى ان تدافع عن مصر سواء اشتركت مصر فى هذا الدفاع أم لم تشترك وكانت انجلترا على يقين من ان باستطاعتها ان تقوم بذلك ، وكان المصريون يعلمون ذلك ويدركون حقيقة الموقف الدولى فى شرق البحر المتوسط ، ولهذا تنازلوا عن نصف مطالب مصر فى سبيل الحصول على النصف الآخر (٢) ٠

وكان من الواضح أن هذه المعاهدة قد وضعت نهاية لفترة فى العلاقات المصرية البريطانية ، بدأت بضرب الاسكندرية فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ (٣) ثم بلغت درجة شديدة من التوتر والعنف سنة ١٩١٩ ثم انتقلت الى طور الصداقة سنة ١٩٣٦ ٠

على ان معاهدة ١٩٣٦ تسجل نقطة انتقال حاسمة فى تاريخ مصر المعاصرة ٠ فقد اقنع الزعماء الوفديون الشعب بأنهم قد احرزوا له « الشرف والاستقلال » ، ولهذا انحسر المد الوطنى الصاعد الذى كان ذخيرة مصر

---

(١) د ٠ عبد العزيز الشناوى – د ٠ جلال يحيى – وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر – دار المعارف ١٩٦٩ ص ٧٤٣ – ٧٧٠ ٠

(٢) د ٠ أحمد عبد الرحيم مصطفى – تاريخ مصر السياسى من الاحتلال الى المعاهدة القاهرة ١٩٦٧ ص ١٩٨ – ٢٠٠ ٠

(٣) John Marlowe op. cit., p. 307

المعنوية منذ الربع الاخير من القرن التاسع عشر وتوهم المصريون انهم قد حصلوا على الاستقلال ، وانصرفوا وصرفتهم الاحزاب الى النضال المرتبط بتقلبات الحكم (١) ٠

مقدمات ثورة ٢٣ يوليو

من الملاحظ أن الحركة الوطنية فى مصر قد قلت حماستها كثيرا فى عام ١٩٢٤ بالقياس الى عام ١٩١٩ ويرجع ذلك الى ان الحركة الوطنية قد لقيت الكثير من عنت سلطات الاحتلال ، ومن تدخل القصر فى الحكم والانتهازية والحزبية التى طغت على وحدة الأهداف الوطنية (٢) ٠

وكانت « المفاوضة » هى الاداة التى اتخذها قادة الرأى فى مصر لوضع العلاقات المصرية البريطانية على اساس يحقق لمصر امانيها القومية ، والمفاوضة اخذ وعطاء ، فكان هم المفاوض المصرى الا يعطى انجلترا ما يتنافى مع جوهر الاستقلال ، واختارت الحكومة الانجليزية هى ايضا المفاوضة اداة لوضع علاقاتها بمصر على اساس يتقبله المصريون راضين تماما او راضين بعض الرضا ، ويحقق لانجلترا الاغراض التى من اجلها سيطرت على مصر ٠ والمفاوضة اخذ وعطاء ، فكان هم المفاوض الانجليزى أن يسخو فى الصيغ العامة وان يدقق كل التدقيق فيما يمس المصالح التى ادعتها بلاده لنفسها (٣) ٠

وهكذا انتقلت المسألة المصرية من مرحلة الثورة الى مرحلة جديدة هى مرحلة المفاوضات السلمية ٠ وبدأت المفاوضات الاولى بين سعد زغلول ومكدونالد بلندن فى سبتمبر سنة ١٩٢٤ ، الا ان المطالب التى تقدم بها سعد لم تجد موافقة من حكومة العمال ، وانتهت المفاوضات برفضها ٠

---

(١) د ٠ احمد عبد الرحيم مصطفى — المصدر السابق ص ٢٠٢ ٠
(٢) د ٠ جاد طه — الصراع الاستعمارى فى حوض النيل ص ٨٩
(٣) محمد شفيق غربال — تاريخ المفاوضات المصرية — البريطانية ١٨٨٢ — ١٩٣٦ القاهرة ١٩٥٢ ص ١ ٠

وكانت المفاوضات التالية بين عبد الخالق ثروت الذى راس الحكومة الائتلافية فى مصر فى ابريل سنة ١٩٢٧ وتشمبرلن وزير الخارجية البريطانية البريطانية فى حكومة المحافظين ، ووصل الطرفان الى مشروع معاهدة تحقق لبريطانيا فيه كل ما تهدف اليه من نفوذ وسيطرة ، الا ان الوفد والوزارة رفضا هذا المسروع ومن ثم لم يعرض على البرلمان ، وانتهى الامر بتأجيل النظر فى هذا المشروع ٠

وفى عام ١٩٢٩ بدأ محمد محمود رئيس الوزارة المصرية الدور الثالث للمفاوضات مع آرثر هندرسن وزير الخارجية البريطانية فى حكومة العمال ، الا ان مشروع المعاهدة الذى أسفرت عنه المفاوضات كان يتلخص فى الاحتفاظ بالاحتلال البريطانى الدائم للبلاد ، وبفصل مسألة السودان عن المسالة المصرية ٠٠٠ ولما أعلن نص المشروع سقطت وزارة محمد محمود (١) وفى ٢٦ أغسطس عقدت معاهدة سنة ١٩٣٦ التى تكلمنا عنها سبقا ٠

وتميزت الفترة من ١٩٣٦ الى ١٩٥٢ بانها شهدت انهيارا سياسيا واسع المدى ، فعلى الرغم مما كان يتمتع به حزب الوفد من مساندة جماهيرية الا أن الحزب بدأ يتفتت نتيجة لمؤثرات داخلية وخارجية ، فقد كان الاستعمار والسراى يخشيان من الحزب على اساس انه يجمع ويكتل قوى الشعب ، فبدأ الامر بسلخ بعض عناصره القوية ، وهى التى شكلت بعد ذلك حزب الاحرار الدستوريين ٠ ولما بدأ حزب الوفد يقوى مرة أخرى ، قامت محاولة جديدة لتمزيقه بخروج السعديين منه ٠ وكان السعديون يمثلون العناصر الراسمالية الجديدة التى ظهرت فى عقاب الحرب العالمية الأولى ٠ وقد حاول الوفد أن يتحول منذ عام ١٩٤٥ الى حركة اشتراكية باتجاهه الى الى التشكيلات العمالية ، ولكنه فشل فى ذلك ٠ حقيقة كان فى وسع الوفد دائما أن يعتمد على قوته فى كسب الانتخابات ، ولكنه ما أن يكسبها فى أى مرة من المرات حتى تتفرق وحدة الهدف التى سادت

---

(١) د ٠ حامد طه ـ المصدر السابق ص ٩٠ ٠

أعصاءه أثناءها وحتى بركن الى الاسترخاء ، وكثيرا ما كان يلجأ القصر الى اقالة وزارة جديدة تم انتخابها أو الى حل البرلمان وتعطيل الدستور عملا بنصيحة بريطانيا أو بدونها اذا رأى أن النذر السياسية غير مواتية له ، وهكذا كانت تنطلق الانتهازية والمصالح الخاصة حرة طليقة فى ظل مثل هذه الاوضاع .

وكان أصحاب الملكيات الزراعية الكبيرة هم الذين يسيطرون على السياسة كليا ، وكانوا فى غالبيتهم من الغائبين عن أرضهم ، وممن يصرفون أيامهم بين القاهرة والاسكندرية وأوربا . ومع ذلك ، فقد كان بامكانهم او بامكان وكلائهم ان يضمنوا لهم الفوز فى الانتخابات البرلمانية باستخدام وسائل غير مشروعة فى جملتها ، وكان من العادات المألوفة أن يكون هناك سماسرة لشراء أصوات الناخبين .

ولقد تقدمت الصناعة والتجارة فى مصر بعد عام ١٩٢٢ ، ولكن هذا التقدم لم يخلق مع ذلك طبقة قوية من رجال الصناعة والتجارة تستطيع ان تتحدى السلطان السياسى لفئة كبار الملاك ، فلقد كان الشطر الاكبر من الصناعة الجديدة ومن التجارة ملكا للاجانب وتحت اداراتهم ، وكان الأجانب يملكون فى عام ١٩٤٨ نحو ٦١٪ من مجموع رؤوس الأموال فى الشركات المساهمة ، يضاف الى هذا أن الفئة الممتازة من كبار الملاك كانت هى التى خططت شكل المجتمع المصرى ، ورسمت له خطاه وحياته العامة منذ أمد طويل ، بحيث أجبر المصريون الذين ارتقوا عن طريق الصناعة والتجارة الى الظهور بمظهر التبعية للطبقة الأرستقراطية من الملاك .

وعكست البرلمانات التى سيطر عليها الوفد فى الفترة بين عامى ١٩٢٢ ١٩٥٢ الخصائص السياسية للاتجاه السياسى . وقد يكون صحيحا أن البلاد خطت خطوات واسعة فى حقل التعليم العام ، وأن البرلمان قد أقر فى عام ١٩٤٢ قانونا هاما لتنظيم الحركة النقابية ، وحقق للبلاد تقدما عام ١٩٥٠ تشريعا هاما للضمان الاجتماعى ، والحقيقة أن كبار الملاك فى داخل الحكومة أو فى خارجها كانوا يتسامحون فى هذه

الاجراءات ... الاملية عن امصن بها والغالبية نرى قبيث وسيلة لامتصاص الثورة ، ومع ذلك علم يكن فى استطاعة اى برلمان فى مصر بين عامى ١٩٢٢ ، ١٩٥٢ أن يسن قانونا للاصلاح الزراعى ، بل ورفضت البرلمانات الاقتراحات التى قدمت لها فى عامى ١٩٤٥ ، و ١٩٥٠ بتحديد الملكية الزراعية .

وظل سكان مصر فى التزايد المستمر ، وارتفع تعداد السكان من ١٣٫ مليونا سنة ١٩٢٢ الى ٢١ مليونا فى عام ١٩٥٢ ، وتبع ذلك هبوط فى مستوى دخل الفرد . واخذ الكيان السياسى والاجتماعى والاقتصادى فى مصر ينهار سنة بعد اخرى ، وفقد الوفد قدرته على اجتذاب الألوف من العاطلين ومن ذوى الاجور الضئيلة من خريجى الجامعات .

وشهدت الفترة من ١٩٢٢ الى ١٩٥٢ ظهور جيل جديد من الشباب القلق نستطيع ان نقرا قصته فيما كتبه الرئيس جمال عبد الناصر فى كتابه فلسفة الثورة ، فقد كان هذا الجيل يتكون من المتعلمين من خريجى الجامعات ومن الذين يعملون فى المهن المختلفة والطبقة الوسطى عموما التى كانت بمثابة الأرض الخصبة التى اخذت تترعرع فيها الافكار الجديدة التى سادت العالم عقب الحرب العالمية الاولى ، وكانت هذه الطبقة تؤلف حاجزا طبقيا بين الاغنياء والفقراء ، ولكن هذا الحاجز لم يكن يملك من الثروة او الوفرة العددية والتنظيم السياسى والمكانة الاجتماعية ما يمكنه من تحدى النظام القائم تحديا جديا . وظل هذا الحاجز يؤلف طبقة تعيش فى حيوية قلقة بين هؤلاء الذين يمسكون بزمام السلطان وبين اولئك الذين يقبعون عاجزين فى شقائهم .

وادى التحول السريع فى حياة المدن الى ظهور طبقة عمالية جديدة، وان كانت قد ظلت تفتقر الى حد كبير الى التنظيمات الفعالة للطبقة العاملة .

ولم تكد الحرب العالمية الثانية تضع اوزارها ، حتى كان السخط ظاهرة عامة وخاصة بعد قيام اسرائيل وما صحبها من مأساة حرب فلسطين . ونمت فى عقول ابناء هذا الجيل رغبة شديدة لا تكتفى

بالاصرار على تصفية كل سيطرة جنبية فحسب ، بل تتطلع الى الحيلولة دون تمكن أية دولة من الدول الكبرى من عقد تحالف مع أى جزء من أجزاء الوطن العـربى ٠

وكان النظام الجمهورى مطلبا متأصلا فى سعى هـذا الجيل الى الاصلاح الاجتماعى وأخذت الاشتراكية والديموقراطية تجتذبان هـذا الجيل بدرجة متزايدة ، ولكن النظـام الداخلى الذى كان يتحكم فى البلاد كان بطبيعـة الحال يعارض هذه الأفكار وهو فى هذا متفق تماما مع سياسة الاحتلال ، ومن هنا بدأ التحدى لهاتين القوتين معا ، ومع ذلك لم تنشأ حركة سياسية تعكس كل هذه الآراء وتتصـدى لمقاومة التد .ت التى كان من المفروض أن تواجهها ، وبالتالى لم تقم أحزاب متماسـك: ى أهدافهـا نشيطة فى عملها لتعكس هـذه الآراء ٠

والواقـع أن الشعب المصرى كان يعيش فى السنوات السـابقة للثورة فى حالة يأس شديد نتيجة لتدهور الاوضـاع الاقتصـادية ولبقاء جيش الاحتلال ، وكان لا بـد من تغيير سريـع ، وكان من المستحيل أن تقـوم الأحزاب السياسية فى مصر بمهمـة هـذا التغيير بعـد أن فقـدت الجماهير ثقتها بتلك الأحزاب ، وأخذت تبحث عن شيء جديد ينير معـالم الحياة فى البلد ، فالوفد الذى كانت تلتف حوله الغالبية العظمى من أفراد الشـعب قد فقد ثقة واحترام المثقفين لتسرب الفساد الى الصفوف الأولى من قادته وكانت الأحـزاب السياسية الأخرى كحزب الأحرار الدستوريين وحـزب السعديين قـد بدأت تفتح أبوابهـا لنفوذ الرأسماليين ، بينمـا كان الحزب الوطنى يتكون من مجموعـة من المثقفين الذين انعزلوا انعزالا يكـاد يكون تاما عن الشعب ٠ وكان الموقف يتطلب ظهور قيادة غير قيادات الأحـزاب القائمـة ، فى الوقت الـذى كان فيه الوعى القومى للشعب قـد ازداد ارتفاعا ، بفضـل الاتجاهـات الثوريـة الشعبيـة الجديدة ، وبفضـل تطـور الأحداث العالمية ، وبفضل التجارب الثورية التى خاضتها بعض الشـعوب الآسيوية ، وأثبت هـذا الوعى وجوده فى مظـاهـرات فبرايـر ١٩٤٦ وفى المعارك المسلحـة فى القنال سنة ١٩٥١ ٠

وكانت حرب فلسطين ، والكشف عن مخازى القصر ابذانا بارتفاع صوت الشعب بالمطالبة بالقضاء على الملكية ، وظهرت المقالات فى الصحف ضد الباشوات ابذانا بالقضاء على الاحتكار .

ولم يكن الجيش بمعزل عن الشعب ، فقامت فى صفوفه تنظيمات سرية . وقد بدات حركة الضباط الأحرار سنة ١٩٤١ - ١٩٤٢ وبالذات اثناء محاولة الغزو الالمانى لمصر ، وبدأت الحركة تظهر فى أوساط الجيش لمقاومة محاولة التدمير التى ازمع الانجليز القيام بها عند انسحابهم امام الألمان . واستمر الارتباط قائما بين جماعة الضباط الاحرار ، وبدأ الاتجاه السياسى يظهر فى التنظيم ، وتجاوب التنظيم السياسى فى مفاهيم هؤلاء الضباط الذين دخلوا الجيش بعد معاهدة ١٩٣٦ عندما زيد عدد الجيش ، وكانت اكثريتهم من العناصر الشعبية بينما كان الجيش من قبل وقفا على عناصر معينة . وكانت هذه الفئات الجديدة هى الطلائع الثورية لثورة يوليو ، ولعل ذلك يذكرنا بموقف يكاد يكون مشابها . فان الثورة العرابية قد تزعمتها ايضا فئات من العناصر الشعبية التى دخلت الجيش اثر ما تقرر زيادة عدده فى عهد الخديو اسماعيل . وقد أخذت تنظيمات الضباط الاحرار تقوى بعد عام ١٩٤٨ نتيجة لما لمسه الضباط بأنفسهم فى حرب فلسطين من مقدار الفساد فى الفئة الحاكمة ، واصبح الشعور الحقيقى بأن المعركة الاساسية لا تكون فى فلسطين بل فى مصر نفسها ، ولذلك اخذ التنظيم يدخل مرحلة جديدة بعد ١٩٤٨ . وبعد عودة الجيش من فلسطين كانت السلطات متنبهة الى ذلك فبدأت عملية تشتيت واسعة ، ولكن الأفكار الثورية كانت مع ذلك تزداد قوة ، لأن الظروف التى كانت تمر بها البلاد انعكست على التنظيم نفسه . وقد اعطت معركة الكفاح المسلح فى القنال فرصة لزيادة قوة التنظيمات التى اقامها الضباط ، واصبح من المستحيل أن يبقى الجيش كما أريد له أن يكون اداة صماء فى يد القصر .

وبعد نكسة فلسطين سنة ١٩٤٨ وقعت فى مصر سلسلة من الاحداث ادت الى اضطراب امور البلد ، فقد نشب صراع دموى بين بعض الاحزاب المتصارعة على الحكم ، ووقعت عدة حوادث اغتيالات وانفجارات

فى ارجاء القاهرة والاسكندريه ، واهتزت مكانة الوزارات فى الفترة الواقعة بين عامى ١٩٤٨ – ١٩٥٠ ٠

وشعر الملك أنه فى حاجة الى وزارة قوية تستطيع أن تعيد الامن الى البلاد ففكر أن يعيد الوفد الى الحكم ، وفعلا أجريت الانتخابات فى عام ١٩٥٠ وحصل الوفد على الأغلبية البرلمانية ، الا أن الوفد غير سياسته ، واخذ يتقرب من السراى لان مدة ابعاده عن الحكم دفعت رجاله الى التفاهم مع السراى لعلهم يستمرون فى الحكم مدة أطول ، وحتى لا يتعرضوا للاقالة مثلما حدث فيما سبق ٠

وقد حاولت حكومة الوفد أن تستعيد ثقه الشعب ، فحاولت ان تصدر مشروعا للضمان الاجتماعى ، كما منحت علاوات للموظفين وزيادات فى اجور عمال الصناعة ، ولكن هذه الخطوات أدت الى غلاء الاسعار ٠ وحاولت حكومة الوفد ان تلجأ الى طرق اخرى لاستعادة الثقة بها فدخلت فى مفاوضات مع الانجليز على أمل انهاء الاحتلال وعندما فشلت هذه المفاوضات اعلنت الحكومة الغاء معاهدة ١٩٣٦ ، وكان ذلك فى ٨ اكتوبر سنة ١٩٥١ ٠

وقد استقبلت البلاد الغاء المعاهدة بالغبطة والحماسة ، وابدت استعدادها للبذل والتضحية شأنها فى الاوقات العصيبة ، واستعدت الامة بمختلف هيئاتها وطوائفها للكفاح ، وتجاوبت مع الحكومة فى مجاهدة الانجليز فى القنال ، وتجلت فى الشعب الروح الوطنية الثائرة التى ظهرت فى ثورة ١٩١٩ ٠

لقد كان الغاء المعاهدة بداية مرحلة جديدة من مراحل الكفاح الوطنى ، وكان ايضا الفرصة السانحة لتوحيد الصفوف وجمع الكلمة وازالة اسباب الفرقة والانقسام ٠

وكان واجبا على الوفد ان يكون هو الداعى الى توحيد الكلمة والعامل على تحقيق هذه الغاية لانه كان يتولى الحكم حينذاك ، ووزارته هى التى اعلنت الغاء المعاهدة واتخذ هذا الالغاء شكل اعلان الحرب على الاحتلال ٠ ولكن مصطفى النحاس لم يفعل شيئا من هذا ، فلا هو دعا معارضيه الذين

ايدوه فى الغاء المعاهدة الى التعاون معه بشكل جدى ، ولا هو صبغ وزارته بالصبغة القوميـة ٠

كما أعلن مصطفى النحـاس ان الوزارة قـد أعـدت لكل شىء عدتـه فيما ستواجهه مصر من مشـاق الجهاد ، وانهـا امضت الشهور فى الاستعداد الكفـاح ، وأن المصلحة العـامة تقتضى أن تظل الخطوات المقبلـة فى طى الكتمان الى ان تعلن فى الوقت المناسب ٠ وسرت الحماسة الى نفـوس المواطنين ، واخذوا يستعدون للكفاح ضـد الانجليز فى القنال ويعدون له عدته من تلقـاء انفسـهم ، وكان فى الحق كفاحا مجيدا ، كفـاح شـعب اعزل من السلاح امام قوات غاصبة مسلحة بأحدث معدات الفتك والدمار ٠

وتجلت بطولات الفدائيين فى مهاجمـة المسكرات والمخافر والمنشات البريطانيـة فى منطقة القنـال مما تردد صداه فى صحف العالم ، وكان من اقوى الدعايات لمصر ضـد الاحتلال (١) ٠ ورغم تاكيـد حكومة الوفـد بأنهـا قـد اعدت لكل شىء عدته ، فقـد حدث فى ٢٥ ينـايـر ١٩٥٢ أن هاجـم الانجليز محـافظة الاسماعية بالمدافـع والدبابات ولم يكن يدافـع عن المحافظـة سوى عدد قليـل من جنود الشرطة (بلوكات النظـام) الذين لا يحملون سـوى البنادق العادية ، ومن ثم أبيد معظمهم ٠

وفى اليوم التالى خرجت جماعات من الطلبة ورجـال الشرطة فى مظاهرة احتجاج ضخمـة ضـد ذلك العدوان الوحشى ، وكانت النفوس ثائرة ضـد حكومـة الوفـد المتخاذلة ، وانتهزت بعض الجماعات المتطرفة هـذه الفرصة للاساءة الى الحركـة الوطنية ، فكان حريق القاهرة فى ٢٦ ينايـر ١٩٥٢ ، وكان لذلك الحريق اثـر كبير فى تقديم موعـد الثورة ، وفى ذلك يقول الرئيس جمال عبد الناصر : « حرقت القاهرة وحرق معها كفاحنا فى القنال ٠ ومن ذلك اليوم بدانـا نفقـد الصبر وآثرنـا أن نصرع الفسـاد قبل أن يصرعنا » والحقيقة انه كان هناك تفكير بأن يقوم الجيش بحركته بعـد ان نزل الى

---

(١) عبد الرحمن الرافعى مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ص ١٨ - ٢١ ٠

شوارع القاهرة فى ٢٦ يناير واحتل الاماكن الرئيسية ٠ ولكن الظروف لم تكن مواتية فى ذلك الوقت ٠

وبدات الاحداث تتوالى بسرعه ، ففى نفس ذلك اليوم أعلنت الاحكام العرفية وأقيلت وزارة الوفد فى اليوم الثالث للحريق ، وحلت محلها وزارة على ماهر ، ثم جاءت بعدها وزارة نجيب الهلالى الاولى فحلت البرلمان ورفعت شعار « لا تحرير قبل التطهير » ، وكان هدف هذا السعار تمييع حركة الكفاح الشعبى وادخال البلاد فى معركة أخرى ٠٠٠ معركة التطهير داخل الاجهزة الحكومية وكان المقصود بهذه العملية صرف نظر الشعب عن عملية الكفاح ٠

ولما بدأ الهلالى فى عملية التطهير يمس فى تحقيقاته بعض المتصلين بالسراى كان لا بد من ابعاده ، وتمادى الملك فى تعيين وزارة واسقاط أخرى حتى أنه كلف اثنين بتأليف الوزارة فى وقت واحد دون أن يعلم أحدهما بامر الآخر ٠

وفى ٢٢ يوليو ١٩٥٢ استقالت وزارة حسين سرى بعد ١٩ يوما وكلف الملك نجيب الهلالى تأليف وزارة جديدة وفرض الملك عليه عددا من الوزراء ليكونوا اداة للملك فى السيطرة على الجيش بوجه خاص نتيجة لنشاط الضباط الاحرار ٠

وبينما القيادة العليا للجيش تبحث فى تلك الليلة (٢٢ يوليو) الوسائل التى يجب اتخاذها لتنفيذ ارادة الملك ، قام الجيش بالثورة ٠٠ والحقيقة أن الشعب المصرى كان قد بدأ ثورته على الوضع ، ولكنه كان بحاجة الى قيادة منظمة توجه نشاطه وتنظم صفوفه ، فلما قامت الثورة لم تكن تمثل فقط غضبه رجال الجيش ، وانما كانت تعبر عن رغبة شعبية عميقة ، وهكذا التقت ارادة الجيش وارادة الشعب ، فلما تحرك الجيش فى صباح يوم ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ لم يجد امامه مقاومة ٠

اسباب ثورة ٢٣ يوليـو :

ان البيانات التى اصدرتهـا الثورة فى بدء قيامهـا لـم توضح سـوى الاسباب الظاهريـة ، او الاسباب الجزئيـة ، وخلاصـة هذه البيانـات أن قادة الثورة وكلهم من ضباط الجيش ضـد ثاروا على فسـاد نظام الجيش ، ذلك الفساد الذى كان من أسباب الهزيمة فى حرب فلسطين ، وأنهم اعتزموا تطهير الجيش من عوامـل الفسـاد والرشوة والخيـانة ثـم متابعـة التطهير فى جميـع مرافق البلاد ، ورفـع لواء الدستور ، وقـد راوا ان الملك بتصرفاته السيئة وعبثه بالدستور من اسباب الفسـاد الذى سيطر على اداة الحكم ، مما أدى بالتالى الى الفوضى الشاملة التى عمت جميع المرافق وأساءت الى سمعة مصر فاعتزموا خلعه وخلعوه فعلا فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢ (١) ٠

والواقـع أن هـذه العوامل هى بعض أسباب الثورة لاكلهـا ، فأسبابها اهم واعمق من ذلـك ، فهى ليست خاصـة بالجيش ، وانمـا كانت قياداتها تعبر عن أحاسيس الشـعب واتجاهاته وتترسم خطواته فى تحديد اهدافه ، ولذلك لا تختلف هـذه الثورة عن الحركـات الشعبيـة التى سبقتهـا باستثنـاء الثورة العرابيـة الا فى اتخـاذ الجيش أداة العمـل والتنفيذ ، وقد كانت هذه القوة فعلا هى السبيل لنجاح الثورة ولولاهـا لانتهت بالنكسة والاخفـاق ٠

ويمكن ان نرجع اسباب ثورة يوليـو الى عوامـل سياسية واقتصادية واجتماعية ، ولذلـك فان الثورة فى معالجتهـا لتلك الاسباب ثورة سياسية واقتصـاديـة واجتماعية ، ممـا يميزهـا عن الحركـات الشعبيـة الاخرى التى قامت ٠

الاسباب السياسية :

كانت الثورة تعبيرا عن سخط الشعب ه٠ الاحتلال البريطانى الـذى جثم على صدر البلاد سنوات طويلة ، كمـا كانت تعبيرا عن سـخط الشعب

---

(١) د ٠ جاد طه - ثورة ٢٣ يوليو ص ١٤٤ ٠

لاستغلال المستعمر للبلاد سياسيا واقتصاديا ، ونقضه المتواصل لمواعيد الجلاء ، والمراوغة فى تعويق الجلاء بمفاوضات متكررة • كما عمل الانجليز بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ على تدبير المؤامرات واسقاط الوزارات واقامتها ، واستحداث الازمات لتحقيق أغراضهم الاستعمارية • وأدرك الضباط الاحرار ان الواجب ان يكون لهم الدور المرتقب فى الجهاد لانهم يمثلون القوة المسلحة التى يستطيع الشعب أن يستند اليها فى التخلص من مساوىء سيطرة المحتل •

الاسباب الاقتصادية :

كانت الحالة الاقتصاديه فى أوائل سنه ١٩٥٢ مما يحفز النفوس الى الانتفاض والثورة والعمل على تحرير البلاد من عوامل الفقر التى كانت تتردى فيها •

حقا ان البلاد قد خطت خطوات متوالية منذ الحرب العالمية الاولى فى سبيل التقدم الاقتصادى ، واطرد هذا التقدم فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وتعددت المنشآت الصناعية ، الا أن مصر ظلت بصفة عامة من البلاد المتخلفة اقتصاديا ، وكان من مظاهر هذا التخلف ظهور العجز فى ميزانها التجارى ، هذا الى ما كان من سيطرة الاستعمار والنفوذ الاجنبى بصفة عامة على مقدرات البلاد ، وكان هذا النفوذ يمتد الى المحيط السياسى ، وكانت الغالبية العظمى من افراد الشعب تشكو الفقر وسوء الحالة الاجتماعية بما يصحبها من انخفاض فى المستوى المعيشى ، وافتقرت البلاد الى آفاق جديدة تزيد من الانتاج القومى ومن دخل الافراد كالتنمية الزراعية او الصناعية ، وكان ذلك من العوامل التى ادت الى التطلع نحو تغيير شامل فى نظام الحكم قد يساعد على اصلاح ما اختل من شئون البلاد المالية والاقتصادية •

الاسباب الاجتماعية :

لقد كانت الحالة الاجتماعية تدعو ايضا الى الثورة ، واهم مظاهرها فقدان العدالة الاجتماعية بين طبقات الشعب • ان العدالة الاجتماعية من

مقومات المجتمع المتقدم ، وأساسها أن لا تتحيف طبقة حقوق طبقة أخرى ، وأن تقل الفوارق الشاسعة بين الطبقات ، وأن تعمل الدولة على تحسين حالة الطبقات الفقيرة من الوجهة الاقتصادية والصحية والثقافية ، وبذلك يتحقق التضامن الاجتماعى بين أفراد الامة .

وقد كانت الفوارق فى الثروات بين أفراد المجتمع تتخذ طابعا خطيرا ، وكانت البلاد تشكو من سوء توزيع ملكية الاراضى الزراعية ، وان سوء توزيع هذه الملكية فى مصر ظاهر توزيع ملكية الاراضى الزراعية ، وان سوء توزيع هذه الملكية فى مصر ظاهر من القاء نظرة على عدد الملاك ومقدار ما يملكون ، ونسبة صغار الملاك الى كبارهم فى مجموع هذه الاراضى . ويوضح هذا الاحصاء هذه الحقيقة فيما يلى :

أن مساحة الارض المنزرعة قبل الثورة كانت ٥ر٩٦٦٢ر٦٦٢ فدانا ، وكان مجموع ملاكها ٢ر٧٦٠ر٦٦١ مالكا .

فاذا نظرنا الى الملكيات الصغيرة فاننا نجد أن :

١ ـ ١ر٤٥٩ر١٦٧ مالكا يملك كل منهم لغاية نصف فدان ، مجموع ملكياتهم ٤١٣ر٥٥١ فدانا .

٢ ـ ٥٢٢ر١٦٢ مالكا يملك كل منهم اكثر من نصف فدان الى فدان ومجموع ملكياتهم ٣٥٦ر٦٩٥ فدانا .

٣ ـ ٣٢٧ر٦١٢ مالكا يملك كل منهم اكثر من فدان الى فدانين ومجموع ملكياتهم ٤٤٩ر١٨٦ فدانا .

٤ ـ ١٥٣ر٢٩٣ مالكا يملك كل منهم اكثر من ٢ لغاية ٣ افدنة ومجموع ملكياتهم ٣٠٤ر٨٥٥ فدانا .

٥ ـ ٨١ر٣٦٦ مالكا يملك كل منهم اكثر من ٣ لغاية ٤ افدنة ومجموع ملكياتهم ٢٤٧ر٠١٧ فدانا .

٦ _ ٥٨٩ر٥٦ مالكا بملك كل منهم اكثـر من ٤ لغـاية ٥ افدنة ومجموع ملكياتهم ٠٠٠ر٢٤٧ فدان ٠

واذا نظرنا الى الملكيات الكبرى فاننـا نجد أن :

١ _ ٦١ مالكا يملك كل منهم اكثـر من ٢٠٠٠ فـدان ومجموع ملكياتهم ٢٥٨ر٢٧٧ فدانا ٠

٢ _ ٢٨ مالكا يملك كل منهم من ١٥٠٠ _ ٢٠٠٠ فـدان ومجمـوع ٢١٦٠ر١٢٢ فدانا ٠

٣ _ ٩٩ مالكا يملك كل منهم أكثر من ١٠٠ _ ١٥٠٠ فدان ومجموع ملكياتهم ٢١٦ر١٢٢ فدانـا ٠

٤ _ ٩٢ مالكا بملك كل منهم اكثـر من ٨٠٠ الى ١٠٠٠ فـدان ومجموع ملكياتهم ٤٨٣ر٨٦ فدانا ٠

ومعنى ذلك ان ٢٨٠ مالكا يملكون ٤٠٠ر٥٨٣ فدان ، اى ان ١ عـلى ١٠٠٠٠ من الملاك يملكون حوالى ١٠٪ من الارض

واذا نظرنا الى الملكيات التى تزيد عن ٢٠٠ فدان ، فاننا نجـد أن ٢٢١٥ مالكـا يملكون ٤٩٣ر٢٠٨ر١ فدانـا ، اى ان ٨ على ١٠ر٠٠٠ من الملاك يملكون ١٩٪ من الارض (١) ٠

وواضح من هذا الاحصـاء مبلغ سوء توزيـع الملكيـة الزراعية ، وهذا التوزيع السيء جعل الغالبية العظمى من صغار الملاك الزراعيين يملك الواحد منهم نحو ربع فدان ، وهو مقدار لا يكفى لسد حاجة هذه الفئة من السـكان اذ لا يزيد دخل الفرد منهم عن مبلغ تافه لا يكفى للقوت الضرورى للمالك وعـائلتـه ٠

ولكن السعى الى تحديد الملكية الزراعيـة قـد باء بالفشـل فى عهد النظام الملكى ، وكانت كل محاولة من هذا التبيل مقضيا عليها بالاخفـاق

---

(١) هذا الاحصاء مأخوذ عن المذكرة التفسيرية لقانون الاصلاح الزراعى انظر عبد الرحمن الرافعى _ مقدمـات ثورة ٢٣ يوليو ص ١٧٠ ٠

ولقد بذلت فى عهد فاروق فى سنة ١٩٤٥ محاولة تشريعية لتحديد الملكية الزراعية ولكنها انتهت بالاخفاق . ولم يكن ممكنا فى ظل النظام الملكى ان تحدد الملكية الزراعية ، وكان لا بد من ثورة لتحديد الملكية الزراعية فحالة البلاد الاجتماعية من هذه الناحية كان لها دخل كبير فى قيام الثورة (١) .

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٢ .

الفصـــل التاســـع

من متاحف مصر الحديثة

ترجع فكرة انشـــــاء المتاحف فى مصر الى الملك فؤاد ، الذى اراد أن ينشىء متاحف متخصصة • وفى هذا الفصل سنحاول الاشــــارة الى بعض متاحف مصر الحديثة ، لأن المتاحف عديدة ومتنوعة كمتحف الاحياء المائيه بالاسكندرية ومتحف التعليم ومتحف قناة السويس والمتحف الحربى والمتحف الزراعى ومتحف الرى ومتحف الامير محمـــد على ومتحف الركايب ومتحف السكة الحديد ومتحف البريد ومتحف مختار ومتحف احمد شوقى ، ومتاحف القصور الملكية والمنتشرة فى كل مكان ، •• الخ فهذه الدراسة قد تشـــحذ الهمة عند البعض معرفتى بقلة رواد هذه المتـــاحف التى تقص قصـــة الحضارة فى مصر الحديثة •• واذا كنا لم نفصل الكلام هذه المرة عن كـل متاحف مصر الحديثة ، ففى الطبعة القادمة من الكتاب سـوف نتلافى هذا النقص بمشيئة الله ، لاننا آثرنا هـذه المرة اعطاء لمحة سريعة عن المتحف الزراعى والمتحف الحربى ومتحف المركبات الملكة ومتحف الرى ومتحف الامير محمد على

اولا : المتحف الزراعى

رأى الملك فؤاد الاول ان مصر وهى أعرق البلاد فى الزراعة يجب أن يكون لها متحف زراعى يقوم بنصيبه فى نشر المعلومات الزراعية والاقتصادية فى البـــلاد •

فقامت الحكومة فى ذلك الوقت بتحقيق هذه الرغبة واشترت لهذا الفرض قصر سمو الاميرة فاطمة اسماعيل الذى تبلغ مساحته بما يحيط به من أراض

حــوالى ١٢٥٠٠٠ م مربع وأجرت فيه من الاصلاحات ما جعله لائقــا بمتحف زراعى • وقد روعى فى انتخاب هــذا القصر وقوعه على مقربة من وزارة الزراعة بالدقى لتنعكس فيه جهود اقسامها المختلفــة •

وقد رؤى فى بادىء الامر الاسترشاد برأى خبير اجنبى لادارته فعينت الحكومة المسيو الاجوس دى بيكرت فى أواخر يناير سنة ١٩٣١ ـ وكان مديرا لمتحف بودابست الزراعى ـ غير أنه استقبال من الخدمة فى سنة ١٩٣٢ ، وعين بدلا منه الدكتور ايفان ناجى فى ٢٢ فبراير سنة ١٩٣٣ وكان ايضــا مديرا لمتحف بودابست الزراعى وسار فى اعداد المتحف حتى انتهى عقد تعيينه فى ٢١ فبراير سنة ١٩٣٦ وعهدت ادارة المتحف الى حضرة صــ العزة المرحوم محمد بك ذو الفقار من ٢٢ فبراير ســـنة ١٩٣٦ الى ٨ يونيه سنة ١٩٣٨ وخلفه فى ادارته حضرة صاحب العزة حامد سرى بك والذى فى عهده اكتمل المتحف ، فسمى متحف « فؤاد الاول الزراعى ثم غير اسمه بعــد الثورة الى المتحف الزراعى •

والغرض الاول من المتحف الزراعى هو تمثيل الزراعة المصرية فى مختلف نواحيها بشكل ملموس وذلك بعرض مختلف الحاصلات الزراعية التى تخرجها التربة المصرية ونتائج الابحاث الفنية التى توصل اليها الاختصاصيون فى مختلف تجاربهم العلمية وكيفية تنسيق الحــدائق والبســاتين والصناعات الخاصة بها ، وطريقة تعبئة الفاكهة وتصديرها واختيار البذور وتنظيفهــا والفلاح وحياته والامراض التى تنتابه وطرق الرى والصرف بالبلاد والصحارى والواحات ، وما يوجد بها من زراعات وصناعات وغيرها ، والاحصاء الزراعى لبيان حالة الحاصلات فى البلاد ، ومدى تقدم انتاجها ، وأبحاث التربة وتكون الارض المصرية ، وأنواعها ، والاسمدة والمخصبات التى تستعمل لتعويض المواد الغذائية التى تفقدها التربة ، والظواهر الجوية ، وطـرق تربية الحــيوان والدواجن ومنتجاتها ، وما يتبعها من صناعات ، الاسماك والطيور النافعة والضارة وحيونات الصيد والقنص وطرق صيدها ، والادوات المستعملة فى ذلك ، وتربية النحل واستخراج العسل ، والنباتات التى يتغذى عليهــا ، وتربية دودة القــز والآلات المستعملة فى نسخ الحرير وغيرها ، والمجموعات الحشرية ومقاومة الآفات وغير ذلك مما له علاقة بالحشرات •

والمتحف اذ يضم الآن بين جدرانه من طرائف المعروضات ذات القيمة العلمية النافعة يعد معهدا يسترشد به المسترشدون فى شتى الشئون الزراعية وكل ما له علاقة بها ، ويستفيد منه المشاهدون بما لا يمكن الاستفادة به بالقراءة الطويلة والبحث العميق ٠

فهو ليس متحفا بالمعنى الصحيح فحسب ، بل مدرسة علمية وعملية يقتبس منها كل زائر ٠

ولقد حرص المتحف على جمع كل حديث وقديم فأضيفت الى مجموعته الأثرية القيمة عاديات مصلحة الاثار المصرية التى لها علاقة بالزراعة والحوان ، فأتاح بذلك للزائر فرصة مشاهدة أطوار الزراعة فى العصور الحاضرة والغابرة اى منذ ما قبل التاريخ حتى يومنا هذا ٠

كما عنى المتحف بالحياة والفنون الريفية ، حيث بعرض صناعة الفخار فى مصر ، والذى حظى باهتمام المصرى القديم فى صناعة الاوانى الفخارية التى احتفظ بها فى مقابره ، وصناعة الزجاج والسلال والاطباق من الخامات الزراعية ، مثل سيقان القمح وخوص النخيل كذلك يوضح المتحف صناعة الكليم والسجاد وكذلك الازياء المختلفة للنساء والعمارة الريفية والزخارف والتصوير الريفى على الحوائط وغيرها من مظاهر الحياة الريفية للفلاح المصرى ٠

كذلك اهتم المتحف الزراعى بالنماذج (الماكتات) التى توضح المحاصيل المختلفة التى تزرع على مجرى النيل ومناطقها ، وحصيلة كل سنة منها ٠ كذلك اهتم المتحف الزراعى بتوضيح القناطر المختلفة التى انشئت على النيل لتنظيم عملية الرى والتى منها قناطر أسنا وديروط والقناطر الخيرية وظروف بنائها كما هناك قاعة خاصة بالسد العالى ٠

كذلك يوضح المتحف الزراعى البيئة الحيوانية التى تعيش فى مصر وفى العالم الخارجى ٠ وهناك قاعة خاصة بالافات التى تهدد المحاصيل الزراعية الرئيسية فى مصر منها دودة القطن والجراد وكيفية التغلب عليها ٠ كذلك يهتم

المتحف بالثورة الحيوانية كالابقار والماعز واهم الامراض التى تهدد تلك الثورة وكيفية التغلب عليها كذلك يوضح مختلف أنواع الطيور التى يربيها الفلاح المصرى وكذلك الثورة السمكية بمصر وحياة الصيادين مع توضيح مختلف أنواع الاسماك الموجودة بالبحر الاحمر والبحر المتوسط ونهر النيل ٠

كذلك يهتم المتحف الزراعى بالقطن الذى تشتهر به مصر والجهود التى تبذل فى زراعته وتطور صناعة الاقمشة القطنية بمصر وجهود محمد على فى ذلك المجال ٠

ويعتبر القمح من أهم المحاصيل الغذائية ، لذلك نجد انواعا مختلفة منه كالقمح جيزة ١٣٥ والطنطاوى والقناوى والمنباوى وغيره وتطور كل نوع واهميته لاستخراج الدقيق ، ودرجاته المختلفة فنجد طرق تقشيره أولا ، ثم استبعاد القشرة والاعواد وكيفية طحنه ثم استخداماته المختلفة لانتاج انواع كثيرة من الخبز مثل الابيض والاسمر وغيره ٠

وتعتبر الذرة من المحاصيل الزراعية الرئيسية فى مصر ، فاستخداماته عديدة بالنسبة للانسان كخبز ، وللحيوان كعلف ٠ أما عن الارز فبجانب كونه غذاء حيوى للانسان فهناك صناعات كثيرة تقوم عليه مثل صناعة الحبال من قشه أو أعواده والحصر والورق والسماد ٠ وأيضا يوضح المتحف الزراعى طرق زراعته بالشتلات وطرق تقشيره وفحص التقاوى وطرق تخزينه وأيضا نماذج مجسمه لمضارب الارز ٠

ويوضح المتحف كيفية تصنيع واستخلاص السكر من القصب والعسل الاسود (الاسمر) والكحول والورق من مخلفات القصب بعد عصره ٠

الاقسام المختلفة التى يتضمنها المتحف الزراعى : -

يضم المتحف الزراعى ستة ابنية مختلفة :

المبنى الأول : **الزراعة المصرية القديمة ٠**

المبنى الثانى : **المجموعات العلمية ٠**

المبنى الثالث : **لمجموعات الثروة النباتية ٠**

المبنى الرابع : **المكتبة وقاعة اجتماعات** .

المبنى الخامس : **صناعة القطن** .

المبنى السادس : **الادارة** .

مبنى الزراعــة المصرية القديمة

يعرض بهذا المبنى معروضــات الزراعة المصرية القديمة ، وقد روعى فى عرضها ان تكون فى نطاق واسع بحيث تشمل الحيوان والحاصلات والازهار والآلات الزراعية والاسماك وادوات صـيدها وبعض الادوات المنزلية التى كانت تستعمل فى مختلف العصور القديمة ، وأدوات الغزل والنسيج ، وعينات من المنسوجات وبعض المناظر الملونة المأخوذة من المقابر لتمثيل طرق الزراعة ، وبعض الصناعات المتصلة بها ، ليتمكن الباحثون فى تاريخ الزراعة من تتبع الاطوار المختلفة والوقوف على ما يتصل منها بابحاثهم العلمية .

نموذج لبيت الفلاح المصرى القديم :

بنى المصريون القدماء بيوتهم فى عصر ما قبل التاريخ من الطـين على شكل بيضاوى صغير الحجم ابوابها من اعلى وكانوا يصعدون اليها بواسطة سلالم خشبية أما فى العصور التاريخية التالية فقد عرفوا قوالب الطوب من الطين ، فتمكنوا من بناء البيوت بالمعنى المعروف ، وكانت بيوتهم فى جملتها مكونة من طابق واحد ، نوافذها من اعلى وبها فناء بعضها مسقوف على عمدان واستعملوا الجريد والبوص وأخشاب النخيل فى حمل السقف وهو يشبه الى حد كبير بيت الفــلاح الحديث .

مبنى المجمــوعات العلميــة

يتكون هذا المبنى من طابقين :

الطـابق الارضى ـ الجنــاح الجنوبى :

حجرات الواحــات : ـ

تمثل الحالة الزراعية بالواحات المصرية ، وما يتبعها من صناعات تقليدية كمصــنع الســـلال والمقــاطف والحـــصر والاكلمـــة والملابس والآلات *

المستعملة فى الزراعة والحياة فى هذه النواحى ممثلة احسن تمثيل بالحجم الطبيعى كما لو كانت حقيقية ·

حجرة الصحراء : ـ

وبها مناظر مجسمة تمثل الطبيعة الصحراوية وتضم كثيرا من نباتات الصحراء ، وتوجد بها خرائط ورسومات أخرى تبين اكتشاف الصحراء فى الأزمنة المختلفة ·

حجرات الحياة الاجتماعية فى الريف

توجد فى هذه الغرف بعض أنواع حجرات استقبال الزائرين لدى الطبقة الغنية من الزراع فى الريف وكذلك العرس الريفى وكيفية الاحتفال به وليلة الحنة وغيرها من العادات الريفية ·

حجرة المساحة : ـ

وبها مجموعة كاملة من الادوات والاجهزة التى تستعمل فى مسح الارض وطريقة استعمالها وخرائط مساحية مختلفة وطريقة التسجيل ·

حجرة المخصبات :

ويبين بها اهمية استعمال الاسمدة لتعويض المواد الغذائية التى تفقدها التربة وطرق حفظ الاسمدة والنباتات المستعملة فى التسميد والادوات المستعملة لتقديم المواد الغذائية اللازمة للتربة وعينات لمختلف المخصبات والصخور التى تستخرج منها الاسمدة الصناعية والكيمائية ، وروسومات بيانية عن تأثير الاسمدة فى بعض الزراعات ، وكيفية صناعة السماد (البلدى) من مخلفات الحقل ·

حجرة الظواهر الجوية :

وبها أجهزة لتسجيل التقلبات الجوية والتكهن بأحوال الطقس ، ورسومات مختلفة عن الظواهر الجوية ، وتوزيع الامطار ودرجات الحرارة فى مختلف انحاء القطر ·

حجرة الاراضي المصرية :

وبها الصخور المكونة للطمى وتكوين الاراضى المصرية ، وقطاعات لانواع الاراضى المختلفة وبحث فى طبيعة الارض وجزئياتها والبكتريا المختلفــه واصلاح الاراضى المالحــة ٠

بهو حيــاة الفــلاح :

يوجد بهذا البهو نماذج من التماثيل للفلاح المصرى فى جلسات طبيعية ومناسبات مختلفة وهذه التماثيل وما حولها من رسومات زيتية كبيرة وعينات من الاثاث فى بيت الفلاح وآلات الطرب واللهو التى يستعملها الفلاح المصرى فى حياته وتماثيل للمرأة المصرية بازيائها المختلفة التى تطبع بطابع المحافظه وهى تصور الحياة الريفية أصدق تمثيل وهى من صنع المرحوم المثال الكبير مخــــتار ٠

حجرة ميــاة الشرب :

وبعرض بها مختلف عينات المياة المصرية المستعملة للشرب والجراثيم والديدان التى تلوثها ومصادرها وطرق التعقيم والتخلص منها ٠

حجرات الرى والصرف :

خصص لهذا القسم حجرتان وبهو كبير وعرض بالحجرات نمــاذج لبعض الخزانات والطلمبات والآلات المستعملة فى توزيع مياة الرى والصرف ، وعينات من الاعشاب والحشائش التى تعوق سير المياه فى الترع والمصارف ، وبهــا أيضا ماكتات لبعض القناطر وخزان أسوان والسد العالى ومصادر مياه الرى المياه الجوفية ، والنيل ، والامطار ، والمصارف ٠

الطابق العلوى ـ الجناح الجنوبى :

المدخــــل :

وبه الواح متحركة لصــــور بعض الطيور والواح من الجبس والزيت لمناظر طيور قديمة وحديثة وتمثال لجواد اصيل من البرونز ٠

حجـرة الوراثة :

ويعرض بها لوحات وبيانات عن علم الوراثة فى الحيوان ٠

حجـرة الركائب :

وتضم الأدوات المستخدمة فى الركوب وطرق معالجة الحيوانات ونماذج للحوافر السليمة والمصابة ٠

حجـرة الخيـل :

ويعرض بها تماثيل لاجود الخـيول ولوحـات زيتية تمثلهـا من مصرية واجنبية وبيانات عن انســاب بعضها وصـــور (فوتوغرافية) ونماذج للاسطبلات المصرية ، وقد زينت جدران هذه الحجرة بصور لاهم انواع الخيل فى العـــالم ٠

حجرة البقر والجاموس :

يعرض بها نماذج لاشهر هذه السلالات من مصرية واجنبية وتضم نموذجا لمعمل البان مصرى وصورا ورسومات والواحها وبيانات وخرائط خاصة بهذه الحيـوانات ٠

حجرة الجمـــال :

يعرض بها نماذج للجمال المصرية وعينه من صوفها وبيانات وخرائط ورسوم وصـــور مختلفة خاصـة بهـا ٠

حجرة المعلومات العـــامة :

ويعرض بها نموذج للبرسـيم وعينات من العـلف ونباتات المراعى والنباتات السامة للماشية وغير ذلك من المعلومات الاخرى ٠

حجرة البحيرات المصرية :

تشتمل على نماذج لانواع الاسماك المختلفة التى تعيش فى البحيرات المصرية ونبذ عن بعضها وخريطتان لبحـيرة المنزلـة والبرلس تبين المـدن

والقرى ومراكز الصيد بها وصورا فوتوغرافية زجاجية تبين صائدى الاسماك فى البحيرات ، وبناء السفن للصيد وحياة صائدى السمك فى المناطق الساحلية

حجرة الألبـــان :

ويعرض بهما الآلات المستعملة فى صناعة منتجات الالبان ونماذج مجسمة لحظائر المواشى ونماذج شتى لاهم تلك المنتجات ورسومات بيانية عنها ٠

حجرة أمراض الحيــوان :

ويعرض بها نماذج وعينات طبيعية تبين الاجزاء المصـابة بالامراض المختلفة التى تصيب الحيوانات بمصر لايضاح هذه الآفات والامراض . وكيفية الوقاية منها وطرق علاجها ٠

حجرة الهياكل العظيمة :

ويوجد بها عينات للهياكل العظمية لمختلف الحيوانات التى لها علاقة بالزراعـة اصرية ٠

حجرة اللقاحـات والامصـــال :

وبها عينات مختلفة من اللقاحات والامصال التى تستخدم فى وقاية وعلاج بعض الامراض التى تصيبب الحيوانات الزراعية والدواجن ٠

الابهـــــاء

بهـو التاريخ الطبيعى :

وبه تمثال مصغر لجمل افريقى يعلوه رجل بيده حربة ، ومجموعة من الزواحف وهيكل غظمى لحوت هائل قذفت به المياه الى الســـواحل المصرية ، وآلات الصيد والقنص قديمها وحديثها ومجموعة محنطة لانواع الحيوانات وهياكلها وجلودها وبعض الجماجم ، ومجموعة لانواع الطيور ٠

بهو الاســـماك :

وبه أنواع حية تعيش فى أحواض زجاجية تمثل أسماك نهر النيل ٠ وانواع محنطة ورسومات ولوحات للاسماك التى تعيش بالمياة المصريـــة

ونماذج لمراكب الصيد والآلات المستعملة لهذا الغرض ، وعينات للاصداف والاسفنج ، وأسماك محنطة منذ عهد الفراعنة ، وأنواع الشباك المختلفة المستعملة فى الصيد وخرائط بيانية وصور (فوتوغرافية) عن كل ما له علاقة بالاسفنج والسمك ، ومجموعات كاملة من الاصدف والمحار والمرجان الموجودة بالشواطىء المصرية والصناعات المتعلقة بها .

بهو الحيوان :

وبه نماذج وصور رسومات لانواع الحيوانات البرية والمفترسة التى تعيش فى الصحارى المصرية ، وعلى ضفاف النيل،والواحات،وكيفية معيشتها، والآلات المستعملة فى صيدها .

بهو الطيور :

ويضم مجموعات كبيرة من الطيور المصرية والطيور الرحالة وطرق صيدها .

الطابق العلوى - الجناح البحرى

حجرة المجموعة الحشرية :

تمثل معروضات هذه المجموعة الفصائل المختلفة للحشرات المصرية مرتبة تبعا لتقسيمها العلمى.ووضع على أحد الجدران التقسيم العلمى للمملكة الحيوانية مع الدمثبل لكل قسم منها بلوحة زيتيه رمز فيها الى اشهر حيوانات هذا القسم . وعلى الجدار المقابل له وضعت فصائل للحشرات ، ورمز لكل فصيلة منها . كما يحتفظ فى وسط هذه الحجرة بالمجموعة الحشرية التى أهداها الملك فاروق للمتحف .

الحجر الزراعى :

يوجد بها نماذج للاجهزة المستعملة لتطهير النباتات الزراعية الواردة للقطر المصرى ، وكذلك المستعملة فى معالجة بذور القطن بالمحالج ، ولوحات وخرائط وبيانات ونماذج لاهم الآفات الممنوع دخولها للقطر مع الواردات ،

ورسـومات بيانية عن مقادير الواردات الزراعية من الفاكهة وفوائد الحجز وتأثيره فى مقادير هذه الواردات ·

حجرة (مقاومة الآفات) وتربية النحل ودودة القـز :

تحتوى على عينات ونماذج ومنتجات ولوحات توضح طرق تربية دودة القز والنحل ، والاجهزة المستخدمة والآلات المستعملة لاستخراج العسـل ، النباتات التى تعيش عليها هذه الحشرات ، والاجهزة المستعملة فى نسـج الحرير ، والامراض والافات التى تصيبها وطرق المقاومة وصناعة الاوتار (الخيوط) من الديدان وقد نجحت مصر فيها نجاحا كبيرا ·

حجـرات الاحياء المائية ومنتجاتها :

ويعرض باحداها عينات مجففة ، ونماذج لبعض أنواع الاسماك التى تعيش فى الميـاه المصرية ومنتجاتها من الاصـداف وصـور (فوتوغرافية) مختلفة لبيان طرق صناعة هذه المنتجات ، وبالاخرى منظر لصيد الاسفنج بالبحر ويوجد بالغرفة الثالثة مجموعة للاسماك المصرية وصورها ، والتى تعيش بالمياه المصرية وبعض البيانات والصور الخاصة بهـا ·

حجرة الاغنام والمـاعز :

ويوجد بها نماذج للاغنام المصرية والاجنبية والماعز المصرية ، وعينات لاصوافها ومنتجاتها ، كما يعرض بها جهازان لاختبار متانة الصوف ، وهياكل عظيمة لرءوس الاغنام والماعز منذ عهد الفراعنة · وخرائط وصور ونماذج مختلفة ، علاوة على عينات من الفرو الثمين ·

حجرة الدواجن :

ويعرض بها أنواع من الدواجن المصرية المختلفة ، الى جانب مجموعة خرى من الدواجن الاجنبية ، ونماذج لابراج الحمام القديمة والحديثة وحظائر لتربية الدواجن ، وطرق التفريخ قديمها وحديثها والاجهزة والالات والادوات والنماذج المختلفة التى تتعلق بذلك · ويوجد بها كذلك أنواع من البيـض والتفريخ لوحات وخرائط خاصة بالدجاج وانواعه ·

مبنى المجموعات النبـاتية

يتكون هذا المبنى من طابقين ، كل طابق مقسم الى جناحين : الجناح الجنوبى والجناح الشمالى • وفى الطابق الارضى بالجناح الجنوبى سبع حجرات اما الجناح الشمالى فمقسم الى خمس حجرات أما الطابق العلوى فمقسم الى جناحين الجنوبى ثمانى حجرات أما الشمالى فست حجرات • وفيما يلى شرح لكل حجرة على حدة •

الطابق الارضى (الجناح الجنوبى) :

حجرة القمح والشعير « زراعة » :

تضم هذه الحجرة الاصناف المختلفة لمحصول القمح والشعير واطوار نموهما والآلات المستعملة فى اختبارهمـا والمعلومات الخاصـة بزراعتهما والامراض التى تصيبهما واحصاءات مختلفة عنهما

حجرة القمح والشعير « صناعة » :

تضم هذه الحجرة نماذج للمطاحن الحديثة ، والمخابز القديمة والحديثة والاجهزة المستعملة فى اختبار البذور ، وعينات الدقيق المختلفة ، ونماذج لانواع الخبز المختلفة (والمكرونة والبسكويت) ورسومات بيانية ، كما يوجد بها بيانات واحصاءات أخرى •

بهو خزن الحبوب :

ويضم نماذج لمخازن الحبوب قديمها وحديثها ، وطرق تطهيرها ، وعينات الحبوب المصابة ، والمواد المستعملة فى علاجها والحشرات المختلفة التى تصيب الحبوب •

حجرة الذرة : -

وتضم بيانات لمختلف انواع الذرة ، وطرق زراعتها ، واطوار نموها ، والآفات التى تصيبها ، وبعض منتجاتها ونماذج لطواحين هوائية ومائية

ورسومات بيانية واحصائية ، وصوراً (فوتوغرافية) مختلفة وعيناب من الزيت المستخرج من الذرة .

حجـرة الارز : -

وبها معلومات عن زراعة الارز ، وعينات محفوظة لبيان ادوار النمـو حتى النضج ، وعينات من اصنافه ودقيقه ومنتجاته ، وصناعة النشـا ، وعينات لنباتات مصابة ، وكذا لوحات مثبتة عليها الحشـائش الضـارة ونموذج لطريقة زراعة الارز بالشتل ، والآلات التى تستعمل فى ذلك ومنها ما هو من تصميم الاستاذ حامد البلقانى استاذ علم الزراعة بكلية الزراعة جامعة فـؤاد الاول فى ذلك الوقت (القـاهرة) وكذا نموذج لمصنع تبييض الارز .

حجـرة البصـل والثوم : -

وفيها تمثل اطوار نمو هذين المحصولين واصنافهما ، ونماذج لاصناف البصل الجيد والصالحه للتصدير ، ولوحة ملونة خاصة بفرز البصـل وارشـادات زراعيـة .

كما تضم الحجرة عينات للبصل المجفف ونبذة عن عملية التجفيف - وكذلك نماذج وعينات طبيعية محفوظة لاهم الامراض الفطرية التى تصيب هذين المحصـولين .

الطـابق الارضى - الجنـاح الشمالى

حجرة القطن « معلومات تاريخية وعلمية »

وبهـا بيانات عن تاريخ القطن ونبذة عن اصنافه قديمهـا وحديثهـا وعينات محفوظة لاجزاء نباتية ولوزات لمختلف نباتات القطن فى العالم ،وكذا عينات زهر وشعر للاصناف التجارية والسلالات الحديثة وكذا رسـومات بيانية وايضاحات مختلفة ، وصور تبين الصفة التشريحية لاجزاء نبات لقطن ، وبعض اجهزة لاختيار التيلة .

حجرة القطن « زراعـة » :

وبها معلومات عن زراعة القطن وتسميده وريه ، والحشائش التى تصيبه وآفاته الحشرية والفطرية وطريقة التهجين والانتخاب ، وكل ماله علاقـة بالقطن وهو بالحقل ٠

صـالة الآلات الزراعيـة : ـ

وبها مجموعة نماذج المحاريث الزراعية المستعملة فى العالم ، ويؤدى هذا المنعطف الى صالة فخمة تحوى الآلات الزراعية بأحجامها الطبيعية وبيانات كافيـة عنهـــا ٠

حجرة القطن « صناعة » :

وهى خاصـــة بالقطن بعـد خروجه من الحقل ودخـــوله فى المحـالج وبها نماذج حديثة لدواليب الحلج والمكابس والمغازل ، كما توجد خريطتان كبيرتان بارزتان تناران بالكهرباء لبيان محصول القطن العالمى ، والجهـات التى يصدر اليها القطن المصرى ، كما توجد بها صور ولوحات خاصة بصناعة الغزل والنسيج وغير ذلك ٠

حجرة القطن « تجـــارة » :

ويعرض بها طريقة فرز تيلة القطن ، وعينات لبعض رتبه وطريقة نقله برا وبحرا ، وعينـــات مختلفة لمنتجاته ، وعينـــات لمنتجات بذرة القطن ، ويتوسط هذه الحجرة نموذج بارز لمصنع الغزل والنسيج التابع لشركة مصر بالمحلة الكبرى ٠ كما توجد بها خرائط احصائية وبيانات وصـور مختلفة ومعلومات عن البورصـــــة ٠

الطابق العلوى ـ الجنـاح الجنوبى

حجرة الاليـــاف :ـ

ويعرض بها عينات نباتات الالياف من جوت وكتان بذرة وشـــعر ممشط ومصنوعات كتانية اثرية واخرى حديثة وكذا نموذج لمعطنة بعلوها صور لشرح عملية التعطين البلدية وصور وبيانات أخرى مختلفة عن طرق الزراعـة ٠

حجرة الزيـوت : -

وبها عينات بذور ونباتات للحاصلات التى تنتج الزيوت وعينات منها ورسوم بيانية تبين نسبة الزيت والرطوبة فى مختلف البذور الزيتية ونماذج للمعاصر البلدية والحديثة ومعمل الزبد الصناعى وعينات صابون وكسب ومخلفات العصير ، وكذا بيانات كيمائيـة مختلفـة .

حجـرة القصب :

وبها مجموعة من اصناف القصب الشهيرة التى تزرع بمصر ، وعقـل حفوظة فى محاليل تبين بعض الامراض التى تنتاب القصب ، وطريقة قطعه ونقله ، ونماذج لصناعة مختلف أنواع السكر ، واقماع من قوالب الفخار لصناعة السكر الاحمر (الجلاب) وبها نموذج لمكبس قش القصب وعينات من انواع السكر المختلفة ، والفضلات الناتجـة من صناعته كالعسل الاسود وصناعات أخرى تعمل من السكر وبها خرائط وصور مرسومة .

حجـرة الكحـول :

تعرض بها عينات من جميع ثمار الحاصلات الزراعية واجزائها التى يستخرج منها الكحول وبها نماذج لصنع السكر بنجع حمادى ولمختلف الاجهزة التى تستعمـل فى التقطير .

حجرة ادارة المزارع :

تبين بما الطرق المختلفة فى ادارة العزب وطرق امساك دفاترها ونماذج لما يستعمل منها فى الدوائر الكبيرة كالاوقاف الملكية ومصلحة الاملاك وبيانات عن ادارة العزب فى المساحات المختلفة وذلك قبل ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ قبل ظهور الاصلاح الزراعى والقوانين الزراعية التى تخدم الفلاح .

حجرة آلات الحديقـة :

وبها بعض الآلات المستعملة فى فلاحه البسـاتين ورشاشات وعفارات تستعمـل فى مقاومة الافات كما توجد بهـا بعض انواع السلال وغيرها .

الطابق العلوى ـ الجناح الشمالى

حجرة البســـاتين « خضروات » :

تعرض بها البذور ونماذج لخضروات مختلفة واخرى لاصناف البطاطس السليمة والمصابة وصور خاصة بآفاتها الفطرية والحشرية ٠

حجرة البســـاتين « فاكهة » :

تعرض بها نماذج لمختلف ثمار المانجو والموز والموالح وطريقة معالجـة الاخيرة بالتدخين مبينة بالصور الملونة ، وطرق التطعيم المختلفة واصناف البلح وبذور الازهـار والثمار وبيانات فنيـــة ٠

بهو الاخشـــاب :

وبه عينات لاخشاب مصرية متحجرة من غابة العباسية المتحجرة وغيرها وكذا عينات من قطاعات الاخشاب التى يمكن زراعتها بمصر كما توجد بـه لوحه عرض عليهـا قطاعات لاخشاب اجنبية واخرى مصرية مصقولـة ٠

حجـرة البسـاتين « تجــارة » :

وتعرض بها منتجات البساتين كالمربى والفاكهة المحفوظة والروائح العطرية وتقطيرها،ونماذج لاجهزةتجفيف البذور ومجموعة من مختلف الصناديق الخاصة بتعبئة الخضر والفاكهة وبها كثير من البيانات التى تتعلق بصناعة منتجات الخضر والفاكهة ٠

حجـرة فحص البذور وتنظيفهـا :

تعرض بها عينات من انواع الحبوب والبذور والاجهزة والادوات التى تستعمل لتنظيفها من الشوائب وتقدير نسبة الرطوبة بها وقوة حيويتها فى الانبات الى غير ذلك مما له علاقة بهذه العملية ٠

ثانيـا : المتحف الحربى :

يرجع التفكير فى انشاء المتحف الحربى الى عام ١٩٢٨ ٠ ولكنـــه لم ينفذ الا فى عام ١٩٣٧ ، حينما خصصـــت غرفتان من مبنى وزارة الحربية

لتجمع فيهما المقتنيات الاولى ، ولتكوين مكتبه صغيرة ومصنع • وفى سنة عام ١٩٣٩ اختير مبنى مؤقت (فيلا) بالقرب من كوبرى قصر النيل وفيه جمعت مجموعات السلاح والملابس العسكرية واللوحات والنماذج • وبجلاء القوات البريطانية عن قلعة صلاح الدين فى عام ١٩٤٧ ، انتقل المتحف الحربى الى قصر الحرم بالقلعة •وكان قد بدىء فى اصلاحه واعداده ليكون لائقا لعرض المحتويات ثم أخذ القائمون بأمر المتحف تحت اشراف العقيد عبد الرحمن زكى بترتيب المجموعات وتنظيم المعروضات بما يليق بالنظم الحديثة المتبعة وافتتح رسميا فى ٢٠ نوفمبر عام ١٩٤٩ •

وفى حديقة المتحف الآن ، توجد مدافع الهاون والميدان التى صنعت فى مصر واستعملها الجيش المصرى فى القرن التاسع عشر •

اقسام المتحف الرئيسية واهم محتوياتها : -

روعى فى ترتيب معروضات المتحف التسلسل التاريخى والموضوعى •

فالقسم الأول : يعرض فيه التطورات المتعاقبة للمعدات الحربية كالمدفعية والذخيرة بانواعها ، والاسلحة النارية والبيضاء ، والملابس

والقسم الثانى : يوضح تاريخ مصر العسكرى منذ عصر الفراعنة الى العصر الحديث •

والقسم الثالث : خصص للسلاح البحرى والسلاح الجوى وبعض اسلحة الجيش •

وتاريخ مصر العام ، فى الواقع هو تاريخ جيشها منذ قامت الوحدة بين اقليمى مصر بفضل الملك مينا ، وقد امكن للمتحف أن يبين احوال الجيش المصرى القديم وتسليحه ومعاركه فى اثناء حكم الاسرات المصرية •ومعروضات هذا القسم تنطق بامجاد جيش مصر فى لوحات ونماذج سجلت عليها انتصاراته فى أهم المعارك ومنها ، مجدو ، وقادش ، وذلك نقلا عن نقوش الآثار فى معابد الاقصر ، ومدينة هابو وابو سمبل ، وغيرها •

أما قسم مصر الاسلامية فحافل بالامجاد ، منذ أن دخل مصر عمرو ابن العاص سنة ٦٣٩ م حتى الحملة الفرنسية ١٧٩٨ •

ففى هذا القسم ، لوحات من الجص ، أوضحت أهم معارك الفتوح الاسلامية منذ عصر النبى وخلفائه الراشدين : معارك بدر ، واحد ، واليرموك والى جانبها صنعت نماذج لآلات القتال ، كالمنجانيق ، والسيوف ، والسهام ... وفضلا عن ذلك ، فتوح العرب فى شمال افريقيا والاندلس . ويلاحظ كثرة النماذج التوضيحية فى هذا القسم ، منها حصون القاهرة وأسوارها وابوابها فى أيام الدولة الفاطمية ، ونموذج قناطر الماء التى انشاها الناصر محمد بن قلاوون (٧١٠ هـ - ١٣١٠ م) التى زودت منطقة القلعة بالماء من فم الخليج . ونموذج قلعة صلاح الدين بأبراجها ومبانيها ومساجدها . ونموذج دار ابن لقمان بالمنصورة حيث أمضى الملك الفرنسى لويس التاسع مدة أسره عقب معركة المنصورة (١٢٥٠ م) ، والى جانبها لوحات خشبية جميلة نقشت عليها بعض المواقف فى الحروب الصليبية . ونشاهد أيضا فى هذا القسم عدة لوحات لاهم المعارك الاسلامية التى خاضعها المماليك ضد الصليبين ، وضد المغول .

وهناك فى حجرة صغيرة مجموعة من الصور والخرائط التى توضح احداث مصر الهامة فى اثناء الحملة الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١ م) بقيادة بونابرت وكليبر ، ومينو .

اما القسم الخاص بجيش مصر اثناء القرن التاسع عشر ، فحافل بالذكريات المجيدة . انتصارات القوات المسلحة فى معارك لا حصر لها فى شبه الجزيرة العربية ، وبلاد اليونان ، والسودان ، وسوريا والاناضول ، وكريت وغيرها . والحق ان كلها معارك تشهد ببطولة الجندى المصرى فى ظروف القتال المختلفة .. وفى جبال وسهول ، وصحراوات ووديان ، وبحار .

لقد سجل المتحف الحربى تلك الذكريات اللامعة بترتيبها التاريخى وباسلوب واضح . وعرضت كذلك أعمال الجيش فى مناطق السودان فى شرقه وغربه وجنوبه ... وتعرض عدة لوحات زيتية أنيقة لكبار القادة

الذين قادوا جيش مصر الى النصر (١) ٠

وعنى المتحف الحربى بابراز الاحداث العسكرية فى مصر فى اثناء الثورة العرابية (١٨٨١ - ١٨٨٢) فى شتى المعارك : الاسكندرية ، كفر الدوار ، والتل الكبير ٠ وخلد المتحف مواقف البطولة النادرة فى لوحات زيتية ، وفى تماثيل نصفية ، ونقوش جصية ٠

جناح ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وهو من اهم اقسام المتحف التى تتناول التاريخ المعاصر ، فتعرض ثورة واحداثها ، فى صور وديورامات ، ومنها ديوراما تمثل رحيل الملك فاروق على الباخرة الشهيرة المحروسة ، وحصار قصر رأس التين ، والمنتزة ، وعابدين ٠

وفى هذا القسم نشاهد مئات الصور الفوتوغرافية التى تبين التطورات التى لحقت بالقوات المسلحة ، فى اسلحتة وعتاده ، وما حققته ثورة يوليو من جليل الاعمال فى مختلف الميادين ، وفى طليعتها السد العالى ٠

وعنى المتحف ايضا بالجانب العسكرى لقضية فلسطين منذ حملة ١٩٤٨ / ١٩٤٩ ، والعدوان الثلاثى فى اعقاب تأميم قناة السويس (١٩٥٦) ومعارك بور سعيد الباسلة وجهاد شعبها ضد المعتدين ٠

قاعة الاعلام والنياشين ، وفيها نماذج للاعلام المصرية والعربية منذ نشأة العلم ، فضلا عن اعلام دول الجامعة العربية والاعلام الرمزية للمحافظات ثم اعلام القوات المسلحة المصرية ، كذلك نماذج للنياشين التى كانت تمنح وتهدى للقادة فى المناسبات والانتصارات المختلفة ٠

جناح حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، ويعكس لنا نماذج من اسلحة الجيش فى هذه الحرب الخالدة ، وتسليح الافرع الرئيسية ٠

المكتبة : وهى من اهم اقسام المتحف ، وتضم عدة آلاف من المراجع العربية والاجنبية فى شتى الفنون الحربية والتاريخ الحربى القديم والمعاصر

---

(١) انظر الفصل الثانى (عصر محمد على) ٠

ويبلغ عدد الكتب بها نحو خمسة آلاف مجلد ، بالاضافة الى قسم الدوريات العسكرية . أما قسم الخرائط العسكرية فغنى بمجموعته النادرة التى رسمها ضباط أركان حرب الجيش المصرى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حتى عام ١٨٨٢ : فى شرق أفريقيا ووسطها ، وفى صحارى مصر حتى سواحل المحيط الهندى وتقرأ على هذه الخرائط أسماء راسميها .

ويضم المتحف كذلك قاعة للعرض السينمائى ، الى جانب أقسام الرسم والتصوير ، وقسم النماذج ، وقسم النجارة ، وقسم اصلاح الاسلحة . ومكتبة زاخرة .

ثالثا : متحف السكة الحديد

يقع متحف السكك الحديدية بامتداد مبنى محطة القاهرة خلف محطة كوبرى الليمون ويطل على ميدان رمسيس . ويمكن الوصول اليه اما بالسير بمحاذاه المبنى من الخارج فتجده على اليسار ، أو عن طريق باب يفضى اليه من الرصيف رقم ١ الخاص بقطارات الاسكندرية .

نشأة فكرة انشا المتحف :

نبعث فكرة انشا متحف السكة الحديد من احساس بالحاجة الى متحف فنى وعلمى يتوج الاحتفال بالمؤتمر الدولى للسكك الحديدية الذى عقد عام ١٩٣٣ ، وقد استكمل بناؤه فى السادس والعشرين من أكتوبر ١٩٣٢ وتم أعداده وفتحه للزوار فى ١٥ يناير ١٩٣٣ ، ولقد اتاح ذلك الافتتاح لاعضاء المؤتمر فرصة زيارة أول متحف من نوعه فى الشرق .

ويعرض فى المتحف حوالى ٦٠٠ موديل هذا الى جانب مجموعة من الوثائق والخرائط والدراسات ، وكلها تحكى تطور وسائل النقل وكذلك خطوط السكك الحديدية .

نشأة السكك الحديدية فى مصر :

تعتبر سكك حديد مصر ثانى خط سكك حديدية فى العالم ، اذ انشىء سنة ١٨٥٢ بعد ان استخدم فى انجلترا سنة ١٨٢٥ ... وتعتبر سكك حديد

مصر أول خط فى افريقيا باسرها سابقة بذلك ايضا أول خط انشىء فى آسيا بعام اذ افتتح فى عــام ١٨٥٣ وتلته خطوط استراليا ١٨٥٤ · علمـــا بـــان هذا المشروع ناقشته بريطانيـا مـع محمد على بواسطة المهندس الانجليزى جالوس ، الا ان فرنســا تدخلت واوعزت الى محمد على بان بريطانيـــا تريد عزل مصر عن العالم الاسلامى ، وفى الواقع كان غرض فرنسا حفر قناة السويس وبالتالى رفض محمد على كلا المشروعين ·

وبعد وفاة محمد على عادت بريطانيا لتناقش المشروع مع عبـــاس الاول ـ المعروف بميله لانجلترا وتركيـا وكرهه لفرنســا ، واتفقا على ان تقوم شركـة جورج ستيفنسن بالاشراف على اقامة خط سكك حديدية بين القاهرة والاسكندرية ··· وقد وقع عقد الاتفاق على ذلك فى ١٢ يوليو ١٨٥١ وبدأ العمل فى سبتمبر ١٨٥١ · وكانت شركـة ستيفنسن مســئولة عن التخطيـط واقامة الاعمال على القناطر والسدود على طول الطريق ، والامداد بالمهندسين ومساعديهم والعمال وكذلك تقديم الخبرة الفنيـة والمساحين ومعداتهم وكذلك اى معدات اخرى تكون مطلوبة لتصميم المشروع وتنفيذه ·

وفى مقابل ذلك كان على عباس باشا ان يدفع مبلغ ٥٦٠٠٠ جنيـه انجليزى بالتقســيط ، اول قسط ١٦٠٠٠ جنيه يسدد فى اغسطس والباقى على اقساط نصف سنوية فى فبراير واغسطس من كل عام · ووضع شرط جزائى بمبلغ ٨٠٠٠ جنيه يدفعها عباس اذا تعطل المشروع من قبله كذلك ان يمد المشروع بالاطباء والادوية والخيام اللازمة للعمال · وتم الانجـــاز كمـــا يلى : ـ

١ ـ فى عام ١٨٥٣ تم ربط الاسكندرية بكفر الزيات ·

٢ ـ فى عام ١٨٥٧ امتد الخط الى القاهرة ـ بعد انشاء كوبرى كفر الزيات ـ ثم الى السويس · وبعد افتتاح قناة السويس تم رفع الخط ١٨٧٩ واعيد تركيبه فى ١٩٣٤ ·

٣ - وفى عام ١٨٦٠ استكمل اول جزء من الخط الذى يربط بين بنهـــا وبورسعيد ووصل حتى الزقازيق بطول ٣٥ كم ٠ وفى عام ١٨٦٨ امتد هذا الخط حتى الاسماعيلية بطول ٧٩ كم ٠

٤ - وفى عام ١٨٩١ انشأت شركة قناة السويس خطا فرديا يصل بين الاسماعيلية وبور سعيد ، وكان مملوكا للشركة ٠ وفى ١٩٠٢ أخذته الحكومة وحولته الى خط رئيسى عام ١٩٠٤ ٠

٥ - وفى عام ١٨٦٧ بدأ العمل فى خط الصعيد ، وفى عام ١٨٩٨ وصـــل الى الاقصر ثم امتد الى أسوان بخط فردى ضيق ٠ وفى عام ١٩٢٦تم رفـــع الخط السابق وأبدل بخط اعلى كفاءة يصل بين الاقصر وأسوان ٠

٦ - وفى الفترة ما بين ١٩٠٠ - ١٩٣٦ انشىء خط الاسكندرية - مطروح وفى عام ١٩٤١ مـد هذا الخط حتى طبرق الليبية الا انه فى عام ١٩٥٢ أصبح ينتهى عند السلوم ٠

٧ - فى عام ١٩١٨ وصل خط حديدى لسيناء يبدأ من القنطرة وينتهى عند حيفا بطول ٤١٤ كم ٠٠٠ منه ٢٠٢ كم داخل الاراضى المصرية فى منطقة الحدود رفح ٠ والقنطرة ٠

وتعتبر السكة الحديدية من أهم وسائل النقل فى مصر ويبلغ طـــول شـبكة الخطوط ٤٣٥٨ كم الى جانب ٣٠٠٠ كم خطوط فرعية ومخازن كما توجد ٧٦٤ محطة رئيسية وفرعية ٠

تقســـــيم التحف :

ينقسم المتحف الى قسمين كل قسم فى طابق وهما كما يلى :

أ - الطـــابق العلوى :

يضم الطابق العلوى بعض النماذج لوسائل النقل فى فجر التـــاريخ وبخاصـــــة أيام الدولة المصرية القديمة واجمل هذه المعروضات هو نموذج

يبين كيف أمكن للفراعنة القدماء أن ينقلوا تمثالا يزن ٦٠ طنا مستخدمين فى ذلك الواحا من الخشب فى نظام بديع • الى جانب وسائل مبسطة للنقل تعتمد على القوى العضلية للانســان والحيوان •

كما يضم هذا الجناح مجموعة كبيرة تشرح تطور أول قاطرات فى العالم وفى مصر ، ومن بين هذه القاطرات نموذج ذو أهمية تاريخية خاصة لانه يعرض لاول قاطرات فى العالم سنة ١٧٨٤ وهناك نموذج آخر يعرض أول قاطرة جالت فى الطرق المصرية عـام ١٨٥٤ تلك التى بناها روبرت ستفنسن وشركاه وسلمت لمصر ١٨٥٢ •

كما تعرض مجموعــة متنوعة من النماذج المختلفة للقاطرات وعربــات السكك الحديدية وكذلك عربات الصالون فى شكلهــا القديم والحديث ، تحكى لنا تطور سكك حديد مصر منذ أنشــائها حتى بزوغ قاطرات الديزل الكهربائيــة •

وتعرض القاعــة نموذجا لقاطره أكسبريس قام يصنعها نلسن وشركاه فى سنة ١٨٦٢ وعملت على خطوط سكك حديد مصر الى أن كسرت فى سنة ١٨٩٥ • كما يعرض نموذج لقاطرة بخارية دخلت الخدمة فى مصر عام ١٩٥١ •

وبعـــد ثورة ١٩٥٢ دخلت القــاطرات التى تستخدم الديزل بدلا من القاطرات البخارية • ولدينا نموذج لجرار ديزل كهربائى للخطوط الرئيسية استورد من المانيا (هنشل) ودخل الخدمة فى مصر سنة ١٩٥٧ •

وأيضا هناك نماذج لناقلات المازوت والمياه وكذلك نموذج لعربة بهــا اول صالون سنة ١٨٧٠ للركاب صنعت من الخشب •

هذا بالاضافة الى نماذج لعربات لنقل الدبابات صنعت فى المصـــانع الحربية بالاشتراك مع سيماف وذلك لنقل العتاد الى جبهات القتال •

قطـــار الخـديو

صنع هذا القطار فى مصر فى بولاق والغبارى وهو يتكون من ست وحدات، وصممت القاطرة فى لندن سنة ١٨٥٩ على يد روبرت ستقنسن اما العربات فقد صنعت فى مصر ٠

والعربة الاولى بعد القاطرة خصصت للضباط وصنعت فى مصر سنة ١٨٦٨ واستمرت فى الخدمـة حتى سنة ١٩٢٩ ٠

والعربة الثانيـة خصصت للاميرات وصممت بواسطة رايت وشركـاه سنة ١٨٥٨ وغشيت من الداخل بالطنافس والحرير ولكن جسم العـربة (كهن) سنة ١٩٢٤ والاطار الداخلى استخدم لعربة اخـرى ٠

العربة الثالثة خصصت للصالون الرسمى وبناها مانســـون فى امريكـا سنة ١٨٥٨ ٠

والعربة الرابعـة صنعها رايت ١٨٥٥ وخصصت للصالون العـائلى

والعربة الخامسـة خصصت للعائلة المالكـة وصنعها ايضا رايت عام ١٨٥٥ ٠

العربة السادسة خصصت صالونا للوزراء وصنعت فى مصر فى عام ١٨٧٢ وهذا الصالون (كهن) سنة ١٩١٣ ٠

فى عام ١٩٣٥ دخل الى مصر اول ديزل كهربائى صنع بانجلترا بأمـر الملك فؤاد واستخدم للدرجـة الاولى والثانية ٠

ب ـ الطـــابق الارضى :

يعرض هذا الجناح نموذجا بالحجم الطبيعى يتكون من جزئين يوضح الاجزاء الداخلية المختلفة للقاطرة ٠

وفى جناح منفرد هناك مجموعة من الاشارات القديمة والحديثة توضح كيف كانت توجه القطارات يدويا فى ايامها الاولى وعملية التطور التى لاحقت ذلك حتى أصبحت القطارات توجه اليوم عبر الطرق المختلفة بالوسائل الميكانيكية وكيفية تفادى المخاطر والحوادث وأخيرا يوضح ذلك القسم النظام الجديد لكهربة وسائل الاشارات الحديثة ٠

وفى قسم المحطات والكبارى هناك نماذج وصور للمحطات القديمة ومنها محطة القاهرة التى جددت عام ١٩٥٨ ومحطة سيدى جابر التى بنيت عام ١٩٤٨ ٠٠ ومحطة بورسعيد قبل العدوان الثلاثى والمبنية عام ١٩٥٥ ٠

كما تعرض فى هذه القاعة نماذج للكبارى التى تخدم السكك الحديدية ومنهـا :

- كوبرى امبابة — بنى عام ١٩٢٤
- كوبرى كفر الزيات الجديد — بنى عام ١٩٥٠
- كوبرى قناة السويس — بنى عام ١٩٥٤
- كوبرى المرازيق — بنى عام ١٩٥٨

رابعا : متحف البريد

يرجع الفضل فى انشاء هذا المتحف للملك فؤاد الاول ٠ وقد تم انشاؤه سنة ١٩٣٤ ٠ ويقع المتحف فى الطابق الاول بمبنى الادارة العامة للبريد بالقاهرة ، ويتكون من قاعتين وبهو وصالة مستطيلة ٠

اهم المقتنيات :

- نسخة مقلدة من لوحة نارمر · وعليها اقدم كتابة مفهومة ويرجع تاريخها الى عهد الاسرة الاولى ·

- محبرات من العهد الفرعونى ، والرومانى ، والقبطى ·

- ورقة بردى خالية من الكتابة ، واخرى مكتوبة ·

- نماذج اختام مصرية قديمة ، وخاتم مصرى قديم كتب عليه اسم صاحبه بالهيدوغليفية ·

صورة خطاب باللغة الديموطيقية يرجع تاريخه الى سنة ١٤٠٠ ق م ·

- تمثال للكاتب فى عهد الدولة القديمة ، وآخر للكاتب فى عهد الدولة الحديثة ، وآخر للكاتب وجد فى تل العمارية ·

- صورة من حجر رشيد ·

- نماذج تمثل : احدى رسائل البريد فى عهد الفراعنة ، وتسليم الرسائل الى احد ملوك الفراعنة ·

- صوره فوغرافية لوثيقة الحيبة التى يرجع تاريخها للقرن الثالث قبل الميلاد ، وهى من اقدم الوثائق البريدية ، وقد جاء بها ما يثبت انتظام البريد السريع فى مصر فى عهد البطالة ·

- صورة فوترغرافية لورقة بردى اكسيرهينوس ٧١٠ ويرجع تاريخها الى سنة ١١١ ق م ، وورد بها ذكر عدد موظفى احد مكاتب البريد فى بلد بالفيوم ·

- نماذج لخطابات على فخار ، وجلد ، وعطمة جمل ·

- نموذج خطاب ذكر فيه اسم صاحب البريد سنة ٩١ هـ ·

- خطاب من عصر المماليك .

- عقد بين شركة البوستة الاوربية وقناة السويس .

- عقد بين شركة البوستة الاوربية ومصلحة البريد فى سنة ١٨٦١ م .

- عقد امتياز لشركة البوستة الاوربية فى سنة ١٨٦٢ .

- عقد استلام الحكومة المصرية لشركة البوستة الاوربية .

- اعلان عن تصفية اعمال شركة البوستة الاوربية .

- أول منشور لمصلحة البريد فى عهدها الحكومى .

- اعلان عن استعمال طوابع البريد الاولى فى سنة ١٨٦٦

- اعلان عن وضع صناديق البريد فى الشوارع فى سنة ١٨٦٦ .

- خريطة الاسكندرية فى سنة ١٨٧٧ وعليها مواقع مكاتب البريد المصرية والاجنبية .

- خريطة لطرق نقل البريد فى برزخ السويس .

- منشور مدير البوستة فى خلال الثورة العرابية سنة ١٨٨١ - ١٨٨٢ .

- صاحب البريد ورسول البريد فى العصر العربى

- ميدالية تذكارية من موظفى البريد لموتسى بك اعترافا بخدماته .

- تمثالان ، احدهما للملك فؤاد ، والاخر للخديوى اسماعيل الذى تاسست فى عهده مصلحة البريد .

٢ - قسم طوابع البريد :

- قوالب واكلشيهات والواح لصنع طوابع البريد المصرية والاوراق المدموغة .

- مجموعة نماذج خطوات العمل فى صنع طوابع البريد المصرية

- اسطوانات لطبع العلامة المائية على طوابع البريد .

لوحات لصنع طوابع البريد من الفئات المختلفة .

- مجموعة طوابع البريد المصرية منذ الطوابع الاولى سنة ١٨٦٦ وحتى الآن .

- مجموعة طوابع البريد السودانية .

- لوحة بالطوابع تمثل الاهرام وابو الهول . مساحتها ٤ × ٣ مترا .

- لوحة بالطوابع تمثل زفاف الملك فاروق .

- لوحة بالطوابع تمثل الرئيس الاسبق جمال عبد الناصر .

٣ - القسم الاوربى : ويضم مجموعات الطوابع للبلاد الاوربية ، كل بلد على حده .

٤ - **القسم الافريقى** : ويضم مجموعات الطوابع للبلاد الافريقية ، كل بلد على حده .

٥ - **القسم الامريكى** : ويضم مجموعات الطوابع للبلاد الامريكية ، كل بلد على حده .

٦ - **القسم الآسيوى** : ويضم مجموعات الطوابع للبلاد الآسيوية .

٧ - **القسم الاسترالى** : ويضم مجموعات الطوابع .

قسم أدوات البريد :

ويضم مجموعات سنج وموازين ، أهمها موازين لوزن الجنية الاسترلينى ، والعملة الذهب والعملة الفضة . وبه سلال وحقائب جلدية لاغراض بريدية مختلفة ، ومحافظ ، وأعلام ، وشمعدانات . وفوانيس ، وضواغط للأختام ، وأكياس لنقل البريد المسجل والمستعجل والجوى ، ومفاتيح لصناديق الخطابات بأنواعها المختلفة . وساعات وصناديق الخطابات المختلفة فى مصر وبعض الدول الاوربية ، وأختام مختلفة ، وأختام تذكارية .

٩ قسـم المـلابس .

• ويضم الملابس التى استحضرها « موتسى بك » سنة ١٨٦٦ ليرتديهـا كبـار موظفى البريد فى الحفـلات الرسمية والتشريفات الخديوية ، وصغارهم فى حالة زيارة الخديوى لادارة البريد • كذلك نواع الملابس فى سنوات ١٨٦٦، ١٨٨٧ ، ١٨٩٥ على التوالى ثم فى السنوات التالية •

١٠ - قسـم مبانى البريـد :

ويضم نماذج (ماكيتات) لبعض مبانى البريد الكاملة •

١١ - قسم الاحصائيات والرسوم البيانية والخرائط والصور الفوتوغرافية

— ويضم الى جانب الاحصـائيات والرسوم البيانية ، خريطة خطوط الحمام الزاجل فى مصر فى عصر المماليك ، وخريطة مكاتب البريـد فى سنة ١٩٣٢ •

١٢ - قسـم النقـل :

ويضم نماذج مختلفة للوسائل المتنوعة لنقل البريد •

١٣ - قسم البريد الجـوى :

ويضم نماذج لسفينة نوح ، وبرج حمـام الزاجل ولمنطاد ، ونمـاذج لطائرات مختلفة ، و وأول خطاب جوى ورد للاسـكندرية من لندن فى ١٧ اغسطس سنة ١٩٢٩ ، وأول خطاب جـرى ورد من كراتشى فى الخط الجـوى بين مصر والهند •

١٤ - البريد الأجنبى :

ويضم مجموعات صور للبريد فى دول مختلفة •

خامسـا : متحف المركبـات الملكية

يقع هذا المتحف فى شـارع ٢٦ يوليو رقم ٨٢ من جهـة جامع ابى العلا• وقد تم افتتـاح هـذا المتحف فى ٥ يناير سـنة ١٩٨٢ ، وكـان فى الأصـل « عربخانة » الخديو اسماعيل • ويتكون مبنى المتحف من طابقين :

الطابق الأول يعرض فيه بعض المركبات الملكية التاريخية ٠

. الطابق الثانى : لعرض الملابس وأطقم الخيول ٠

الطابق الاول الارضى

نلاحظ أولا الفناء الكبير وهو احد فناءين - كانت تعد فيهما الركبة وتجهيزها - أما واجهة المتحف : فهى عباره عن تشكيلات معمارية يمتزج فيها الفن والجمال مع البساطة ، وهى تماثل تماما واجهة قصر عابدين وفى وسطها كورنيش كبير بارتفاع ٥ أمتار ٠ وهو عبارة عن خطوط ومنحنيات أفقية بالاضافة الى حليات هندسية راسه عبارة عن تكوين منحوت بارز يضم فى وسطه حرف F. كرمز الى الحرف الاول من اسم الملك « فؤاد » ٠ وفى أعلى الواجهة كرنيش آخر أعلاه نحت بارز جميل على شكل دائرة حجرية تتكون من هلال و ٣ نجوم شعار العلم المصرى فى ذلك العصر - يحيط بها زخارف من أفرع واوراق نباتية وفى اعلاه التاج الملكى المجسم ٠ وعلى أسفل الكورنيش مباشرة ثبتت عشرة نماذج لراس حصان يظهر فيها التشريح العضلى ويحلى عنق كل راس حلقة من الاوراق النباتية والزهور ٠

● الشكل الداخلى من المبنى : كما سبق الذكر يتكون من طابقين :صالة الدور الارضى الرحبة ذات النوافذ الزجاجية العديدة والتى تضم المركبات والبانوراما المتحفية ٠٠ أما الطابق العلوى الذى تصله عن طريق سلم فهو عبارة عن صالة أصغر مساحة من الدور الارضى - ذات نوافذ زجاجية عديدة وتشمل : الفتارين والدواليب الزجاجية التى تحوى الأطقم الخاصة بالخيل والملابس ومستلزماتها بالاضافة الى تابلوه عرض ملابس التشريفات ٠

● **محتويات المتحف :**

بالمتحف ٧٨ عربة ملكية ذات قيمة تاريخية فريدة هى تشكل اثنين وعشرين نوعا كان معظمها هدايا من دول اوربية لحكام مصر السابقين ابتداء من عصر الخديوى اسماعيل باشا ٠ وحتى عصر الملك فاروق الاول ٠

ومن أهم هذه العربات عربة الآلاى الكبرى الخصوصى والتى أهداها نابليون الثالث والملكة أوجينى للخديوى اسماعيل عند افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ اضف الى ذلك البانوراما المتحفية الواقعة فى نهاية الصالة والتى

تمثل شكلا بديعا للعربة الآلاى سابقة الذكر وهى مزدانة بألوانها وتذهيبها واقفة على حصوات من الزلط الملون . ويؤدى القائمون بالعمل عليها عملهم فى حركة جميلة ورشيقة بالكرابيج او العصوات بملابسهم الجميلة زاهية الالوان .

وتغطى خليفة البانوراما بالكامل لوحة كبيرة ملونة . ولضيق مساحة العرض المتحفى اكتفى بتمثيل اثنين من الخيول كاملى الطاقم والزينة بدلا من خيول العربة التسعة .

● الطابق الثانى (العلوى) :

يحتوى على ٧ فتارين ، ٢٤ دولابا صفت من الخشب والزجاج لحفظ انواع الملابس الخاصة بالتشريفات والاطقم الجلدية المختلفة الاشكال والاسماء ومستلزماتها من ادوات الزينة الخاصة بالخيل ، وكل هذا يعرض بطريقة متحفية رائعة هذا بالاضافة الى تابلوهات ملونة بالزيت او بالالوان ، ومجموعات نادرة من رسومات هندسة تبين التركيبات الهيكلية لبعض العربات مع بعض قطاعات لاجزائها . اما تابلوه عرض الملابس فهو عبارة عن اطار كبير من الخشب يحوى داخله ثمانية نماذج آدمية من الجص بالحجم الطبيعى والذى الرسمى .

● مصادر العربات :

عرفنا أن ادارة الاسطبلات الملكية كانت تحوى مجموعة نادرة ومتنوعة من العربات ، وعرفنا أن بعض هذه العربات كانت تصل الى مصر من دول أوربية فى شكل هدايا او تصل اليها عن طريق الاستيراد فى شكل هياكل .. ومع ذلك لم يكن اسلوب الاستيراد او الهدايا المصدر الرئيسى لجلب العربات الى مصر .. فقد كان هناك مصدر آخر وهى اللجان المختصة ، حيث تقدم اللجنة بعمل جولات .. بالمرور على ورش مشاهير التجار المصريين .. وانتقاء العربات ذات المواصفات المحددة . وللجنة حق تحديد سعر الشراء المناسب ، وما كان على البائع الا أن يبيع وهو راض سعيد . لما سوف يناله من شهرة وتقدير . وبعد الشراء تسحب العربة داخل ورش ادارة الاسطبلات الملكية لتعدل هياكلها احيانا ..

وتجدد فراشاتها دائما .. وتدهن بالطلاء اللازم ثم توضع عليها التيجان الملكية الجاهزة .. أو ترسم عليها . وتصبح بعد ذلك معدة للاستعمال .. وتحفظ عربات مصلحة الركائب بمبنى ادارة الاسطبلات الملكية داخل عنابر رحبة نظيفة حيث ترتب فيه حسب أهميتها وتغطى كل عربة بغطاء من التيل مرقم يكسوها تماما ولا ينزع الا عند اللزوم .

سادسا : متحف الرى (الثورة) :

يقع فى منطقة القناطر الخيرية وسط حديقة جميلة . ويتكون المتحف من طابقين . والطابق العلوى مخصص لتصوير مشروعات الرى . أما الطابق الاول فيتكون من قاعتين كبيرتين (١ ، ٧) وقاعات جانبية صغيرة .

والقاعة (١) هى قاعة كبيرة ، وهى اول ما يصادف الزائر عند دخوله المتحف ، حيث يجد خريطة كبيرة فى مواجهة باب الدخول تملأ الحائط ، وهى خريطة مجسمة لشمال الدلتا توضح البحر المتوسط من الشمال ، وبحيرة المنزلة من الشرق ، وبحيرة مريوط من الغرب .

وتوضح الخريطة بطريقة مجسمة الطلمبات والمحولات ومحطات الكهرباء، واسفل هذه الخريطة نرى خريطة أخرى صغيرة من الزجاج الشفاف مرسوم عليها شبكة شمال الدلتا وتوصيلها بشبكة شمال القاهرة .

ويتجه الزائر الى اقصى الشمال وذلك عند دخوله المتحف ويبدأ رحلته من هناك حيث يجد مكانا مرتفعا قليلا (قاعة ١) يصعد اليه الزائر حيث توجد بضعة سلالم من الشمال واليمين ويوجد بهذا المكان نموذج لسواقى هدير الفيوم ، ويحتوى هذا المكان ايضا عن ثلاثة رسومات فى الثلاث جهات. الرسم الاول يوضح كلا من الوجهين القبلى والبحرى حيث يقف رجلان من كل منهما لتأكيد الوحدة بين شطرى الوادى وذلك عند قدماء المصريين ، اما الرسم الثانى فيوضح الصيد عند قدماء المصريين ، والرسم الثالث يوضح الزراعة عند قدماء المصريين .

ثم ينزل الزائر من هذا المكان المرتفع وهو مازال فى القاعة (١) حيث يجد النماذج والخرائط الاتية فى هذه القاعة :

- خريطة مجسمة لبركة قارون ٠

- نموذج للطنبور : وهو آلة للرى فى العهد التركى وتستخدم حتى الان فى الريف المصرى ، لرفع المياه من مكان مرتفع قليلا ٠

- نموذج للصرف المغطى ، لصرف المياة الزائدة عن حاجة النبات : وهو عبارة عن مجرى مائى يحيط بمساحات منزرعة صغيرة المساحة وهذا المجرى ينخفض قليلا عن مستوى الارض المزروعة حتى يسمح بتسرب المياه الزائدة

- نموذج للمراوح الهوائية ٠

- نموذجين لقناطر اسيوط والتى انشئت عام ١٩٠٢ م وتمت تقويتها عام ١٩٣٨ م ٠

- نموذج لشبكة محولات كهربائية للضغط العالى ٠

- نموذج لقناطر أسنا والتى أنشئت عام ١٩٠٦ وتمت تقويتها عام ١٩٤٧ م

- نموذج لقناطر زفتى التى نشئت عام ١٩٠٢ وتمت تقويتها عام ١٩٥٤ م

- خريطة مجسمة لحوض النيل من بدايته حتى نهايته ومصبه بمقياس رقم ١ : ٢٠٠٠٠٠٠ ٠

يتجه الزائد بعد ذلك الى القاعة(٢)ليجد منظرا عاما لمنطقة القناطر الخيرية ونموذجا لقناطر الدلتا الجديدة بما فيها فرع دمياط وقناطر فرع رشيد وقد أقيمت قناطر الدلتا الجديدة فى عام ١٩٣٩ كبديل للقناطر الخيرية التى بناها محمد على ، حيث أنها لم تعد تستطيع حجز المياة لانها مبنية بالطوب العادى ، وقد مضى عليها زمن طويل ٠ أما القناطر الجديدة فقد تم انشاؤها بحجر الجرانيت ٠

والهدف الاساسى من وجود القناطر الخيرية الان هو كونها أثر سياحى أثرى ولكنها لا تستخدم فى شىء من مجالات الرى فى مصر ٠

ومن المعلومات الطريفة أنه من الاسباب التى دعت محمد على لانشاء القناطر الخيرية هو احتمال قدوم الفرنسيين مرة أخرى الى مصر عن طريق النيل ولذلك أقام القناطر على شكل قلعة حربية يحتمى فيها الجنود ومنها يستطيعون ضرب أى سفينة معادية قادمة من الشمال ٠

وهناك صيانة دورية سنوية من جانب وزارة الرى للقناطر الخيرية ٠

وعند اتجاهنا شمالا للقاعة رقم (٤) نجد فى منتصفها نموذجا رائعا للسد العالى ، وهناك منظر مجسم للسد العالى على الحائط ايضا ٠

ومن القاعة رقم (٤) يتجه الزائر مباشرة الى القاعة (٥) حيث يوجد نموذج لخزان أسوان وهو يمثل ثلاثة قطاعات فى خزان أسوان المقام على مجرى النيل جنوبى القاهرة وعلى مسافة ٩٤٦ كيلو مترا منها ٠ ويمثل القطاع الاول الخزان عند انشائه عام ١٩٠٢ م وكان منسوب التخزين ١٠٦ م ، وسعة الخزان مليار م ٣ ٠ والقطاع الثانى يمثل الخزان بعد التعلية الاولى التى تمت فى عام ١٩١٢ م حيث رفع منسوب التخزين الى درجة ١١٣ م وزادت سعته الى ٢٫٨ مليار م ٣ — والقطاع الثالث يمثل الخزان بعد العلية الثانية التى تمت فى عام ١٩٣٣ م فرفعت منسوب التخزين الى درجة ١٢١ م ووصلت سعته الى ٥ ميار م ٣ ٠ وقد تمت اخيرا عملية تدعيم حائط السد بحقنه بالاسمنت ٠ ويتكون الخزان من ١٨٠ فتحة عرض كل منها متران ، وتختلف مناسيب اعتابها باختلاف مناسيب قاع المجرى الصغرى ، وهو مزود بخمسة اهوسة بالجهة الغربية منه لتيسير الملاحة من حوض الخزان بالامام الى مجرى النهر بالخلف ٠

ثم يتجه الزائر من القاعة (٥) الى القاعة (٦) حيث يجد نموذجين فى هذه القاعة :

— نموذجا للرى بالرش : يوضح فيه كيفية زراعة الارض (خاصة الصحراوية) عن طريق استخدام الرى بالرش ٠

نموذجا لقنطرة مصرف فنيشة : ويوضح كيفية استعمال البوابات وذلك بمقيـاس رسم ١/٢٥ ٠

ثم يرجع الزائر مرة أخرى الى القاعة (٥) متوجها الى القاعة (٧) حيث توجـد النماذج والخرائط :

- خريطة مجسمة لمصر عليها موقـع كل من :

السد العالى / خزان أسوان / قناطر اسنا / قناطر نجع حمادى / قناطر اسيوط وادى الريان / قناطر الدلتا / قناطر زفتى / قناطر ادفينا / منخفض القطارة

- نموذج بالخشب لخزان سنار الموجود بالسودان وهو أول خزان على النيل خارج حدود مصر ، وقـد انشىء عام ١٩٢٥ على النيل الازرق ٠

- نموذج لصوامع الغلال بالاسكندرية ٠

- نموذج لقناطر الدلتا فى ازمنة مختلفة بمقياس رسم ١/٥٠ ٠

- نموذج للسـد العالى ٠

- نموذج لمحطة طلخا لتوليد الطـاقة الكهربائية ٠

- ثلاثة نماذج (حجم كبير) لخزان اسوان كل واحد منها يبين مرحلة من مراحل انشاء خزان أسوان (ثلاث مراحل) ٠

ثم يتجه الزائر الى القاعة (٨) حيث يجد الخرائط والرسومات الخاصة بمصلحة المساحة ٠

ويجد الزائر ايضا فى هذه القاعة (٨) رسما مجسما لمشروع سحارة تحت قناة السويس فهذه السحارة تأتى منترعة الاسماعيلية ومن النيل فرع دمياط، وتتكون من ستة مواسير قطر كل منها ١٥٠ سم ٠

وعن طريق توصيل مياه النيل الى سيناء سيتم استصلاح نحو مليون فدان ٠

سابعا : متحف قصر الامير محمد على بالنيل ٠

صاحب القصر :

هو الامير محمد على ابن الخديوى توفيق ، وشقيق الخديوى عباس حلمى الثانى ، ولد بالقاهرة عام ١٨٧٥ وتوفى خارج مصر فى مارس عام ١٩٥٤ ٠٠ وكان وصيا على العرش فى الفترة ما بين وفاة عمه الملك فؤاد الاول وجلوس ابن عمه الملك فاروق الاول على عرش مصر بعد بلوغه السن القانونية فى ٢٨ ابريل ١٩٣٦ ، ثم أصبح وليا للعهد الى ان انجب فاروق الامير أحمد فؤاد ٠

اشتهر الامير محمد على بشدة تدينه ، وحبه للفنون الرفيعة ، خاصة الاسلامية منها ٠ وقام بجولات عديدة حول العالم ٠٠ وكان أحد أشهر هواة تربية الخيول فى عصره ، كذلك كان شغوفا بجمع التحف الثمينة ٠ واذا أضفنا الى هذه الصفات تلك الحادثة التى وقعت له عندما سقط من فوق صهوة جواده عندما كان صبيا ، فحرمته من الانجاب ٠٠ نجد أن الامير قد ركز كل جهوده على قصره كى يحمل اسمه عوضا عن النسل ، فخرج قصرا فريدا فى نوعه ليس فى مصر فقط بل فى العالم اجمع ٠

انعكست اذن صفات الامير السابقة على قصره فشيده متميزا عن قصور أقرانه من أمراء وأفراد الاسرة العلوية ٠ وفى حقيقة الامر فان الامير قد وضع فى اعتباره عند البدء فى تشييد قصره أن يجعله متحفا فى حياته ويحمل اسمه بعد مماته كما جاء ذلك فى وصيته عام ١٩٢٥ ٠ وفى نفس الوصية أوقف للقصر جزء من أملاكه من الاراضى الزراعية للصرف منها عليه ٠

القصر :

تبلغ المساحة الكلية للقصر ٦١٧١١و٦١ مترا مربعا ، وتبلغ مساحة السرايات المقامة داخل القصر ٥٠٠٠ متر مربع ، وتبلغ مساحة الحديقة ٣٤٠٠٠ متر مربع ، ومساحة الطرق والمنشآت الخاصة بالحديقة ٢٢٧١١و٢٢ مترا مربعا ويتكون القصر من :

١ - سراى الاقامة ٠٠ وهى السراى الرئيسية وأول مبنى يقام داخل القصر وكان ذلك عام ١٩٠١ ٠٠ وتتكون السراى من طابقين ، الارضى قاعات للاستقبالات الخاصة وحجرة للطعام ومكتب الامير ومكتبته ٠ وفى الدور العلوى توجد حجرات النوم وملحق بها حجرة خاصة بالمجوهرات والتحف الثمينة ٠ وملحق بالسراى برج يشرف على كل القصر والحديقة والنيل والاهرامات والمقطم وجزء كبير من القاهرة ٠

٢ - سراى الاستقبال : وتقع فوق المدخل الرئيسى للقصر وهى تتكون من طابقين الارضى وبه قاعتين واحدة للتشريفات ، والاخرى لاستقبال بعض الشخصيات الهامة التى كانت تاتى لصلاة الجمعة مع الامير ٠ أما الطابق العلوى فيتكون من قاعتين كبيرتين ، احداهما على الطراز المغربى والاخرى على الطراز الشامى ٠٠ أى ان الامير جمع جناحى الوطن العربى فى احدى سريان قصره ٠

٣ - برج الساعة : وقد شيده الامير على طراز ابراج المغرب الاقصى ، ووضع فى أعلاه ساعة من نفس طراز الساعة التى وضعها الخديوى عباس حلمى فى محطة مصر والموجودة حتى الان ٠

٤ - المسجد : رغم صغر مساحته الا أنه يعتبر آية من الفن الرفيع سواء من الناحية المعمارية أو الزخرفية على الطراز العثمانى ٠

٥ - سراى العرش : لم يعترف الامير محمد على بجلوس كل من عمه السلطان « حسين كامل » أو عمه الملك فؤاد الاول أو ابن عمه الملك فاروق على عرش مصر ، واعتبر ذلك اغتصابا لحقه الشرعى فى تولى حكم مصر بعد اقصاء أخيه عباس حلمى عن العرش ٠ ولتذكير هؤلاء بذلك قام بتشييد سراى للعرش خاصة به وقد شيدها على نفس نمط قاعة العرش الخاصة بجدة الاكبر « محمد على باشا » بقصر الجوهرة بالقلعة ، وقد زين القاعة بصور الذين حكموا مصر فى اسرته ابتداء بمحمد على وابراهيم باشا - والد جده - فعباس الاول، فسعيد باشا ، فالخديوى اسماعيل - جده - فالخديوى توفيق - والده ثم شقيقه عباس حلمى الثانى ٠٠ ولم يضع صورا لمن جاءوا بعد أخيه لعدم اعترافه بهم ٠

وفوق قاعة العريش ، يوجد طابق ثان عبارة عن قاعات جلوس شرقية شتوية تطل على النيل أهمها حجرة الابيسون الفريدة ·

٦ - المتحف الخاص : عرف عن الامير شغفه الشديد بجمع التحف خاصة التحف الاثرية الاسلامية بالدرجة الاولى ·· ولذا فقد قام ببناء متحف خاص به لعرض ما جمعه من تحف ومقتنيات وهذا المتحف يتكون من ١٥ قاعة ·· وما بها من مقتنيات تكاد تتساوى فى الكم بما هو موجود بالمتحف الاسلامى الذى شيده شقيقه الخديوى عباس حلمى الثانى ·· وتمتلىء قاعات المتحف بانواع نادر من السجاد والمنسوجات والمخطوطات واعداد كثيرة من المصحف الشريف ، الكثير منها من النوع النادر ، ولوحات زيتية وتحف مصنوعة من الكريستوفل أو الفضة أو الذهب هذا بجانب التحف الزجاجية ومن الكريستال والعاج والخشب المشغول او المطعم وغيرها من التحف لا يتسع المجال لاستعراضها ·

٧ - القاعة الذهبية : وهى تحفة لا يوجد لها مثيل ، فرغم أنها تكاد تكون خلوية من التحف او الاثاث بالقياس بالسرايات الاخرى ، الا انها تعتبر تحفة قائمة بذاتها ·· فاسقفها وجدرانها واعمدتها محلاة بالزخارف البديعة المذهبة علاوة على الايات القرآنية وأسماء الله الحسنى وبردية البوصيرى فى مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - التى تزين الاسقف والجدران ·· وكانت القاعة تستخدم فى الحفلات الرسمية ·

٨ - متحف الصيد : استغل الفنان « احمد خالد درويش » مراقب عام المتاحف التاريخية الاسبق وجود ممر مغطى ملاصق للسور الشمالى للقصر وحوله الى متحف للصيد حيث عرض به الحيوانات والطيور والزواحف المحنطة وغيرها وجميعها مجموعات خاصة بالملك « فاروق » جلبت من استراحته بانشاص · والمجموعة والخاصة بالامير يوسف كمال ·· واهم ما يميز هذا المتحف الدخليل على القصر ، هو وجود مجموعات من الفراشات والحشرات النادرة ·· وهو فى محصلة عامل جذب للزائرين ·

هذه نبذة مختصرة للغاية عن سرايات القصر ·· أما الزائر للقصر فيقع فى حيرة ايشاهد الزخارف البديعة التى تملأ كل ركن من اركان السراى هل

ينظر الى الارضيات ام ينظر الى الاسقف المصنوعة باساليب فنية بديعة، أم يشاهد الاثاث والمقتنيات والتحف المنتشرة فى كل ركن من اركان كل قاعة ٠

الحديقة :

حديقة قصر الامير « محمد على » فريدة من نوعها ٠٠ وكانت فى عصره ذات شهرة عالمية ، وما زالت ٠٠ فقد جمع فيها الامير نباتات من جميع المناطق المناخية ٠٠٠ مبها نباتات من مناطق استوائية ومدارية جنبا الى جنب مع نباتات من مناطق معتدلة أو مناطق باردة ٠٠ واهم تلك النباتات على الاطلاق هى أسجار الميكس ، والتى تغطى احداها ٣٠ مترا مربعا ، وانواع نادرة من الصبار كان قبل اقامة الشاليهات الخاصة بالفندق تبلغ اكثر من ٧٠ نوعا بجانب انواع النخيل واهمها النخيل الملكى ٠ هذا غير الاشجار والنباتات المثمرة ، مانجو وبرتقال ويوسفى وانواع الياميش والعنب والجوافة والتفاح ، بل أن بعض الفاكهة المزروعة بالقصر غير معروفة فى مصر ٠٠ وغير ذلك كثير ٠٠ وكانت الحديقة فى عهد الام حل دراسة للعلماء من جميع انحاء العالم خاصة لنباتات الصبار ٠٠ كما كان يؤمها طلبة الفنون الجميلة ، الذين كان الامير راعيا لكليتهم ٠

ويحيط بسرايات القصر ومنشآته وحديقته سور ضخم شيد على نمط اسوار الحصون والقصور فى العصور الوسطى ٠٠ وهو يتكون من اربعة أضلاع ، كل ضلع يواجه جهة من الجهات الاربعة الرئيسية ٠٠ والباب الرئيسى للقصر يقع فى النهاية الشرقية للسور الشمالى ٠٠ كما يقع باب آخر فى فى منتصف السور الغربى ٠٠ وفى اعلى الباب الرئيسى للقصر وضع الامير اللوحة التأسيسية للقصر حيث كتب عليها (انشا هذا القصر الامير محمد على باشا نجل المغفور له الخديوى محمد توفيق احياء للفنون الاسلامية واجلالا لها) ٠

« تم بعون الله »

فهرس الكتاب

رقم الايـداع ٥٢٦٤/٨٥
الترقيم الدولى ٤ ـ ٠١٨٨ ـ ١٠ ـ ٩٧٧